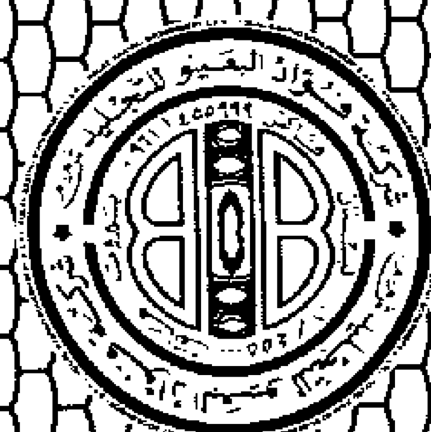
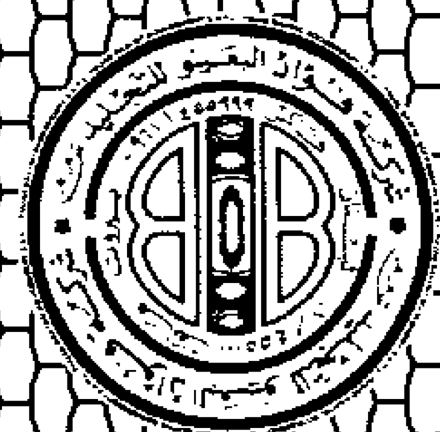
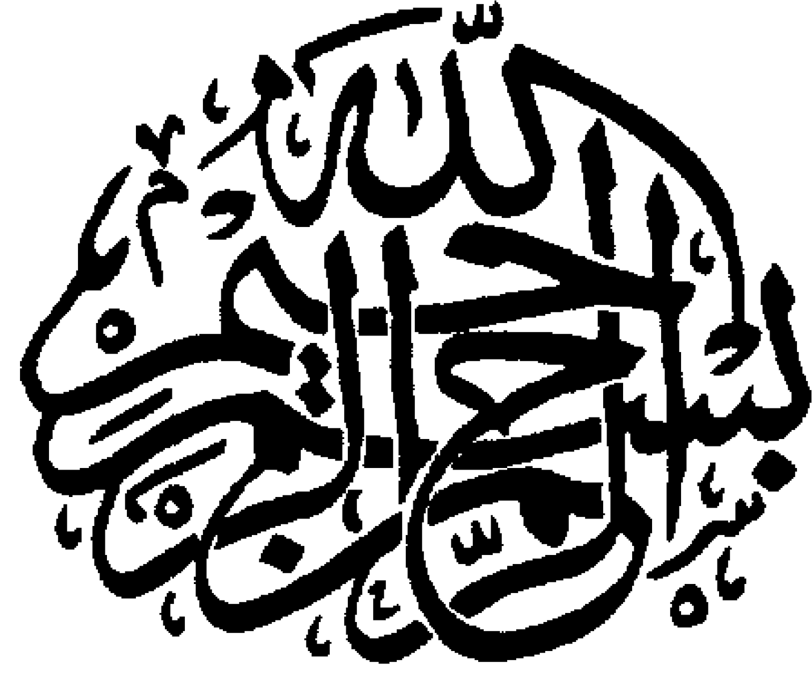
تاريخ الدولة الساسانية

أ.د طارق فتحي سلطان









تاريخ
الدولة الساسانية

935.07

تاريخ الدولة الساسانية / أ.د طارق فتحي سلطان

عمان - دار الفكر ناشرون وموزعون 2013

ر.أ: 3351-9-2012

الواصفات: التاريخ الفارسي / / الساسانيون

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه
ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الأولى ، 2013 - 1434

حقوق الطبع محفوظة



www.daralfiker.com

المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان

ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

هاتف: 4621938 6 962+ فاكس: 4654761 6 962+

ص.ب: 183520 عمان 11118 الأردن

بريد الكتروني: info@daralfiker.com

بريد المبيعات: sales@daralfiker.com

ISBN: 978-9957-92-014-2

تاريخ
الدولة الساسانية

أ.د طارق فتحي سلطان

الطبعة الأولى
1434-2013



الإهداء

إلى زوجتي العزيزة بشرى سيد الحسني، التي وقفت إلى جانبي طيلة مدّة كتابة هذا الكتاب رغم مرضها الذي أقعدها، وكانت آراؤها السديدة وتصويباتها خيرَ عون لي في إظهاره بهذا الشكل.

المحتويات

مقدمة المؤلف

تعّد دراسة التاريخ الساساني، حلقة مهمة من حلقات التاريخ العالمي، فقد درس العرب المسلمون كل تواريخ الشعوب التي كانت لهم صلة بها، وتعاملوا مع دراستها بموضوعية وحيادية تامة، حتى عدت كتابات العرب المسلمين مصدراً مهماً من مصادر دراسة تواريخ تلك الشعوب، وقد أثبتت الدراسات الحديثة دقة روايات المؤرخين العرب المسلمين، في توخي الدقة والموضوعية والحيادية، فقد دونوا ما سمعوه ورأوه وما قرأوه بعد التدقيق والتمحيص في إيراد الروايات التاريخية، وكأنما يكتبون تاريخهم الخاص بهم، وهذه ميزة تضاف إلى دقة روايات المؤرخين المسلمين، فما كتبوه عن تاريخ بلاد الصين، أكدته الدراسات الحديثة، وما كتبوه عن الروم، اعتمد عليه مؤرخوا الروم أنفسهم، وما كتبه العرب عن التاريخ الساساني، يعد قمة في الأمانة التاريخية والدقة والموضوعية.

ويعود السبب في اهتمامنا بدراسة التاريخ الساساني، إلى أنّ الدولة الساسانية كانت مجاورة لبلاد العرب في شبه الجزيرة العربية وفي العراق، ولأن القبائل العربية منذ قديم الزمان كانت مستقرة على طول الخليج العربي بضفتيه الشرقية والغربية، فضلاً عن العراق، الذي سكنته قبائل عربية منذ القدم.

وعندما ظهر الدين الإسلامي وانتشر في شبه الجزيرة العربية، توجهت اهتمامات الرسول محمد (صوب بلاد فارس، فوجه الرسول محمد (رسالة إلى كسرى ملك الفرس يدعوه فيها إلى الإسلام، إلا أنه لم يستجب لهذه الدعوة ومزق رسالة الرسول محمد). وبعد استتباب الأمر في الجزيرة العربية، توجهت الجيوش الإسلامية نحو بلاد فارس لفتحها ونشر الدين الإسلامي بين سكانها، وأصبحت المدائن عاصمة الساسانيين إحدى المدن التابعة لولاية الكوفة في العصر الراشدي.

ولغرض تسهيل الموضوع على طلبتنا الكرام تمّ تقسيم الكتاب إلى عدد من الفصول هي:

الفصل الاول الذي تناول تاريخ الدولة الإسكانية، اذ قدم الفصل الأول توطئة جغرافية تناولت مساحة الأرض التي قامت عليها الدولة الإسكانية ونتاجها الاقتصادي، وجاء الفصل الثاني متناولاً السكان والتنظيمات الاجتماعية في العهد الإسكاني، واستعرض الفصل الثالث النظم والحضارة في إيران في القرنين الأول والثاني للميلاد، وساهم الفصل الرابع في تناول تاريخ الدولة الساسانية، فيما عرض الفصل الخامس نظم الحكم والإدارة، بينما جاء الفصل السادس متطرقاً إلى النظام المالي للدولة، أما الفصل السابع فقد تحدث إلى التنظيمات الاجتماعية في العهد الساساني، وقدم الفصل الثامن صورة للعلاقة مع الدولة الرومانية، والصراع بينهما للاستيلاء على أرض العراق وبلاد الشام، وجاء الفصل التاسع متناولاً العلاقة مع الدولة البيزنطية التي خلفت الدولة الرومانية وما جرى بينهما من معارك مهمة، وجاء الفصل العاشر متناولاً العلاقة مع سكان شبه الجزيرة العربية، والتي تربطها مع بلاد إيران حدود بحرية وبرية مشتركة، أما الفصل الحادي عشر فقد تناول العلاقة مع الهياطلة (الترك في المشرق)، وختاماً فقد عرض الفصل الثاني عشر العلاقة مع الأرمن (في الشمال).

وقد اعتمد الكتاب على عدد من المصادر والمراجع يجدها القارئ الكريم في ثنايا البحث، وتقف في مقدمتها كتب التاريخ الإسلامي العام ككتاب الأخبار الطوال للدينوري، وكتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وغيرها من كتب التاريخ العام، وقدمت لنا هذه الكتب معلومات هامة عن الدولة الاشكانية (الفرثية) والدولة الساسانية، ويبدو أن هؤلاء المؤرخين قد استقوا معلوماتهم من كتب كانت موجودة في عهدهم كتبت باللغة الفارسية، لم تصلنا فحفظوا ماحوته هذه الكتب بتقديم هذه المعلومات عن التاريخ والإدارة والجيش وكل ما يتعلق بالدولة الفرثية أو الساسانية، كما قدمت لنا هذه المدونات تفاصيل عن الفتوحات الإسلامية للعراق وبلاد فارس وسقوط الدولة الساسانية.

أما الكتب الحديثة فيقف في مقدمتها كتاب المؤرخ آرثر كرستنسن في كتابه إيران في عهد الساسانيين، فهو كتاب لا غنًى لأي باحث في التاريخ الساساني عنه، لدقة معلوماته وللتحليلات التي قدمها لنا في كتابه الضخم هذا. ومن الرسائل العلمية رسالة الدكتورة مهدية الموسوي،

التي قدمت في كتابها العلاقات السياسية الساسانية، معلومات قيمة جداً، ولم يستغن كتابي هذا عن كتابها في أغلب فصوله وخاصة ما يتعلق بالعلاقات الساسانية مع الأطراف الأخرى كالأرمن والرومان والبيزنطيين، فضلاً عن العرب وغيرهم، واعتمدت الباحثة على مصادر ومراجع فارسية، لم تتوفر لدي، فقدمت خدمة للكتاب هذا لاتقدر بثمن، فجزاها الله خيراً.

وأخيراً، أرجو أن أكون قد وفقت في عرض المعلومات وتقديمها بين يدي الطلبة لتكون لهم دليلاً ومرجعاً علمياً، وإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والكمال لله وحده،

والله من وراء القصد

المؤلف

1

الفصل الأول

تاريخ الدولة الإسكانية

نبذة جغرافية

نبذة جغرافية:

تقع إيران في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا تقريباً، وتعد الحد الشرقي للبلاد العربية في العراق، وتمتد شمالاً إلى حدود أذربيجان وبحر الخزر (قزوين)، وجنوباً يحدها الخليج العربي وبحر عمان وجنوباً بلاد الهند والمحيط الهندي،أما شرقاً فيحدها بلد الهند وجبال الهندكوش ومن الشرق يعد نهر جيحون الحد الفاصل بينها وبين بلاد الترك (1).

وكانت إيران في الماضي تمتد إلى مساحة أوسع مما هي عليه الآن، فكانت تشمل كل بلاد خراسان في العصر الإسلامي، ولكن الحال تغير اليوم، فهي هضبة مرتفعة، يبلغ ارتفاعها قرابة ال4000 قدم فوق سطح البحر، وتحيط هذه الهضبة جبال عالية من كل جانب تقريباً، ففي الشرق تحدها سلاسل جبال سليمان، وفي الغرب تحدها جبال زاجروس، ومن الشمال جبال البرز وتمتد من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب تشكل المرتفعات الجنوبية الممتدة بموازاة الخليج العربي حداً جنوبياً لها، وتعد هذه الجبال أشبه بحماية طبيعية لبلاد إيران (2)

تقع هضبة إيران الشبيهة بالمثلث بين وادي نهر السند شرقاً ووادي نهر دجلة غرباً وهي محصورة بين منخفضين مائيين هما بحر قزوين في الشمال والخليج العربي جنوباً، وتتقسم بلاد إيران إلى مناطق عديدة أو أقاليم منها إقليم الجبال الذي تشرف جباله الغربية على سهول العراق، ويعد من أخصب المناطق في إيران في الماضي والحاضر ومن أهم مدنه كرمنشاه وهمدان والري التي تقع شمال مدينة طهران الحالية واصفهان والدينور وقم وقاشان (3)

وتخرج من إقليم الجبال انهار عديدة أعظمها نهر دجيل وهو الذي يعرف اليوم بنهر الكارون الذي كان يصب في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي في نهر شط العرب.

والى جنوب إقليم الجبال يقع إقليم الاحواز ويعرف ايضاً بإقليم عربستان وتسميه إيران اليوم بإقليم خوزستان، ويعد إقليم عربستان امتداداً طبيعياً لحدود العراق الجنوبية، وتقطنه قبائل عربية هي نفس قبائل جنوب العراق، وعاصمة هذا الإقليم الأحواز، وكان يعرف بالماضي باسم عراق العجم وعاصمته عراق، وتسمى اليوم أراك، ويتخله عدد من الانهار

منها نهر ديزفول والكرخة والعمية، وكان من أخصب أراضي إيران ولا يزال، ومن أهم مدن هذا الإقليم مثل: مدينة ديزفول وعسكر مكرم وتستر والبسيتين، وتتخلله في الجهة المقابلة للبسيتين المجاورة لحدود العراق الحالية، تلول الله أكبر، وسوسة التي تعرف بالشوش (4)، في الوقت الحاضر.

وإلى الشرق من إقليم عربستان يقع إقليم فارس وإليه ينتسب الفرس، وكانت تسمى في الماضي ببلاد برسيس الذي كان مهد الاسرة الفارسية الإخمينية (مملكة فارس القديمة) ومن أهم مدن هذا الإقليم مدينة شيراز وارجان واصطخر ودارابجرد وتوجد فيه بحيرة مالحة تعرف ببحيرة بختيكان وجبال هذه المنطقة هي امتداد لجبال إقليم الجبال السابق ذكره ومتشعبة منه (5).

وإلى الشرق من إقليم فارس يقع إقليم كرمان، وهو أقل انتاجاً من إقليم فارس لخلوه من الانهار ولانتشار الصحاري فيه ومن اهم مدن هذا الإقليم كرمان عاصمة هذا الإقليم ومدينة الشيرجان، ومدينة بردسير وبم ونرماسير وجيرفت (6). ويتعرض هذا الإقليم دوماً إلى زلازل مميتة كان آخرها قبل سنوات، حيث دمرت مدن وقرى الإقليم وتركت الآلاف من المشردين.

ثم إقليم مكران المتاخم لبلاد الهند قرب وادي نهر الانديز، والذي يسمى قسماً منه اليوم بإقليم سجستان، وتقع في هذا الإقليم بحيرة زرة الواسعة والضحلة المياة، وكان هذا الإقليم مقراً للدولة الصفارية التي اتخذت من مدينة زرنج عاصمة لها (7). وتصب في هذه البحيرة مياه نهر هلمند الي ينبع من بلاد الغور في وسط أفغانستان الحالية، ومن اهم مدن هذا الإقليم مدينة بست وقرنين، والى الشمال الغربي من بحيرة زرة يقع إقليم الجبل ويدعي بِ قوهستان أي بلاد الجبل، ومن أشهر مدنه أتون وقاين (8). ثم يأتي إقليم قومس ومركزه مدينة الدامغان وتنتشر فيه الأراضي الصالحة للزراعة وخاصة سفوح الجبال التي تشكل مراعي طبيعية، والسفوح التي تنتشر فيها مختلف أنواع الاشجار المثمرة وتنتشر الأودية والجداول والأنهار في هذه المناطق (9). أما إقليم خراسان (وتعني مطلع الشمس) (10)، فمن أهم مدنه هراة ومرو ونيسابور ومرو الروذ وبلخ الجوزجان والصغانيان وتجري فيه أنهار مهمة مثل نهر مرو (مرو آب) ونهر هراة (هري رود)، وتعد هذه المنطقة من المناطق الخصبة والنشطة اقتصادياً وتنتشر فيها حرف وصناعات مهمة منذ قديم الزمان (11).

إن هذا التنوع الجغرافي والطبيعي والاختلاف المناخي قد منح بلاد إيران دافعاً اقتصادياً مهماً فوجود السهول الخصبة والمراعي في الجبال والمياه فضلاً عن انتشار المعادن التي أتاحت فرصة جيدة للنشاطات الاقتصادية، فكانت من أسباب تقدم الصناعة والزراعة في إيران (12).

وتسمى إيران أيضاً ببلاد فارس، وترجع تسمية إيران إلى الكلمة (أريا (Airiyaوتعني بلاد الآريين، ومنها أخذت الكلمة الجنسية والجغرافية لإيران الحالية (أريا - إيران)، ووردت هذه الكلمة في (الأفستا) أو (الأبستاق) التي تشير إلى بلاد الآريين، ومنها جاء اسم ملوك إيران (آريا - مهر) التي تعني حامي الآريين، ويبدو أن هذا المصطلح قد ظهر في العهد الفارسي الأخميني، إذ ورد ذكرها في التراتيل الدينية والصلوات في كتاب الأفستا (13)، وقد تسمى بهذا اللقب شاه إيران السابق محمد رضا بهلوي،فكان يطلق على نفسه الشاهنشاه آريا مهر.

أما كلمة فارس فهي مشتقه من اسم إحدى القبائل الإيرانية الكبيرة، التي استوطنت بلاد إيران منذ الألف الأول ق.م، وهذا المصطلح نجده فقط في المصادر العربية والمصادر الغربية التي ربما انتقل إليها من كتابات المؤرخين العرب وكذلك الجغرافيين العرب، وهي في الأصل تعود إلى الكلمة الفارسية (برسا) (Parsh) وردتها المصادر الغربية تحت كلمة (14) (Persia)

تاريخ الدولة الاشكانية (الفرثية):

قيام الدولة الفرثية:

ينحدر الفرثيين من قبيلة السِكَ (Saka) وأول من حكم من الموك الفرثيين (Arsacids) هو أرشك الأول Arsaces الذي حكم من عام (236-256ق.م)، وقد قاد هذا الملك الثورة ضد الحاكم السلوقي، واستطاع السيطرة على إقليم بارثاوا (15) Parthava، ويبدو أن هذا الملك قد عمل على تنظيم أمور الدولة، وقضى على الحركات المناوئة له في المنطقة، وبالأخص محاولات الدولة السلوقية لإستعادة سيطرتها على إيران.

رفع أرشك الأول Arshak I زعيم الفرثيين علم الاستقلال في برثو Parthave (خراسان الحالية)، فقام بعدة تحركات ضد الحكم السلوقي، وعقد تحالفات جديدة، ساعدت قبيلته على السيطرة على منطقتهم، ثم تمكن من خلالها من إخضاع كل بلاد خراسان (16)، لنفوذه

خلال السنوات (247-250م)، وتمكن من قتل الحاكم السلوقي، بعد أن رأى الضعف الذي حل بالفرثيين، واستقلال أقليم بكتريا (بلخ) عن الحكم السلوقي، وأعلن قيام الدولة الفرثية في سنة 247ق.م. لكن هذا الملك أرشك الأول قتل في إحدى المعارك مع الباكتيريين (بلخ)، وتخليداً لذكرى مؤسس الدولة الفرثية أو الاشكانية، فقد كان معظم الملوك الفرثيين، يضعون اسم أرشك أمام أسمائهم مع تسلسل الملك الجديد (17).

وتولى حكم الدولة الفرثية بعده أخوه الملك تيرداد الأول Tiridad I (247-214 ق.م)، وتلقب باسم الملك أرشك الثاني، وهو كما تذكر المصادر أول من تلقب بلقب شاهنشاه (ملك الملوك) في إيران، وهذا الملك بحق يعد المؤسس الحقيقي للدولة الفرثية، وتمكن من إخضاع كل إيران بسرعة غير معهودة، وتمكن من طرد الحكام السلوقيين من غربي إيران إلى مناطق الجزيرة الفراتية وبلاد الشام (سوريا)، وأن يكونوا لهم حكومة في إيران، بعد أن شاهد ضعف الملك السلوقي سلوقس الثاني (246-226ق.م)، وإنشغاله بالمشاكل الداخلية في الدولة السلوقية، وحروبه مع البطالمة في مصر، فوسع حدود الدولة الفرثية باتجاه الغرب، فسيطر على هيركانيا (جرجان) وزدرأكارتا (أستر آباد) (18)، وهنا يتبين لنا جهود الملك الفرثي أرشك الثاني في دعم الحكم وتثبيت أركان المملكة (19).

وبعد أن تمكن الملك السلوقي من ضبط أوضاع بلاده في الغرب، توجه للقضاء على الفرثيين، فتحالف مع ملك باكتريا (بلخ)، وأعد جيشاً كبيراً لكن الملك الفرثي تيرداد الأول انتصر على هذا الجيش المتحالف، واضطر سلوقس الثاني إلى العودة خائباً إلى سوريا، فاستغل الملك الفرثي ذلك، وضبط أمور بلاده ووسع من مملكته (20)، ونقل العاصمة الفرثية إلى هيكاتومبيلوسHecatompylos (قومس) (21)

وخلف الملك الفرثي تيرداد الأول في حكم الدولة الفرثية ابنه الملك أردوان الأول (أرطبان الأول) Artaban I (214-196ق.م)، وقد سار هذا الملك الفرثي على خطى والده في توسيع المملكة الفرثية، فتمكن من السيطرة على إقليم ميديا (ماذي،ماذ) (22).

لكن هذا الحال لم يدم بشكل كامل للدولة الفرثية الفتية، فجاء الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث Antiochus III (223-187ق.م) خلفاً للملك السلوقي الضعيف سلوقس الثالث Seleucus III (226-223ق.م)، فاستطاع هذا الملك من قيادة حملة عسكرية سلوقية كبيرة، سيطر بها على عاصمة الفرثيين هيكاتومبيلوس (قومس) سنة 209ق.م، وأجبر ملك

الفرثيين الذي فرّ إلى العاصمة السابقة هيركانيا (جرجان) على الإعتراف بتبعيته للملك السلوقي وللدولة السلوقية (23).

ودخل الملك السلوقي في حروب خاسرة مع البطالمة والمقدونيين والرومان، سنة 190ق.م، وفرضوا عليه غرامة حربية فضلاً عن خسرانه لكثير من ممتلكاته في مختلف المناطق التابعة له.

ونتيجة للضعف الذي حلّ بالدولة السلوقية، انتهز الملك الفرثي مهرداد الأول (174-138ق.م) الفرصة فسيطر على مملكة بكتريا كما ضمّ منطقة ميديا إلى دولته، وفي سنة 143ق.م هاجم الملك السلوقي ديمتريوس الثاني Demterius II (146-138ق.م)، وانتصر عليه، وسيطر على منطقة بابل في العراق، وأسر الملك السلوقي نفسه (24)

وسجنه في هيركانيا (جرجان وعامله باحترام وزوجه بإحدى بناته وظل هذا الملك في ضيافة الدولة الفرثية قرابة 20سنة، ويبدو أن الملك الفرثي أراد بهذه المعاملة والاحترام والتقدير للملك السلوقي، أن يأمن جانب السلوقيين، ليتفرغ لإدارة شؤون بلاده وتنظيم أمورها الداخلية (25)، وبذلك أصبحت الدولة الفرثية تمتد من مملكة باكتريا شرقاً إلى نهر الفرات غرباً ومن بحر الخزر (قزوين) شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً (26) واتخذ الملك الفرثي مهرداد الأول، من المدائن (طيسفون) عاصمة له، وقد بنيت هذه المدينة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، قبالة مدينة سلوقية (27)، كما تمكن الملك مهرداد الأول من إخضاع عدد من الحكام والمناطق التي يسيطرون عليها للدولة الجديدة وعرف هؤلاء الملوك بملوك الطوائف (28).

إذن رأينا أن الدولة الاشكانية نشأت في خراسان منذ عهد الملك السلوقي أنتيوخس الثاني، وارتقى أمرها سريعاً، وبلغت من القوة حداً أن تمكنت من السيطرة على كل إيران وأن تنتزعها في عهد ملوكهم (مهرداد الأول، أرشك السادس، وفرهاد الثاني، أرشك السابع)، وأن تمنعهم من التفكير في العودة للسيطرة على إيران، وأن تكف يدهم عنها، وبقيام هذه الدولة إنتهى حكم اليونانيين في إيران، وكان آخر ملك سلوقي يحكم قسماً من إيران الغربية هو أنتيخوس السادس، والذي طوي بساط حكمه عام 129ق.م على يد الملك الأشكاني فرهاد الثاني (29).

وهنا نقف على أهمية الخدمة التي أداها الفرثيون للإيرانيين، فهم لم يحرروا إيران من قيد السلوقيين فحسب، ولم يكونوا إمبراطورية قوية فحسب، بل جاهدوا الرومان ببسالة وتصدوا لجيوشهم القوية والمنظمة وهزموهم أكثر من مرة واستولوا على أملاكهم (30)

وظلت فكرة إعادة إيران إلى الحكم السلوقي تراود الملوك السلوقيين ففي سنة 130ق.م قاد الملك السلوقي أنطيوخوس السابع Antiochus VII (137-128ق.م) جيشاً صوب بلاد الجزيرة وبلاد بابل، ولتخليص أخيه ديمتريوس الثاني من الأسر ودحر الملك الفرثي، فرهاد الثاني Phraats II (138-125ق.م)، وواصل تقدمه حتى وصل إلى مدينة أكبتانا Ecbatana)جرجان)، وعرض الملك الفرثي عقد صلح بين الجانبين، إلا أن الملك السلوقي فرض شروطاً قاسية على الفرثيين، ففكر الملك الفرثي في إشغال الفرثيين بحرب داخلية، فأطلق الملك الفرثي الأسير لديه، وهو زوج ابنته أيضاً، وهو ديمتريوس الثاني من الأسر، وهذا ما تمّ بالفعل، فتصارع الأخوين على العرش، وجنت الدولة الفرثية الربح، في سنة 128ق.م، إذ جرت الحرب، وقتل الملك السلوقي أنطيوخوس السابع، وكان من نتيجة هذه المعركة أن أصبحت بلاد بابل ضمن ممتلكات الدولة الفرثية (31)

ولم يكتف الملوك الفرثيين بهذه النجاحات ضد الدولة السلوقية فحسب، بل عملوا على إضعافها بمساندة ظهور دول متعددة في بلاد الشام (سوريا) ففي سنة 130ق.م قامت في مدينة أودسا (أدسا) Edessa الرها) مملكة أسروهيني Osrohene بتأييد من الفرثيين، كما تمكنت اسرة عربية من تأسيس دولة أخرى في أيميسيا Emesa (حمص) والتي كانت تتبع الفرثيين، وقامت دولة أخرى في منطقة البقاع على أيدي الايتوريين (اعتقد الآشوريين وبقاياهم، والذين نزحوا إلى هذه المناطق بعد سقوط الدولة الآشورية عام 612ق.م)، واتخذت من خاليكس Chalcis قنسرين عاصمة لها (32)

وفي سنة125ق.م اندفعت صوب أراضي الدولة الفرثية قبائل رعوية غير متحضرة، من سكان صحاري بحر قزوين تدعى يوئتشي Yue ñTchi ، فحاول الملك الفرثي أردوان الثاني (أرطبان الثاني) Artaban IIالتصدي لهذه القبائل، إلا أنه قتل في سنة 124ق.م (33).

ثم تولى الحكم الملك الفرثي مهرداد الثاني (88-124ق.م) بعد مقتل والده أرطبان الثاني، فنظم أمور الدولة ,نظم الجيش، وأعد حملة عسكرية كبيرة، استطاع من خلالها الحاق الهزيمة بالأسكيثيين وطردهم عن بلاده (34) وضبط أمور أرمينية (35)، لكن الدولة الفرثية

دخلت في صراع عنيف مع الرومان، كان سببه الأساس هو السيطرة على طرق التجارة مع الهند والصين، واستمر هذا النزاع قرابة القرنين ونصف لكنه لم يؤد إلى نتيجة تذكر، فالحرب المنتصر فيها والمهزوم خاسر.

وكانت بلاد أرمينية هي المسرح في أغلب الأحيان للأسف الشديد وكذلك أرض العراق التي دفع سكانها جزءاً كبيراً من ضريبة الأرض دفعها العراقيين القدماء، جراء هذا الصراع للأسف الشديد، فكانوا يدفعون ثمناً باهضاً جراء مرور الجيش الروماني أو الفرثي في أراضيهم ومزارعهم، فكيف الحال والحرب تجري على أرضهم فتأخذ الرجال تارة بالقتل وتارة بالأسر وهكذا.

ففي فترة حكم الملك الفرثي مهرداد الثاني (88-124ق.م)، أرسل رسالة للقائد الروماني لوسيو سولا (78-93ق.م) يطلب منه عقد صلح بين الدولتين الفرثية والرومانية، وأن تمر التجارات التي هي السبب الأساس للحرب بين البلدين بحرية ومرونة، لكن القائد الروماني رفض هذا العرض المغري الذي قدمه الملك الفرثي، فكانت الحرب التي صححت مفاهيم الرومان، ونبهتهم إلى أن الدولة الفرثية، هي ليست أرمينية التي تجتاحها القوات الرومانية متى شاءت، وتمّ عقد معاهدة صلح بين الطرفين، وقعت قبل وفاة الملك الفرثي مهرداد الثاني، أي قبل سنة 88ق.م، أو تكون قد وقعت من قبل نائب الملك وولي عهده الملك الفرثي فيما بعد سانترويكس (Sanatroikes 76-69 ق.م) (36)

وبعد وفاة الملك الفرثي فرهاد الثاني، اضطربت أوضاع الدولة الفرثية، وحدث أن استغل الأرمن هذه الأوضاع لصالحهم ووسعوا من نفوذهم، ثم تولى الملك الفرثي فرهاد الثالث Phraates III (69-60ق.م) الذي جدد تلك المعاهدة مع القائد الروماني بومبي (55-70ق.م) (37) . واقنع الملك الفرثي بضرورة التحالف لمحاربة ملك أرمينية، والحقيقة أن القائد الروماني قد خدع الملك الفرثي بما تمّ الإتفاق عليه في بنود هذه المعاهدة التي جددها بومبي مع الفرثيين (38).

ثم توفي الملك الفرثي فرهاد الثالث في سنة 60 ق.م، وحدثت فوضى داخل الدولة الفرثية ونزاع على الحكم بين ولديه مهرداد الأول، وأخيه الأصغر أرد الأول، ثم تمكن أرد الأول Orodes I (37-55ق.م) من تولى الحكم، فحارب الرومان وصحح أفكارهم عن الدولة الفرثية، إذ تلقوا ضربات قاضية أيقظتهم من غفوتهم، فأراد يوليوس قيصر Julius Caesar (44-49ق.م) الاستعداد لحربهم، لكنه قتل قبل أن ينفذ مشروعه ضد الدولة الفرثية (39)

وعندما تولى الحكم ارد الأول وسع من نفوذ بلاده وسيطر على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وسك النقود في هذه المناطق باسمه، إلا أن الرومان هاجموه وأعادوا ما سيطر عليه، وهاجموا الدولة الفرثية من عدة محاور،للسيطرة عليها وإسقاطها، إلا أنهم فشلوا في ذلك وهزموا هزيمة منكرة بالقرب من مدينة تبريز، واضطر القائد الروماني إلى عقد صلح مع الملك الفرثي فرهاد الرابع Phraates IV (37-2 ق.م) (40).

وتم توقيع معاهدة مع الفرثيين، بعد أن اقتنع الإمبراطور الروماني أغسطس Augustus (أكتافيانوس 27ق.م-14م)، بأن السلام هو الحل الأفضل للطرفين المتخاصمين، فتفرغت كل دولة لملاحظة شؤونها الداخلية، وتم توقيع الاتفاقية في العام الأول للميلاد، وهو عام خير وبركة على الدولتين الرومانية والفرثية، ففيه ولد السيد المسيح (في فلسطين ولتوطيد العلاقة مع الفرثيين أرسل الإمبراطور الروماني إحدى الأميرات وتدعى موزا Muse ليتزوجها الملك الفرثي فرهاد الرابع، فأنجبت له فرهاد الخامس (41)

وقد اتبع الأباطرة الرومان الذين خلفوا أغسطس نفس السياسة السلمية مع الفرثيين، حتى عهد الإمبراطور تراجان 117- 98) Trajanم) الذي غير من سياسة روما تجاه الدولة الفرثية، إذ استغل الضعف الذي حل بالدولة الفرثية، بعد وفاة الملك الفرثي فرهاد الرابع، لإنشغال الملوك الفرثيين في نزاعهم على الملك، فقاد جيشاً في عهد الملك الفرثي خسرو Khusrau (106-129م)، وسار به وسيطر على معظم مناطق الدولة الفرثية، ووصل إلى الخليج العربي، ثم تمكن الملك الفرثي من استعادة كل الأراضي التي سيطر عليها تراجان، والذي عاد خائباً إلى روما دون أن يحقق أي هدف من هذه الحملة (42)

إن حملة تراجان رغم فشلها في تحقيق أهدافها، لكنها كشفت للرومان ضعف الدولة الفرثية، فكان أن كررت حملة تراجان في عهد الملك الفرثي بلاش الثالث (191-147م) فتمكنت الجيوش الرومانية في عهد الإمبراطور الرومانيماركوس أوريليوس أنطونيوس Marcus Aurelius Antonius (161-180م) من تدمير العاصمة الفرثية طيسفون، وتكرر هذا العمل في عهد الملك الفرثي بلاش الرابع (208-191م) وخرب الجيش الروماني طيسفون مرة أخرى، وكان آخر محاولة قام بها الإمبراطور الروماني كركلا Caracalla (217-211م)، والذي استغل الفوضى التي عمت أراضي الدولة الفرثية عقب وفاة الملك الفرثي بلاش الرابع، وظل الوضع حتى تولى الحكم الملك أردوان الخامس)(43) أرطبان الخامس (Artaban V 208-226م) فارسل إليه الإمبراطور يعلن رغبته في الزواج من ابنته

لكنه دبر مؤامرة أثناء الزواج دمر فيها الجيش الفرثي والعاصمة طيسفون، وحاول الامبراطور ماكرينوس Macrinus (218-217م) تلافي ما مر إلا أن الملك الفرثي أردوان الخامس رفض الصلح وقرر الانتقام للخيانة التي لحقته من الملك الروماني السابق، واستطاع الملك أردوان الخامس من دحر الجيش الروماني، وعقد صلحاً مع الرومان (44).

وقد حكم إيران في المدة الواقعة بين 256ق. م -224م، (الفترة الفرثية) أي بين حكم أشك الأول وحكم أردوان الخامس، وهي فترة تبلغ الأربعمائة سنة وثمانين عاماً، ثمانية وعشرين ملكاً فرثياً أو أكثر من ذلك بكثير، لعدم دقة ورودهم في المصادر، وقلة مدة حكم البعض منهم، ويقول بعضهم إن عددهم يربو على السبعين ملكاً وأميراً، وفي الحقيقة المرة التي لا مفر منها، فإن تاريخ الفرثيين أو الأشكانيين يكتنفه الغموض، حتى إن الفردوسي (وهو إيراني الأصل) لم يستطع أن يتناول تاريخ هذه المدة بطريقة منتظمة، بل إكتفى بذكر أسماء بعض ملوكهم، ويعود السبب في ذلك إلى تدخل الدولة الساسانية في تدوين تاريخ الفرثيين، ونظراً لأننا نعتمد على ما كتب، فما كتب في المدة الساسانية، كان سعياً لطمس سيرة الملوك الفرثيين، لأن من يكتب التاريخ هم رجال الدين الزرادشت، فهل يمدح هؤلاء الفرثيين، الذين لم يعترفوا يوماً بالدين الزرادشتي ولا رجاله، فكان حقد هؤلاء على الدولة الفرثية، أكثر من حقد الملوك الساسانيين أنفسهم، وهم الذين كتبوا تاريخ ملوكهم وسني حكمهم، تماماً كما شوهت مدرسة التاريخ العباسي تاريخ الخلفاء الأمويين، عندما كتبوا تاريخ الدولة الأموية، وطمسوا اعمال خلفائها وقادتها.

وخلاصة القول إن الملوك الفرثيين دخلوا في صراع مرير مع الرومان، وتمكنوا من الانتصار عليهم، وأثبتوا قوة الدولة ومكانتها، بعد أن استهان بها الرومان، بما عرف عنهم من عنجهية وتكبر على الشعوب الأخرى، ولهذا ظلت روما ومن جاء بعدها إلى اليوم يعيشون هذا الوهم، الذي أوصلهم إلى وضع لاتحسد عليه إيطاليا، مقارنة مع معظم الدول الاوربية إلى الوقت الحاضر، وكذلك حال اليونان اليوم.

وقام الملوك الفرثيين بادخال عناصر الحضارة الاغريقية ومزجها بالحضارة الإيرانية، بما يعرف اليوم باسم الحضارة الهلنستية، التي هي مزيج بين حضارتين، فدخلت الافكار والفلسفة اليونانية والعلوم والطب والفلك، فضلاً عن الإدارة التي أخذت من كلا الحضارتين: الإيرانية واليونانية (45).

وتعاقب الملوك الفرثيين على حكم إيران، حتى عصر الملك البارثي، أردوان الخامس، الذي يعرف بالفارسية أرثبان بنجم أي أرتبان الخامس، وهو الذي في عهده سقطت الدولة الفرثية، وتمكن أردشير بن بابك من الانتصار عليه في معركة طاحنة أنهت الحكم الفرثي في إيران بالقرب من هرمزدكان في الأحواز بعد ثلاثة معارك طاحنة، وذلك في سنة 224م، وأسس الدولة الساسانية (46).

الهوامش:

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: مسالك الممالك، تحقيق دي خويه، مطبعة بريل،لايدن 1937م، ص 254-253؛ أبو القاسم محمد بن علي النصيبي: كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة بيروت 1970م ص358؛ أبو عبد الله محمد بن احمد البشاري المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي خويه، مطبعة بريل، ليدن 1906م ص 260؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموي: معجم البلدان، مادة خراسان.

(2) أحمد كمال الدين حلمي: 3500 عام من عمر إيران، الكويت 1399هـ/1979م، ط/1، ص 2-1.

(3) قحطان عبد الستار الحديثي وصلاح عبد الهادي الحيدري:دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، مطبعة جامعة البصرة 1986م ص 24.

(4) الاصطخري: مسالك الممالك ص 88؛المقدسي: أحسن التقاسيم ص 402.

(5) الاصطخري: مسالك الممالك ص 96؛ ابن حوقل: صورة الأرض ص 334؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ص 420، كي لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الحكومة بغداد 1954م ص 283.

(6) الإصطخري: مسالك الممالك ص 158؛ابن حوقل: صورة الأرض ص266؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ص ص459؛ الحديثي:دراسات ص 25.

(7) تقع زرنج اليوم في الطرف الجنوبي الغربي من أفغانستان.

(8) الإصطخري:مسالك الممالك ص 273؛ الحديثي: دراسات ص 26

(9) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 353.

(10) أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير: اللباب في تهذيب الانساب، اعادت مطبعة المثنى طبعه بالاوفست، 1/429.

(11) الحديثي: دراسات ص 27؛ الحديثي: ارباع خراسان.

(12) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي: البلدان، دي خويه بريل ليدن 1891م.. ص 277.

(13) طه باقر وفوزي رشيد ورضا جواد هاشم: تاريخ إيران القديم، بغداد 1980م ص15-14؛ الحديثي:دراسات ص 23.

(14) الحديثي: دراسات ص 24.

(15) ابن الأثير: الكامل 1/378؛ حلمي: 3500عام ص 146.

(16) خراسان: وتعني مطلع الشمس، وتضم مدناً مهمة ومناطق واسعة تمتد من حدود العراق الشرقية وإلى بلاد ماوراء النهر، ومن مدنها نيسابور، هراة، بلخ ومرو العظمى، ياقوت الحموي: معجم البلدان 2/350؛ صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء

الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر 1/455؛ الموسوي: العلاقات ص 33.

(17) المسعودي: مروج 1/257.

(18) جرجان أو كركان، إقليم واسع بين خوارزم وطبرستان، أما زدراكارتا فهو استراباذ من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان، الحسن بن أحمد المهلبي: المسالك والممالك، جمع وتحقيق تيسير خلف، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2006م ص151؛ الموسوي: العلاقات ص 34؛ ياقوت: معجم 175-1/174؛

(19) حلمي:3500ص 146.

(20) الموسوي: العلاقات ص 34.

(21) قومس: كورة من كور إقليم الديلم قصبتها الدامغان، المقدسي: أحسن التقاسيم ص354-353؛ وتعني مدينة المائة بوابة، باقر: تاريخ إيران ص94. ؛ الموسوي: العلاقات ص 35.

(22) ميديا أو إقليم الجبال، ويسمى بعراق العجم نظراً لسكان القبائل العربية فيه منذ زمن طويل، وعاصمته عراق، ويطلق عليها الأن اسم أراك، ويقع في إيران، ابن حوقل: صورة الأرض ص358-357؛ الاصطخري: مسالك الممالك ص 195؛ أبو الفدا: تقويم البلدان ص408؛ الموسوي: العلاقات ص 35.

(23) الموسوي: العلاقات ص 35.

(24) الأعظمي: تاريخ الدول اليونانية والفارسية في العراق ص 16؛ أحمد مالك الفتيان: التنقيبات الآثارية في العراق في العهد الفرثي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة بغداد 1975م ص23؛ الموسوي: العلاقات ص 37.

(25) الموسوي: العلاقات ص 37.

(26) الموسوي: العلاقات ص 37.

(27) باقر: تاريخ إيران ص 95؛ الموسوي: العلاقات ص38-37.

(28) أحمد كمال الدين حلمي: 3500عام من عمر إيران مؤسسة الصباح للطباعة والنشر، الكويت 1979م ص145.

(29) حلمي: 3500عام من عمر إيران ص 145.

(30) حلني: 3500ص152.

(31) الأعظمي: تاريخ الدول ص 16؛ الموسوي: العلاقات ص 39.

(32) الموسوي: العلاقات ص 40.

(33) الموسوي: العلاقات ص 41.

(34) الموسوي: العلاقات ص 41.

(35) انظر الفصل الثاني عشر من الكتاب.

(36) الموسوي: العلاقات ص 45-44.

(37) علي: التاريخ الروماني ص127؛ الموسوي ك العلاقات ص 45.

(38) شريف: الموقع الجغرافي للعراق 2/244؛ ستارجيان: تاريخ الأمة الارمنية ص83؛ حتى: تاريخ سوريا ص274؛ الموسوي: العلاقات ص 47-46.

(39) لويد: الرافدان ص 151-145؛الموسوي: العلاقات ص 48.

(40) أمين سلامة: التاريخ الروماني، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة 1959م، ص424-421؛ الموسوي: العلاقات ص 49-48.

(41) ادوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو درة، مراجعة أحمد نجيب هاشم، مطبعة الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1969م 1/65؛ عبد اللطيف أحمد علي: مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء أوراق البردي، دار النهضة العربية، القاهرة 1965م،ص 54؛ الأحمد كتاريخ الرومان ص 137؛ شريف: الموقع الجغرافي للعراق 2/ 248؛ الموسوي: العلاقات ص 50؛ عامر سليمان وأحمد مالك الفتيان: محاضرات في التاريخ القديم، مطبعة جامعة الموصل 1978م 1/224.

(42) لويد: الرافدان ص155-152؛ عبو محمد: اليونان والرومان ص331؛ الموسوي: العلاقات ص 52.

(43) الأحمد :تاريخ الرومان ص 189؛ الموسوي: العلاقات ص 53.

(44) الأحمد :تاريخ الرومان ص 224؛ الأعظمي: تاريخ الدول ص36؛ الموسوي: العلاقات ص 54.

(45) حلمي: 3500 ص 147.

(46) ابن الأثير: الكامل 1/379 .؛حلمي:3500ص 147.

2

الفصل الثاني

السكان والتنظيمات الاجتماعية في العهد الإسكاني

أوضاع إيران التأريخية قبل الساسانيين :

لا يمكن لأي مؤرخ أن يحدد تاريخ أمة أو شعب من حيث بدايته ونهايته أو نقاء دمه، لأن الشعوب تتداخل وتتزاوج فيما بينها، وهنالك فترات موغلة في القدم لم تمدنا المصادر التي تحت أيدينا بشيءٍ يوضح ما نطمح إليه لإشباع رغبتنا في معرفة تاريخ الشعوب، ونظراً لكوننا محددين بمنهج دراسي وتأريخ زمني له بداية ونهاية مدونة، يجب أن نلتزم بها وهي تناول العهد الفرثي في إيران.

إيران في العهد الفرثي : 247ق.م. 226م

تعد الفترة التاريخية التي مرت بها إيران من الفترات المهمة في تاريخ إيران وتأريخ وادي الرافدين فضلاً عن بلاد الشام، لأنه الاساس الذي قامت عليه الدولة الساسانية فيما بعد، ولإرتباطه الوثيق مع الدولة الرومانية المعاصرة له، وما جرى بينهما من صراعٍ مرير وطويل للسيطرة على العراق وبلاد الشام.

لقد أعقب الحكم السلوقي في بلاد إيران حكم سلالة إيرانية، انفصلت عن الدولة السلوقية واستقلت عنها، بعد انشغال السلوقيين في حروب طاحنة مع البطالسة في مصر، فاستغلت هذه القبائل ضعف الدولة وانشغالها في هذه الحروب، فأعلنت استقلال إيران، ثم بعد قرن من الزمان استطاعت أن تحتل العراق وتسيطر على سلوقية (قبالة المدائن فيما بعد وسلمان باك حالياً)، وسيطرت على العراق في حدود سنة 140ـ 127ق.م، ثم وسعت حكمها في السيطرة على كل إيران فضلاً عن العراق إلى سنة 226م، إذ قامت الدولة الساسانية فيما بعد (1).

وقد أطلق على هذه الاقوام بالاضافة إلى الفرثيين اسم الأرشاقين Arsasids نسبة إلى القائد العسكري أرشاق، الذي قاد حركة الثورة ضد السلوقيين بين سنتي 250ـ 247 ق.م، ونجح في ثورته وحرر جزءاً من إيران، وقد ذكرتهم المصادر العربية باسم ملوك الطوائف وعرفوا في المصادر الفارسية باسم الأشكانيين أو الأشغانيين، ويرجع الأشكانيين في أصولهم إلى قبيلة بارني Parni وهم قبائل هندو اوربية أو آرية، وكانوا قبائل رعوية متنقلة

وراء الماء والكلأ، ويتمتعون بقدرة جسمانية قوية وصبر وتحمل لظروف العيش الصعب، وهذا ما نعرفه عن القبائل الرعوية، وتنتشر هذه القبائل في المنطقة الممتدة بين بحر آرال وبحر قزوين، وفضلاً عن ممارستها لمهنة الرعي إلا أنها امتازت بفروسيتها وإقدامها وشجاعتها في الحروب، التي كانت تحدث بين القبائل الرعوية للسيطرة على أماكن الماء والكلأ. ثم نزحوا إلى منطقة تعرف باسم بارثيا Parthia ضمن إقليم خراسان ومن هنا جاءتها التسمية الثانية وهي البارثية نسبة إلى المنطقة فضلاً عن القبيلة (2). لقد ظهر بين عامي 247-250ق م إخوان هما وارشاق وتيرداتس تزعما القبائل الاسكانية واستطاعا قيادتها فارضين سيطرتهم على قبائلهم أولاً، ومسيطرين على المناطق الواقعة تحت ايديهم، حتى اصطدموا مع حاكم المنطقة السلوقي، ودخلا معه في حرب طاحنة قتل فيها القائد أرشاق، فتولى أخاه تيراداتس قيادة الاسكانيين، وطرد السلوقيين من منطقة خراسان، واتخذ عاصمة له سماها أرشاق أي على اسم أخيه، وتوج ملكاً على الاسكانيين، ثم أخذ يوسع مملكته على حساب المناطق المجاورة في الشرق والحنوب الشرقي، فضلاً عن الغرب حيث الدولة السلوقية، كما استغل تيراداتس ضعف السلوقيين وانتقل إلى عاصمة جديدة له عرفت بِ هيكاتومبيلوس وهي إحدى المدن الاغريقية التي تقع على طرق المواصلات بين الشرق والغرب، وتنقل بقية الملوك الاسكانيين إلى عواصم أخرى من بينها أكبتانا (عاصمة الماذيين القديمة، ثم شيدوا بعد ذلك مدينة طيسفون على الضفة الشرقية لنهر دجلة قبالة سلوقية، وقد سيطرت هذه الاسرة الحاكمة على أغلب مناطق العراق وأجزاء من بلاد الشام(3).

ثم توسعت الدولة الفرثية (الاسكانية) بين سنتي 160- 14ق. م، فضمت بلاد فارس وبلاد ميدية وبلاد بابل فضلاً عن المناطق الجنوبية في منطقة البصرة وبلاد آشور، أي ما يشمل كل العراق الحالي تقريباً باستثناء العاصمة سلوقية، التي تقع على نهر دجلة والتي طلب سكانها من الملك الفرثي أن يمنحوا حكماً ذاتياً. وهذا ما يفسر لنا سعي الفرثيين لبناء طيسفون التي تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة.

ثم تمكنت الدولة الفرثية (الاسكانية) من ضبط أمور البلاد، لكن السلوقيين لم يتركوا الدولة الفرثية تنعم بالاستقرار، فحشدوا جيوشهم ثم قام الملك السلوقي (أنطيوخس) السابع من شن حملة على الأقاليم الشرقية للدولة الفرثية، فزحف إلى أحد مدنهم المهمة وهي (أكبتانا) واستولى عليها واتخذها مقراً لجنده ووزع بقية جنوده في المدن القريبة منها، وقد

حاول الملك الفرثي (فراهاطس) عبثاً الدخول مع الملك السلوقي في مفاوضات لوضع حد للحرب بينهما وذكره بالعهود والمواثيق التي بينهم من قبل، فرفض الملك السلوقي ذلك، فما كان من الملك الفرثي إلا أن حرض السكان في المناطق الخاضعة للسلوقيين من الثورة والعصيان، أعقبها بهجوم مباغت على مقر الملك السلوقي الذي خرّ صريعاً في هذه المعركة وأسر العديد من جنوده، وفقد السلوقيين سلوقية، وأصبح وضعهم مهدد في بلاد الشام نتيجة لضغط الفرثيين والرومان، فضلاً عن بعض الطامعين في العرش السلوقي من السلوقيين أنفسهم (4)

ولكن الفرثيون لم ينعموا طويلاً بالراحة إذ هاجمتهم قبائل بدوية في الجهات الشرقية من دولتهم وهم قبائل الـ (فركستان وهم الاسكيثيون)، وجرت معارك طاحنة بين الجانبين راح ضحيتها الملك الفرثي فراهاطس، ثم خلفه ابنه ارطبان الثاني في سنة 128ق. م.الذي قاد الجيوش ضد القبائل التركية، ودخل معهم في حروب قتل هو الآخر فيها سنة 124ق.م. واضطربت أحوال الدولة وانفصلت عنها بعض الأقاليم، ولم ينقذ موقف الدولة إلا تولي الملك الفرثي (فريداتس الثاني 88-123ق.م.الذي أثبت كفاءة في إدارة الدولة وفي تعبئة الجيش الذي أوقف تجاوزات القبائل التركية، وتفرغ لبناء الدولة، وأقام علاقات تجارية من بلاد الصين(5)

وكان موقع الدولة الاشكانية (الفرثية) وبوجه خاص العراق وإيران واسطة مهمة للتجارة الدولية بين الشرق والرب، وخاصة تجارة الهند والصين وأواسط آسيا وبضائعها المهمة مثل الحرير والبهارات والعاج والعطور، وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية في معظم العالم المتمدن ولاسيما منذ القرن الاول للميلاد مقارنة مع القرن السابق له، الذي عمت فيه الاضطرابات والثورات وعمليات القرصنة وفقدان الأمن، فقد عمل الإمبراطور الروماني (أغسطس) على ازدهار التجارة الدولية، ومما ساعد على ازدهار تلك التجارة التحسن الذي حصل في وسائط النقل والاعتناء بالطرق العالمية والمحافظة عليها، فقد اعتنى الفرثيون بوجه خاص في تأمين سلامة تلك الطرق وأفادوا منها فوائد كبيرة في تجارة المرور. فكانت طرق البادية تجهز بالمنازل (الخانات) وبمياه البيار، وشيدت في المدن التجارية المهمة مثل تدمر ودوريوس والبتراء البيوت والخانات لإيواء التجار والقوافل التجارية، وتشير الوثائق المدونة التي وجدت في دوريوس إلى تأسيس نظام لما يمكن تسميته بشرطة البادية للمحافظة على الطرق الخارجية، كما استفاد الفرثيون من نظام البريد الذي اسسه الاخمينيون، في إيصال الأخبار

والمعلومات عن أي تحرك يحدث في أية منطقة من الدولة، كما ازدهرت الزراعة في مختلف مناطق الدولة الفرثية والتي زودت التجارة بمقومات الديمومة والازدهار (6)

وكانت الحياة الاجتماعية للفرثيين قد بدأت كونهم قبائل رعوية بسيطة تعتمد على الرعي، فكانوا : (بدواً يعيشون على اقتصاد الرعي المتبدل، تبعاً للمواسم السنوية، أو حين كانوا مربين للماشية نصف مستقرين وفلاحين) (7).

ولم توفر لنا المصادر الفرثية أو الساسانية، أية معلومات عن الحياة الاجتماعية للفرثيين، ولكن ومن خلال المعارك التي نشبت أثناء قيام الدولة الفرثية، يتبين لنا وجود الملك الفرثي، أو زعيم القبيلة، وهو إما أن يكون الفارس المقاتل، أو هو رئيس القبيلة الفعلي، يتبعه عدد من القادة (المستشارين)، أما الجيش فيتكون من الأحرار - وأعتقد هنا أنهم السادة من الفرثيين - ويكون عددهم قليلاً، إذ أنه في إحدى المعارك بلغ عددهم الـ 400 فارس، وكانوا يمتطون صهوات الخيول، ويوجهون أو يقودون من يتبعهم من الجند، فيما شكل عامة الجند الفرثي (العبيد) أقنان الأرض وكان الفرق بين الأحرار والسادة هو ركوب الخيل وكان هذا في أول الأمر، ولكن بعد الانتصارات التي تحققت، أخذ الفرثيين يدربون أتباعهم من العبيد على الفروسية وركوب الخيل والقتال من على ظهورها ومقاتلة الخصم والتفوق عليه، وهذا يقتضي تدريباً خاصاً، بحيث يهجم الجندي الفرثي على السلوقيين المثقلين بالحديد والدروع، ومن ثم ينتصر عليهم (8) .

أما عن كيفية المجتمع الفرثي وطبقاته، فلا تكاد المصادر تحدد لنا سوى شيئاً يسيراً عن هذا الموضوع، ولكن إذا قلنا بأن الفرثيين هم السادة، وهم كذلك فعلاً، فهم يشكلون طبقة الأحرار في المجتمع الفرثي، ولكن كانت الكثير من المناطق التابعة لهم عدت ملكاً خاصاً لهم وعد سكانها عبيداً للأحرار الفرثيين، هذا فضلاً عن إمكانية شراء العبيد أو إسترقاقهم بالإكراه كما حدث عندما نقل حاكم بابل الفرثي (هيموروس) عدداً من سكان وادي الرافدين وعدهم عبيداً وأسكنهم في منطقة ميديا بصفة غنيمة حرب (9). إذن كان المجتمع الفرثي مجتمع بدوي حربي في بدايته، أمي لايعرف الكتابة أو القراءة، حالهم حال أي مجتمع بدوي في كل أرجاء العالم، لايهتم بهذه الأمور، بل همهم رعي مواشيهم في البوادي والقفار، ثم تحول تدريجياً إلى مجتمع أرستقراطي، متبعاً التقاليد السابقة له بعد تشكيل الدولة، إذ لم يعد ممكناً أن تتشكل الطبقة العليا في المجتمع الفرثي، في حياة البداوة والرعي، إذ الكل

متساوون في كل شيء سوى الرئاسة وإمتلاك الأرض أو الماشية، التي هي الطابع المميز لرئيس القبيلة، أما عامة الناس فهم سواء في كل شيء، ولكن الحال تغير بعد قيام الدولة وظهور الطبقات في المجتمع الفرثي، فظهرت طبقة العظماء أو النبلاء كما تسميهم المصادر الإغريقية والرومانية، وكان هؤلاء النبلاء يتبعهم عدد من أبناء جلدتهم - أبنائهم وأحفادهم وأبناء عمومتهم - فضلاً عن العبيد أو فلاحي الأرض، لأن الملكية في هذه العصور تعتمد على الأرض بالدرجة الأساس (10)، وظل هذا الوضع قائماً في كثير من المجتمعات حتى وقت قريب. وبعدما تكونت الدولة الفرثية، أخذ دور العظماء يتشكل ويتعاظم، ويكون دور العظماء قوياً ومؤثراً في حالة وجود نزاع على الملك أو وجود ملك فرثي ضعيف أو قاصر، وفي بعض الفترات كان الملك الفرثي يحدد ولي عهده، أما في لعض الفترات فكان للعظماء دوراً رئيسياً في اختيار الملك الجديد، ففي إحدى المرات أراد الملك الفرثي أن يعين ولي عهد له، فجاءته رسالة من العظماء يطلبون منه التريث في الأمر حتى يصلوا إلى العاصمة طيسفون، ومثالنا على تأثير مجلس العظماء على الملك نفسه، فقد طرد مجلس العظماء الملك الفرثي ميثريداتيس الثاني من منصبه بسبب قسوته وعينوا أخوه أورديس بدلاً عنه (11)

ويشير هذا النص إلى تطور في نظام الحكم من وراثي قبلي، إلى أحد أشكال الديمقراطية، أو من الملكية الوراثية إلى ملكية قائمة على الانتخاب (12).

الهوامش

(1) الحديثي : دراسات ص .55

(2) باقر : تاريخ ص 94-93؛ الحديثي : دراسات ص .56

(3) باقر : تاريخ ص 94-93؛ الحديثي : دراسات ص .57-56

(4) باقر : تاريخ إيران ص 96؛ الحديثي : دراسات ص .57

(5) الحديثي : دراسات ص .58

(6) باقر : تاريخ إيران ص 107-106؛ الحديثي : دراسات ص .63

(7) هويز: فارس القديمة ص .169

(8) هويز: فارس القديمة ص .170

(9) هويز: فارس القديمة ص .171

(10) هويز: فارس القديمة ص .173

(11) هويز: فارس القديمة ص .173

(12) هويز: فارس القديمة ص .173

3

الفصل الثالث

النظم والحضارة في إيران في القرنين الأول والثاني للميلاد

النظم الفرثية:

إن الدولة الفرثية أو الأشكانية في بدايتها هي دولة بدوية، ولهذا اعتمدت على أسس قبلية في التنظيم الاداري، وبدأت هذه التنظيمات بالأسرة التي هي أول لبنة من لبنات أي مجتمع في العالم القديم أو الحديث، تليها القرية التي هي مجموعة من الاسر تسكن في منطقة سكنية تعرف بالقرية، ويشير اسم القرية إلى الاستقرار، اذ أن القبائل البدوية لا تعرف القرية بل تتنقل وراء الماء والكلأ، تليها القبيلة وهو ارتباط سكان القرية أو القرى المتجاورة برابطة الدم، كونها تنحدر من جد واحد، أو ارتبطت مصالحها الاقتصادية والاجتماعية معاً من خلال الزراعة أو التجارة،فضلاً عن الرابط الاساس وهو المصاهرة، ومن مجموع القبائل جاء المصطلح الرابع وهو الإقليم الذي يضم عدداً كبيراً من القبائل والتي تضم بدورها عدداً من القرى، وقد سمي الشعب الذي يقطن في الأقاليم الإيرانية بأريا وهي الكلمة التي اشتقت منها كلمة إيران الحديثة (1).

وفي الأجزاء الشرقية من الدولة الفرثية، كان العمل الرئيس هو تربية الماشية، بينما في الغرب، كانت توجد إلى جانب ذلك الزراعة، خاصة في بلاد الرافدين، ومن الزراعات الهامة كذلك حدائق الأسواق والكروم والنبيذ، وأهم الحبوب المزروعة هي الحنطة والشعير (2).

وقد اختفى نظام الأسر جزئياً في المجتمع الإيراني في المناطق الغربية من إيران بسبب تأثير المدنية البابلية، كما ويجب التنوية إلى أن النظم التي طبقها الفرثيون هي النظم التي ورثوها أو تأثروا بها من خلال العلاقات مع الدول المجاورة كونهم شعب غير متمدن فورثوا الكثير عن البابليين والآشوريين والعيلاميين واليونانيين، وأجروا عليها التعديلات التي تلائم احتياجاتهم في حكم البلاد التي خضعت لسيطرتهم.

ومن الطبيعي أن تقسم البلاد إلى مناطق من أجل تسهيل حكمها وإدارتها والدفاع عنها وكان النظام الإداري في إيران يجري على نظام الحرف (7) فقسموا الدولة إلى سبعة ولايات تحكمها سبعة أسر، وهذه الاسر ترتبط برابطة الدم أو القرابة أو الصلحة ويعتقد الإيرانيون أن هذه الأسر يجري بها الدم الملكي النقي المقدس، ويسمى حاكم الولاية بالملك أو الشاه، ثم

يرأس هذه الولايات السبع ملك من الأسرة المؤسسة للدولة يطلق عليه لقب الشاهنشاه أي ملك الملوك (3)

وهنالك أشياء غريبة في تطبيق مفهوم الشاه تمليها قوة الأسرة الحاكمة أو الشخص المتنفذ، فليس من الضرورة في الحكم الفرثي أن يلي الأبن أباه في الحكم، بل يختار مجلس العظماء من يراه مناسباً، وإذا ما إختلف مجلس العظماء في اختيار حاكم الولاية أو الملك، تتقاتل الأحزاب أو التيارات فيما بينها ويفرض شخص آخر قد لايكون ابن الشاه السابق، ولو نظرنا إلى روايات المؤرخين العرب حول هذه الفترة لرأينا أنهم يطلقون عليهم اسم ملوك الطوائف، وهي تسمية دقيقة جداً، لما جري في العهد الفرثي.

وقد ظهرت السلطة السياسية في العهد الفرثي للأمراء الكبار في مجلس الشورى الارستقراطي) يشبه مجلس الشيوخ أو اللوردات أو الأعيان في الوقت الحاضر)، الذي كان يحدد سلطة الملك، وكان قادة الجيش والحكام من بين أعضاء هذا المجلس، تساند هذا المجلس في الحكم مجموعة أخرى هم أهل الحكمة ورجال الدين، ولكن هذه المساندة هي استشارية وليست حقيقية، لأن القوة الفعلية هي قوة مجلس الشيوخ، ولم تكن تحد سلطة الملك قوة في بعض الأحيان، بل كانت سلطته استبدادية، ولاتحد سلطة الملك قوانين، وإذا واتت الملك الظروف فانه يحكم كحاكم مطلق مستبد لإدارة البلاد، وكان الملك الاشكاني يخشى فقط من أفراد أسرته، ولهذا كان بعض الملوك الفرثيين يقتلون إخوتهم، واستمر هذا العمل حتى العهد العثماني، أي انتقلت عدوى القتل خشية القيام بثورة ضد الملك الفرثي إلى المجتمعات الأخرى، ولا يتطاول على ذات الملك أحد دون أن يجد من يستند إليه من أقاربه أو يحصل على دعم مباشر منه، لأنهم يعتقدون أن الدم الالهي يجري في عروق الملك الحاكم.

والملك بعيد المنال، وقد احتفظ لنفسه بلبس التاج العالي، والنوم على سرير من الذهب، والعرش موجود فقط في العاصمة، وكان للملك الفرثي غابات موزعة على الإمبراطورية تربى فيها الدببة والنمور والفهود والاسود، اذ يخرج الملك في نزهات للصيد يصيد فيها ما يقع تحت عينيه من حيوانات وحشية، وقد فقد بعض الملوك الفرثيين حياتهم في رحلات صيد كهذه.

وتمتع الملك بحق قبول الهدايا في الأعياد والمناسبات مثل عيد تولي العرش، أو الاحتفال بمناسبة تاريخية، مثل الانتصار على عدو أو القضاء على ثورة داخلية، وكان يتوجب على من

يقابل الملك أن يقدم له الهدايا، كما ويتقبل الملك الهدايا من الحكام التابعين للدولة أو من ملوك وحكام الدول المجاورة التي ترتبط مع الفرثيين بصداقات ومعاهدات، وكانت الخزينة المركزية وخزينة الملك في العهد الفرثي خزينة واحدة (4).

الحياة الدينية:

إن الحديث عن الأمور الدينية في إيران في العهد الفرثي، يكتنفه الغموض، لأن مصادرنا عن هذه الناحية قليلة وغير كافية ولاتشبع رغبتنا في الالمام بهذا الموضوع المهم، ولكن ما وصل إلينا من معتقدات الشعوب الآرية في الجانب الديني، والتي تقدس الظواهر الطبيعية كالنجوم والكواكب والشمس والقمر والنجوم والرعد والبرق، كما وأضيف إلى آلهة الطبيعة آلهة تمثل قوى أخلاقية وآراء معنوية مجسمة، وكانت الأله مزدا (الحكيم) عند الإيرانيين يتميز بدعوته للأخلاق والعمران، وفي الوقت الذي دخل فيه الإيرانيون العصر التاريخي (المدون) كان مزدا الاله الأعلى للقبائل المستقرة والمتمدنة في الشرق.

والمزدية أقدم من الزراداشتية، وليس مزدا الهاً لقبيلة أو شعب، بل هو إله العالم والناس جميعاً حسب معتقدهم، وعلى هذا يمكن القول أن الصلات بين الناس والقوى السماوية في الديانة المزدية هي أكثر صفاءً منها في ديانات آسيا الأخرى ويبدو باعث الأخلاق لصفائه التام في هذا الدين، وبهذين الوصفين العموم والصفاء بدأ المذهب الإيراني تأثيره على الأفكار في الشرق (5).

وديانة الفرثيين خليط من ديانات الآريين القديمة، والدين الزردشتي، وعبادة مهر وعبادة بعض الآلهة اليونانية، كما خالطت معتقداتهم معتقدات ديانات أخرى، ومن الملاحظ أن الملوك الفرثيين كانوا لايتدخلون في أمور الدين وهذا الشيء يحسب لهم، بل تركوا الدين للناس يؤمنون بما يشاؤون، فتجد الرجل وثني وزوجته نصرانية، أو تجد المرأة زرادشتية وزوجها يعبد القمر أو نجمة الزهرة، وهكذا، وكان الملوك الفرثيين يحترمون الديانات الموجودة لدى شعبهم ومنها الزرادشتية، فقد حاول بلاش الأول أو بلاش الثالث، القيام بجمع أجزاء من الأفستا، ولا نعرف إلى أي مدى وفق هذا الملك في مسعاه هذا، كما بذل الفرثيين جهدهم لتفسير الأفستا، كما سمحوا للنصرانية بالانتشار في القسم الغربي من الدولة في القرن الثاني للميلاد (6). وكان للفرثيين طقوسهم التي يقوم المغان (المجوس) بتأديتها، وكانوا ينشرون تعاليم الدين المزدي في منطقة فارس ويروجون له (7)

ولو تساءلنا عن السبب في تعدد الديانات في ظل الدولة الفرثية، هو أن الدولة الفرثية ورثت كماً هائلاً من المعتقدات الدينية لشعوب حكمتها هذه الدولة، لاتستطيع أية دولة مهما أوتيت من قوة أن تغير دين الناس أو معتقدهم كرهاً، وهذا ما حدث بالنسبة للفرثيين، فعلى الرغم من إعتقاد الفرثيين بالمزدية والزرادشتية، إلا أنه ظهرت ديانات تبشيرية في عهدهم لم يتمكنوا من إيقاف انتشارها مثل الديانة النصرانية (8)

وقد وجدت بعض الشواهد التي تشير إلى قوة الديانة الزرادشتية في العهد الفرثي على الرغم من تسامحهم، فقد وجد في نيسا شواهد لرجل دين زرادشتي وسادن للنار وإشارة إلى استخدام التقويم الزرادشتي، الذي يبدأ بالأول من نيسان من عام 247ق.م، وإلى وجود طريقة دفن الميت وفق التقاليد الزرادشتية، فيلقى على أعالي التلال، وتغطى عورة الميت بالأعشاب أو التراب، ويترك لتأكله الوحوش والطيور الضارية.

حضارة الفرثيين:

كان الملوك الإيرانيون الذين نسبوا إلى مؤسس الدولة الحاكمة، أرساكس (أرشك)، فسموا بالأرساكيين، وسموا بالفرثيين (الفرتيين) نسبة إلى مركزهم الأول فرتيا (فرثيا)، وحين تحقق لهم الأمر، بإقامة منطقة حكم خاصة بهم بحدود عام 140ق.م، وكانت المناطق التي سيطروا عليها، مناطق متعددة الثقافات والأثنيات، وهذه العبارة كافية، لفهم الوضع العام للحضارة الفرثية عند التحدث عنها، فتعدد الثقافات يولد أفكاراً مختلفة في الملبس والمأكل والمشرب والمعتقد، وأسلوب السكن والمعيشة، وبناء المساكن والمواد الداخلة في البناء وهندسة البناء، وطريقة التعليم، ووسائل التعليم، وتعدد الأثنيات، يعني تعدد القوميات، ولكل قومية لغتها الخاصة، التي قد تلتقي بلغة أخرى من قريب أو بعيد، أو قد لاتتفق معها في المعنى أو المبنى، وتعدد اللغات يعني التمازج في استخدام المفردات، ودخول مفردات لغة إلى لغة أخرى، بما يشبه التلاقح بين اللغات، وربما تتكون لغة أخرى يستخدمها الجميع هي خليط من تلك اللغات التي يتكلم بها شعب دولة من الدول، مثل إيران (9).

وحين تحقق النصر للفرثيين لم تكن لهذه الإمبراطورية التي أنشأوها أبعاد كالتي كانت للإمبراطورية الأخمينية أو السلوقية، لكنها على أية حال كانت تضم الجزء الأكبر من إيران وكل بلاد الرافدين في أغلب الأوقات، فضلاً عن أرمينية التي كان الفرثيون يمارسون فيها سيادتهم وحضارتهم ولغتهم ومعتقداتهم (10).

ولو نظرنا إلى اللغات التي كانت تتكلم أو تكتب بها الشعوب في عهد الدولة الفرثية، لوجدنا كماً من اللغات، ففي إيران كانوا يتحدثون باللغة الفارسية الوسيطة، والفرثية، والسوجدية، والخوارزمية والبكترية، وفي أرمينية كانوا يتحدثون بالأرمنية، وإلى الغرب من أرمينية، كانت لغات القوقاس المختلفة، وفي بلاد الرافدين، كانت اللغة البابلية، وفي الأجزاء الأخرى من الدولة الفرثية، كانوا يتحدثون بالآرامية،، وكانت اللغات الأربعة الرئيسة في إيران تكتب بالأبجدية الآرامية (الفارسية، الفرثية،السوجدية (لغة أهل الصغد أو بلاد ماوراء النهر ومن مدنها بخارى وسمرقند، والخوارزمية) أما البكتيرية، فكانت تكتب بالأبجدية اليونانية، وفي الفترة الفرثية كان يوجد كتاب آراميون يكتبون ويترجمون في أجزاء من الدولة الفرثية (11)

وقد أصبحت الآرامية اللغة العالمية في الدولة الفرثية، وأصبحت كذلك لغة شعبية عند الفرثيين، وهنالك نصوص جمة تمثل لنا، أن الآرامية تمثل أنموذجاً لنظم الكتابة في الآرامية والإيرانية الوسيطة، وكتابات اليهود البابليين والمندائيين، لتبين لنا مدى التأثر بهذه اللغة وآدابها في طول الدولة الفرثية وعرضها (12)، وأما البابلية "الأكدية " فكانت يتحدث بها في عهد الدولة الفرثية، وأما الخط المسماري فكان موجوداً ,وآخر نص وجد مستخدماً من خلال التنقيبات كان في حدود القرن الاول ق.م بحدود عام 74-75ق.م، كما وجدت في الفترة الفرثية، أسماء يونانية ـ مقدونية، لاتينية، بابلية، تدمرية، آرامية، عربية، نبطية، وإيرانية، وهذه الأسماء موثقة ومتزامنة في الوقت (13)، تماماً كما يحدث الآن في العراق على سبيل المثال لا الحصر، فهنالك أسماء عربية وكردية وتركية، وأكدية، وآشورية، وأرمنية، وعبرية، وآرامية، وإيرانية، فضلاً عن الثقافات التابعة لها، من حيث المعتقد والدين والملابس والأطعمة، وزساليب الحياة الخاصة بكل أمة أو شعب من هذه الشعوب.

أما اللغة الفرثية فهي لغة المرزبان، أي لغة البلاط والادارة، وأخذت هذه اللغة تلقى الرعاية والاهتمام في عهد الدولة الفرثية، لكن لم يصلنا من هذه اللغة شيء مكتوب في الأدب أو الشعر أو الدين أو التراتيل الدينية لدى الفرثيين، بل كانت تصلنا بعض الأسماء والكلمات المنقوشة على العملات، وربما كان يجري الحديث والتعلم بالفرثية مشافهة حالها حال اللغات البدائية الأخرى غير المدونة (14). وقد عثر على عدد من النقوش الفرثية منقوشة على الصخر والبرونز، مكتوبان بالخط الفرثي وباللغة الفرثية، ومدونان بحدود سنة 140م، الأول باسم ميثريداتيس ملك الملوك وكابنيشكير حاكم السوس، وثمة نقشان كتابيان فرثيان من سار بول زوهاب (سرپيل زهاب) بلا تاريخ، وهناك شاهد لضريح المرزبان

زكسفازاك السوسي العائدة للعام 215م والتي يناول فيها ملك الملوك (أرتبانس) (أردقان) الرابع مرؤوسة خاتم الحكم والسيادة (15).

وإذا بحثنا عن المدونات الآرامية في العهد الفرثي فإننا نجدها في مدينة الحضر، التي سهلت الدولة الفرثية قيامها، وسمحت لها بالقيام بدور الدولة الحاجزة، والدولة العربية القوية في منطقة الجزيرة الفراتية والقريبة من مدينة سلوقية، ونعجز عن ذكر المدونات والنقوشات الكتابية المكتشفة في الحضر (16)، والتي تتناول عقود الزواج والبيع والشراء والطلاق والسرقة والمعتقدات الدينية، فضلاً عن المعاهدات التي كانت توضع نسخ منها في معابد الحضر الكثيرة، وتشير هذه المعابد المتعددة، إلى أن العرب كانوا يؤمنون بالتعايش السلمي مع مختلف الأجناس والأديان والمعتقدات والأفكار، ولا زالوا إلى اليوم يحملون هذا الفكر، وكذلك كان الفرثيين، الذين ربما تأثروا بالعرب من هذه الناحية، إذ لو كان هنالك دين واحد لوجدت معابد متشابهة لإله واحد، ولكن هذا ما لا نجده في الحضر أو في مكة المكرمة، قبل ظهور الدين الاسلامي.

ووصلتنا من بلاد الرافدين في الفترة الفرثية آخر الوثائق الأكدية بالخط المسماري من مدينة بابل بين عامي 92ق.م وعام 75م ، وتضم إشارات تخص معبد مردوك (مردوخ)، وتتناول التواريخ الحولية والفلكية والطوالع (خرائط الخطوط)، وتضم هذه الرقم الطينية أسماء موظفين إداريين، مثل مسؤول المدينة والمعبد، وأعضاء المجلس البلدي، وكبار مسؤولي المعبد، وتضم الرقم إشارات إلى استعادة بابل من قبل السلوقيين في عام 130-128ق.م، وبعد حرب عنيفة بين الطرفين السلوقي والفرثي والهيسباوسينيس (من مسينية)، استعادها الفرثيون في عام 126ق.م، كما ضمت الرقم الطينية في الفترة نفسها 108ق.م أملاك المعابد في بلاد وادي الرافدين، وأنواعها وكيفية إيجار أراضي المعبد وكيفية زراعتها مما يكشف لنا عن عقود وأوقاف المعابد، ودور رجال المعبد في التصرف بها وتنميتها (17).

وقد كان الملوك الفرثيون يدونون تاريخهم، ولكن ما وصلنا منه هو قطع بسيطة، لا تعطينا صورة واضحة عن كيفية معيشة الناس والآداب والملابس والشعر أو النثر، وربما تبقى لنا بعض النصوص المتناثرة في المدونات الرومانية والبيزنطية من الفترة الفرثية (18) منثورة هنا وهناك في كثير من المدونات، التي لا تعطينا صورة واضحة، فالكاتب الروماني يمجد قومه والكاتب السلوقي يمجد السلوقيين وهكذا، لكن ما وصلنا هو خير من عدم وصول أي شيء

لنا (مثل كتابات سترابون، وايسودور الذي كتب "محطات فرثية " يتناول فيها الطريق التجاري في دولة الفرثيين، وكتابات تروغوس الذي تناول فيه دولة الفرثيين حتى عام 20 ق.م، والمعلومات التي قدمها بوليبوس الذي تناول حملة الملك السلوقي أنطوخيوس الثالث على بلاد الفرثيين، وغيرها من الكتابات الأخرى) (19).

وفي عهد الدولة الفرثية أنشئت أغلب المدن البارثية وخاصة في العراق وبلاد ما بين النهرين، بما عرف عن الفرثيين من حب للعمران ومظاهر الحضارة، بما في ذلك العاصمة طيسفون (المدائن)، وهي فعلاً مدائن بنيت وفق الفن العراقي الذي استفاد منه الفرثيون وكان سائداً في البناء في أرض وادي الرافدين، والتي كانت تستخدم القباب والأقواس والأفنية الواسعة، والنوافذ العالية المطلة على الخارج، مع النوافذ الواطئة المطلة على الفناء الداخلي (الحوش)، وكانت الايوانات مرتفعة لتخفف من حرارة الصيف اللاهبة في منطقة المدائن، حيث الأرض المزروعة، وتحرك الهواء لكي يعطي للجالس هواءً بارداً في فصل الصيف، ويحيط بالأبنية سور أو أسوار عالية الارتفاع لكي تمنع المهاجمين من اقتحامها، وهذه الأسوار تحيط بالعاصمة، ويقع الخندق أمامها، والذي يملأ بالماء في وقت الحصار. ويعبر الشخص إلى المدائن العاصمة على قناطر وجسور، والمنطقة كثيفة في النبات الطبيعي وغيره، كثيرة الجداول والترع، وتروى هذه المنطقة المحيطة بالمدائن بنهر العظيم (ديالى) وفروع من نهر دجلة تأخذ الماء من منطقة سوميرا (سامراء)، (20)، مثل نهر النهروان. ومن الأبنية التي خلفها الفرثيين أطلال قصر هاترا (الحضر) في ساحل دجلة، وقلعتان قويتان يحيط بها سور ضخم، وأسلوب البناء المستخدم أسلوب إيراني، غير أن بناء السقف واستعمال الجص (الكلس)، قد استغل فيها الفن الروماني، وتعلوا القصر قبة نقشت عليها صور بعض الآلهة، أما السقف والعمدان فنشاهد فيها تماثيل لرؤوس بشرية (21)، ومن الابنية الفرثية الأخرى، مقبرة (وركا) التي كان يدفن فيها الملوك الفرثيون وزوجاتهم، ووجد في هذه المقبرة تابوت حجري مكون من قطعة واحدة منقور، أما غطاؤه فيتكون من عدة قطع من نفس الحجر، منقوش على كل قطعة منها صورة إنسان، وفي كنكاور توجد أطلال معبد فرثي، ووجد معبد آخر في همدان يعرف بمعبد ناهيد (22).

وقد وجدت بعض الآثار في غربي بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين تتضح فيها التأثيرات الهيلينية، وتأثيرات بلاد ما بين النهرين، وتتمثل هذه الآثار ببقايا قصور ومنازل ومبان دينية وقبور من الحجارة والآجر، كما يمكننا أن نشاهدها في دورايوروبوس Dura-Europos على

شط الفرات، وفي هاترا Hatraوسوقية Selucia، وآشور ونيبور Nippur وأرقه Warqa، في بلاد ما بين النهرين وقراءتا داخل إيران، وتتميز البنايات بقبابها التي تحل محل الأعمدة والأسقف على النحو السائد من قبل (23).

وقد ترك كودرز في بيستون آثاراً حجرية لتخليد ذكراه وتأكيد لإنتصاره على مهر داد وكاسيوس،، ويبدو الملك الفرثي في هذه النقوش والآثار، وقد امتطى جواده، وأمسك رمحاً في يده، وكانت تكتب مع النقوش عبارات باليونانية مما يؤكد أن لغة البلاط واللغة الرسمية كانت في قسم منها تكتب باليونانية (24).

وفي مجال النحت والفنون، خلف لنا الفرثيين رؤوساً بشرية منحوته على الحجر، بعضها هيليني الأسلوب وبعضها بوذي والبعض الآخر أغريقي باكتري (بلخ)، وهذا يتضح بطبيعة الحال في المناطق الحدودية للدولة الفرثية، فالمناطق القريبة من الهند تجد فيها واضحاً الفن البوذي، ومناطق بلخ تجد فيها الفن الآسيوي والهيليني، وفن بلاد ماوراء النهر في تلك الحقبة من التاريخ، والمناطق القريبة من العاصمة طيسفون وفي بلاد وادي الرافدين تجد فيها الفن اليوناني أو الهلنستي (25) أو فن بلاد وادي الرافدين.

وبعبارة أخرى فإن فناني هذا العصر (الفرثي) قد اتيحت لهم حرية المزج بين جميع الفنون المتاحة في عصرهم، ولايمنع هذا الفنان من أن يتأثر بهذا الفن أو ذاك، فالفنان على مر العصور له كامل الحرية في ابتكار الأساليب أو مزجها ليولد فناً جديداً يختلف عن الفن الأصلي الذي تعلمه في مقتبل حياته.

كما خلف لنا الفنان الفرثي نقوشاً منقوشة بالجص البارز (وهو ما نطلق عليه اليوم بالفن المغربي، وتزين به سقوف البيوت عند التقائها بالجدران الجانبية)، كما استخدم نحاتوا القبور خليطاً من الطين والرمل لصناعة التوابيت والتماثيل الصغيرة التي تستخدم للأغراض الدينية. وكذلك فعل صانعوا الخزف الفرثيين الذين تركوا لنا أواني فخارية ملونة باللون الأخضر المصقول، وهذه الأواني متقنة الصنع بعض الشيء (26)، وهي التي لا تزال توجد بقايا من صناعتها في العراق إلى الوقت الحاضر، وبنفس اللون ويطلق عليها لفظة زير، ويحفظ فيها اللحم المكبوس والمخللات والدهن والعسل والجبن قبل ظهور الثلاجات والمجمدات (البرادات المنزلية) في السبعينات من القرن الماضي.

وقد اختار الفرثيون الأساليب اليونانية في الحياة نظراً لتقدمها عليهم في ميدان الحضارة، وهذا أمر طبيعي يحدث لكل مجتمع بدائي يتصل بمجتمع متحضر، كما اختار الفرثيون اللغة اليونانية في البداية لغة رسمية للبلاد، وكان رجال البلاط والأمراء يعرفون تلك اللغة ويتكلمونها، بحكم الأمر الواقع لأنها لغة المحتل (اليونان وقد فرضت عليهم بالقوة) كما كانوا يقدمون في البلاط عروضاً يونانية. أما لغة الفرثيين الأصلية فهي الفارسية الوسيطة، والنبلاء الفرثيون كانوا أميين، وكانت الكتابة متروكة لكتاب من اليراميين، الذين كانوا ينظرون إلى المتن الآرامي ويقرأونه بصوت عالٍ بالترجمة الفرثية (27)

والفرثية هي لغة آرية لاتختلف عن البهلوية التي تداولها الساسانيين فيما بعد، وتقترب في تركيبتها من اللغة التي كانت مستخدمة وسائدة في نهاية العصر الأخميني. ومما تجدر الاشارة إليه أن اللغة المسمارية والخط المسماري المستخدم في كتابة المدونات الفرثية، لم تندثر، وكانوا كذلك يكتبون لغتهم (الفارسية الوسيطة) بخط آرامي يسمى بالخط البهلوي، وقد استخدم الفرثيين هذا الخط في نقوش طويلة منحوتة في الصخر وفي عدد من النصوص المكتوبة، وكانت قراءة تلك النصوص المكتوبة في غاية الصعوبة (28) وقد بقيت الأغريقية مستخدمة على النقود الفرثية حتى عهد فولوجاش الأول (77-51م) واستعيض عن الألواح الطينية بالرق (الورق الصيني أو بالبردي)، واستبدل الخط المسماري الصعب بالأبجدية الآرامية (29)

كما تم استخدام الخط اليوناني في بعض المسكوكات التي وصلتنا عن هذا العهد، كما استخدم في بعض النقوش الحجرية مثل نقش بيستون الذي تركه كودرز (30). وتظهر في النقود الفضية (الدراخما أو الدراخما) صور الملك باشكال مختلفة، مضاف لها عبارات التبجيل والتفخيم، مثل ملك الملوك، صاحب الأيادي البيض، العادل، وغيرها من العبارات الأخرى، كما سمح الفرثيون لأصحاب الأقاليم التابعة لهم بسك العملة، وهي على غرار العملة الفرثية، تحمل اسم الملك الفرثي، واسم الملك التابع له (31) ومكان ضرب النقد.

واستخدم الفرثيون في التعامل التجاري النظام النقدي، وكانت العملة الرئيسة في بلادهم هي الدراخموس (الدرهم) ونقشت صورة الملك الفرثي على أحد وجهيه، فيما طبعت كتابات ونقوش الوجهة الأخرى للدرهم (32)، وكانوا في البداية يضعون صورة الملك الفرثي أرشك الأول على العملة في أحد وجهيها بلباسه العسكري، والقوس في يده، دلالة

على الطبيعة العسكرية للدولة، ثم أبدل ذلك بوضع صورة الملك مهرداد الأول، والذي يعده الفرثيون مقدساً كتقديسهم لآلهتهم الأخرى، ووضعوا صورة فيل، ورأس كرزن أو حصان، وذلك على الوجه الآخر لبعض العملات (33)، ويعود السبب الرئيس في استخدام الدرهم في العملة الفرثية، هو وجود معدن الفضة في أراضي الدولة الساسانية بكثرة، وقلة الذهب ومناجمه في بلاد إيران، ولهذا كانت الجزية التي يدفعها الرومان للفرثيين هي من الذهب، ومن يطلع على معاهدات الصلح مع الرومان يجد مصداق هذا القول.

أما الصناعة فلم يصلنا أي فن معماري أو تشكيلي أصيل (34)، ولربما لم يصلنا شيء، وقد يكون السبب هو عدم صمود تلك الآثار لمدة طويلة، أو أن الآثار لم تظهر لنا شيئاً من الفن الفرثي الأصيل، وقد تكشف لنا الأيام المقبلة شيئاً يثلج صدور الباحثين في هذا المجال

وقد وصلتنا نتف من الصور المنقوشة على آنية من الصحون الفضية، وصور الملابس التي يرتديها الذوات مثل الملوك وغيرهم، كما ظهرت بعض الفنون البديعة في أعمال برونزية وفي تصوير بعض الحيوانات والخزف والبرونز، فضلاً عن القاشاني المزجج بطلاء الرصاص المزرق أو المخضر والمرسوم على أشكال من وحي الفن الهلنستي.

كما ظهر في الفترة الفرثية حلى مزخرفة مرصعة بالجوهر والأحجار الكريمة صنعت لملكات أو نساء الطبقات الأرستقراطية وجواهر مشغولة بالمينا، وقد عثر على كنز في جبل تيلياتيب في شرق أفغانستان، بالقرب من مدينة شيبرجان، ضم 20000قطعة فنية أثرية يعود إلى هذه الفترة، أي القرن الأول للميلاد، وتشمل على مجوهرات ذهبية لكن لم يكشف عنه لحد الآن (35).

وكان الحكام المحليين (حكام الولايات) أو الملوك في العهد الفرثي، أو كما كان يطلق عليهم الشاهات، مستقلين في إدارتهم للمناطق التابعة لهم، ويرتبطون بالملك بدفع الضرائب والمشاركة في الحرب، في حالة حدوث إعتداء خارجي، مع احتفاظهم بامتيازاتهم ولبس تيجانهم وإدارة ممالكهم، كما يكون عليهم لزاماً الحضور عند انتخاب ملك فرثي جديد للبلاد في حالة وفاة الملك أو مقتله (36). وكان للملوك الفرثيين مجلسان للمشاورة أعضاؤهما من الأمراء والأعيان ورجال الدين (37)، ويمكن تشبيههما اليوم بمجلسي النواب والشيوخ.

وبلغت التجارة في عهدهم شأناً كبيراً، فقد اهتموا بالطرق وعبدوها برصف الحجارة، ووضع العلامات على جوانبها، ووضعوا الحاميات للمراباة على الطرق الخارجية، وحددوا مسؤولية كل حامية على منطقة بعينها، للضرب على أيدي العابثين واللصوص، وكانت عقوبة السرقة وقطع الطريق هي الإعدام، لأن في قطع الطريق تخريب لإقتصاد البلد وضياع هيبة الملك، وقطع لأرزاق الناس التي تمر القوافل التجارية في مناطقهم، فضلاً عن أن التجارة توفر فرص عمل للناس من فلاح وصانع وحمال وغيرهم كثير، كما تحرم أعمال اللصوصية العوائل والأسر المنتجة من بيع منتجاتها للتجار أو القوافل، لأن مدن القوافل هي مدن خدمة بالدرجة الأساس. وكانت البضائع تصلهم من الغرب أي من بلاد الشام (سوريا) وفينيقيا وبلاد الرومان، كما وتصلهم بضائع الهند والصين عبر طريق الحرير الذي يمر الجزء الرئيس منه في العاصمة الفرثية طيسفون (38).

وكانت بلاد الرافدين هي المركز الرئيس والأساسي للإقتصاد والحضارة في تلك الحقبة، لذلك كان الإيرانيون خلال تاريخهم الطويل يسعون للسيطرة على العراق مراراً وتكراراً نظراً لكون بلاد الرافدين ملتقىً للطرق القادمة من الشرق والغرب والشمال والجنوب (39)

وقد نقلت في الفترة الفرثية زراعة الخوخ المشمش من الصين ومن ثم إلى انتقلت من العراق إلى أوربا، كما صدرت الجزيرة العربية والعراق إلى بلاد الصين النعام وخاصة من بلاد بابل (40).

أما بالنسبو إلى حياة الملوك والأمراء في القصور في هذا العصر (الفرثي) فقد اهتم الملوك الفرثيون بحياتهم الخاصة واهتموا بطعامهم وشرابهم فعلى سبيل المثال فإن الملك الفرثي سابور بن أقفور، كان يحب الصيد وركوب الخيل، ويعدهما رياضة وتدريباً على الفروسية، وكانت له مائة جارية في القصر تخدمه، ويقدمن له بعد رحلاته للصيد أعذب الأغاني وأصفى الشراب، وألذ الطعام وأطيب العطور، فإذا جلس للأنس مع ندمائه وانتصف الليل آوى إلى دار إحدى نسائه، ثم يعود في الصباح إلى متصيده، وكان يجلس للمظالم مرة في الشهر (41)

ومن يدقق في هذا النص يجد حياة الترف والأبهة التي كان يعيش فيها الملوك الفرثيون، وكانت لهم نساء وجوارٍ يقفن على خدمة الأميرات في القصور، فضلاً عن الخصيان من الرجال الذين يقومون ببعض الأعمال التي لاتستطيع الجواري القيام بها في القصور من أعمال الخدمة والتنظيف ونقل الماء، ووضع الفرش والبسط ورفعها وغسلها وتنظيفها.

أما الملك فيروز بن هرمزان فقد وصف بالعدل، وكان عادلاً محباً للرعية، وكان يقرب اليه الغلمان من سبي الروم والترك، فكره الخاصة والعامة منه ذلك، ونسبوا إليه ما لا يليق به، فأخرج الغلمان من قصره (42)

أما عن النظام العسكري الفرثي، فلا نكاد نجد مدونة تتكلم بصراحة عن التنظيم العسكري الفرثي، وما تسعفنا به هو آثار أسلحة وبقايا سهام عثر عليها في مواقع معارك مختلفة، أثناء عمليات البناء أو الحفر، وهو ما يعثر عليه بالصدفة، فضلاً عن بعض النقوش على الجدران أو المجونات المصورة على النقود أو على الجدران، أو مما كتبه المؤرخون الرومان عن تسليح الجيش الفرثي، المواجه لهم في المعارك.

وكان الشيء المعول عليه في الجيش الفرثي في تلك الحقبة هو سلاح الفرسان، وهو القوة الضارية لديهم، وتتألف من قسمين رئيسيين هما الفرسان المدرعين بالأسلحة وبالدروع الثقيلة، وسلاح الفرسان الرماة الذين يرمون السهام،، وكان كل قسم من هذين السلاحين (الفرسان) أن يكمل عمل بعضهم البعض، فليس الفرسان المدرعين في جبهه والفرسان الرماة في جبهة أخرى، بل يكمل بعضهم البعض في الهجوم من الناحية التكتيكية، فكان الفرساة الرماة يرشقون العدو بوابل من السهام الكثيفة جداً، بحيث تحجب في بعض الفترات نور الشمس من كثرتها، فتصيب العدو بالصدمة وتستنزف قواه وتبعثر صفوفه، عندها تقوم قوات الفرسان المدرعة بهجوم جبهوي على مواضع العدو وتحصيناته، بعد أن أنهكتها سهام الفرسان، وأصابت منها مقتلاً عظيماً. وبجانب قوات الفرسان كانت قوات المشاة التي تمسك الأرض وتدافع عنها، وتشتبك مع العدو بالسلاح الأبيض إذا حمي وطيس الحرب، وكان عددهم كبير جداً قياساً إلى أرقام الجيوش في ذلك العصر من تاريخ الدولة الفرثية. (43)

وكان الفرسان الرماة يرتدون رداءً طويلاً يشد حول الخصر بحزام، وتدخل أطرافه السفلية في حذاء طويل من الجلد، وكان سلاحهم الحاسم القوس المركب، وكان تدريعهم خفيفاً مقارنة بغيرهم ليتمتعوا بسرعة أكبر وخفة في الحركة ودقة في التصويب. أما تدريع الفرسان، فكان يتكون من قطع الحديد التي تحمي الفرس والفرس، فضلاً عن الأغطية من الدروع، وقد أطلق الرومان على هؤلاء المدرعين بدروع كاملة بِـ Clibanari، وكان سلاحهم الرمح، الذي كان كثيراً ما ينفذ من رجلين نتيجة لعنفوانه، ولم يكن للرومان بد من مجاراة

القدرة القتالية والتكتيك عند الجيش الفرثي مراراً، ففي وصف لأحد المعارك كان الرومان مبهورين من هدير طبول الحرب التي كان يقرعها طبالوا الجيش الفرثي، أخرج الفرثيون أسلحتهم من أغمادها، وباتوا يتألقون، هم أنفسهم تألق النار، في خوذاتهم ودروعهم، لأن ذلك الحديد المارجيني يشع البريق وتوهج بنور ساطع، وكذلك كان حال الخيول المدرعة المغطاة بصفائح الحديد الفولاذية والحديدية، وبدأ الفرثيون من جانبهم بالرماية من مسافة بعيدة على الأعداء بسهام كثيفة من كل ناحية، وكانت هذه السهام المنطلقة حسنة التسديد صوب أجساد العدو الروماني، وكانوا يرمون النبال من أقواس شديدة التوتر، وكانت تقف إلى جانب الجيش الفرثي جمال محملة بالنبال، واقفة على أهبة الاستعداد، ويقربها الجند الفرثي، وهم يروحون ويرجعون محملين بالذخائر من هذه الجمال، التي أشبه ما تكون اليوم بمستودع أسلحة متنقل، ويجبرون العدو على الإيهام بالهزيمة، فإذا ما لحقهم العدو، أطبقوا عليه بالخيول والفرسان والرماة من كل جانب، وكانوا حين يلوحون بالهرب، يطلقون السهام باتجاه الخلف، وهي طريقة لم يعتاد عليها الجيش الروماني، فبعد انتهاء معركة الفرسان تبدأ مرحلة المشاة، لكن الجيش الفرثي، لم يكن ليضحي بالمشاة في مثل هذه المعارك، بل يطوق العدو ويجهز عليه (44).

وكان النبل الفرثي مشهوراً، وكذلك الخيل الفرثية الضخمة والمدرعة، والتي تركت لنا في رسومات على العملات أو الأختام في أواخر العصر الفرثي، وأوائل العصر الساساني، وثمة ملاحظة مهمة، ألا وهي حرص عامة الناس على ركوب الخيل في كل الأوقات، فهم يمتطونها في الحرب، وعندما يأكلون يتوقفون، وفي حالة تبديل المكان وفي حالة التجارة والحديث، فكل شيء يحدث وهم على صهوات الجياد (45).

الهوامش

(1) الحديثي: دراسات ص 59.

(2) محمد عبد القادر محمد: إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي، مكتبة الانجلو المصرية، ط/1،القاهرة،1982م،ص 152 .

(3) اليعقوبي: تاريخ 1/128 .

(4) الحديثي: دراسات ص 60..

(5) ارثر كرستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحى الخشاب بيروت 1982م، ص 19؛ الحديثي " دراسات ص 61.

(6) حلمي: 3500ص 219.

(7) حلمي: 3500ص219.

(8) حسين محمد حسين: الزرادشتية والنسطورية بين رجال الدين والسلطة السياسية، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 2988في 11ت22010م/1431هـ،ص1، H/. 10/6/2012.com. Yahoo .M. 10A

(9) يزف فيز هويز: فارس القديمة، ترجمة محمد جديد، مراجعة زياد منى،ط/1، شركة قدمس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009م ص 147 .

(10) هويز: فارس القديمة ص 147 .

(11) هويز: فارس القديمة ص 148

(12) هويز: فارس القديمة ص150 .

(13) هويز: فارس القديمة ص 151 .

(14) هويز: فارس القديمة ص149 .

(15) هويز: فارس القديمة ص152-151 .

(16) هويز: فارس القديمة ص 153-152 .

(17) هويز: فارس القديمة ص 154-153 .

(18) هويز: فارس القديمة ص 155-154 .

(19) هويز: فارس القديمة ص 155 .

(20) حلمي: 3500 ص 219.

(21) حلمي:3500ص 220.

(22) حلمي:3500ص220.

(23) حلمي: 3500ص220.

(24) حلمي: 3500ص221.

(25) حلمي: 3500ص 221.

(26) حلمي: 3500ص221.

(27) محمد: إيران منذ أقدم العصور ص 155.

(28) حلمي: 3500ص221

(29) محمد: إيران منذ اقدم العصور ص 154.

(30)حلمي: 3500ص221.

(31) هويز: فارس القديمة ص 161.

(32) حلمي: 3500ص 219.

(33) حلمي: 3500ص220.

(34) حلمي: 3500ص221.

(35) محمد: إيران منذ فجر التاريخ ص 159-158.

(36) حلمي: 3500ص، 147-146، 219.

(37) حلمي: 3500ص 219.

(38) حلمي: 3500ص 219.

(39) محمد: إيران منذ فجر التاريخ ص 152.

(40) محمد: إيران منذ فجر التاريخ ص153.

(41) حلمي: 3500ص 148.

(42) حلمي: 3500ص149.

(43) هويز: فارس القديمة ص 181.

(44) هويز: فارس القديمة ص 182.

(45) هويز: فارس القديمة ص 182.

4

الفصل الرابع

تاريخ الدولة الساسانية

قيام الدولة وتأسيسها :

ساهمت الفوضى التي حدثت في إقليم فارس في بداية القرن الثالث للميلاد، وضعفت قوة الاشكانيين، وكانت كل ولاية كما ذكرنا من قبل تخضع لملك أو متنفذ، يحكم تلك المنطقة تحت راية الشاهنشاه الأعظم في طيسفون، وكانت هنالك عدة أسر متنفذة في إقليم فارس منهم أسرة البرزنجيين الذين اتخذوا من مدينة اصطخر مقراً لحكمهم، فضلاً عن أسر أخرى كانت متواجدة في دارابجرد وغيرها في إقليم فارس.

كان ساسان هو الكاهن الأعظم لبيت النار الخاص بالالهة (أناهيتا) في مدينة اصطخر، وينتسب الملوك الساسانيون إلى أسرة آل ساسان، وهو كما قلنا أحد سدنة بيت نار اصطخر، قد استفاد ابنه بابك الذي خلفة في منصبه من صلته بالبارزنجيين، فنصب واحداً من أولاده الصغار (أردشير) في الوظيفة العسكرية الكبرى على مدينة (دارابجرد)،(1).

وتطلع أردشير إلى ارتقاء عرش إيران، وهو رجل من عائلة نبيلة تزوج فتاة من أسرة البرزنجيين، وقد استفاد ابنه بابك (2)، الذي خلفه في وظيفته من صلته ببيت البرزنجيين الكبيرة الحاكمة في اصطخر، فنصب واحداً من أبنائه الصغار المدعو أردشير في الوظيفة العسكرية الكبرى على مدينة دارابجرد، وابتداءً من سنة 212م أو بعده بقليل أصبح أردشير سيداً على كثير من مدن هذا الإقليم وذلك بالقضاء على حكامها، بينما ثار بابك على قريبه الملك جوتهر بمهمة في مقره في القصر الأبيض بمدينة اصطخر وقتله وتولى الحكم بدلاً عنه (3).

وقد تلقب أمراء إقليم فارس الذي كان مركزه مدينة اصطخر بلقب شاه منذ قيام الدولة الفرثية (الاشكانية)، وهو لقب أخذ يحل محل لقب حاكم، مما يدل على تطور سياسي واضح في المفاهيم السياسية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ إيران. لصالح هذا الإقليم مقارنة مع ما كان يطلقه الحكام السلوقيين أو الفرثيين الذين كان حكام إقليم فارس تابعين لهم، وعلى الرغم من وجود امارات صغيرة في إقليم فارس، إلا أن ولاية اصطخر كانت أكبر هذه المناطق، لما تتمتع به من ثقل سكاني وجغرافي واقتصادي، فضلاً عن القوة العسكرية التي تملكها هذه المنطقة. ومثلما كانت هذه المنطقة مقراً للحكام الأخمينيين قدر لها أن تلعب دوراً مهماً في العصر الساساني، وفي تاريخ المنطقة في ذلك الوقت.

توفي بابك وخلفه في الحكم ابنه سابور الذي ورث العرش، فنشب صراع عسكري بينه وبين أخيه أردشير على العرش، واشتعلت الحرب بين سابور واخيه أردشير، ولكن سابور توفي فجأة، وربما قتل أو دسّ له السم بتدبير من أعوان أخيه أردشير، فأصبح أردشير ملكاً على ولاية فارس، بعد أن منحه الولاء أخوته، فتصب ملكاً أو شاهاً على ولاية اصطخر، ثم تخلص من إخوته فيما بعد خشية تكرر الخيانه والثورة عليه مستقبلاً.

وقد وسع أردشير من نفوذه فتقدم نحو الشمال فاحتل أصفهان وأرجان، ثم توجه غرباً وسيطر على الأحواز وميسان، ثم وجهه شمالاً نحو همدان وأذربيجان والموصل والجزيرة والعراق (السواد)، فضمهم إلى مملكته، ثم توجه شرقاً فاستولى على جان ومرو وبلخ وخوارزم، واكتسح دول ملوك الطوائف جميعها وتم له إخضاع هذه الممالك والمدن، وبذلك ورث ملك الدولة الفرثية (4)، كما دان له ملك الحيرة وأهل الأنبار (5). ولم يكتف أردشير بهذه السيطرة على أرث الدولة الفرثية، بل إمتد سلطانه ونفوذه إلى الدول المجاورة للدولة الساسانية، فقد راسله ملك الكوشيين (منطقة كابل والبنجاب أي الأنهار الخمسة) وملكي توران ومكران (حالياً مقاطعة قصدار) المطلة على الساحل الشرقي للخليج العربي والمحيط الهندي (6).

وصلت أنباء تحركات شاه فارس أردشير إلى مسامع الملك الأشكاني، فعدّ بابك وولده ثائرين، وكتب الملك الفرثي أردوان الخامس رسالة إلى أردشير جاء فيها : (إنك قد عدوت قدرك، واجتلبت حتفك أيها الكردي ! من أذن لك في التاج والبلاد ؟ ومن أمرك ببناء المدينة ؟)) وأعلمه أنه قد كتب بأمره إلى واليه على الأحواز، أن يذهب لقتال أردشير وأن يحمله مصفداً إلى المدائن، أجاب أردشير الملك الفرثي برسالة جاء فيها : (إن الله حباني بالتاج وملكني البلاد، وأنا أرجو أن يمكنني منك، فأبعث برأسك إلى بيت النار الذي أسسته) (7)

فأرسل حاكم الأحواز إلى حاكم أصفهان أن يتوجه لقتاله، إلا أن أردشير انتصر على ملك أصفهان وتوجه لقتال ملك الأحواز الذي قتل في المعركة، ثم توجه أردشير للسيطرة على منطقة ميسان (العمارة حالياً وتقع في العراق) وكانت تقطنها قبائل عربية وتحكم من قبلهم تحت حماية الدولة الأشكانية، وضمن تحالفات محلية.

توجه أردشير بعد ذلك صوب ملاقاة الملك الاشكاني فخاض معه معركة حامية قتل فيها الملك الاشكاني، وقضى على آخر ملوك الأشكانيين (أردوان) في 28 نيسان سنة 224م، فتوج رسمياً ملكاً لملوك إيران، (شاهنشاه)، وتأسست بذلك أسرة جديدة تحكم إيران هي الأسرة الساسانية وحدثت هذه المعركة في نيسان من عام 224م ودخل أردشير مدينة سلوقية دجلة عاصمة الاشكانيين، وأعلن نفسه شاهنشاهاً (8)، بدل الملك الاشكاني، وأدعى أنه الوريث الحقيقي للدولة الاشكانية، ولكي يؤكد حقه الشرعي في الحكم تزوج من ابنة الملك الاشكاني فأنجبت له ولداً (شابور) حتى يكتسب الشرعية في حكم البلاد (9) وليقطع الطريق على بقية الملوك الاشكانيين في المطالبة بالعرش.

ثم عمل أردشير على تثبيت ملكه بغزوه لـِ (كرمان) ولسواحل الخليج العربي وأصفهان وميسان، وكما نعلم فإن اردشير قد توج رسمياً ملكاً للأسرة الساسانية، ولانعرف بالضبط متى تم التتويج ولا في أي مكان حدث التتويج، لكن من المرجح أن يكون التتويج قد تمّ في بيت نار أناهيذا في اصطخر، حيث مقر الأسرة، ولكون جده كبير الأسرة كان كبير الموابذة فيها، ومما يؤكد هذا الرأي النقوش التي اكتشفت في المنطقة والتي خلدت هذا التتويج (10).

ولما وضع التاج على رأس الملك أردشير قال : (الحمد لله الذي خصنا بنعمه وشملنا بفوائده وقسمه، ومهد لنا البلاد، وقاد إلى طاعتنا العباد، نحمد حمد من عرف فضل ما آتاه، ونشكره شكر الداري بما منحه واصطفاه، ألا وإنا ساعون في إقامة منازل العدل، وإدارا الفضل وتشييد المآثر وعمارة البلاد والرأفة بالعباد، ورم أقطار المملكة، وردم ما انخرم في سائر الأيام منها، فليسكن طائركم أيها الناس، فإني أعمُّ بالعدل القوي والضعيف والدميء والشريف، وأجعل العدل سنة محمودة وشريعة مقصودة، وسترون في سيرتنا إلى ما تحمدوننا عليه، وتصدق أفعالنا أقوالنا، إن شاء الله تعالى والسلام)) (11).

واهتم أردشير بمبدأ العدالة وحث على وجوب مراعاته، كما اهتم بالشؤون الدينية، فمنح الدين الزرادشتي، أهمية كبرى، وعين له هيئة دينية لرعايته وحمايته من الأفكار المعارضة له (12)، فـ (رتب أردشير المراتب فجعلها سبعة أفواج فأولها الوزراء ثم الموبذان موبذ وهو القائم بأمر الدين وهو قاضي القضاة وهو رئيس الموابذة) (13). ونتيجة للتوسع الذي حصل في الدولة الساسانية، وتوفر الأموال لدى الملك أردشير قام ببناء عدة مدن أطلق عليها أو أضاف لها اسمه ومنها : أردشير خرة (جور) وهي اليوم فيروز آباد، رام أردشير، ريو

أردشير، هرمز أردشير (سوق الأحواز) بيه أردشير، (فرات البصرة)، استاباذ أردشير، (كرخ ميسان بالقرب من عبادان)، فا أردشير (في سواحل البحرين)، بودر أردشير (قرب مدينة الموصل) وهي حزّة، وأي بهرسير مقابل المدائن، وبردشير في كرمان، وبهمن أردشير على دجلة البصرة، والبصريون يسمونها بهمن شير (14)، ومدينة رامهرمز بخوزستان (15). كما قام بتنظيم أمور المملكة والأسس التي تقوم عليها الدولة الساسانية (16). وبنى أردشير مدينة جور وبنى الجوسق (القصر) المعروف بالطّربال وبيت نار.

ولقد أشاد المؤرخون بجدارة الملك أردشير الحربية، وبآرائه السياسية السديدة، كما أنشأ المعابد في جميع أرجاء دولته وشق الترع وغيرها من المنشآت ذات النفع العام (17)، والمصادر التي بأيدينا لاترسم لنا صورة عن الملك أردشير بدقة، فهي لاتهتم في تصوير نواحي الأخلاق، والصور التي ذكرت للملوك الساسانيين بل تصورهم على أنهم ملوك من ذوي الأخلاق والفضيلة، المملوئين غيرة على التقدم المادي والروحي للدولة وتنقل عنهم النصائح والحكم، وعلى هذا الشكل قدمت لنا صورة الملك أردشير المزودة بالحكم والامثال، وتشير إلى جدارته الحربية وكفائته السياسية (18)

واجه أردشير معارضة من بعض المناطق المجاورة له، فقامت ثورة في منطقة دارابجرد، استطاع من اخمادها، ثم وسع نفوذه في منطقة كرمان، وأسر ملكها ثم عين ابنه أردشير حاكماً على كرمان، وبنى معبداً للنار في فيروز آباد، ثم وسع نفوذه فسيطر على المناطق الجنوبية المطلة على الضفة الشرقية للخليج العربي (19).

كان النظام الإداري في عهد الاشكانيين نظاماً لا مركزياً، تمتع فيه الملوك (الشاهات) بالحرية في إدارة شؤون ولاياتهم، ولهذا لم يعنِ دخول أردشير للعاصمة المدائن شيئاً كثيراً، بالنسبة لهم، فقد ظل هؤلاء الحكام يحكمون مناطقهم لنفسهم بعد زوال الدولة الاشكانية، وكأن عبئاً كبيراً انزاح عنهم لأنهم كانوا يقدمون الضرائب للملك الاشكاني، لهذا كان على أردشير أن يخضع هؤلاء الحكام في إيران لسيطرته ولينتزع ولاءها للعهد الجديد (20)، وفي السنين التالية أخضع ميديا وهمدان، ثم توجه شمالاً باتجاه أرمينية (21)، وأذربيجان، ثم توجه نحو الموصل وأخضعها، ثم توجه إلى سواد العراق فأخضعه لسيطرته، ثم توجه إلى اصطخر، ثم بدأ بحملة واسعة أخضع خلالها سجستان وخراسان ومرو وبلخ وخوارزم لسيطرته (22)، لكنه لم يستطع أخضاع مدينة الحضر، رغم حصاره لها فترة من الزمن فتركها على أمل أن تسنح له أو لغيره فرصة أخضاعها للدولة الساسانية (23).

كما ارتبط الملك الساساني أردشير بعلاقات متميزة مع ملوك وحكام الدول المجاورة مثل ملك كوشان (كابل والبنجاب) وملك مكران، وكان أردشير يسعى سعياً حثيثاً إلى اقتفاء آثار عظماء الملوك الاخمينيين إذ عد نفسه وريثاً لهم بإعادة الحكم للساسانيين (24).

ولم يكتف أردشير باقامة هذه الدولة المترامية الأطراف في ذلك الوقت، وإنما أكمل دستور الملك ورتب المراتب وأحكم السير ونفذ الأمور بنفسه، وقام ببناء ستة مدن في مملكته، ودون أعماله على الصخر في نقشين في مدينة اصطخر مركز السلالة الأخمينية من قبل (25). وقد وصف أردشير بأنه رجلاً (محمود السيرة مظفراً منصوراً لا ترد له راية، ومدّن المدن وكوّر الكور ورتب المراتب وعمر البلاد) (26).

عهد سابور الأول:

تنازل أردشير عن الحكم لابنه سابور (27)، ثم توفي في سنة 241م، ولا نعرف السبب الذي دعاه إلى التنازل عن الحكم لابنه سابور، هل هو المرض ؟ أم التعب الذي أصابه جراء الجهد الذي بذله في تأسيس الدولة الساسانية ؟ أم أن مجلس العظماء قد طلب منه ذلك، لأن الدولة تحتاج إلى رجل قوي يباشر المعرك بنفسه، وخاصة الخارجية منها ؟ أم تفرغ للعبادة حسبما أشار المؤرخ المسعودي (28)

كل هذه الأسئلة لاتجيبنا المصادر عنها بشيءٍ يشفي غليل السائل في هذا الجانب. وقد أوصى أردشير ابنه سابور بجملة وصايا نذكر منها: (يابني إن الدين والملك أخوان ولا غنىً لواحد منهما عن صاحبه، فالدين أس الملك، والملك حارسه، وما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع) (29).

وتلقب الملك الساساني الجديد بشابور الأول (سابور)، وقد سار سابور على خطى والده أردشير في المحافظة على الدولة الفتية التي خلفها له أبوه، لكنه واجه جملة من المشاكل أبرزها هي محاولات البيت الاشكاني لإسترداد الحكم من الساسانيين، ويبدو أنهم بدأوا بتجميع شملهم الآن في عهد سابور، لأن أردشير لم يترك لهم مجالاً لإلتقاط أنفاسهم وتوج الملك الساساني سابور رسمياً سنة 242م، فظهر ماني في أيامه، فـ ((ظهر ماني الزنديق وادعى النبوة، وتبعه خلق كثير وهم الذين يسمون المانوية)) (30)، فتساهل مع المانوية ورحب بهم وقد قال ماني عن ذلك : ((وقد مثلت في حضرة الملك سابور فأحاطني برعايته، ثم أتاح

لي أن أجوب مملكته وأن أعظ بكلام الحياة، وقد أمضيت سنين عدداً في حاشيته وسنين كثيرة في إيران)) (31). ومن وصايا الملك سابور: ((إذا استكتبت رجلاً فأسن رزقه، وشد بصالح الأعوان عضده، وأطلق بالتدبير يده)) (32)

توفي سابور في سنة 272م، فخلفه ابنه هرمزد الأول سنة 273م، ووصف بأنه ((كان يشبه في خلقه جده أردشير، وكان من البطش والجرأة على أمر عظيم)) (33)وكان يسمى بالبطل (34)، وعندما تولى الملك الساساني هرمز خراسان فقام بقهر المناوئين له، وعدل في رعيتّه، وكان صادقاً، وبنى مدينة كورة رامهرمز)) (35)، وتتعدم لدينا بقية المعلومات عن هذا الملك فلا نكاد نعرف شيئاً عن الأحداث السياسية في عهد هرمزد الأول 273-272م، سوى وصيه تركها لولي عهده، ومما جاء فيها : ((وزيرك يكون مقبول القول عندك، قوي المنزلة لديك، يمنعه مكانه منك، وما يثق به من لطافة منزلته عنك من الخنوع لأحد، أو الضراعة إلى أحد، أو المداهنة لأحد في شيء مما تحت يديه، لتبعثه الثقة بك على محض النصيحة لك، والمنابذة لمن أراد غشك، وانتقاصك حقك، وإن أورد عليك رأياً يخالفك، ولايوافق الصواب عندك، فلا تجبهه جبه الظنين، ولا ترده عليه بالتجهم فيفت في عضده ذلك، ويقبضه عن ابثاثك كل رأي يلوح صوابه، بل إقبل مارضيت من رأيه، وعرفه ما تخزفت من ضرر الرأي الذي انصرفت عنه، لينتفعوا بأدبك فيما يستقبلون النظر فيه، وأحذر كل الحذر من أن تنزل بهذه المنزلة سواه، ممن يطيف بك من خاصتك وخدمك، وأن تسهل لأحد منهم السبيل إلى الانبساط بالنطق عندك، والافاضة في أمور رعيتك ومملكتك، فإنه لا يوثق بصحة آرائهم، ولايؤمن الانتشار فيما أفضي من السر إليهم)) (36). ومن يتصفح هذه الوصية يجد في طياتها أموراً مهمة قلما يلتفت إليها حتى السياسيين في الوقت الحاضر، ففيها تعليم وتوجيه لملك المستقبل، في التعامل مع أقرب الناس إليه وهو الوزير، وفيها دروس في الحفاظ على السر وعدم الاستماع إلى كل ما يقال من الرعية أو العظماء للملك، لأنه قد تخفي هذه النصائح أهدافاً للشخص الذي قدم مثل هذه النصائح وهو بمنزلة غير منزلة الوزير.

وتولى الحكم بعد هرمز ابنه بهرام الأول 276-273م، ولا نعرف شيئاً يسيراً عنه سوى مدة حكمه، أما ماهي الأعمال التي قام بها، فلا تمدنا المصادر بشيءٍ عنها، مما يجعل التكهن بالأحداث في عهده صعباً. وقد وصفه أحد المؤرخين فقال عنه : ((وكان حليماً متأنياً حسن

السيرة، وقتل ماني الزنديق وسلخه وحشا جلده تبناً وعلق على باب من أبواب جنديسابور يسمى باب ماني)) (37). وأمر بعمل شروحات لكتاب الزرادشتية الأفستا (38)

وبعد وفاة بهرام الأول تولى الحكم من بعده ابنه بهرام الثاني (293-276) (39م) الذي انشغل في حرب الرومان حتى وفاته سنة 293م، كما انشغل بالقضاء على تمرد أخيه هرمزد الأول في إقليم سجستان ومحاولته الانفصال عن الدولة الساسانية، وإقامة أمارة مستقلة له في منطقة سجستان، ولخطورة هذا التمرد وأهميته، لأن الذي يقود التمرد هو أخو الملك ومن الأسرة الساسانية الحاكمة ولا بد أنه كان يتمتع بشعبية دعته إلى القيام بهذا التمرد، وما يشكله هذا التمرد من خطورة على العرش الساساني في طيسفون (40)، ووصف بهرام الثاني بأنه : ((كان ملكه حسناً وكان عالماً بالأمور، فلما عقد له التاج وعدهم بحسن السيرة)) (41)، وعندما لبس التاج ونصب ملكاً ((دعا له العظماء بمثل ما كانوا يدعون لآبائه، فرد عليهم مرداً حسناً، وأحسن فيهم السيرة، وقال : إن ساعدنا الدهر نقبل ذلك بالشكر، وإن يكن غير ذلك نرضَ بالقسم)) (42).

وبعد وفاته تولى ابنه بهرام الثالث العرش، و((فلما عقد التاج على رأسه إجتمع إليه العظماء، فدعوا له ببركة الولاية وطول العمر، فرد عليهم أحسن رد)) (43)

((عندما عقد له التاج على رأسه دعا له العظماء، فأحسن الرد، وكان قبل أن يفضي إليه الأمر ملكاً على سجستان)) (44)، وذلك لأهميتها العسكرية والاقتصادية والاستراتيجية، لأنها تسيطر على عقدة مواصلات البامير وتسيطر على ممر خيبر الذي يؤدي إلى بلادج الهند في ذلك الوقت.

ولكن حكمه لم يدم سوى أربعة أشهر، إذ ثار عليه عمه (نرسي بن بهرام)، والذي لم يكن موفقاً أيضاً في حربه مع الرومان، وعندما تولى العرش نرسي بن سابور، وتولى الحكم وعقد له الأمر قال : ((فلما عقد التاج على رأسه دخل عليه الأشراف والعظماء فدعوا له، فوعدهم خيراً وسار فيهم بأعدل السيرة وقال : لن تضيع شكر ما أنعم الله به علينا)) (45).

وأمرهم بمكانفته على أمره وسار فيهم بأعدل سيرة (46). وبعد وفاة نرسي بن بهرام تولى ابنه (هرمزد الثاني) بعده الحكم 310-302م، وقد حارب الرومان،((وكان الناس قد وجلوا منه لفضاضته، فأعلمهم أنه قد علم بما كانوا يخافون من شدة ولايته، وأن الله قد أبدل ما كان فيه من الفضاضة رقة ورأفة، وساسهم أرفق سياسة، وكان حريصاً على انتعاش الضعفاء

وعمارة البلاد والعدل)) (47)، وقد قتل هرمزد الثاني في أحد معاركه مع العرب (48). ومن هنا نجد مدى حقد سابور ذي الأكتاف على العرب.

إن هذه الاشارة الفريدة تشير إلى عظم قوة العرب، وشدة شكيمتهم، وأنهم قد فكروا في التخلص من ظلم الساسانيين، ومن ينظر في هذا الأمر يجد العجب، فالحالة قد استوجبت مشاركة الملك في المعركة وقيادته للقطعات العسكرية، مما يدل على أنها معركة مصيرية، وتدل قوة العرب وفعالية خططهم إلى قوة هذه المعركة، واستعدادهم لها، بحيث وضعوا خطة لقتل رئيس الدولة الساسانية، ونحن نعرف قوة الدولة الساسانية في مطلع القرن الرابع للميلاد.

ثم خلفه ابنه آذر- نرسي الذي عزله العظماء والأشراف والموبذان موبذ، عن العرش بعد عدة أشهر، وعينوا أخاه سابور الثاني، الذي حكم البلاد قرابة الـ 70سنة من 379-309م، وساعدته أمه أول الأمر إذ كانت وصية عليه حتى بلغ سن الرشد، وأطلق عليه سابور ذي الأكتاف، وهو الذي دخل في حروب طاحنة مع العرب، وأبدى هذا الملك اهتماماً بالإصلاح، وأعد العدة لهزيمة روما (49).

ويعد سابور الثاني من بين أبرز الملوك الساسانيين الذي ذكرته مصادرنا العربية وعرفت مزاياه، فقد كان مهيب المنظر جريئاً ذا قامة مديدة، وكان مزهواً بقدراته، وشيد عدة مدن في إيران (50)، وفي أحد الأيام سمع أصواتاً كثيرة، فسأل عن السبب فقيل له : إن الناس يزدحمون على الجسر الذي على دجلة، فأمر بإقامة جسر آخر قبالة المدائن، فجعل واحداً للذهاب والآخر للاياب (51). كما بنى الإيوان الذي يعرف بطاق كسرى ((وكان الأكاسرة قبل سابور ذي الأكتاف ينزلون طيسفون وهي المدينة الغربية من المدائن، فلما نشأ سابور بنى الايوان بالمدائن الشرقية، وانتقل إليه وصار هو دار الملك)) (52). وكان سابور قد نقم على العرب، فلما استقرت أمور المملكة جهز جيشاً كبيراً وتوجه به نحو ديار العرب فسار إلى البحرين وهجر وبها ناس من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فقتل منهم حتى سالت دماؤهم على الأرض، وأباد عبد القيس، وقصد اليمامة، وأكثر في أهلها القتل (53)، وكلنا نتذكر العربية الأبية زرقاء اليمامة التي قصت لأهلها ما رأته فقد رأت شجراً يمشي فضحكوا منها ! ففاجئهم سابور ذي الأكتاف صباحاً، وكان قد وضع على رأس كل جندي من جنده غصناً يحوي أوراق الشجر للتمويه.

وقام سابور بتغوير مياه العرب أي طمرها وطمسها حتى لايعودوا إلى هذه المنطقة بعد هذه الحملة العسكرية، ثم قصد بكراً وتغلب فيما بين مناظر الشام والعراق (المنظرة : هي مكان مرتفع يستخدم للرصد) فقتل وسبى وغوّر مياههم، وانتقلت أياد حينئذٍ إلى الجزيرة، وصارت تغير على السواد، وكان لقيط الأيادي مع سابور فكتب أبيات من الشعر أرسلها إلى قبيلة أياد جاء فيها :

سلام في الصحيفة من لقيط ... إلى من بالجزيرة من أياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلنكم سوق النّقاد

أتاكم منه سبعون ألفاً ... يزجون الكتائب كالجراد

فلم يقبلوا من لقيط هذه النصيحة، وداموا على الإغارة على السواد، فكتب إليهم مرة ثانية:

أبلغ أياداً وطوّل في سراتهم أني ... أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

فلم يحذروا، وأوقع بهم سابور وأفناهم، إلا من لحق بأرض الشام (54) وبعد وفاة سابور الثاني خلفه في الحكم أخيه أردشير الثاني بن هرمز (383-379م)، فلما عقد التاج على رأسه جلس للعظماء فلما دخلوا عليه دعوا له بالنصر وشكروا عنده أخاه سابور، فأحسن جوابهم، وأعلمهم موقع ما كان من شكرهم لأخيه عنده،)) (55)

فلما ملك واستقر له الأمر والملك، عطف على العظماء وذوي الرئاسة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، فخلعه الموبذان موبذ والعظماء وكبار قادة الجيش لما أصابهم منه (56).بعد أربعة سنوات من حكمه.

ثم سابور الثالث ابن سابور الثاني (388-383م)، والذي تولى الملك بعد خلع عمه، واستبشر الناس بعود ملك أبيه إليه، وعنما تولى الملك ولبس التاج، كتب إلى العمال بالعدل والرفق بالرعية، وأمر بذلك وزراؤه وحاشيته، وأطاعه عمه المخلوع بعد ذلك، وأحبته الرعية، ثم إن العظماء وأهل الشرف قطعوا أطناب خيمته وهو نائم فيها فسقطت عليه فقتلته (57).

وهذا العمل يثير تساؤلات كثيرة عن أهداف هذه الطبقات من العظماء والأشراف وأهل البيوتات، لأن قتل ملك يولد مشكلة أكبر من قتله، وبخاصة إذا لم يكن له ولي عهد، وإذا كان له ولي عهد ويتولى بعد مقتل أبيه أو أخيه فسيثير مشكلة كبيرة للدولة الساسانية مستقبلاً إن سنحت له أية فرصة للإنتقام من القتلة.

وبعد مقتله تولى الحكم أخوه بهرام الرابع ابن سابور الثاني ذي الأكتاف (399-388م)، الذي كان يلقب بلقب كرمان شاه، لأنه كان يتولى حكم كرمان في حياة أبيه، وبعد توليه الملك، كتب إلى العمال والقواد يحثهم على الطاعة ويأمرهم بتقوى الله والنصيحة للملك، وكان هذا الملك محموداً في أموره، حسن السياسة لرعيته، محموداً في أمره، وبنى كرمان وعمرها، وقد ثار به بعض الفتاك فرماه أحدهم بنشابة فقتله (58)، ويبدو من سيرته أنها لاتروق لكبار رجال الدولة والعظماء الذين تعودوا على الجشع والطمع وكسب الأموال بطرق غير شرعية، لهذا تخلصوا منه بهذه الطريقة.

وكان هؤلاء الملوك الثلاثة السابق ذكرهم، ملوكاً ضعفاء، استعاد عظماء الدولة في عهودهم ما فقدوه فيما سبق، وقد عزل العظماء الأول وذاق الآخران الموت الزؤام.

ثم تولى الحكم من بعدهم يزدجرد الأول (421-399م)، وكان ملكاً مملوءاً بالنشاط ميالاً إلى الخير، رتب أمور الدولة بعد فترة ضعف مرت بها، فأعاد بناء ما تهدم من الكنائس، وأعطى الحرية الدينية للمسيحيين في الأراضي الخاضعة لسيطرته. وتسميه المصادر الفارسية بالأثيم، ولا نعرف هل أن هذه التسمية لحقته لرفقه بالنصارى ؟، أم أنه أخذ بتقليص دور رجال الدين والعظماء، فقد وصفوه : ((كان فظاً غليظاً ذا عيوب كثيرة، يضع الشيء في غير مواضعه، كثير الرؤية للصغائر، واستعمال كل ماعنده في المواربة والدهاء والمخاتلة، مع فطنة بجهات الشر، وعجب فيه (تكبر)، وكان فيه مع ذلك ذكاء وحسن أدب))(59).

واستوزر نرسي حكيم زمانه، وكان نرسي فاضلاً قد كمل أدبه ولقبه الملك يزدجرد بِ هزار بيده، فتأمل الناس منه أن يصلح سلوك الملك وتصرفاته غير المتزنة، فكان ما أملوه بعيداً، فلما استوى له الملك، وإشتدت شوكته هابته الأشراف والعظماء، وحمل على الضعفاء، فأكثر من سفك الدماء، ثم أدركته الوفاة،إذ ضربه فرس جموح على قلبه، فأرداه قتيلاً (60).

وولد ليزدجرد ولد اسمه بهرام، فعهد بتربيته إلى المناذرة (61) وأحسن النعمان وابنه في تربية بهرام. وترك يزدجرد الأول بعد وفاته سنة 421م ثلاثة أبناء هم سابور وبهرام ونرسي، وكان يزدجرد قد عهد له بالملك، وتوج ملكاً، فأراد الأشراف ورجال الدين إبعاد أبناء يزدجرد عن الحكم نهائياً، فقتلوا سابور ونصبوا شخصاً من الأسرة الساسانية لقبوه بكسرى، لكن بهرام ابن يزدجرد استعان بمربيه المنذر بن النعمان يساعده العرب، فدخل المدائن بمساعدة العرب، فارتاع الأشراف وأهل البيوتات (62)، وبدأوا يفاوضون المنذر بن النعمان ملك الحيرة وربيبه بهرام (63).

وبعد جلوسه على العرش، طلب العظماء والوزراء والأشراف من المنذر أن يكلم بهرام في العفو عنهم، فسأل المنذر الملك بهرام ذلك فأجابه (64)، وتلقب بهرام ببهرام الخامس، وتقرب إلى الناس بتخفيض الضرائب عن أصحابها عطفاً منه على الناس أجمعين، وكان مطبوعاً على الجد والنشاط، وكان يقول الشعر العربي ويتذوقه، ويجزل العطاء لقائله بسبب نشأته في بلاط الحيرة، فضلاً عن اتقانه عدة لغات أخرى غير اللغة الفارسية، مثل العربية، الدرية الفهلوية، التركية، الزابلية، العبرية، الهندية، الرومية النبطية والهروية (65).

توفي سنة 439م (66) ووضع بهرام دفاتر البقايا (ديون الدولة على الفلاحين أي الخراج، فشكر له الناس ذلك وكان مبلغاً عظيماً (67)، قدر بـ 70000000درهم أي ما يعادل سبعين مليون درهم. وقد بنى بهرام مدينة في إقليم طبرستان عرفت بمدينة فيروز بهرام (68)

وخلفه ابنه يزدجرد الثاني بن بهرام سنة(457-439م) في الحكم، لكنه لم تكن له صفات أبيه، في الحزم والشدة والتقرب من الرعية، وجرت الحرب بين الفرس والروم، لكنها لم تؤثر في الأوضاع بشكل كبير، ولما لبس التاج جلس للناس ووعدهم وذكر أباه ومناقبه، وأعلمهم إنهم إن فقدوا منه طول جلوسه لهم، فإن خلوته في مصلحتهم وكيد أعدائهم، كما استوزر الوزير نرسي وزير والده من قبل وعدل (في رعيته وقمع أعداءه وأحسن إلى جنده) (69).

وتوفي يزدجرد الثاني سنة 457م، وترك ولدين متنافسين على العرش أحدهما هرمزد الثالث الذي كان حاكماً على سجستان، وهو الذي أصبح ملكاً بعد ابيه، أما أخاه فيروز الذي كان حاكماً على أحد المناطق، فالتجأ إلى الترك وطلب العون من ملكهم، فشرط عليه ملك الترك التنازل له عن الطالقان ففعل وأعطاه الطالقان، فجمع فيروز جيشاً وهاجم أخاه الملك

هرمزد الذي كان في مدينة الري (تقع شمال طهران حالياً) فقتله وتولى الحكم وأبعد والدته التي كانت تحكم في طيسفون أثناء الصراع بين الأخوين (70).

لم يكن فيروز موفقاً في حكمه (484-459م) فقد ساد البلاد قحط طويل الأمد، حاول فيروز أن ينظم الضرائب ويخففها عن الفلاحين، ووزع الغلال (البطاقة التموينية) على الناس ليحميهم من المجاعة، التي استمرت سبعة سنين كسنين يوسف (، فـ ((غارت الأنهار والقنى، وقلّ ماء دجلة، ومحلت الأشجار، وهاجت عامة الزروع في السهل والجبل من بلاده... وعمّ أهل البلاد الجوع والجهد الشديد، فكتب إلى جميع رعيته يعلمهم : أنه لاخراج عليهم ولا جزية ولا مؤونة)) (71).

وكان فيروز يظهر التدين والنسك، وفي عهده ثارت القبائل التركية في الشرق والشمال فخاض حرباً ضروساً فقد فيها، لمرتين متتاليتين، فقتل في أحد هذه المعارك وعرف من ملابسه(72).

وبعد مقتل فيروز تولى أخوه بلاش الملك من بعده، وفي عهد هذا الملك الساساني، تحولت الدولة الساسانية إلى مملكة ذليلة، دانت بتبعيتها إلى ملك الهياطلة (الترك)، وقد فقدت الدولة الساسانية خيرة جندها، وعجزت الدولة عن توفير رواتب الجند واعطياتهم، عمل بلاش على التقرب إلى الرعية ومتابعة أحوالها وعاقب كل من كان سبباً في جلاء بعض الناس عن قراهم، وكان لا يبلغه أن بيتاً قد خرب وجلا أهله عنه إلا عاقب صاحب القرية التي فيها ذلك البيت على تركه انعاشهم وسد فاقتهم حتى لايضطروا إلى الجلاء من أوطانهم، ووصف الملك بلاش بحسن السيرة وكان حريصاً عهلى عمارة الأرض، وبنى مدينة ساباط بقرب المدائن (73)، ولكنه لم يكن الرجل الذي يجب أن يكون لإحياء الدولة وإعادتها إلى سابق عهدها، فضيق ذات اليد أطمع فيه العظماء وساد التذمر منه على الرغم من اخلاصه للدولة الساسانية، فعزل وسملت عيناه، بعد حكم دام أربعة سنوات (74).

وعين العظماء من بعده قباذ بن فيروز بن يزدجرد في سنة 488م الذي ناصر المزدكية (75)، فاستفحل غضب العظماء لتأيده للمزدكية، وبدأ قباذ حكمه بالعنف والقتل لكل من عارضه في الحكم، وأدخل على النظام الإداري بدعاً، وكان مستعداً للاطاحة بالنظام القائم وقلب حياة الأفراد رأساً على عقب والقضاء على المتعارف عليه فيما مضى من أيام الدولة الساسانية، وعمل على القضاء على الآداب القديمة، فاتصل بمزدك ودخل في مذهبه،

وتصرف وفق المبدأ الجديد، فأصدر قوانين تبيح النساء والأموال، وقد تحالف مع المزدكية بقصد تحطيم قوة الأشراف، حسبما يبدو للمطلع على أوضاع الدولة وسيطرة الأشراف والعظماء على كل شيء في الدولة، فقامت ثورة في القصر، بعد عشرة سنوات من حكم قباذ، أثارها الموبذان موبذ وبعض كبار رجال الدين الزرادشتيين، وعزلوا قباذ ونصبوا أخاه جاماسب على العرش (76)، واجتمع الأشراف الذين كونوا مجلس شورى الملك تحت رئاسة جاماسب، ليتداولوا في مصير قباذ، فأشار بعضهم بأن الأفضل قتل الملك المعزول، ولكن الأكثرية رفضوا اقتراحه، وأشاروا بحبس قباذ، فحبس قباذ، ولكن قباذ هرب من السجن بمساعدة أحد أعوانه، وبتدبير من أخته (77)، وهرب معه إلى بلاط ملك الهياطلة، فاستقبله خاقان الترك، وزوجه ابنته، وأمده بجيش لإستعادة عرشه، بعد أن وعده قباذ بدفع الجزية له، إذا نجح في العودة إلى الحكم، فدخل طيسفون بدون حرب تقريباً في سنة 498م أو 499م، وقد حدثت اضطرابات في مناطق متعددة أهمها ثورات الأرمن في أرمينية.

آثر قباذ بعد عودته إلى الحكم، الهدوء وتسمى بالملك الرحيم والعادل وتقرب إلى الناس، ثم قرر في حياته أن يعفوا عمن أساء إليه فعفا عن أخيه جاماسب وقبل اعتذار الأشراف، وشن حرباً على الأرمن والروم، وفي سنة 519م، أثار قباذ مسألة وراثة العرش، وعمل على استعادة حق الملك في اختيار وريث له ونجح في ذلك، فأراد أن يثبت للجميع أن إختياره سليم، وكان قباذ قد لأعد ابنه كسرى أنوشروان لتولي العرش، وعرف عن كسرى معارضته للمزدكية، فدعا قباذ إلى مؤتمر ديني حضره كبير المزدكية ورؤساء الفرقة، وعمل قباذ على دعوة أكبر عدد من زعماء المزدكية إلى القصر، ثم ترأس قباذ الاجتماع، وبعدها أعد قباذ خطة للاصلاح طبقها في أواخر أيامه ونجح في ذلك، لكن التنفيذ الفعلي بدأ في عهد ابنه وخليفته كسرى أنو شروان، الذي جنى ثمار سياسة أبيه. وكان كسرى قد أعد العدة لمواجهة المزدكية وشعر بأن سلطانه مهدد مستقبلاً بوجود المزدكية، فجاء كسرى أنوشروان بأقوى المناظرين من الموابذه وحضر الموبذان موبذ الاجتماع، وشارك فيه أيضاً اسقف النصارى إيران، فارتج على المزدكية وغلبوا، وهجم الجند على زعماء المزدكية فقتلوهم عن آخرهم، وصدرت الأوامر الملكية بحرق كتب المزدكية ومصادرة أملاكهم وقتل من يعتقد بهذا الدين (78)، ففي سنة 531م أصيب قباذ بالمرض، فأوصى لابنه كسرى، وقد توفي قباذ بعد ذلك بفترة وجيزة (79). يعد ارتقاء كسرى أنو شروان (579-532م)، وهو الذي عرف عنه العدل ولقبه أنو شروان تعني العادل، ولازال الكثير ممن يسمى ابنه كسرى ولكن معربه فيدعوه بـ

خسرو، وعاشت الدولة الساسانية في عهده أزهى عصورها، وقام بقتل مزدك وتتبع أنصاره في مختلف أرجاء البلاد، فقد قضى على البدع التي دعا إليها مزدك وأتباعه (80)، وعمل على توطيد الأمن والاستقرار في البلاد، وإشاعة العدل بين الناس، وأمر برد الأموال التي سلبها المزدكية إلى أصحابها، وأمر بكل مولود اختلفوا فيه أن يلحق بمن هو منهم إذا لم يعرف أبوه، وأن يعطى نصيباً من ملك الرجل الذي يسند إليه، إذا قبله الرجل، وبكل إمرأة غلبت على نفسها أن يؤخذ مهرها من الغالب، ثم تخير المرأة بين الإقامة عنده وبين فراقه، إلا أن يكون لها زوج فترد إليه، وإذا رغبت في الرجوع إلى أهلها ومفارقة المغتصب أعيدت إلى أهلها (81)، وأمر بعيال ذوي الأحساب الذين قتل المزدكية قيمهم، فأنكح بناتهم الأكفاء وجهزهن من بيت المال، وأنكح نساءهم من الأشراف، وإستعان بأبنائهم في أعماله، وعمر الجسور والقناطر، وأصلح الخراب، وتفقد الأساورة وأعطاهم، وبنى في الطرق القصور والحصون، وتخير الولاة والعمال والحكام، وإقتدى بسيرة أردشير مؤسس الدولة الساسانية، ومنع القادة والجند من التجاوز على أملاك الناس، فعم الرخاء وانتعش الإقتصاد، فتفرغ كسرى لمشاريعة الداخلية في العناية بالزراعة المورد الأساس للناس والدولة، وتفرغ لبناء جيش قوي يدافع به عن حدود دولته (82). ووصف بأنه : ((أحكم البنيان وشيد القلاع والحصون ورتب الرجال)) (83). وارتبط بعلاقات طيبة مع حكام وملوك الدول المجاورة : ((وهادنته ملوك السند والهند والشمال والجنوب وسائر الملوك وزوجه خاقان بابنته)) (84)

وكانت له أقوال مأثورة منها : ((الملك بالجند والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل تفقد الملك أمور نفسه وإقتداره من تأديبها حتى يملكها ولا تملكه)) (85). وفي عهد كسرى أنو شروان ترجمت كتب من الهندية إلى الفارسية منها كتاب كليلة ودمنة (86).

وبعد وفاة كسرى أنو شروان تولى ابنه هرمزد الرابع العرش في سنة 579م الذي سار على خطى والده،وكان هرمز ((متحاملاً على الأشراف (خواص الناس) مائلاً إلى عوامهم مقوياً لهم)) (87)، وفي إحدى نزهاته أمر من رافقه بما يلي : ((فنودي في مسيره ذلك في جنده وسائر عسكره، أن يتحاموا - يجتنبوا - مواضع الحروث - الزروع - ولا يضروا بأحد من الدهاقين فيها، ويضبطوا دوابهم عن الفساد فيها، ووكل بتعاهد ما يكون في عسكره من ذلك ومعاقبة من تعدى أمره)) (88).

ولكن ثار عليه أحد القادة وهو بهرام واحتل العاصمة طيسفون وتلقب ببهرام السادس، وكان عهد بهرام السادس مليئاً بالاضطرابات والفتن، ولم يرض رجال الدين ولا العظماء بتصرف بهرام، صحيح أنه من طبقتهم، لكنهم عدوه مغتصباً للعرش، فدبروا له مؤامرة لخلعه، لكنه كشفها ونكل بالقائمين بها وبمن ساندهم، فزاد الوضع سوءاً، وتدخل البيزنطيين ضد بهرام السادس، وأعادوا كسرى الثاني إلى العرش، وهرب بهرام السادس إلى بلاد الترك الذين تخلصوا منه، وضبط كسرى الثاني البلاد وبلغت قوة الدولة الساسانية في عهده إلى أوجها بحدود سنة 615م، وفي عهد هذا الملك نزلت سورة الروم قال تعالى : ((ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين)) (89)

وبعد أن حكم كسرى الثاني قرابة الـ 37سنة غادر المدائن إلى سلوقية ليقيم مع عشيقته شيرين في سلوقية، ثم دبر أحد أبنائه مؤامرة للتخلص من ابيه، بعد أن علم أن أباه قد نحاه عن العرش، وهو شيرويه ولقب نفسه قباذ الثاني، فقتل أباه كسرى الثاني وأخوته، لكنه لم يهنأ بالعرش فتوفي بالطاعون بعد ستة أشهر (90)، فتولى ابنه أردشير الثالث الحكم (حكم سنة ونصف)، وكان طفلاً، وتحكم الوصي على الطفل الصغير بالأمر، فرفض فرخان هربراز إطاعة أحد من أقرانه، فزحف على العاصمة يدعمه البيزنطيين، ونصب نفسه ملكاً على البلاد وقتل الطفل، لكن مؤامرة دبرت في القصر وتخلصوا من شهربراز لأنه لم يكن من الأسرة المالكة، ثم تولى العرش أحد أبناء قباذ ولقب بكسرى الثالث، الذي ما لبث أن قتل فتولت بوران الحكم لمدة سنة وأربعة أشهر (91)، فأحسنت السيرة في رعيتها، وعدلت فيهم، فأصلحت القناطر، ووضعت ما بقي من الخراج عن الفلاحين (92)، ثم تولى الملك فيروز الثاني العرش ثم عزل، ثم نصبت آزر ميدخت أخت بوران ملكة على البلاد (93)، ثم قتلت وسملت عينيها، وبحدود سنتي 632-630م حكم هرمزد الرابع وكسرى الرابع، ولا نعرف عن أعمالهما إلا الاسم فقط، وفي مدة أربعة سنوات توالى على حكم البلاد 10ملوك تقريباً حتى بايع آخر ملوك الساسانيين وهو كسرى يزدجرد الثالث، الذي بويع بدعم من رستم، وسقطت الدولة الساسانية في عهده (94).

الدولة الساسانية:

اللغة الرسمية	البهلوية
العاصمة	المدائن
الحكم	ملكي
عمر الدولة	425سنة
لقب الملك	شاهنشاه
عدد الملوك	30 ملك
الهيئة التنفيذية	مجلس الوزراء
التاسيس	226م
الانحلال	الفتح الاسلامي
أول ملك	اردشير226-241م
آخر ملك	يزدجرد الثالث632-651م
العملة	دراخما (95)

الهوامش

(1) ابن الأثير: الكامل 1/382-383 .

(2) بابك: اسم ملك عظيم الشأن كان اردشير ابن ابنته ولذلك يقال له اردشير بابكان. محمد التونجي: المعجم الذهبي دار العلم للملايين بيروت ط/ 1980،2م، ص 88

(3) كرستنسن: إيران ص 73-74.

(4) ابن الأثير: الكامل 1/383 . عبد المنعم رشاد محمد: محاضرات في التاريخ الساساني، جامعة الموصل 2002م، ص22.

(5) ابن الأثير: الكامل 1/384 .

(6) كرستنسن: إيران ص 77 .

(7) ابن الأثير: الكامل 1/382 .

(8) ابن الأثير ك الكامل 1/383 .

(9) ابن الأثير: الكامل 1/383 . كرستنسن: إيران ص 75-76؛ باقر: تاريخ ص 113؛ الحديثي: دراسات ص 71.

(10) كرستنسن: إيران ص 77.

(11) المسعودي: مروج 1/266 .

(12) محمد: محاضرات ص22 .

(13) المسعودي: مروج 1/268-269 .

(14) ابن الأثير: الكامل 1/384 .

(15) ابن الأثير: الكامل 1/384 .

(16) ابن الأثير: الكامل 1/384 . محمد: محاضرات ص 22 .

(17) كرستنسن: إيران ص 82-83 .

(18) كرستنسن: إيران ص 83 .

(19) باقر: تاريخ ص 111-112؛كرستنسن: إيران ص 74-75؛ الحديثي: دراسات ص 70

(20) باقر: تاريخ ص 113؛ الحديثي: دراسات ص 71.

(21) ابن الاثير: الكامل 1/383-384 .

(22) الحديثي: دراسات ص 71 .

(23) باقر: تاريخ ص 113؛كرستنسن: إيران ص 77؛ الحديثي: دراسات ص 72 .

(24) باقر: تاريخ ص 114 .

(25) باقر: تاريخ ص 113-115؛ كرستنسن: إيران ص 84؛ الحديثي: دراسات ص 72.

(26) ابن الأثير: الكامل 1/384.

(27) المسعودي: مروج 1/271.

(28) مروج 1/271.

(29)المسعودي: مروج 1/272.

(30) ابن الاثير: الكامل 1/388.

(31) خطاب: قادة فتح فارس ص 51؛ الحديثي: دراسات ص 146.

(32) المسعودي: مروج 1/273.

(33) ابن الأثير: الكامل 1/388.

(34) المسعدي: مروج 1/274.

(35) ابن الأثير: الكامل 1/389.

(36) أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري: الوزراء والكتاب حققه مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، ط/1938 ام ص 6-5.

(37) ابن الأثير: الكامل 1/390.

(38) المسعودي: مروج 1/275.

(39) المسعودي: مروج 278-1/275.

(40) الموسوي: العلاقات ص 98.

(41) ابن الأثير: الكامل 1/390.

(42) الطبري ر: تاريخ 2/54.

(43) الطبري: تاريخ 2/54.

(44) ابن الأثير: الكامل

(45) ابن الأثير: الكامل 390 /1.

(46) الطبري: تاريخ 2/54.

(47) الطبري: تاريخ 55-2/54؛ ابن الأثير: الكامل 1/391.

(48) الدولة الساسانية، الأحد 10/6/2012م الساعة 10صباحاً.

(49) الطبري: تاريخ 62-2/55؛ المسعودي: مروج 1/279؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 52؛ الحديثي: دراسات ص 147.

(50) الحديثي: دراسات ص 148.

(51) ابن الأثير: الكامل 1/393 .

(52) ابن الأثير: الكامل 1/397 .

(53) ابن الأثير: الكامل 1/393 .

(54) ابن الأثير: الكامل 394 -393.

(55) الطبري: تاريخ 2/62.

(56) ابن الاثير: الكامل 1/397 .

(57) الطبري: تاريخ 2/62؛ ابن الأثير: الكامل 398-1/397 .

(58) الطبري: تاريخ 2/62؛ ابن الاثير: الكامل 1/398 .

(59) ابن الأثير: الكامل 1/399 .

(60) الطبري: تاريخ 65-2/63؛ ابن الأثير: الكامل 1/399 .

(61) الطبري: تاريخ 69-2/68؛ ابن الأثير: الكامل 1/401 .

(62) العظماء: يمثل هؤلاء الطبقة العليا في المجتمع الساساني الذي وضعه الملك أردشير الأول للمجتمع الساساني، وقد اسندت إليهم إدارة أمور الدولة مثل رئيس الوزراء والقائد الأعلى للجيش ورئيس الكتاب)الدواوين) الموسوي: العلاقات ص104. أما أهل البيوتات أو الأسر النبيله فهم سبعة أسر وهي: الأسرة الاردوانية)الساسانية) وأسرة قارن وسورين واسباهبذ وزيك وسبندباد ومهران. الموسوي: العلاقات ص 104الهامش.

(63) ابن الأثير: الكامل 1/403؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 54-53.

(64) ابن الأثير: الكامل 1/403 .

(65) حلمي: 3500عام ص 177 .

(66) خطاب: قادة فتح فارس ص 54-53؛ الحديثي: دراسات ص 149 .

(67) الطبري: تاريخ 2/78.

(68) ابن الأثير: الكامل 1/405 .

(69) ابن الأثير: الكامل 1/407 .

(70) الطبري: تاريخ 2/81.

(71) ابن الأثير: الكامل 1/408 .

(72) ابن الأثير: الكامل 1/407 . الحديثي: دراسات ص 149 .

(73) الطبري: تاريخ 2/90؛ ابن الأثير: الكامل 1/411 .

(74) خطاب: قادة فتح فارس ص 55-54. ؛ الحديثي: دراسات ص 150 .

(75) المسعودي: مروج 1/289.

(76) خطاب: قادة فتح فارس ص 55-54؛ الحديثي: دراسات ص 150.

(77) ابن الأثير: الكامل 414-1/413.

(78) خطاب: قادة فتح فارس ص 55؛ الحديثي: دراسات ص 151-150.

(79) خطاب: قادة فتح فارس ص55؛ الحديثي: دراسات ص 152.

(80) ابن الأثير: الكامل 435-1/434.

(81) ابن الاثير: الكامل 1/436.

(82) ابن الاثير: الكامل 457-1/455.

(83) المسعودي: مروج 291-1/290.

(84) المسعودي: مروج 1/292.

(85) المسعودي: مروج 1/297.

(86) المسعودي: مروج 1/294.

(87) المسعودي: مروج 1/298.

(88) الطبري: تاريخ 2/172.

(89) الروم: آية 2-1.

(90) ابن الأثير: الكامل 497-1/494.

(91) ابن الأثير ك الكامل 1/499.

(92) المسعودي: مروج 1/310؛ ابن الأثير: الكامل 1/499.

(93) المسعودي: مروج 1/310؛ ابن الأثير: الكامل 1/500.

(94) الطبري: تاريخ 2/234. المسعودي: مروج 311-1310؛ابن الأثير: الكامل 1/501. كرستنسن: إيران ص 477-475؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 60-59؛ باقر: تاريخ ص155؛ الحديثي: دراسات ص 155-153.

(95) ساسانيون: Yahoo.com,p1,10/6/2012A.D,H/10A.M.

5

الفصل الخامس

نظم الحكم والإدارة

نظم الحكم والإدارة:

إن الدولة الساسانية لم تبنِ نظمها من فراغ، بل استندت على ما تركته الدولة الأشكانية الفرثية من نظم مدنية وإدارية وعسكرية ومالية، ولكن الشيء المهم هو مدى ملائمة تلك النظم مع الواقع الجديد للدولة الساسانية، لأن النظم تتبدل والقوانين تتطور تبعاً لتطور الزمن، فكل ما هو غير منزل من الله (عرضة للتغير والتبدل، لأن فيه كل الخلل، وهذه هي سنة الحياة، فكل دولة تشرع القوانين، ثم بعد فترة من الزمن تجري عليها تعديلات، ثم يلغى القانون ليحل محله قانون آخر وهكذا.

فلم يلغ الساسانيون التراث الفرثي، وإنما سايروه وطوروه نحو الأفضل، فقد استخدم الساسانيون اللغة البهلوية الأشكانية بجانب البهلوية الساسانية في تسجيل نصوصهم التذكارية، ولكن الدولة الساسانية الجديدة لم تكن صورة مستمرة للدولة الفرثية السابقة، كما لم يكن حدث قيامها سياسياً فحسب، بل تميز بظهور روح جديدة في إيران أبرزها تنظيمها الإداري ووحدة الأقاليم السياسية، وثانيهما هو توحيد البلاد تحت لواء دين رسمي للدولة، وقد انعكس أثر هذين العاملين بوضوح في الحياة العامة للمجتمع الإيراني، واستمر تأثيره سارياً حتى نهاية عهد الدولة الساسانية، وكانت شخصية الملك الساساني أردشير والظروف المواتية سبباً في قوة هذه الدولة التي أرسيت لها قواعد من الإدارة والتنظيم، مكنتها من الاستمرار لأكثر من أربعة قرون من الزمن (1).

لقد وضع الملك الساساني أردشير دستور الملوك كما قلنا ورتب المراتب وأحكم السير ونفذ الامور بنفسه، وبعد أن ضبط أردشير أمور الدولة تفرغ لبناء مؤسساتها وشؤونها الداخلية، فعمل على ضمان وحدة الدولة واستمرارها وقدرتها على النمو والازدهار، فأعاد الزراداشتية ديناً رسمياً للدولة الساسانية، وأمر بجمع تعاليم زارادشت في مجلد واحد، كما أمر بجمع تفاسير الدين الزرادشتي (الزند)، ووحدها في تفسير واحد عرف باسم بازند، ومنح رجال الدين الزراداشتي صلاحيات واسعة، معززاً دورهم الديني في المجتمع الساساني، إذ كان الملك أردشير يعتقد أن الملك والدين توأمان لا قوام لأحدهما بدون الآخر، لأن الدين أساس الملك وعماده (2).

وأود أن أشير هنا إلى تربية أحد الأمراء الساسانيين على شتى الأمور الإدارية والعلمية والعسكرية، فقد أرسل الملك الساساني يزدجرد ابنه بهرام، إلى ملك المناذرة النعمان، ليتولى حضانته وتربيته (3)، فاختار لرضاعته ثلاث نسوة ذوات أجسام صحيحة وأذهان ذكية وآداب حسنة من بنات الأشراف منهن عربيتان وأعجمية، فأرضعنه ثلاث سنين، فلما بلغ خمس سنين أحضر له مؤدبين فعلموه الكتابة والرمي والفقه، وأحضر حكيماً من حكماء الفرس، فتعلم ووعى كلّ ما علمه بأدنى تعليم، فلما بلغ أثنتي عشرة سنة تعلم كل ما افيد وفاق معلميه، ثم أحضر معلمي الفروسية، فأخذ عنهم كل ما ينبغي له (4)

ويشير هذا النص إلى الجهود التي يبذلها الملوك الساسانيين وغيرهم في تربية أبنائهم التربية الصحيحة والقويمة، لكي يتولوا حكم البلاد، فيجب في الملك أن يلم بجزء يسير من كل علم من معارف عصره، حتى لايندهش من أي شيء يحدث أمامه، أو تأخذ لبه حركة من الحركات، التي يقوم بها عالم من العلماء، أو فكرة من الأفكار وهكذا.

أولاً - تنظيم الدولة:

كما قلنا في بداية الفصل، لم يكن مجيء الساسانيين إلى السلطة في مطلع القرن الثالث للميلاد 224م، حدثاً عادياً أو تبدل نظام الحكم من أشكاني (فرثي) إلى حكم آخر ساساني، لكنه امتاز بظهور روح جديدة في الدولة الساسانية، وهذان الطابعان هما: تركيز قوة السلطان أو الملك الساساني، والثاني إتخاذ دين رسمي للدولة الجديدة.

وقد لقيت أحوال الحياة العامة والتنظيم الإداري للدولة الساسانية تغييراً كبيراً في القرون الأربعة التي دام فيها الحكم الساساني لبلاد إيران، بصدور قوانين وتعديلات كثيرة، لكن الهيكل الإداري والاجتماعي الذي أنشئه أو غيره (على ماكان سائداً من قبل) مؤسس الأسرة الساسانية الملك أردشير الأول، قد بقي على حاله، حتى نهاية الدولة الساسانية.

وتشير الأوستا الحديثة إلى وجود ثلاثة طبقات في المجتمع الإيراني قبل مجيء الساسانيين للحكم وهي: طبقة رجال الدين، طبقة رجال الحرب، وطبقة الزراع، ثم أضيف إليها فيما بعد طبقة الصناع (5).

وبعد مجيء الساسانيين إلى الحكم نجد تغير هذا التقسيم إلى أربعة طبقات هي: 1- طبقة رجال الدين 2- طبقة رجال الحرب 3- طبقة الكتاب 4- العامة وتتكون من

(الفلاحين والصناع). وقد قسمت كل طبقة إلى عدة أقسام، فرجال الدين منهم الحكام والعباد وطبقتهم الأقل درجة والأكثر عدداً هي المغان (جمع مع) والزهاد والسدنة والهريذان، ثم علماء مختلفون يشغلون وظائف خاصة، ثم المراقبون والمعلمون، أما طبقة رجال الحرب فتتكون من الفرسان والرجالة، ولكل من القسمين رتبه وموظفوه المختصون به.

أما طبقة كتاب الدواوين فتقسم إلى اقسام هي، كتاب الرسائل، كتاب المحاسبات، كتاب الأقضية والسجلات والشروط، كتاب السير (مؤرخو الدولة) ويدخل في هذا القسم الأطباء والشعراء والمنجمون.

أما عامة الشعب فيشمل الزراع والرعاة والتجار وسائر أهل الحرف، ولكل صنف منهم رئيس، ولكل رئيس عارض تحت إشرافه، مكلف باحصاء أهل حرفته، ثم مفتش عليه التحقق من معرفة دخل كل أسرة، ومعلم لكي يلقن كل فرد يرغب في تعلم الحرفة منذ نعومة أظفاره.

وليس من السهولة بمكان تحديد ألصلة بين هذه التقسيمات التي لا تشمل الطبقات الراقية من المجتمع الساساني، والتقسيم الذي يشمل عامة الناس، والصلة بين الطبقات الراقية والأدنى منها، لم تكن على خط واحد دائماً، وبالجملة فإن نظام الطبقات ظل غامضاً جداً.

أما الإضطراب والتضارب الظاهران في التقسيم الإجتماعي والسياسي للناس يتصلان مباشرة بما كان بين نظامي الإقطاع والسيادة المركزية المطلقة التي ورثتها الدولة الساسانية من الدولة الاشكانية، وهذا الخلاف بين هذين العنصرين الاقطاع وسيادة الشاهنشاه هو المميز للتطور الاجتماعي والسياسي منذ أيام أردشير (6).

وكان أفراد الطبقة الممتازة أو الأولى في الدولة الساسانية يحملون لقب شَاه (ملك) ويلقب رئيسهم بالشاهنشاه (ملك الملوك) ويشمل هذا التقسيم الملوك الذين يحكمون المقاطعات الرئيسة في إيران أو الممالك السبعة، ويشمل أيضاً حكام وملوك الدول المجاورة والمتحالفة مع الدولة الساسانية، وهم الذين دخلوا في معاهدات واتفاقيات مع الملك الساساني، وضمن لهم عروشهم ولذويهم من بعدهم، مع الالتزام بوضع قواتهم الحربية تحت تصرف الملك الساساني في وقت الحاجة لهم، ودعمهم عسكرياً في حالة نشوب حرب داخلية أو خارجية مع هذه الدول المتحالفة مع الدولة الساسانية في إيران.

وقد ورثت الدولة الساسانية تقسيماً إدارياً عن الدولة الاشكانية، الذي كان عبارة عن أربعة ولايات أو إيالات، ومنذ القرن الخامس للميلاد أطلق على حكام الولايات في إيران اسم المرازبة (جمع مرزبان)، وهؤلاء المرازبة الكبار كانوا من طبقات الأسر التي ذكرناها، ويطلق عليهم لقب شاه، ويضاف إليهم الحكام المنتسبون إلى الأسرة الساسانية. وكان أبناء الملوك يولون الولايات حسب التقاليد القديمة، وخاصة الذين يؤمل منهم أن يرثوا العرش الساساني، فعند ذلك يولون أحد الأقاليم المهمة كي يتدربوا من خلالها على الحكم مستقبلاً(7).

فقد تولى اردشير منطقة كرمان وتولى فيروز منطقة كوشان، وتولى على إمارة خراسان عدد من الملوك الساسانيين وهم سابور وهرمزد الأول وبهرام الأول والثاني (8).

وكان قسم من هؤلاء الملوك الذين يتولون إدارة الولايات يتوارثون الحكم فيها، إذا وافقت تجديد تعيينهم رغبة الملك الساساني أو يعزلون متى ما رغب الملك الساساني بذلك، إذا كانت فيه مصلحة للبلاد والدولة، ولم تكن ألقابهم القاباً دائمة، بل هي في اعتقادي تشريفية، فقد تغيرت ألقابهم أكثر من مرة في العصر الساساني، فاطلق عليهم لقب شاه وملك ومرازبة، وامراء، ومنحوا حق لبس التاج وامتيازات كثيرة أخرى تتيح لهم التصرف بحكم البلاد عبر اللامركزية، ويحضرون الاحتفالات الرسمية في العاصمة طيسفون أو في مقر ولاياتهم، كما كان على هؤلاء الملوك تقديم كشف سنوي بحساباتهم إلى الملك الساساني وبحضور رئيس الوزراء الذي يقوم بمطابقة مواردهم ومصروفاتهم المالية، كما كان عليهم الحضور إلى البلاط الساساني، كلما اقتضت الضرورة ذلك أو للتهنئة أو لحضور عرض عسكري يحضره الملك الساساني، وقد يكافئهم الملك الساساني إذا أبلوا بلاءً حسناً، ويعزلهم إذا ثبت تقصيرهم، كما لم يكن لهؤلاء الملوك أية مناصب يتولونها في العاصمة، لأنهم لو كانت لهم هذه المناصب لسقطوا في أعين الرعية، وذلك لحدوث التنافس والتناحر فيما بينهم للحصول على هذه الرتب والمناصب (9).

لقد ورث الساسانيون نظام الاشكانيين الاقطاعي، وهكذا نجد في الدولة الساسانية الجديدة التي أسسها أردشير في المرتبة الثانية من نظام الطبقات، الطبقة القوية المكونة من رؤساء الأسر وعلى رأسها أفراد العائلات السبع الممتازة، وقد أورد لنا الطبري حقوق أعضاء هذه الأسر في أن لهم حق لبس التاج لأنهم كانوا في الأصل مساوين لملك إيران، ولكن تيجانهم كانت أصغر حجماً من تاج الملك الساساني (10).

ومن المحتمل ألا تكون الارستقراطية الإقطاعية مقصورة على أفراد الأسر السبع العظيمة، فقد كان بعض القادة العسكريين الكبار ينتمون إلى أسرات إقطاعية، أو فروع من بعض هذه العائلات، ولكن على العموم لم تكن إقطاعاتهم كبيرة أو تساوي ما تملكه الدولة من أراضٍ على أرض إيران وتدار من قبل حكام تابعين للملك الساساني.

أما عن إمتيازات هؤلاء الإقطاعيين، فلا تتوفر لدينا مادة كافية لنحكم على مقدار امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في اقطاعاتهم، ولا نعلم هل كان لحكومة الملك بعض سلطان عليهم في مقاطعاتهم، وهل كان لهؤلاء الإقطاعيين حصانة كاملة أو جزئية، ولكن الذي وصلنا من معلومات نستطيع من خلالها أن نؤكد أن رعايا هؤلاء الإقطاعيين كانوا ملزمين بدفع الضرائب إما إلى سيد الإقطاع مباشرة أو إلى الدولة عبر موظفيها، وإنهم كانوا ملزمين بأداء الخدمة العسكرية تحت رئاسة صاحب الاقطاع (11)

كما نجد في أيام الساسانيين تقليداً توارثه الساسانيين من الدولة الاشكانية، أن بعض المناصب العامة تورث بين أفراد الأسر السبع الممتازة، فمثلاً كان للأسرة الأردوانية الرتبة الملكية، وكان من اختصاصها تتويج الملك الساساني، وأسرة أخرى كانت تتوارث إدارة شؤون الحرب، وثالثة تتولى الإدارات المدنية، ورابعة يعهد إليها فض المنازعات بين المتخاصمين الراغبين بالتحكيم، وخامسة تتولى قيادة الفرسان، وسادسة وليت جباية الضرائب من الناس ورعاية الكنوز الملكية، وسابعة تتولى العناية بالأسلحة ونظام التعبئة الحربية (12).

أما الوظائف الست الباقية، فمنها ثلاث وظائف حربية وثلاثة مدنية، فأما الوظائف الحربية، فهي رئاسة الشؤون العسكرية، ورئاسة الفرسان، ثم الإشراف على الأهراء (العنابر والسايلوات أي تموين وتغذية القطعات العسكرية، وحفظ المواد الغذائية الرئيسة التي تعد غذاء الشعب، أما الوظائف المدنية فهي رئاسة الشؤون المدنية وهي تسمية غامضة بالنسبة لقاضي الصلح والقائم على تحصيل الضرائب (الخراج)، ورئيس تفتيش الخزائن الملكية.

كما وأنه من الصعب أن تقرر العائلة المالكة إلى أي عائلة يعهد بكل هذه الوظائف (لأن هذه البيوتات أصبحت كبيرة العدد في العهد الساساني)، ومع ملاحظة أن الوظائف الوراثية كانت مهمة جداً حقاً، إلا أنها لم تكن أعلى وظائف الدولة الساسانية، فليس من المعقول أن تكون الوظائف الأولى مثل رئاسة الوزراء وقيادة جيش الملك وغيرها خاضعة لأن تنتقل بالميراث من رجل لآخر، كذلك ليس من المعقول أن يعجز الملك الساساني حق الخيار بين

مستشاريه، بل يكون له إذا أراد أن يتخلص من موظف كبير أن يقتله لكي يخلفه ابنه الأكبر في الحكم، فإن مثل هذا النظام لايلائم طبيعة نظام الحكومة المطلقة التي كانت في الحقيقة هي أساس الحكم الساساني، ولو حدث مثل هذا لجر الدولة الساسانية إلى خراب إداري وسياسي كبير وقد لاتحمد عقباه.

ويبدو أن الوظائف الوراثية في الدولة الساسانية كانت وظائف شرف تظهر مكانة شاغليها بين الأسر السبع الممتازة، وكانت قوة هذه الأسر تستند على دخل إقطاعاتهم، ثم على ما بينهم وبين رعاياهم في الإقطاع من صلة قوية (لأنهم من أقاربهم على أرجح الإحتمالات)، وخاصة في العهد السابق على قباذ وكسرى الأول، وأخيراً يستمدون قوتهم من أنهم يستطيعون في يسر من مقابلة الشاهنشاه، فكان هذا يعطيهم بعض المزايا لكي يعينوا في أسمى وظائف الدولة الساسانية (13).

وقد لبث أهل البيوتات السبع (الواسبوران) يتساندون فيما بينهم زمناً طويلاً حتى بعد سقوط الدولة الساسانية، وقد أشار ابن حوقل إلى ذلك فقال: أن بفارس سنة جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة من تفضيل أهل البيوتات القديمة والزام أهل النعم الأولية، وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم أيامهم (14)، وقد تطرق المؤرخ المسعودي إلى أهل البيوتات بفارس (15).

كما تكلم المؤرخ الطبري عن العظماء والأشراف (بزركان)، عند تحدثة عن إرتقاء الملوك الساسانيين للحكم، إذ أن الواجب يقتضي حضور العظماء الأشراف وأهل البيوتات حفلة تتويج الملك وليقدموا له فروض الطاعة المتعارف عليها في المجتمع الساساني، وليستمعوا إلى خطبة الملك بهذه المناسبة وبرنامجه في الحكم.

ويبدو أن لهذه الطبقة ثقلها السياسي والعسكري تمارسه إذا اقتضت الضرورة ذلك، فأهل البيوتات هم الذين عزلوا أردشير الثاني، وهم الذين قتلوا سابور الثالث، كما حاول بعض العظماء وأهل البيوتات أن يبعدوا أحفاد يزدجرد الأول عن العرش (16)، وفي المحادثات التي جرت مع ملك العرب المنذر بن النعمان في وراثة العرش، كان العظماء وأهل البيوتات هم الذين يتحدثون (17)، وورد اصطلاحات أخرى وهم (العظماء والأشراف) و(أهل البيوتات) و(العظماء) و(الأشراف) وغيرها كلها كانت موجودة (18)، ولابد أنها كانت تشير إلى طبقات بعينها أو مسميات مختلفة لطبقة معينة، قد يتغير اسمها، ويبدو أن لهم مكانة

مميزة في الدولة الساسانية، ويبدو أنهم الضباط الكبار للدولة، وأنهم أعلى ممثلي الإدارة، فالعظماء يشملون الوزراء ورؤساء الإدارة (19)

أما مصطلح الأشراف (آزادان) فلايزال معناه غامضاً ومعنى هذا الاصطلاح في الأصل (الأحرار) وهو اسم أطلق ليميز الطبقات الحاكمة من الآريين عن بقية الناس الخاضعين لهم، ومن المرجح أن نعد طبقة الفرسان وهم زهرة الجيش الساساني من بين هؤلاء الأشراف (20).

وقد أورد اليعقوبي مصطلحاً آخر وهم الأساورة، إذ عدهم من بين طبقات المجتمع الساساني، ويعرفهم بأنهم ضباط الجيش الساساني، والذين كانت بأيديهم الأراضي الزراعية التي يديرونها بانفسهم أو يقومون بالأشراف على زراعتها (21).

وإلى جانب هذه الطبقات سالفة الذكر كانت هنالك طبقات النبلاء، الذين هم من الدرجة الثانية وهم رؤساء العوائل ورؤساء القرى، الذين يستمدون قوتهم من الملكية الوراثية للإدارة المحلية. وكان الدهاقين كعجلات لاغنى عنها في آلات الدولة، قليلاً ما يظهرون في الحوادث التاريخية الخطيرة، ومع هذا فقد كانت لهم قيمة لاتقدر بثمن، من حيث إنهم أساس متين للإدارة وبناء الدولة،، والدهاقين هم الرؤساء وملاك الأراضي ومسؤولي القرى، ولكن في أغلب الأحوال لم تكن الأراضي المزروعة التي تؤول إلى الدهاقين بالميراث واسعة جداً، وأحياناً لم يكن الدهقان نفسه إلا أول فلاحي القرية أو الناحية. فلم يكن للدهقان إذن ما للسادة مالكي الأراضي من الطبقة الارستقراطية الرفيعة، بل كانوا يمثلون الحكومة أمام حراث الأرض، وعلى هذا الأساس كانت وظيفة الدهاقين الأصلية أن يستلموا الضرائب وإليهم يعود الفضل في توفير مالية للدولة المترفة، وكان عليهم أن يقدموا أسماء البالغين من الجند في أوقات الحروب (22).

ثانياً: الإدارة المركزية:

1. واجبات الملك:

يعد الملك الساساني قمة الهرم الإداري في الدولة الساسانية، وعندما تطرق الفصل الرابع إلى الدولة جرى الحديث عن بعض الاجراءات التي قام بها بعض الملوك الساسانيين، وخوفاً من التكرار جرى التطرق هنا عن واجبات الملك، ووضعت في أوائل الإدارة المركزية.

إن نظرية الحكم الساساني تنظر إلى الملك على أنه هو ظل الله في الأرض، أو ما يعرف بنظرية الحق الالهي، وهي خلاصة للنظرية الدينية في الحكم الملكي، ويعتقدون أن الدم الالهي يجري في عروقهم، وهذا ليس جديداً على الساسانيين، فهم قد ورثوا نظام الحكم من الاشكانيين وطوروه كما قلنا، وأجرى الساسانيون فيما بعد تعديلاً عليه أيام كسرى الأول، ولكنها ليست دينية دائماً.

أما صفات الملك وواجباته، فهي كالتالي:

1- الصفات والواجبات التي تتصل بالدين.

2- العقل السليم .

3- الخلق القويم.

4- القدرة على العفو.

5- حب الرعية.

6- القدرة على تهيئة الراحة للرعية .

7- السرور.

8- التذكر دائماً بأن السلطة فانية .

9- تقدير الأكفاء برفع درجاتهم .

10- تنبيه الغافلين .

11- حسن السلوك مع رؤساء الأقاليم.

12- اصدار الاوامر العادلة .

13- مراعاة عقد اجتماعات في حضرته.

14- الكرم .

15- طرح الحرص.

16- تأمين الناس من الخوف.

17- مكافأة الطيبين بجعلهم من رجال البلاط.

18- العناية بتعيين المدبرين في الدولة .

19- طاعة الله طاعة تامة (23).

من خلال هذه الصفات والأوامر، نستطيع أن نتبين بوضوح النظرية الدينية في الدولة الساسانية، ونرى إلى أي مدى كانت هذه النظرية تعتمد على الطابع الديني للدولة، وعلى أساس الاستبداد، وقد تشكل دستور الدولة الساسانية قولاً وفعلاً الذي يلطفه (جزاء) العزل أو القتل، وفي هذا حد من سلطة الملك الساساني، حد لايستند إلى نصوص في دستور مكتوب، ولكن يستند إلى الروح الدينية والخلقية في الدولة. وكان عجز الملك يتجلى بطرق مختلفة، منها ضرورة اتباع نصائح كبار رجال الدين وتوجيههم، وكانت نظرية عزل الملك الساساني سلاحاً قوياً في أيدي الموابذة، وإذا كثر عدد المرشحين لمنصب الملك واختلفت آراء العظام والنبلاء، كان رأي كبير الموابذة فاصلاً في تعيين الملك الذي يرضاه، وكان الملوك الساسانيون الأوائل يعينون خلفائهم، ولكن ولاية العهد لم تكن مرتبطة بقواعد محددة، والعادة أن ينصب الملك أحد أبنائه لولاية عهده، ولكنه إذا أراد يستطيع أن يعين فرداً آخر من بيته (24).

وفي فترات الضعف التي مرت على الدولة الساسانية، استطاع ملوك مثل بهرام الخامس ويزدجرد الثاني أن يسيروا في حكمهم بلباقة، فقد أظهر هذان الملكان للناس التقوى، وتركا أمور الدولة بيد العظماء يسيرونها، وفي هذه المدة لم يكن الملك هو الذي يختار ولي عهده، بل جرى العمل باختيار ولي العهد من بين أفراد الأسرة الساسانية، وقد أعطي حق انتخاب الملك لرؤساء رجال الدين والجيش والكتاب، وفي حالة اختلافهم يلجأ إلى رأي كبير الموابذة، ليكون رأيه الحسم، وفي حالة إختلاف كبير الموابذة وحده، يجري انتخاب الملك وفق الطريقة التالية: كان الملك يكتب بيده ثلاث وصايا يودع الأولى عند الموبذان موبذ (قاضي القضاة) والثانية عند كبير الكتاب، والثالثة عند كبير رجال الجيش.

ولم تكن هذه الوصية لتحوي غير نظرات عامة وآراء في أخلاق المرشحين المختلفين واستعدادهم وحاجات الدولة، فهي لاتتضمن توصية محددة، ولو كان الأمر كذلك، لما كانت هناك حاجة للمداولة واختيار واحد من أولئك المرشحين لمنصب الملك. ، وحينما يموت الشاهنشاه يدعى الموبذان موبذ ومعه الرجلان الآخران، ثم يجتمعون للمداولة، ويفضون الرسائل، ويتشاورون في اختيار أحد ابناء الملك، فإذا اتفق رأي الموبذان موبذ مع رأي الأخرين يذاع الرأي على الناس، أما إذا كان هنالك اختلاف، لم يذع شيء في الخارج، ولا يعلم أحد شيئاً عن الوثائق المكتوبة، أو عن رأي الموبذان موبذ، إلى أن يدعو الموبذان موبذ

إلى مجلس سري يحضره الموابذة وعلماء الدين والزهاد فيصلون ويقف الأتقياء من خلفهم يقولون: آمين ويسجدون ويرفعون أيديهم وهم خاشعون وينتهي هذا بصلاة المساء، ويؤمن الحاضرون، بما أوحى الله إلى حيث الموبذ الكبير، وفي تلك الليلة يحضرون إلى القاعة الكبرى في القصر، ويأخذ كبار الضباط مكانهم، ثم يدخل كبير الموابذة مصحوباً بالوابذة والعظماء والوزراء إلى مجلس أمراء البيت المالك فيصطفون جميعاً أمام الأمراء، ويقولون: لقد تشاورنا أمام الاله الأعلى، فأرشدنا وألهمنا وهدانا إلى الخير. ثم يصيح كبير الموابذة عالياً: ((ان الملائكة قد ارتضوا فلاناً ملكاً فبايعوه أيها الناس، وإنها لبشرى لنا))، وحينئذ يرفعون هذا الأمير ويجلسونه على العرش، ويضعون التاج على رأسه، ثم يمسكون بيده ويقولون: أتقبل من الله دين زرادشت الذي قواه كشتاسب بن لهراسب، والذي أحياه أردشير بن بابك؟) فيجيب الأمير بالايجاب، ويقول:

((سأعمل لخير رعيتي إن شاء الله)) ويمكث رجال القصر والحرس معه، وتعود الجماعات الأخرى إلى أعمالها وشؤونها (25). وهكذا يتبين لنا أن انتخاب الملك كان متوقفاً في نهاية الأمر على رأي الموبذان موبذ، والذي كانت توكل إليه مهمة تتويج الملك واجلاسه على العرش، وهذا يوضح لنا مكانة رجال الدين الزرادشت في الدولة الساسانية. وفضلاً عن موقف الموبذان موبذ تظهر لنا قوائم أوردها اليعقوبي عن أسماء كبار رجال الدولة الساسانية في القرن الخامس للميلاد (26).

ويجلس الملك الساساني للعامة مرتين في السنة يوماً في النوروز ويوماً في المهرجان (27)، ولايحجب عن الملك أحد في هذين اليومين لا صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف، وكان الملك يأمر بالنداء قبل جلوسه بأيام ليتأهب الناس لذلك، فيهيء الرجال القصة (الطلب) ويهيء الآخر الحجة (الاثبات) في مظلمته، ثم يأمر الملك الموبذ أن يوكل رجالاً من ثقات أصحابه فيقفوا في باب العامة، فلا يمنع أحد من الدخول على الملك، ثم يؤذن للناس بالدخول، وتؤخذ رقاعهم وينظر فيها، فإن كان فيها شيء يتظلم منه من الملك، فيدعى أولاً ثم ينظر الموبذان في طلبه وأمر خصمه بالحق والعدل فإن صح عن الملك شيء أخذ به، وإلا حبس من إدعى عليه باطلاً ونكل به، فإذا فرغ الملك من مظلمته في نفسه قام فحمد الله ومجده طويلاً ثم وضع التاج على رأسه وجلس على سرير الملك، وأخذ ينظر في شكاوي الناس (28).

واهتم الملوك الساسانيون بالعدل وتطبيقه لأن فيه قوام الأمر، وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الملوك في إيران قبل العهد الساساني، كانوا يهتمون بالعدل ويرعون حقوق الرعية، وكان اسم القاضي أيام الساسانيين له حرمة أيضاً، ويختار من بين ذوي التجارب والعدل من الرجال الذين لايحتاجون للمشاورة.

وفيما يتعلق بالشؤون القضائية، كان للشاه بوصفه رئيس كل الطبقات، حق إصدار الأحكام في الأمور المدنية والدينية، وكان الملك الساساني يعين قضاة مختصين بأنواع الجرائم، للحكم في القضايا العسكرية أو الدينية أو المدنية، ولاينتمي هؤلاء القضاة إلى طبقة رجال الدين، وكان لكل مدينة قاضٍ يعرف بِ(شهر دار) وقاضي قضاة الدولة ويدعى قاضي إيران (راد إيران)، وفي بعض الأحيان يراجع الناس رجال الدين الزرادشت لحل بعض القضايا المتعلقة بالأمور الدينية كالزواج والطلاق والنذور وكفالة الأيتام (29).

وكان التثبت من صحة أقوال المدّعي في القضايا يتم من خلال الوثائق الكتابية والشهود والحلف (القسم أو أداء اليمين)، وقد يتم عبر أداء بعض المراسم كعبيور النار، أو وضع اليد في ماء مغلي أو تناول قدر كبير من الطعام، ويعفى علية القوم من مثل هذه الممارسات، نتيجة الثقة بقولهم وقسمهم، وكان القضاة يتجنبون المطالبة بأداء القسم قدر الإمكان، كما كانوا يظهرون الجدية، ويبذلون غاية جهدهم للتوفيق والاصلاح بين الطرفين المتنازعين.

وقد قسم القضاة الساسانيون الجرائم من حيث نوعها إلى ثلاثة أنواع هي: جرائم ضد الغير، جرائم دينية، جرائم سياسية.

وكانوا يراعون أوضاع المجرم وأحواله، وينظرون إلى نوع الجرم قبل إصدار الحكم، ويفرقون بين الصغير أو الكبير في العقوبة، وبين من يرتكب الجرم بكامل إرادته، ومن يرتكبه مجبراً، وكانت عقوبة من تقل أعمارهم عن الثامنة تختلف عمن يبلغ عمرة السادسة عشر والتي عدت عند الساسانيين سن البلوغ، وتختلف عقوبة النساء عن الرجال في نفس الجرم، وتراعي جنسية المجرم أيضاً عند إصدار الحكم (الأجنبي مثلاً) (30). ومن ألوان العقوبات: الإعدام، الجلد، التقييد بالسلاسل، الحبس، الأشغال الشاقة، الكي، وفي بعض الأحيان كان يغرم المجرم بأداء عمل خيري لصالح المجتمع أو الدولة، أو يغرم بدفع مبلغ نقدي للشخص المتضرر أو للدولة، وعند اصدار الحكم يطالب المذنب بالتوبة وإظهار الندم، وألا يعودالإرتكاب مثل هذه الأعمال مرة ثانية، ويبلغ المتهم بأن عليه عقوبتان دنيوية (يصدر عليه

الحكم فيها) وأخروية يكفّرها باظهار الندم وكثرة الاستغفار والتصدق للفقراء، وهذه الأعمال لا تعفيه من العقوبة الدنيوية (31).

وكان الملك يدير دولته في أيام السلم من إيوانه في طيسفون، وهناك كان يقيم الملك محاطاً بحاشيته العظيمة، وكانت الإدارة العامة للدولة تستقر في المكاتب (الدواوين) التي كان يسودها نظام أُحكم تجديده، وكان للملك أختام عدة، خاتم للسر، خاتم للرسل، خاتم للتخليد تختم به السجلات والاقطاعات وما شابه ذلك من كتب التشريف، خاتم الخراج، فقد كان لكسرى أنو شروان أربعة أختام، وكان لكسرى أبرويز تسعة أختام، ويعاون كل ختم أو مسؤول عنه عدة أشخاص كبار هم دبير، محصِّل، محاسب، مستشار وقضاة (32)، وكانت هنالك دواوين للحرب وللبريد وللنقود والمقاييس والأوزان وللأملاك الملكية الخاصة (33).

وكانت الأوامر الملكية والمعاهدات تختم بخاتم الملك، فإذا تضمنت الوثيقة التزاماً قبل دولة أخرى مستقلة أو تابعة لإيران، فإنها تشفع بكيس من الملح وتختم بخاتم الملك، وذلك علامة للعهد الذي لاينقض.

ويحيط بالملك يومياً كثير من رجال الحاشية الممتازين، فكان هناك رئيس الديوان الملكي ورئيس التشريفات والموكل بالحجاب، وكان هناك نظام القصر ورؤساء المخازن والسقاة والذواقون ورئيس أصحاب المائدة والحجاب والقوامون على صقور وخيول الملك ورئيس الاصطبلات (الخيول الخاصة بالملك وخيول الجيش من الفرسان) وكبير البوابين، ويحيط بالملك حرس كثير، قدر عددهم بألف رجل مسلح لحماية الملك، ويشرف عليهم قائدهم (هزاربد)، وكان الحرس في أواخر العهد الساساني مكون من النبلاء وأبنائهم، وحين يمتطي الملك حصانه يقف صفين من الحرس عليهم الدروع البيض والترسة والسيوف وبأيديهم السلاح، فإذا حاذاهم الملك وضع كل رجل ترسه على قربوس سرجه (مقدمة السرج وتكون عادة مرتفع ومحنية تلي رقبة الحصان)، ثم وضع جبهته على ترسه كهيئة السجود (34).

وكانت هنالك طوائف أخرى ذات شأن كبير في الدولة الساسانية، لما كان لرجالها من تأثير شخصي على الملك الساساني، وهؤلاء هم المنجمون ورئيسهم، وكانوا من طبقة الكتاب والكهان، وكان الملوك الساسانيون يستشيرونهم كما كان يفعل أسلافهم من الملوك من قبل قيام الدولة الساسانية، وكان رجال الدين الزرادشت يمارسون التنجيم وتفسير أحلام الملوك والخاصة، وفضلاً عن هؤلاء كان البلاط يضم نخبة من الأطباء والشعراء، الذين لاغنىً لأي

بلاط عنهم، أما الخصيان فكانوا من ذوي الحظ ويخدمون في البلاط وفي القصر مع نساء الملك الساساني ومحظياته (35).

وكانت تعقد جلسات الملك الساساني في بهو الاستقبال الملكي بالإيوان (إيوان كسرى الذي لازال شاخصاً للعيان في مدينة المدائن الحالية والتي يطلق عليها العراقيين سلمان باك)، وكان الناس يقفون أمام البوابة العظيمة التي هي في باب بهو الاستقبال، ولم تلبث القاعة الكبيرة أن تغص بالوافدين، وكان منظر الملك وابهته وثيابه المطرزة بالذهب، وموضع التاج والعرش، ورهبة القاعة والإيوان وتزيينها بالسجاجيد ولوحات الفسيفساء، كل هذا المنظر الذي يأخذ العقول في ذلك الوقت، ويدهش من يراه لأول مرة فيركع لهيبة المنظر، وهذا من بين التقاليد القديمة التي كان يمارسها حكام إيران قبل الساسانيين، وسار عليها الساسانيون من بعدهم (36).

وكانت القاعة التي يجلس فيها الملك الساساني مفروشة بالسجاد الفاخر وحيطانها مغطاة بالسجاد ومكسوة بالفسيفساء التي نقشها الفنانون الإغريق، ويوضع العرش عادة في وسط القاعة، ويجلس الملك على العرش المصنوع من الذهب الخالص، وعلى رأسه التاج المحلى باللآلي والجواهر، وتزين عنقه القلائد من الأحجار الكريمة ويكتسي فاخر الألبسة الحريرية، وأمام العرش تصف الكراسي لجلوس الأمراء والنبلاء حسب طبقاتهم.

ويستقبل الملك الساساني في هذه القاعة السفراء والوفود وكبار رجال الدولة، وفي هذه القاعة تمنح الأوسمة والألقاب التشريفية وما يتبعها من إمتيازات (37) وأوردت لنا المصادر أعداد الوزارات في العهد الساساني مثل رئيس الوزراء (وزرك فراماذار) وزير المالية (شاه هامرديبر) وزير الخزانة (كنج هامار دبير) وزير العدل (داد بير) وزير تربية الخيول وأمير الإسطبلات (كادا هامار دبير) وزير حسابات معابد النار (آتش هامار دبير) وزير الأوقاف (رونكان دبير) (38).

ويوجد ضابط كبير من حرس الباب بباب القصر، يرفع إلى الملك اسم من يريد مقابلته، فاذا أذن له الملك، دخل الرجل وهو يجذب من كمه منديلاً أبيض ليغطي به فمه، حتى لاينزعج الملك من رائحة فمه، وخوفاً من تلويث الأشياء المقدسة الموجودة بحضرة الملك، ويقف بعيداً عنه بحدود عشرة أمتار، وعندما يرى الملك فإنه يسجد له ويظل ساجداً حتى يأذن له الملك بالنهوض والتحدث بحضرته، ويبدأ الشخص حديثه بعبارات التبجيل والدعاء للملك بطول العمر والصحة والعافية مثل (خلدك الله أو حقق الله رغباتك) (39)

ويلقب الملوك الساسانيون بلقب (أنتم الكائنات الحية) أو (قدسيتكم) وكان يقال للملك الساساني (الانسان الأول)، فكان المخاطب له لايذكر اسمه أو لقبه أو كنيته في الاشعار التي تلقى بحضرته في المناسبات الرسمية التي تلقى فيها هذه الاشعار، وكان من المحرم إذا دعا الملك أن يقول أحد آمين أو إذا كان يصلي فلا يصلي أحد بصلاته لأن الملك ((الطيب له امتياز وواجب أن يصلي لرعيته الطيبة، ولكن الشعب الطيب لايصلي للملك الطيب لأن دعاء الملك الصالح أقرب إلى الله)) (40).

وكان الملك الساساني إذا افتصد أو احتجم يمنع غيره من مشاركته في هذا العمل في ذلك اليوم خوفاً على الملك من الأرواح الخبيثة، كما كانت الملوك تمنع غيرها من التشبه بها في الملبس والمأكل (41).

أما نظام المراسيم والآداب الصارم والدقيق، الذي كان يسود البلاط الساساني، فوصفها المؤرخ والأديب الجاحظ في كتابه التاج في أخلاق الملوك، ولعلها مستمدة من كتاب (آيين نامه) فيصف المؤلف طبقات خاصته الثلاث، الأولى وهم الاساورة وأبناء الملوك، وكان مجلس الملك عن هذه الطبقة مسافة عشرة أذرع من الستار، والطبقة الثانية وكان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدّثوه من أهل الشرف والعلم، ثم الطبقة الثالثة وكان مجلسهم على عشرة أذرع من مجلس الطبقة الثانية وهم المضحكون وأهل الهزل والبطالة، ولم يكن في هذه الطبقة خسيس الأصل ولا وضيعة ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقصر ولا مصاب بآفة، ولا مرمي بابنه ولا مجهول الأبوين ولا ابن صناعة دنيئة كابن حائك أو حجام مهما كان علمه (42)

وكانت ملوك الفرس تحتجب عن الندماء بستارة على عشرة أذرع في مجالسهم الخاصة بعد المغرب وبعد التفرغ من النظر في شؤون الدولة (43)، وإذا همّ الملك بالمسير لبعض شؤون الدولة أو في نزهة أو في رحلة صيد، فإن الاساورة وخاصة الملك يعرضون دوابهم على راضة دواب الملك (مروضي الخيول) وصاحب دوابه، لأنه لاينبغي أن يكون حصان أحدهم بليداً أو كثير النفور أو العثار أو الجماح، فيكون على الملك من ذلك بعض ما يكره، ولا يحاذي حصان أحدهم حصان الملك، وإن أراد ذلك منعه راكبه، فمسايرة الملك في رحلة كان واجباً ثقيلاً وشرفاً غير مستساغ عند العظماء، وكذلك لم يكن الملك يثابر على مسايرة أحد من بطانته بعينه، لما كان يعلم من طيرتهم من ذلك وكراهتهم له (44)

وكانت حرمة مجلس الملك إذا غاب كحرمته إذا حضر، وكان للملوك عيون (أصحاب أخبار) على مجالسها إذا غاب الملك، فمن حضرها فكان في كلامه واشارته وقلة حركته وحسن ألفاظه وأدبه وأنفاسه، على مثل ما يكون إذا حضر الملك سمي ذا وجه، وإذا كان عكس ذلك سمي ذا وجهين وكان عند الملك منقوصاً متصنعاً (45).

وقد احتاط الملوك الساسانيون لأنفسهم خشية الاعتداء عليهم، فلم يكن أحد يعلم أين ينام الملك، فكان يفرش لبعض الملوك منهم أربعون فراشاً في أربعين موضعاً، فلم يكن أحد يعرف أين هو الملك، وقد لايكون في هذه الفرش، أو يدع أحد ينام مكانه، ولربما لاينام في هذه كلها، بل ربما ينام في فراش رقيق، أو ربما توسد ذراعه فنام عليه إلى الصباح (46).

ولم يكن لأحد الحق في أن يدخل غرفة نوم الملك الخاصة، حتى ولو كان ابن الملك، إلا أن يستأذن عليه ولأمر هام جداً يخص المملكة وأمنها (47)

وعلى الملك أن يكون جواداً لرعاياه ولحاشيته، ولا ينظر لما في أيديهم ويطمع فيه، فإن جود الملك هو مظهر عظمة المملكة، ويبقى له ذكرٌ طيبٌ على مر الأيام (48).

وكان الملك الساساني يقدر للرجل من خاصته وبطانته تقديراً وسطاً بين الاسراف والتبذير في مؤونته وحاجاته كلها، خاصها وعامها، فإذا كان التقدير على الجهة التي ذكرناها وهي الوسط كان مقدار عطاء الملك له 10000 درهم في الشهر، وإذا كانت للرجل ضيعة أهداها له الملك تعفى من الخراج، وهذا المبلغ كاف له حسب تقدير الملك (49).

وإذا زار الملك الساساني وزيراً في مكتبه أو عظيماً من العظماء وقصد الزيارة التشريف، أرخت الفرس لتلك الزيارة، وخرجت بذلك الكتب إلى النواحي والأطراف، ومن زاره الملك للتكريم أو للتعظيم تعفى ضياعه من الخراج، وتوسم خيله ودوابه لكي لاتسَخر أو تمتهن، ويأتيه أحد ضباط الشرطة الكبار ليقف ببابه من طلوع الشمس حتى غروبها ليكون في أمرته، فإذا ركب كانت الرجالة مشاة أمامه والخياله خلفه، وكان على الشخص المكرم أن يقدم الهدايا للملك وأن يقدم فرساً للملك، سريع الجري عليه سرج مذهب، يضعه تحت تصرف الملك أثناء اقامته، ويأخذه معه عند عودته إلى العاصمة طيسفون (50).

ويمتد شرف الشخص المكرم من قبل الملك ليشمل خاصته وعامته، فلا يحبس أحد من عامته وخاصته لجناية جناها، ولا يحكم على أحد من عبيده بحكم، وإن وجب على أحد من

خاصته حد، وجه به إليه ليرى رأيه فيه، ويؤخر عليه وظيفة الخراج حتى يكون هو الحاصل له، وتقدم هداياه في النوروز والمهرجان على كل هدية، وتعرض على الملك، ويكون أول من يأذن له الحاجب، ويكون على يمين الملك منزوياً إذا ركب، وتكون إذا قعد الملك عن يمينه، وإذا خرج من دار المملكة لم يقعد بعده أحد (51).

وكان العظماء يقدمون الهدايا للملك في عيدي النوروز والمهرجان، كما كانت نساء الملك وجواريه ومحظياته يقدمن للملك أفضل ما لديهن من حلي أو متاع يليق بجلالة الملك الساساني. وكانت هدايا الملك تقوم مادياً وتسجل في سجل خاص، فإذا أصابت الشخص الذي أهدى للملك نائبة في يوم ما، ردّ الملك له هديته مضاعفة لكي يستعين بها على قضاء ما ألم به من مصيبة (52).

وكان بعض ملوك الساسانيين يخرجون هدايا النوروز والمهرجان من الأكسية فتفرق على بطانة الملك ومن خلفهم، ليتم استخدامها (53).

وأفضل النياشين الملكية هي عصابة مذهبة محلاة باللآليء،، وقد منع عامة الناس من لبس خواتم الذهب والأحزمة المرصعة بالجواهر، وغير ذلك من آلاء النعم، إلا من أنعم عليه الملك بشيءٍ منها، ممن أدوا خدمة متميزة للبلاد، فيأمر الملك بنقش اسمه على الآثار الملكية (54)، وفي أيام الأخمينيين كان الأشخاص الذين يقدمون خدمة ممتازة للدولة يكرمون بمنحهم قطعاً من الأراضي الزراعية الجيدة، ويمنحون كذلك لقب (الخير)، وأما في أيام الساسانيين، فقد وجدت مجموعة كبيرة من الألقاب المختلفة (55).

وكانت الألقاب والألطاف الملكية ووظائف الدولة أكثر الوسائل استخداماً، لمكافأة الاحسان، كما أنها استخدمت وسيلة تبذل لحث المنتقلين إلى النصرانية من الزرادشتيين، لترغيبهم في الرجوع إلى الدين الزرادشتي، وحين يمنح الملك شخصاً ما لقباً مميزاً، يكون له الحق في الجلوس على المائدة الملكية في القصر، ويشارك في مجلس الملك، وقد منح هرمزد الرابع الملك العربي النعمان الثالث تاجاً قيمته 60000درهم (56).

وكان من تقاليد الملك الساساني كسرى أنو شروان أن يوضع على يمين العرش كرسي من الذهب وعن يسار عرش الملك وخلفه كرسيان من ذهب، فأحد هذه الكراسي لملك الصين والآخر لملك الروم والثالث لملك الخزر (الهفتالين) بحيث أنهم إذا أتوا إلى بلاط كسرى كانت كراسيهم جاهزة ولا ترفع ولايجلس عليها أحد، وأمام كرسي الملك، يوضع كرسي من ذهب

يجلس عليه رئيس الوزراء (بزرك فرمادار) ومن تحته كرسي الموبذان موبذ، ومن تحته كراسي حجزت للمرازبه والعظماء، وكان لكل كرسي خاص به، حتى لا تحدث مشاكل أثناء الجلوس، واذا غضب الملك على أحد يرفع كرسيه من مجلس الملك (57)

وإذا أصابت البلاد نائبة أو أمر مفزع الغيت الموائد الملكية ومجلس الملك، ويقتصر كما يعرف اليوم على مجلس الحرب أو ما يسمى بالحكومة المصغرة، إذ يحضر مجلس الملك ثلاثة أشخاص فقط، هم رئيس الوزراء والموبذان موبذ ورئيس الأساورة، وتلغى الموائد الملكية ويقتصر من الطعام على الخبز والملح والخل والبقل، فيأخذ منه الملك شيئاً يسيراً، ثم يأتيه الخباز بنوع من البيض المخلوط مع اللحم والخضر يلف بالخبز، فيأخذ منه لقمة أو لقمتين، ثم ينصرف لتدبير أمور الحرب أو الدولة، وعندما تأتي الأخبار بما يسر الملك من انتصار الجيش أو القضاء على تمرد، تعود الموائد الملكية ومجلس الملك إلى سابق عهده، ويدعى العام والخاص للمشاركة في الاحتفالات (58).

أما إذا ارتكب أحد الأشخاص جرماً فعليه أن لايهرب أو يلجأ إلى المعابد، بل عليه أن يجلس أمام القصر على كرسي ذي ثلاثة أرجل من حديد، لينظر في أمره، وكان إقامة الحدود يتم في ساحة مكشوفة وتنفذ الأحكام علانية ويحضرها الخاص والعام لتكون عبرة لمن تسول له نفسه بخيانة الأمانة، وكان الملك الساساني يتغافل عن تافه الذنوب (59).

وكان في البلاط الساساني في كل وقت مبعوثون من البلاد الأجنبية النائية، وكان هؤلاء السفراء يكرمون غاية الإكرام، لأنهم يمثلون ملوكهم، وكان إذا جاء سفير من دولة ما، فإن صاحب الحدود يبعث برسالة مستعجلة إلى البلاط الملكي، ويرسل رسائل أخرى إلى أمراء المناطق التي سيمر بها هذا السفير ليحتفى به ولتهيأ له أماكن الراحة في المناطق التي ينزل بها، حتى يصل إلى العاصمة، فيستقبل أحسن استقبال يحضره الملك، ثم يسأله الملك عن اسمه واسم ملكه ودولته وغاية قدومه، ثم تقضى حاجته وما جاء من أجله، ثم يصحبه الملك إلى قصره يحيط به الحرس والوزراء وكبار رجال الدولة، ليحضر مأدبة الملك التي تقام على شرف هذا السفير، ثم يصحبه إلى رحلة صيد، ثم يخلع عليه (60).

وكان الملك يحسن اختيار سفرائه إلى ملوك الدول المجاورة، ويدقق في ذلك، بأن يبعث مع السفير عيناً عليه، ليتحقق من إخلاصه للدولة الساسانية، وليتحقق من عدم كسبه إلى

صف الدولة الصديقة أو العدوة ليتخذ كجاسوس على دولته، كما تفعل دول العالم اليوم من كسب الموفدين إليها والسفراء (61)

2- رئيس الوزراء:

يعد رئيس الوزراء الشخص الثاني في الدولة، بل الأول في بعضها، ويعد أول موظف وفي بعض الدول يطلق عليه الوزير الأول لأهمية منصبه، وهو الواسطة بين الملك والرعية، وبواسطة رئيس الوزراء، يدير الملك دولته، ويطلق على هذا الرجل اسم (هزاربد) على عهد الدولة الأخمينية، واطلق عليه اسم (بزرك فرمادار) في العهد الساساني، وأوردته المصادر العربية التي تحدثت عن الساسانيين بنفس الاسم (62). ومن بين من شغلوا هذا المنصب أبهر سام أيام أردشير الأول، وخسرو أيام يزدجرد الأول، ومهر نرسي الملقب (هزار بندك) أيام يزدجرد الأول وبهرام الخامس، ويبدو من لقبه أنه من بين الشخصيات المهمة في الدولة، وينوب هذا الشخص عن الملك في المملكة، ويتصرف بما تمليه عليه مصلحة الدولة، أثناء غياب الملك في رحلات الصيد أو قيادة الجيوش في أوقات الحرب، لا بل قد يخول بقيادة الجيش في الحرب (63).

ويعد رئيس الوزراء مستشار الملك الرئيس، فعليه أن يعرف كل صغيرة وكبيرة في الدولة، وله المام واسع بتصريف الأمور وجمع الأموال عبر الضرائب، وله ثقافة واسعة، ويجب أن يتحمل ضغط الملك، ويرشده إلى الطريق الصحيح برفق ولين، وتتحدد سلطة الوزير الأول بعدة نقاط منها:

1- لايستطيع أن يعين أو يعزل نفسه من هذا المنصب.

2- لايجوز أن يطلب باقالته من قبل الناس، لأن الملك هو الذي عينه.

3- لايستطيع أن يعزل أحد من العمال من الذين عينوا بمرسوم ملكي، دون استئذان الملك.

وقد أكرم ملوك الساسانيين الوزير الأول، وكانوا يحترمونهم ويصفونهم بأنهم منظمي عمل الدولة وزينة الملك، والناطق الرسمي باسم الدولة وسلاحها الذي تضرب به في وجه الأعداء (64).

ويحضر الوزير الأول مجلس الملك اليومي لينقل أوامر وتوجيهات الملك الساساني إلى بقية وزارات الدولة، ويصلح أي خلل قد يراه الملك، ويتم اختيار هذا الوزير من ذوي الخبرة بالأمور المالية والعسكرية، ومن أهل البيوتات أو من العظماء ومن ذوي اليسار حتى لاتمتد عينه على أموال الناس والدولة، وأن يكون ذا خبرة واسعة وإطلاع واسع بمراتب الناس ومكانتهم، وكان له الحق في اختيار مستشاريه في كل اختصاص، وله النظر في دار الضرب.

3- الكتاب:

تعد الأعمال الكتابية من بين أهم أعمال الدولة فبها تسجل الأوامر الملكية، ونظراً للتطور الإداري الذي حصل في الدولة الساسانية باعتبارها آخر دولة حكمت إيران قبل الفتح الإسلامي، أن اهتمت بطبقة الكتاب، وعدت هذه الطبقة من بين طبقات المجتمع الساساني لأهميتها، اذ كانت الرسائل الملكية تضم أقوال الحكماء وعبارات دينية وألغاز، وعبر أخلاقية، فضلاً عن الأشعار البديعة والخط الجيد والورق الجيد. فتكون الرسالة أو الأمر الملكي قطعة فنية بما تحتويه، وقبل أن تصدر الوثيقة أو الكتاب الرسمي يطلع عليها صاحب الديوان لتدقيقها وتجاوز أي خلل يراه، ولربما تعرض على رئيس الوزراء.

وعند كتابة الرسالة يراعى فيها الفوارق بين رتبتي المرسل والمرسل إليه مراعاة دقيقة، وتستخدم البلاغة في الكتابة، فضلاً أن لكل ملك ساساني جديد أسلوب في بدء الرسائل، وتظهر موهبة الكتاب في الإجابة على رسائل الملوك وألغازهم، اذ تعقد مجامع للكتاب لتدارس هذه الألغاز وحلها والإجابة عن أسئلة المرسل، وهذه تتطلب خبرة وبعد نظر، ومعرفة بالألغاز، فضلاً عن الأمور الفنية في كتابة الرسائل من حيث الخط والأسلوب والمعنى والمبنى. وقد ذكرت هذه الطبقة على أنها زينة للمُلك، وأعظم رفعة للمَلك (65)

وكانت الكتابة في العصر الساساني صناعة مشتملة على قياسات خطابية وبلاغية منتفع بها في المخاطبات بين الناس على سبيل المحاورة والمشاورة والمخاصمة في المدح والذم والاحتيال والاستعطاف والاغراء وتكبير الاعمال وتصغير الأمور، والتصرف في وجوه الاعتذار والعقاب والتذكير بالسوابق وترتيب الكلام وتنظيمه في كل واقعة على الوجه الأول والمنهج الآخر (66).

أما شروط اختيار الكتاب فمعقدة، فيجب أن يكون كريم الأصل، شريف العرض دقيق النظر، عميق الفكر ثاقب الرأي، وأن ينال الحظ الأوفر والنصيب الأكبرمن الأدب، وعليه أن يعرف مراتب الناس ومن يدخل على الملك، ولايشتغل بحطام الدنيا (يكون متفرغاً لوظيفته) وينبغي أن يكون حسن الخط (67).

ومما قد يتضح لنا بأن طبقة الكتاب كانت من بين أهم الوظائف الإدارية في الدولة الساسانية، فهم الذين يديرون أمور الدولة، ويرسلون الكتب ويستلمون رسائل الحكام والأمراء والملوك الأجانب، ويتولون حسابات الدولة وماليتها، ويصيغون الأوامر الملكية، وينظمون قوائم الضرائب وحسابات الدولة، ويطلعون على كشوفات الجيش (68). وكان عليهم الكتابة للأعداء وخصوم الملك، وعليهم أن يراعوا في كتاباتهم الظروف والأحوال الظروف التي يكتبون فيها ويطبعوا كتاباتهم بالمسالمة والتهديد والوعد والوعيد (69)

وكان يرأس طبقة الكتاب شخص مسؤول يعرف بـِ (إيران دبيرد) ويختار من بين حاشية الملك، وينبغي أن يكون رئيس الكتاب من ذوي الخبرة والأختصاص، حتى يطلع على خفايا الكتاب وأسرارهم، وأن يكون ذا ثقافة رفيعة، لأنه دائم الحضور والتواجد عند الملك أو الوزير الأول، وكان الكتاب الجيدون يعينون في العاصمة، أما الكتاب الأقل حظاً في تطوير أنفسهم، فكانوا يرسلون إلى الأقاليم للكتابة في دواوينها، ومن بين الوظائف الكتابية للكتاب: كاتب الأحكام، كاتب البلد للخراج، كاتب حساب دار الملك، كاتب الخزائن، كاتب الاصطبلات، كاتب حسبات النيران، وكاتب الأوقاف (70).

كما كان يوجد في بلاط الملك الساساني كاتب عربي مختص بالشؤون العربية، كما يتخذ الملك الساساني مترجمين يعرفون لغة الوفود والمناطق التي لايتكلم سكانها بالفارسية (71)

وكان هنالك من يعلم الناس في البلاط مهنة الكتابة والخط، ويعلم هذا الشخص الكتاب وأبناء الأسر الكبيرة، ويرافق هذا المعلم الملك الساساني في رحلة الصيد، ويوجد بجانب هذا المعلم موظفون آخرون منهم القوامون على الأختام ورؤساء ديوان الاخبار وامناء سجلات الملك الذين كانت لهم منزلة خاصة عند الملك الساساني (72).

وكان الوزراء يختارون من بين طبقة الكتاب، ويبدو أن طبقة الكتاب كانوا من العظماء(73)، ويجري تبديل الوزير الأول ورؤساء طبقة الكتاب والكتاب عند تولى ملك جديد، وربما لايتبدلون حسبما تقتضيه الظروف وتوجهات الملك الساساني (74).

4- إدارة الاقاليم:

كان المرازبة من بين كبار رجال الدولة، وكانوا هم حكام الأقاليم، وبجانب المرزبان يوجد الـ (شهرداران) والذين يلقبون بلقب شاه، ووجد مرازبة من درجة أقل يحكمون الأقاليم وهم مقيمون بها، وقد أورد كرستنسن نصاً مفاده أن معظم الولايات كان يحكمها خشاب جمع خش، وهم يحكمون بوصفهم قادة عسكريون يقودون الفرسان في الولاية، وملوك ومرازبة، وهذه الولايات هي: آشور، خوزستان، ميديا، فارس، برتيا، كرمان الكبيرة، جرجان، مرو، وأقاليم بلخ والصغد، والساج والسيت وراء الامودون، وسريكا وهراة، وأقاليم سجستان، واراخوزي، وجدروزي، فضلاً عن ولايات أقل شأناً (75).

وكانت الدولة الساسانية في القرنين الثالث والرابع للميلاد تمتد سيادتها على أقاليم الشمال والشرق، فكانت تشمل بعد غزوات بهرام الثاني في سنة 248ما لاقاليم التالية في الشرق جرجان وكل خراسان (76)، ويبدو أنها شملت خوارزم والصغد وسجستان في أبعد حدودها وأقاليم المجرى الأوسط لنهر السند ومصباته والولايات الواقعة خلف هذه البلاد مع اشتثناء وحيد هو وادي كابل والبنجاب فقد كانت للكوشانيين (77).

ويشير الطبري إلى الولايات التي كان يحكمها المرازبة ويذكر أرمينية وبيت أرماي وفارس وكرمان واصفهان واذربيجان وطبرستان وزرنك وهراة والبحرين ومرو وسرخس ونيسابور وطوس (78).

وكانت مساحة هذه الولايات تختلف حالها حال الولايات أو المحافظات أو الأقاليم في كل دول العالم، ويقوم الملك الساساني بارسال المرزبان إلى المنطقة ليحكمها باسمه، وقد يجمع الملك ولايتين أو يفصلهما حسب مقتضيات المصلحة العامة للدولة، ويبدو أن معظم المرازبة كان يغلب عليهم الطابع العسكري، أي أنهم كانوا قادة عسكريين، ونجد أن عددهم كان أكثر من المرازبة المدنيين، وفي أثناء الحرب يعمل المرازبة قادة عسكريين تحت أمرة الأصبهبذيي(79).

وكان المرازبة يختارون من بين النبلاء أو الخاصة، وكان بعض المرازبة يتمتع بامتيازات خاصة مثل امتلاك قصر في العاصمة طيسفون، أو قد يمنح عرشاً من فضة يجلس عليه أثناء مقابلة الملك أو عند الحضور في الاحتفالات العامة، وكان لبعض المرازبة عرش من ذهب (مرزبان شهردار خزر) (80).

وكانت الولايات مقسمة إلى مديريات (استان)، ولعل كلمة (باذكوسبان) كانت في الأصل لقباً للوالي الذي يرأس جزء من الولاية، وكان لهؤلاء الحكام جند كالمرازبة تحت تصرفهم (81).

أما التقسيم إلى كور (جمع كورة) فكان تقسيماً إدارياً بحتاً، ثم أن كلاً من الكور الصغيرة (شهر) ولكل منها عاصمة هي (الشهرستان) التي تتكون منها الدولة كان يحكمها (شهريك) ينتخب من بين الدهاقين، وأما القرية (ديه) وسوادها (رستيک أي رستاق) فكان على رأسها(ديهيك) (82).

ثالثاً- التنظيمات العسكرية

كان الجيش في إيران خاضعاً لقائد واحد يدعى (إيران سباهبذ) أي قائد الجيش أو القائد العام للقوات المسلحة - إلى أيام كسرى الأول، وتشمل ولاية هذا القائد ما يساوي عمل ثلاثة وزارات في الوقت الحاضر، وزارة الحرب أو الدفاع، وقيادة الجيش والقيام باجراء المفاوضات وعقد الصلح قبل أو بعد الحرب.

ويسيطر قائد الجيش على تنظيم الجيش الامبراطوري وتدبير أموره، فهذا يبينه مركزه من أنه عضو في المجلس المصغر الذي يرأسه الملك في فترة الأزمات التي تمر بها الدولة الساسانية، وكانت التقارير العسكرية ترفع إلى وزير الدفاع ليتخذ بشأنها الاجراءات المناسبة، لكن هذا قد لايحدث في بعض الأحيان بسبب وجود رئيس وزراء قوي أو وجود ملك ذو خبرة عسكرية، ونحن نسمع أن بعض الملوك الساسانيين كانوا محاربين من الطراز الأول، ولكن سلطة هذا الوزير تكون مطلقة في حالة وجود ملك قاصر أو وجود ملك ليس له تلك الخبرة العسكرية الممتازة (83).

ونكاد لانعرف صلاحيات القادة في العهد المبكر من الحكم الساساني أو قبله العهد الأشكاني حول صلاحيات إيران اسبهبذ (وزير الدفاع)، وقد نجد اسبهبذ في بعض المناطق التي تمثل ثقلاً عسكرياً مهماً، مثل المناطق الواقعة على الحدود الملتهبة على طول الوقت مثل مناطق أرمينية، أو قد يرسل الملك أسبهبذ لإدارة معركة معينة، والمؤرخون البيزنطيون والأرمن والسريان وغيرهم قلما يمدوننا بمعلومات محددة عن لقب قواد إيران، وربما كان هناك موظفون إداريون يرقون إلى وظائف عسكرية أو لقيادة معركة وفق أوامر الملك الساساني، فعلى سبيل المثال تولى بعض الإداريين قيادة الجيش ومنهم رئيس الحجاب أو

الرئيس العام للتموين، وهي كما نعرف وظائف مدنية، لكن لابد لمن يعمل بالقصر الامبراطوري، من أن يكون فارساً وله خبرة عسكرية متميزة، فليس من المعقول أن يكلف الملك الساساني رئيس الحجاب أو وزير التموين بقيادة جيش، وليس لهم خبرة ليلقى هذا الجيش هزيمة ماحقة على الحدود، على يد جيش مهاجم أو مستعد للهجوم على أطراف الدولة الساسانية (84).

ونجد أن الكتاب البيزنطيين قد ذكروا لنا أسماء عدد من القادة العسكريين على الحدود، قاموا بمهمة التفاوض مع العدو وعقد الصلح وتبادل الأسرى بتوكيل من الملك، وفي أحيان أخرى كان قائد الجيش يحضر كسفير (دبلوماسي) للتفاوض أو نقل رسالة من الملك الساساني، في حين يدير المرازبة الأعمال الحربية (85).

ولقائد الجيش مزايا منها دخوله المعسكر على أنغام الطبول، وهنالك لقب رؤساء المحاربين، وهو اللقب الذي كان يحمله مهر نرسي - أرتشتاران سالار - وهي مرتبة فوق مرتبة الاصبهبذ وتقارب مرتبة رئيس القلعة الحصينة (أركبذ) (86)، وقد اختفى هذا المنصب بعد عهد قباذ، ويبدو أن لقب كبير المحاربين هو اسم آخر لإيران سباهبذ الذي ألغى وظيفته كسرى الأول خليفة قباذ (87).

وكان في العاصمة وظيفة عسكرية وهي وظيفة رئيس الحرس الملكي، كما كانت فرقة من المشاة تحت قيادة موظفي الأقاليم شُرَطاً أو جلادين وغير ذلك، ولإشغال وظائف مماثلة، كانت فرق الرماة تحت رئاسة قائدها تلحق بالمنطقة في بعض أنحاء المملكة، وفي العاصمة كان رجال الحرس يمارسون الجلد لمن تصدر بحقه أحكاماً بهذه العقوبة، وهي عقوبة تأديبية، كانت تمارس إلى الستينات من القرن الماضي في الجيش العراقي، وتطبقها المملكة العربية السعودية كما جاء في القرآن الكريم على القذف والشتم والزنا وغيرها من الجرائم الأخلاقية، وكنا نشاهد الجلد يجري في المعسكر أمام الجميع ليكون رادعاً للآخرين، حتى لايخالفوا العرف أو التقاليد العسكرية.

ووجدت وظيفة أخرى وهي وظيفة مؤدب الأساورة، ويقوم هذا الرجل بتعليم أبناء الأساورة في المدن والقرى مهمة حمل السلاح واستخدامه وركوب الخيل والقتال عليها (88)

ولقد اتسعت دولة اردشير بفضل النظام الحربي القوي الذي أنشأه، ويبدو أنه درس تاريخ الأخمينيين وعدّ نفسه وارثهم ووارث مجدهم، وأنه وارث دارا، وأن عليه أن يجدد

الجهود التي بدأها الاشكانيين من قبل، فكان نجاحهم فيها منقوصاً، وذلك لكي يحمي الامبراطورية التي قضى عليها الاسكندر المقدوني، وعلى هذا نجد اتجاهاً نحو التوسع في السياسة الخارجية التي انتهجها اردشير وخلفاؤه من بعده، وكانت هذه السياسة تتركز في حماية الحدود في الشرق والشمال والغرب، تلك الحدود التي كانت مهددة وملتهبة على طول الوقت، ولذا أمست الحاجة إلى إعداد دفاع محكم عن هذه المناطق (89).

وقد جرت عدة تطورات على النظام الحربي الساساني، وفقاً للتطورات التي تمليها ظروف الحياة وتطور الأنظمة العسكرية، الذي يمليه تطور الأسلحة وأساليب التعبئة، فادمجت طوائف الجند التي كانت تتبع صاحب القطاع في الجيش المنظم، وقد رأينا أن أكبر الألقاب العسكرية وهو لقب (أركبذ) كان وراثياً في الأسرة المالكة، وإن وظيفتين عسكريتين آخريتين وهما: رئيس شؤون الجيش وقائد الفرسان كانت كذلك وراثيتين في أسرتين من الأسر الكبيرة، وربما كان تعيين الاصبهبذين (جمع اصبهبذ أو سباهبذ) في جهات معينة قبل عهد كسرى الأول من الأمور الشاذة، وكان تحت إمرة حكام المقاطعات التي على الحدود جنود مرتزقة في كل زمان، وكذلك كانت دائماً تقيم الحاميات في الأماكن الحصينة من الحدود (90).

وكانت نخبة الجيش في العهد الساساني، كما كانت عليه الحال في العهد الاشكاني (الفرثي) تتكون من الفرسان الدارعين، والفرسان النبلاء، وكان لهؤلاء (اسوران) المقام الأول في المعارك، وكان النصر يتوقف عليهم وعلى قوتهم واصرارهم قبل كل شيء، فقد كان الإيرانيون يزجون في الحرب ضد الرومان كتائب منظمة من الفرسان الدارعين في صفوف كثيفة كل الكثافة، فكان بريق الدروع التي كانت تتبع اتجاه الجيش يعكس هيبة تبهر الأبصار، وكانت فرق الفرسان كأنها صيغت من جديد، وقد غطى جسد كل منهم بالواح من حديد ملتصقة به إلى درجة تجعل مفاصل الدرع الحديدية الصلبة تتحرك في يسر، وفقاً لحركة أعضاء الجسد، وكان للوجه قناع يحميه، وهكذا كان من المتعذر تصويب سهم إلى الفارس مالم يسدد نحو الفتحات الصغيرة قبالة العينين أو إلى الأنف، وكان بعض الفرسان المسلحين، بلا حراك حتى ليظن أنهم قد شدوا إلى سلاسل من حديد، وبجانبهم يقف الرماة، وقد مدوا أذرعهم ليشدوا الأقواس المرنة بحيث يلمس الوتر الجزء الأيمن من صدورهم، بينما السهم يتعلق في أيديهم اليسرى، وكان السهم ينطلق بضغط محكم بالاصبع فيدوي في الفضاء ويصمي من يصيبه (91).

ومع ذلك لم يكن الإيرانيون ذوي بأس في الوغى، فهم لم يتعودوا النضال في جسارة إلا أن يكونوا على مسافة بعيدة من أعدائهم، واذا احسوا ان فرقهم تتراجع يتقهقرون سراعاً كالريح العاصف مطلقين سهامهم من خلفهم كي يخففوا من جرأة عدوهم وهو يطاردهم (92)

وكان للساسانيين كما كان للأخمينيين فرق من الفرسان المختارين تسمى بـِ (فرق الخالدين)، وهي تتكون كنموذجها الأخميني من عشرة آلآف فارس، لهم رئيس خاص بهم، وأما الفرسان الفدائيون فهم فرقة أخرى ممتازة معروفة بالجرأة وتحدي الموت (93).

وكانت الفيلة أحد أقوى أسلحة الجيش الساساني، تتخذ مكانها خلف الفرسان، وكانت أصواتها ورائحتها ومنظرها المخيف، تلقي الذعر في خيل العدو، وكان الفيالة يركبون وفي أيديهم اليمنى سكاكين طويلة المقابض، فإذا ما ذعر فيل، وكان هذا يحدث دائماً فانقلب يتخبط في صفوف الجيش الإيراني يوقعهم ويدوسهم، فإن الفيّال يبادر إلى قتل الفيل بطعنه بالسكين في رقبته.

وأما مؤخرة الجيش فكانت مؤلفة من المشاة يقودهم رؤساؤهم، وكان المشاة من أهل القرى، وكانوا يتخذون جنداً لحفظ النظام، ويذهبون للحرب من غير أن يشجعهم أحد بالأجر أو بغيره، إنهم فئة من الناس الفلاحين الخاضعين للنظام العسكري، ويحمون أنفسهم بدروع بسيطة مستطيلة ومقوسة من الخيزران المتشابك المغطى بجلد غير مدبوغ، وكان هؤلاء المشاة جنوداً غير ماهرين في فنون القتال في أغلب الأحوال (94).

وكانت الفرق الاحتياطية (الرديف) التي تتكون من الشعوب المحاربة في أطراف الدولة أكثر غناءً من المشاة الحراثين، وربما كان بعض هذه الشعوب مستقلاً استقلالاً تاماً، لكنهم كونوا بالمال فرقاً من الجنود المرتزقة، وكانت هذه الفرق تحارب راكبة الخيول والبغال كالأساورة الإيرانيين. إن تنظيم الفرق يتلخص بوجود فرق كبيرة وفرق متوسطة وفرق صغيرة (فرقة، لواء، فوج)، وكان للإيرانيين رايات وشارات عسكرية، فهناك راية من النسيج طويلة ورفيعة تشبه كثيراً الرباط وهي تخفق على عصى، وهنالك علم فيه صورة شمسبلون بنفسجي ومن فوقها قمر مذهب، وعلماً بصورة أسد أمسك في مخالبه بدبوس وسيف، وعلم عليه صورة ذئب، وعلم آخر عليه صورة نمر، وأعلاماً أخرى عليها صور غزلان أو خنزير بري أو نسر ملكي أو تنين له سبعة رؤوس متقابلة، وعلم عليه صورة حمار وحشي، وعلم جعلت له أهداب صور عليه القمر بلون أرجواني وعلم عليه صورة ثور (95).

وفي إحدى صور نقش رستم، وهي الصورة التي يظهر فيها ملك ساساني ممسكاً الحربة، وهو يندفع نحو عدو له قد حطمت نشابته في القتال، وفي هذه الصورة يرى حامل الراية ممسكاً القناة وقد التصق بها عارض من الخشب تعلوه ثلاث كرات، واحدة على كل من طرفيه والثالثة فوق القناة مباشرة (96).

وكان العلم الساساني (درفش كاويان) يتكون من فوطة الحداد كاوه الذي أثار الناس على الملك الضحاك الذي كان يأكل قلوب الأطفال الصغار، وهو العلم الذي طور في أواخر العهد الساساني وظل رمزاً للساسانيين (97)، وكان الجيش الإيراني عندما يبدأ بالهجوم يتم التلويح بالعلم الناري أو الأحمر لتنبيه الجيش على بدء ساعة الصفر.

وفي المعارك الكبيرة التي كان يقودها الملك الساساني، كان ينصب له عرش في وسط الميدان ويلتف حول العرش خدم الملك وحاشيته وفرقة من الجند، كان عليها الدفاع عن الملك حتى الموت، وقد رفعت الأعلام في أركان العرش، وخلف هذه الأعلام يقف الحرس من الرماة والمشاة، وفي حالة غياب الملك يتولى قائد الجيش إدارة المعركة، ومن فوق عرش كهذا قاد رستم معركة القادسية، وكانت معابد نار متنقلة ترافق الجيش ويدير هذه المعابد (المغان) (98).

وقد تعلم الساسانيون من الرومان فن الاستيلاء على القلاع والحصون، فكانوا يستخدمون آلات الهدم والمنجنيقات لرمي الأحجار الكبيرة، والأبراج المتحركة وآلات الحصار الأخرى، التي كانت تستخدم قديماً، وكانوا يتوقون صب الزيت الحار أو الرصاص المذاب على رؤوس الفعلة والحفارين، بوضع الجلود فوق الدبابات الخشبية التي يعمل بداخلها نقابوا الأسوار، وطلائها بمادة تمنع احتراقها، وكان الإيرانيون يحرقون حقول القمح، إذا توغل العدو في أراضيهم متبعين سياسة الأرض المحروقة، ليحولوا دون حصوله على المؤن والعلف، كما كانوا يفتحون السدود ويغرقون الأرض، لوقف تقدم العدو، أما الأسرى فكانوا يساقون وقد قيدت أيديهم خلف ظهورهم ليباعوا رقيقاً، أو تكلفهم الدولة بالزراعة في أماكن مهجورة، لتستفيد من خبراتهم ومهاراتهم.

وقد اتخذ الإيرانيون طريقة غريبة في احصاء عدد القتلى في المعركة، فقبل المعركة يجري استعراض عسكري يحضره الملك أو قائد الجيش، وتتقدم الفرق العسكرية الواحدة تلو الأخرى، وتوضع اسفاط على الأرض، ويقوم كل جندي برمي سهم في هذه الاسفاط،

وبعد انتهاء العرض تختم الاسفاط بختم الملك، وبعد انتهاء المعركة، تفتح الاسفاط، وياتي كل جندي ليأخذ سهماً منها، وما تبقى من الأسهم هو عدد القتلى، وبهذا يعرف الملك الساساني هل تحقق هذا النصر بتضحيات صغيرة أو كبيرة (99).

ومن الجدير بالذكر أن الافستا الإيرانية وشروحها قد تحدثت عن الجيش وأهميته والحروب الدفاعية والهجومية، وتفاصيل عن الفرق المصفحة ورتب قادة الجيش وعدد الجند وتموينهم وعلوفة خيولهم (100).

أما في زمن السلم، فكانت الأسلحة ومعدات الحرب تحفظ في المخازن وفي المخابيء ويشرف عليها مسؤول يعرف كيف ينظمها ويضع الاسلحة في أماكنها، وفق طريقة مرتبة، وتزيت السيوف وتصقل خوفاً من الصدأ وكذلك بقية الأسلحة، وتوضع في مخازن خاصة غير رطبة، وترتب بشكل جيد بحيث يسهل توزيعها في أقرب وقت إذا اقتضت الضرورة ذلك، كما عنيت الدولة الساسانية بالخيول، وعينت لها مدربين ومشرفين وأطباء بيطريين، تتوفر بين أيديهم الأعشاب الطبية لاستخدامها في مداواة الخيول المريضة أو المصابة بالمعركة، ولم تكن الدولة الساسانية تسمح بالتجاوز على خيول الرعية، إلا في حالات الضرورة القصوى، وهي تأخر وصول الخيل التابعة للجيش (101)

أما عن تموين الجيش في أوقات السلم، فكان يخضع لتنظيم دقيق، ولكل جندي حصة من الخبز واللحم واللبن، وتوزع هذه المواد يومياً، وكذلك الخيل كانت لها أرزاق يومية من العلف والشعير من أجل ديمومتها، وللجند رواتب محددة وفق أصنافهم وكان الفارس يأخذ أكثر من المشاة والقائد يأخذ وفق ما أصدره الملك من تعليمات، كما كان الجندي يأخذ في وقت الحرب راتباً إضافياً كما يعرف اليوم بمخصصات الحركات أو راتب الإنذار.

وتحتوي سجلات الجيش على معلومات عن خطط الحرب (اليوم كراسات التدريب وكتب التعبئة العسكرية التي تصدرها وزارة الدفاع ويتدرب عليها الجنود، وهنالك اشارات تدرس للجندي والضابط عبر أعلام واشارات معلومة)، وكان يشترط في القائد العسكري في إيران في عهد الساسانيين ومن قبلهم الاشكانيين، المناقب الضرورية لوضع الخطط العسكرية، والنظرة السليمة، وعليه أن يعرف وحدات جيشه وأماكن تواجدها في المعركة، وعليه أن لايبدي غضبه يوم المعركة، وأن لايتخذ عملاً يوقع الخوف في نفوس جنوده، ويجب أن يرتبط الجندي مع أخيه الجندي برباط المحبة والأخوة والتعاون، وأن يطيع الجنود قائدهم طاعة

عمياء، وعلى القائد أن يشجع جنده يوم المعركة، ويذكرهم بواجبهم الديني والأخلاقي في الدفاع عن بلدهم وأهلهم وبيوتهم، وأن لهم الجزاء والأجر في الدنيا ولهم الذكر الطيب في الآخرة (102).

وكان الجيش يثار للقتال عبر قرع الطبول والموسيقى العسكرية، ويبدأ القتال بعد أن يصب الماء المقدس في أقرب مجرى ماء، وبعد أن يرمى غصن مقدس على أنه السهم الأول، وجرت العادة أن ينصح القائد الساساني خصمه وعدوه بالخضوع للملك الساساني، وأن يؤمن بدين زرادشت، أو يدعو إلى المعركة بصيحة رجل ورجل، وكل رجل له شجاعة في القتال (103).

ويبحث سجل طبقات الجيش الإيراني في المكافآت التي تمنح للفرق المنتصرة بعد الظفر، وكيفية معاملة العدو المنهزم والأسرى والرهائن وتخيير الشعوب المغلوبة بين القتل أو قبول التبعية الإيرانية (104).

وهناك نموذج مهم للخطط الحربية عند الساسانيين، ذكره ابن قتيبة، وهذا النص ينقسم إلى قسمين القسم الأول منه يتناول المعركة الرهيبة وهي دائرة والقسم الثاني يتحدث عن محاصرة الحصون ((105.

ويتكون سلاح الفارس من تجافيف ودروع وجوشن وساقين وسيف ورمح وترس وحرز تلزمه منطقة وعمود وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة ووترين مضفورين يعلقهما الفارس في مغفر له على ظهره (106). وكان السلاح الرئيس للمشاة القوس والنشاب والسيف والرمح، وهو السلاح القديم المتعارف عليه في العصور الوسطى والذي أحسن الإيرانيون استخدامه.

لقد كان الجيش الإيراني في عهد الاشكانيين والساسانيين مرتكزاً على الحكم الاقطاعي، فكان المرازبة والدهاقين مسؤولين عن قيادته ويتحكمون في الأراضي الزراعية من أجل دفع رواتب الجند وتموينهم، ولم يكن للجيش الإيراني هدف يسعى لتحقيقه أو يوحد صفوفه، غير الارتزاق، كما كانت قيادته وراثية على الأغلب، وكان قادة الجيش يعتمدون على أحسابهم وأنسابهم وحظوتهم عند الأكاسرة لا على خبراتهم وكفاءاتهم العسكرية في القتال، كما لم يكن الجنود الإيرانيون على درجة عالية من الكفاءة والخبرة والتدريب والشجاعة والفداء، كما إن الحروب التي خاض غمارها الساسانيون قد أضعفت

الجيش وأنهكته وأدت إلى انهياره كمؤسسة عسكرية حرفية (107)، وخاصة في أواخر عهد الدولة الساسانية. ويعود السبب الرئيس إلى ذلك، تولى ملوك وملكات ضعيفات، ليس لهم خبرة في الأمور الإدارية، فكيف بإدارة المعارك العسكرية ووضع الخط المناسبة فأفسح المجال أمام القادة العسكريين الكبار للتنافس على قيادة الجيش، وهنا يبدأ التناحر بين كبار ضباط الجيش وعدم اطاعة الأوامر، مما يؤثر سلباً على الجيش ومقدرته العسكرية، والذي يؤدي بالتالي إلى سقوط الدولة، رغم قوتها ورغم قوة تسليحها وخبرة جيشها.

الهوامش

(1)الحديثي: دراسات ص 73. ولمزيد من التفاصيل راجع: عبد الحليم عبد علي المطيري: النظم الإدارية للدولة الساسانية في العراق 636-224م، كلية الآداب جامعة بغداد 2007م.

(2) باقر: تاريخ ص 115؛ الحديثي: دراسات ص 73.

(3) ناقشنا هذا الموضوع واسبابه في الفصل العاشر.

(4) ابن الأثير: الكامل 1/401.

(5) الحديثي: دراسات ص 139.

(6) كرستنسن: إيران ص 84؛ الحديثي: دراسات ص 140.

(7) كرستنسن: إيران ص 89.

(8) كرستنسن: إيران ص 89.

(9) كرستنسن: إيران ص 90؛ الحديثي: دراسات ص 141.

(10) الطبري: تاريخ 1/868؛ الحديثي: دراسات ص 142.

11) كرستنسن: إيران ص 93؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 19؛ الحديثي: دراسات ص 142.

(12) كرستنسن: إيران ص 93؛ الحديثي: دراسات ص 142.

(13) كرستنسن: إيران ص 95-94؛ الحديثي: دراسات ص 143.

(14) ابن حوقل: صورة الأرض ص 212

(15) المسعودي: مروج 1/284.

(16) الطبري: تاريخ 74-2/73.

(17) الطبري: تاريخ 74/ 2.

(18) الطبري: تاريخ 73/ 2؛ كرستنسن: إيران ص 98-97. ؛الحديثي: دراسات ص 144.

(19) كرستنسن: إيران ص 98؛ الحديثي: دراسات ص 144.

(20) كرستنسن: إيران ص98؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 21؛ الحديثي: دراسات ص 144.

(21) اليعقوبي: تاريخ 1/147؛ كرستنسن: إيران ص 99-98؛ الحديث: دراسات ص 144.

(22) كرستنسن: إيران ص 100-99؛ الحديثي: دراسات ص 145. يزف فيز هويز: فارس القديمة، ترجمة محمد جديد، مراجعة زياد منى، شركة قدمس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009م، ففيه تفصيلات مملة عن الأسرة والعائلة والملك والطبقات لمن يريد الزيادة. ،ص-147 .259

(23) كرستنسن: إيران ص248؛ خطاب: قادة فتح فارس ص62-61؛ الحديثي: دراسات ص 157-158.

(24) الحديثي: دراسات ص 158. هويز: فارس القديمة ص 198-185.

(25) كرستنسن: إيران ص 251-240؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 64-63؛ الحديثي: دراسات ص 159.

(26) اليعقوبي: تاريخ 1/146،الطبري: تاريخ 2/72؛ المسعودي: التنبيه والاشراف ص27؛ كرستنسن: إيران ص 251؛ الجديثي: دراسات ص 161.

(27) الحديثي: دراسات ص 160.

(28) كرستنسن: إيران ص 287؛خطاب ك قادة فتح فارس ص ص65-64؛ الحديثي: دراسات ص 160.

(29) حلمي: 3500عام ص 238.

(30) حلمي: 3500عام ص 238.

(31) حلمي: 3500عام ص 239.

(32) حلمي: 3500عام ص 240.

(33) أبو علي حسين بن علي خواجه سياست نامة طهران 1334هـ، ص12؛ كرستنسن: إيران ص 287-289؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 65؛ الحديثي: دراسات ص 161.

(34) الطبري: تاريخ 2/231المسعودي: مروج 1/248؛ كرستنسن: إيران ص 380-378؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 65؛ الحديثي: دراسات ص161.

(35) الطبري: تاريخ 73-2/72؛ كرستنسن: إيران ص 380-379؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 66؛ الحديثي: دراسات ص 161.

(36) كرستنسن: إيران ص 380؛ الحديثي: دراسات ص 162.

(37) محمد: محاضرات ص34.

(38) حلمي: 3500عام ص 239.

(39) ابو عثمان عمرو بن بحرالجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، القاهرة 1941م، ص83 ؛كرستنسن: إيران ص 385؛ الحديثي: دراسات ص 161.

(40) كرستنسن: إيران ص385؛ الحديثي: دراسات ص 162.

(41) كرستنسن: إيران ص 385؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 66؛ الحديثي: دراسات ص 162.

(42) التاج ص 28-25؛ المسعودي: مروج 2/153؛ كرستنسن: إيران ص 386؛ الحديثي: دراسات ص 163.

(43) الجاحظ: التاج ص 28؛ المسعودي: مروج 2/158؛ كرستنسن: إيران ص 387؛ الحديثي: دراسات ص 163.

(44) الجاحظ: التاج ص80؛ الحديثي: دراسات ص163.

(45) الجاحظ: التاج ص 70؛ الحديثي: دراسات ص 163. .

(46) الجاحظ: التاج ص 124؛ كرستنسن: إيران ص 389؛ الحديثي: دراسات ص 164.

(47) الجاحظ: التاج ص 124؛ الحديثي: دراسات ص 165.

(48) نظام الملك: سياسة نامة ص 173؛ الحديثي: دراسات ص 164.

(49) الجاحظ: التاج ص 145؛ كرستنسن: إيران ص 391؛خطاب: قادة فتح فارس ص ص68؛ الحديثي: دراسات ص 164.

(50) الحديثي: دراسات ص 164.

(51) الجاحظ: التاج ص 1587؛كرستنسن: إيران ص 391؛ الحديثي: دراسات ص 165.

(52) الجاحظ: التاج ص 150-146،كرستنسن: إيران ص 393-392؛ الحديثي: دراسات ص 165.

(53) الجاحظ: التاج ص 147-146؛ كرسنسن: إيران ص 393؛ الحديثي: دراسات ص 165.

(54) كرستنسن: إيران ص 393؛ الحديثي: دراسات ص 166.

(55) الطبري ر: تاريخ 2/179؛ كرستنسن: إيران ص 394؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 70-69؛ الحديثي: دراسات ص 166.

(56) الطبري ر: تاريخ 181-2/180؛ كرستنسن: إيران ص 396؛ الحديثي: دراسات ص 166.

(57)كرستنسن: إيران ص 397-396؛ الحديثي: دراسات ص 166.

(58) الجاحظ: التاج ص 173؛ كرستنسن: إيران ص 397؛ الحديثي: دراسات ص 167.

(59) الجاحظ: التاج ص 100؛الطبري: تاريخ /؟؟؟؟؟؛ كرستنسن: إيران ص 398-397؛ الحديثي: دراسات ص 167.

(60) كرستنسن: إيران ص 399؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 71؛ الحديثي: دراسات ص 167.

(61) الجاحظ: التاج ص 122؛ كرستنسن: إيران ص 400؛ الحديثي: دراسات ص 168.

(62) الطبري: تاريخ 1/863؛ كرستنسن: إيران ص 101-100؛ الحديثي: دراسات ص 168.

(63) الطبري: تاريخ 1/864؛ كرستنسن: إيران ص 102؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 22-21.

(64) كرستنسن: إيران ص 103-102؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 22؛ الحديثي: دراسات ص 168.

(65) نظامي: جهار مقاله ص32؛ كرستنسن: إيران ص 122-121؛ خطاب: قادة فتح فارس ص -27 28؛الحديثي: دراسات ص 170. .

(66) ابن قتيبة: عيون الأخبار 1/42؛ كرستنسن: إيران ص 122؛ الحديثي: دراسات ص170.

(67) ابن قتيبة: عيون الأخبار 1/42؛ كرستنسن: إيران ص 123-122؛ الحديثي: دراسات ص170.

(68) الطبري: تاريخ 1/867؛ الحديثي: دراسات ص 171.

(69) الطبري: تاريخ 1/868؛ الحديثي: دراسات ص 171. ،

(70) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص72؛ الطبري: تاريخ /؟ ؛ كرستنسن: إيران ص 124-123؛ الحديثي: دراسات ص 171.

(71) كرستنسن: إيران ص 124؛خطاب: قادة فتح فارس ص 28؛ الحديثي: دراسات ص 171.

(72) كرستنسن: إيران ص 125؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 28؛ الحديثي: دراسات ص 171.

(73) الطبري: تاريخ 1/867

(74) كرستنسن: إيران ص 126.

(75) كرستنسن /: إيران ص 126.

(76) كرستنسن: إيران ص 126.

(77) كرستنسن: إيران ص 127-126.

(78) الطبري: تاريخ /؟؛ كرستنسن: إيران ص 127. ؛ الحديثي: دراسات ص 173.

(79) كرستنسن: إيران ص 127؛ الحديثي: دراسات ص 173.

(80) الطبري: تاريخ 1/867؛ الحديثي: دراسات ص 173.

(81) كرستنسن: إيران ص 129-128؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 30-29. ؛ الحديثي: دراسات ص 173.

(82) كرستنسن: إيران ص 120؛الحديثي: دراسات ص 173.

(83) كرستنسن: إيران ص100؛ الحديثي: دراسات ص 174.

(84) الدينوري: الأخبار الطوال ص57؛ كرستنسن: إيران ص 119؛ الحديثي: دراسات ص 174.

(85) كرستنسن: إيران ص120-119. الحديثي: دراسات ص 174.

(86) الطبري: تاريخ 1/868؛ الحديثي: دراسات ص 175.

(87) كرستنسن: إيران ص 120.

(88) كرستنسن: إيران ص 101؛ الحديثي: دراسات ص 175.

(89) الحديثي: دراسات ص 175.

(90) كرستنسن: إيران ص 197-196؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 46؛ الحديثي: دراسات ص 176.

(91) كرستنسن: إيران ص 197؛ الحديثي: دراسات ص 176.

(92) الحديثي: دراسات ص 176.

(93) كرستنسن: إيران ص 198-197؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 46؛ الحديثي: دراسات ص176.

(94) كرستنسن: إيران ص 199-198؛ خطاب: قادة فتح فارس ص47؛ الحديثي: دراسات ص 177.

(95) كرستنسن: إيران ص 202-201؛ الحديثي: دراسات ص 178.

(96) كرستنسن: إيران ص 201-200؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 47؛ الحديثي: دراسات ص 177.

(97) كرستنسن: إيران ص 202؛ الحديثي: دراسات ص 178.

(98) كرستنسن: إيران ص 202؛ الحديثي: دراسات ص 178.

(99) كرستنسن: إيران ص 203؛ الحديثي: دراسات ص 179.

(100) كرستنسن: إيران ص 204-203؛ الحديثي: دراسات ص 179.

(101) كرستبسن: إيران ص 205-204؛ الحديثي: دراسات ص 179.

(102) كرستنسن: إيران ص 206-205؛ الحديثي: دراسات ص 180.

(103) كرستنسن: إيران ص 206.

(104) كرسنسن: إيران ص 206.

(105) ابن قتيبة: عيون الأخبار 1/112؛ كرستنسن: إيران ص 207؛ الحديثي: دراسات ص 180.

(106) الحديثي: دراسات ص 180.

(107) خطاب: قادة فتح فارس ص 50؛ الحديثي: دراسات ص 181.

6

الفصل السادس

النظام المالي

النظام المالي:

تعد الزراعة المفصل الأساس لأي نظام اقتصادي في الماضي، لأنها عماد الحياة كلها، في ذلك الوقت، فكل شيءٍ مرتبط بها، ولازالت إلى اليوم كذلك، لأن غذاء الإنسان يعتمد عليها بالدرجة الأساس، ولا تستطيع دولة من الدول منذ الماضي والى اليوم الاستغناء عنها، لإرتباطها بكل مفاصل الحياة، وفي الماضي كان دخل الدولة الأساس يعتمد على ضريبة الأرض المسماة بضريبة الخراج، ويشرف على هذه الوظيفة شخصية اقتصادية مرموقة، له معرفة وخبرة فائقة بالزراعة، لأن عماد الدولة واقتصادها ورواتب موظفيها وقدرتها وقوتها العسكرية تعتمد بالدرجة الأولى على ضريبة الخراج.

ويتولى الإشراف على التنظيم المالي وزير المالية، وعُد أكبر موظف بعد رئيس الوزراء، وكان يدعى بِ الواستر يوشا أي رئيس الزراع (1). وكان للزراعة شأن عظيم لدى الإيرانيين، وقد مجدتها كتبهم المقدسة كثيراً، وقد نظم المركز القانوني للزراع بدقة، وتضمنت الأفستا مجموعة كاملة من القواعد والقوانين في هذا الجانب، وكذلك جرى الاهتمام بالري وتنظيمه تنظيماً دقيقاً، لأن الري هو عماد الزراعة، فالزيادة في الماء تعني دمار المحصول، وشحة الماء أو قلته تعني تلف المحصول، وسوء استغلاله من قبل بعض الزراع قد يؤدي إلى حرمان الآخرين من الاستفادة من الماء في الري، ولهذا اهتم الإيرانيون بتنظيم الري، ووضعوا له قوانين صارمة ومحددة ومفصلة، وكانت هنالك قواعد خاصة بأنواع القنوات (من حيث أحجامها) المختلفة وبطرق السدود واستخداماتها، وملاحظة الترع وتطهيرها (أي كري الجداول من الاعشاب ومن الترسبات) وشروط استعمالها (2)

كما كانت للإيرانيين قواعد محددة تناولت الرعي والرعاة وضوابط الرعي، ووصايا تتطرق إلى كيفية الحفاظ على هذه الثروة وحراستها من قبل حيوانات خاصة لها خبرة بالرعي ومرافقة الحيوانات وهي كلاب الرعي، وتعد كلاب (الكوجر) من أفضل الكلاب لحراسة الأغنام والماعز والأبقار، وتتمتع هذه الكلاب بذكاء وحيطة، لأن بعض مناطق الرعي تقع في أعالي الجبال أو في الوديان وقد تهاجم القطيع حيوانات مفترسة، فتقوم هذه الكلاب بحراسة القطعان والدفاع عنها دفاعاً مستميتاً يصل حد الموت في سبيل نجاة

القطيع، وهذه الكلاب غالية الثمن، وتخضع لتدريب شاق، ثم تطلق مع القطعان. ولاننسى ما للإيرانيين من اهتمام بالكلاب، حيث لها أهمية عند الزراداشتيين (3).

وكانت الأراضي مقسمة قسمة ضيزى بين الغالبية العظمى من الناس وبين الطبقة الارستقراطية المتنفذة في الحكم، على تعاقب الدول والحكومات في إيران، منذ القدم حتى نهاية العهد الساساني. فكانت الاراضي مقسمة بين الملك الإيراني وأفراد الطبقة الأرستقراطية من أفراد الأسر السبعة الرئيسة والنبلاء، أما الفلاح فيرتبط بالأرض ارتباط عبودية (أقنان)، كما كان الحال في أوربا في العصور الوسطى. والعبودية للأرض أما عبودية مطلقة أو عبودية مخففة مرتبطة بالأرض، وهذا النوع يعرف عندنا بالنظام الاقطاعي.

وكانت الدولة تجبي ضريبة الأرض عبر مجموعة كبيرة من الموظفين المرتبطين بمؤسساتها، والذين يرتبطون بوزير المالية أو كبير الوزراء (رئيس الوزراء في الوقت الحاضر)، وتوجد اشارات كثيرة إلى فساد هؤلاء الجباة وقسوتهم، مما أثقل كاهل الطبقات الفقيرة من الفلاحين بالدرجة الأساس، ويمكننا أن نستنتج أن ضرائب الأرض التي شرعها كسرى أنو شروان، كانت تجبى لصالح خزينة الدولة، يضاف لها حصة مالك الأرض

نفسه، حتى أننا نقرأ في بعض المآثر أن الفلاح كان يعاقب بقسوة، إذا امتدت يده إلى ثمار أرضه قبل تسديد ضريبة الملك وحصة سيد الأرض، ويبدو أن هذه الحالة قد خففت بعد أن حول كسرى أنو شروان الضريبة من عينية إلى نقدية (4).

ويتضح لنا من خلال بعض الاشارات التي قصد من وراء ذكرها الإشادة بالملوك وأعمالهم الحسنة، مبلغ ثقل هذه الضرائب وعبئها على الفلاح، وبخاصة على سكان المناطق الجنوبية من العراق فـ ((كان ملوك فارس قبل أنو شروان يقاسمون الناس على ثمارهم وغلاتهم، فكان أكثر ما يأخذونه الثلث، وأقله السدس، ويأخذون فيما بين ذلك على الشِرب (السقي) والرَّيع (المحلة والمنزل)، فأمر قباذ بن فيروز بمساحة الأرض وعدد النخل والشجر، وإحصاء الجماجم، وعزم على وضع وضائع (الجزية والخراج والعشور) فهلك قبل إتمام ذلك، ولما ملك أنو شروان، استتمّ المساحة والعدد وأحصى الجماجم، ثم جلس مجلساً عاماً، وأمر كتابه باحصاء جمل ذلك ففعلوا، فخاطب الناس بما رآه من وضع الخراج على جربان ما مسح من الأرض، وعلى ماعده من الشجر والنخل، وما أحصى من الناس، وأن يجبى ذلك في ثلاثة أنجم (أقساط) في كل أربعة أشهر الثلث)) (5).

وفي وصايا أحد الملوك الإيرانيين لإبنه إذ يبين له فيها أهمية الخراج: ((واعلم أن قوام أمرك بدرور الخراج - استمراره - ودروره بعمارة البلاد وبلوغ الغاية في ذلك يكون باستصلاح أهله، بالعدل عليهم والمعونة لهم)) (6).

وكان مفتشوا الضرائب يكلفون بالمرور على الأراضي الزراعية في كل عام، لتحديد مقدار المزروع وتقييده في دفاتر الضرائب، ولكي يعرف الأهالي الضرائب المقننة، ويقفوا على ما يجب دفعه، كانت المنشورات توزع في كل ولاية ومدينة وقرية / تشتمل على الضروري من المعلومات في هذا الصدد، وكان الموبذان مويذ يسند إلى رجال الدين الزرادشتيين مهمة مراقبة مأموري الضرائب، حتى لايلحق الظلم بالرعية (7).

ومما تجدر الاشارة إليه أن بعض الملوك الإيرانيين قاموا باعفاء الزراع من الديون المتراكمة، استرضاءً لعموم الناس وتقرباً اليهم (8)، وهذا إن دلّ على شيء فانما يدل على ظلم سابق لهم بحيث تراكمت عليهم هذه الضرائب لسنوات عدة، وعجزوا عن سدادها.

لقد اعتمدت الأعمال الزراعية في إيران والعراق على نظم بدائية في الزراعة والحصاد وكري الأنهار والجداول، وقد اعتمدت على الجهد البشري، فضلاً عن الاستعانة ببعض الحيوانات كالأبقار والثيران والجمال والبغال، في حراثة الأرض وفي الري، ولكن ثمة تطور تطور حصل أدى إلى تطور الزراعة، وهو التطور الحاصل في ملكية الأرض، مما يدل على اهتمام الملوك الساسانيين بشؤون الزراعة واستصلاح الأراضي الزراعية، وإنشاء السدود، وهذا التطور قد شمل أراضي الملك عموماً، ونعرف عن استخدام الأسرى وخاصة أسرى الشعوب المتمدنة التي تدخل في حروب مع الإيرانيين، مثلما حدث في عهد الملك الساساني سابور (شابور)، إذ أوكل إليهم بناء سد مائي بين السوس وتستر (الشوش وشوشتر حالياً) (9).

وتكشف لنا الأعياد السنوية الإيرانية، أهمية الزراعة في حياة المجتمع الإيراني على عهد الساسانيين، فمعظم الأعياد تتصل باعمال الزراع ومواسمهم ولكن أضيفت لها صبغة دينية، واحيطت بشعائر ومراسيم أبعدتها عن اصولها الحقيقية، وكان عيد رأس السنة الإيرانية هو النوروز الذي يصادف في 21آذار، وهو نفس العيد الذي كان يمارسه البابليون القدماء في العراق وموسمه أشهر الربيع حيث تتساقط الأمطار وينبت الزرع وتظهر الازهار والورود والرياحين، ولازال العراقيين والأكراد خاصة يحتفلون بهذا العيد ويشعلون النيران في ليلة الحادي والعشرين من آذار في الجبال والمرتفعات.

ويمكننا معرفة المزروعات الرئيسة في الدولة الساسانية وما قبلها من خلال نظام الضرائب التي فرضه الملك الساساني كسرى أنو شروان، حيث كانت الحبوب هي المواد الزراعية الرئيسة مثل الحنطة والشعير والرز والذرة والشوفان، وتعد هذه الحبوب الغذاء الرئيس لعموم الناس، ومن الأشجار؛ النخيل والزيتون والفواكه فضلاً عن أشجار الجوز واللوز والبندق والكازو والفستق، ومن المحاصيل المهمة هو الجت (البرسيم) الذي يعد غذاءً مهماً للماشية، وتنتشر في إقليم إيران والعراق الذي كان خاضعاً للسيطرة الساسانية كالأبقار والجاموس والأغنام والماعز والجمال والخيول والبغال والحمير. وهذه كلها تشكل ثروة مهمة لمالكيها وللدولة، تجبي عليها الدولة الضرائب وتستخدم للزراعة والنقل فضلاً عن الري الذي تعد هذه الحيوانات من أهم مرتكزاته (10).

وكانت المصادر الرئيسة للدخل في الدولة الساسانية (11)، تتكون من الضريبتين العقارية والشخصية، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة بمبلغ سنوي محدد، وعلى السلطات المختصة أن توزعه بقدر استطاعتها بين دافعي الضريبة، وكذلك كانت الضريبة العقارية تجبى بنفس الطريقة، فإن التقدير يتم حسب ماتنتجه الأرض من غلات، وعلى كل قرية أن تدفع من السدس إلى الثلث حسب خصوبة الأرض (12).

ولكن توزيع وتحصيل الضرائب كثيراً ما كان سبباً في الجور وسوء الحصيلة من ناحية الموظفين، ولأنه تبعاً لهذه الطريقة كانت مبالغ الدخل تتفاوت كثيراً من سنة لأخرى، فإنه من غير الممكن عمل حساب تقريبي مقدماً للحالة المالية، واستخدام ما يجبى منها، ومن ناحية أخرى كانت الرقابة على ذلك غاية في الصعوبة، وكان ينتج عن ذلك غالباً أن تفاجأ الدولة بمشكلة داخلية أو خارجية، فتقوم بفرض ضرائب إضافية (13).

الصناعة:

شكلت الصناعة المرتكز الاقتصادي الثاني في إيران والعراق، قبل سقوط الدولة الساسانية، لما لها من أهمية كبيرة في الحياة في ذلك العصر، وارتبطت الصناعة بشكل وثيق مع الزراعة ملبية الكثير من احتياجاتها، فضلاً عن الكثير من الصناعات التكميلية المرتبطة بالزراعة، فالمحراث يعد العنصر الأساس في الزراعة، وهو مصنوع من الحديد والخشب، تقدمه الصناعة كخير عون لها في حراثة الأرض وكذلك المنجل والمجرفة وأواني نقل الماء التي يدخل في صناعتها الحبال والجلد والحديد، وصناعة الحديد تقتضي التعدين

عن الحديد في أماكن وجوده، وإيران والعراق كانتا من أغنى الدول بخامات الحديد، كما يقتضي الدفاع عن الدولة وعن حدودها، تطور صناعة السيوف والدروع والخوذ والزرود، والحبال التي تستخدم في رزم أمتعة الجيش عند انتقاله من منطقة إلى أخرى، كلها تقدمها الصناعة، ولابد أن تكون هذه الصناعة في ذلك الوقت، تحت إشراف ومراقبة الدولة.

إن انتاج الحنطة يقتضي وجود مطاحن حجرية في ذلك الوقت، والرحى تصنع من الحجر وتدار إما بالحيوانات وإما بالماء، لكي يصنع منه الخبز وبقية المعجنات للطبقات الراقية في المجتمع الإيراني، وكذلك السمسم والخروع والزيتون تحتاج إلى معاصر لغرض انتاج الزيوت، وتصنيع زيت الزيتون وبقية الزيوت، وكذلك القطن والكتان الذي انتشرت زراعته في منطقة جنوب العراق، يحتاج إلى تصنيع من أجل تنظيفه من الشوائب (البذور وقشور القطن التي تستخدم أيضاً كغذاء للجاموس لغناها بالزيت) ومن ثم غزله ونسجه وجعله قماشاً يستخدم في مختلف الأغراض، والقماش يحتاج إلى تلوين أو صبغ، فتطورت صناعة الأصباغ وملحقاتها.

وانتشرت زراعة قصب السكر في مناطق جنوب العراق والأحواز لخصوبة الأرض ووفرة المياه، وكان القصب يعصر ويحلى به ماء الأهوار، لتخفيف ملوحته عند الشرب، كما كان يستخدم في انتاج السكر ويصدر إلى مختلف المناطق، ويستخدم السكر في صناعة الحلويات والمعجنات، لكنه كان غير مقصور (أي أحمر) ويسمى سكر القند، وتشير قصة أن أحد ملوك الساسانيين خرج للصيد، فاتجه صوب أحد المنازل، فطلب من فتاة أن تسقيه الماء، فذهبت وأحضرت له الماء الذي حلته للضيف، ولم تعرف أنه الملك، فسألها كم قصبة عصرت في هذا الماء ؟ فأجابته: قصبة واحدة، ثم غادر الملك المكان، وقال في نفسه: كم يبلغ ربح الفلاح من هذا القصب، وما هي كمية السكر التي يجنيها هذا الفلاح ؟ لاشك أنها كمية كبيرة، ففكر في نفسه أن يزيد الضريبة على قصب السكر أكثر مما هي عليه، ثم عاد إليها قبل الغروب، وطلب من نفس الفتاة أن تحضر له كوز ماء، فذهبت الفتاة وتأخرت، ثم عادت بالماء، فسألها عن سبب التأخير ؟ فقالت له: أنها عصرت لهذا الماء ثلاثة قصبات سكر، فقال لها: أنت في الصباح جئت بالماء المحلى بقصبة واحدة، وهو أحلى مما شربته الآن، فما السبب في ذلك ؟ قالت له: إن نية الملك قد تغيرت، فعاد عما عزم عليه من رفع الضريبة، وتزوج من تلك الفتاة لعمق تفكيرها ولبعد نظرها، وهي لاتعرف أن الذي تسقيه الماء هو الملك الساساني.

أما الصوف فعد المحصول الزراعي الأهم (زراعة تكميلية لأن الماشية تعتمد على الزراعة في تغذيتها والصوف هو أحد نتاجات تربية الأغنام)، فيحتاج إلى جز وتنظيف وقصر وغزل ونسج وتلوين، وكانت هنالك في إيران ولا زالت إلى اليوم صناعة السجاد الذي اشتهرت به مناطق من إيران أهمها وأشهرها منطقة قاشان (كاشان) التي ينسب إليها سجاد القاشان الذي لايقتنيه إلا الاغنياء وكبار رجال الدولة في ذلك الوقت، ويعد إلى اليوم من أرقى أنواع السجاد في العالم.

وشعر الماعز الذي اشتهرت به مناطق شمال العراق وأذربيجان هو نتاج الماعز، فيغسل وتنتج منه الخيام والحبال وملابس النساء (الصدار) وشعر الماعز لايلون بل يبقى على حاله سواءً كان الشعر أسوداً أو بنياً أو ملوناً بألوان أخرى كالبياض مثلاً.

وانتشرت مصانع النسيج في البيوت والمدن لتنتج أرقى أنواع الملبوسات الحريرية والقطنية والصوفية، وخلط الصوف بالحرير والحرير، بالقطن، وطرزت الملابس بالخيوط الفضية والذهبية، وخاصة ملابس نساء القصر ونساء الطبقات الارستقراطية.

وصناعة الجلود هي أيضاً من الصناعات المحلية المهمة، فبعد أن يذبح الحيوان من البقر أو الماعز أو الغنم أو الجاموس، ينظف الجلد من الدهون ثم يدبغ، ويستخدم في الدباغة الملح والعفص (وهي أشجار العفص المنتشرة في المناطق الشمالية من إيران والعراق)، فضلاً عن قشور الرمان، وتقوم مدابغ خاصة بهذه الصناعة المهمة، ويستخدم الجلد المنتج في صناعة الأحذية القصيرة والطويلة التي يلبسها الجند والقادة وعامة الناس، فضلاً عن السيور، ومستلزمات ربط الحيوانات والخيول المصنوعة من حلقات الحديد والسيور، وغيرها من الاستخدامات الأخرى. أما جلد الماعز فله خاصية جيدة، فكانت تصنع منه أكياس حفظ الدهن والزيد والجبن والعسل والماء أثناء التنقل أو العمل لغرض الشرب، وتسمى في العراق باسم (الشكوه أو الشجوه)، اذ يخيط الجلد من الوسط وتغلق ثلاثة أطراف من جلد الحيوان، ويترك الطرف الرابع مفتوحاً مع وجود خيط لربطه، لاستخدامه كمنفذ لإخراج المادة المحفوظة فيه من جبن أو لبن أو دهن أو عسل أو غير ذلك.

أما صناعة النحاس (الصفر) فهو من أهم الصناعات المنزلية في ذلك الوقت، وظل كذلك إلى مطلع القرن الماضي، إذ يعدن وينقى وتصنع من مختلف أنواع الحاجيات المنزلية من القدور والمعالق والشوكات والمغارف وأواني تفريغ الطعام فضلاً عن الكماليات التي

يستخدم فيها النحاس مثل المسارج والمزهريات والمكاحل، وأدوات المنزل الأخرى، وكان النحاس يطلى بمادة بيضاء، لمنع تأكسدة ومن ثم يصبح مادة شديدة السمية، وإذا خلط بالقصدير ليصبح مادة قوية جداً تعرف بالبرنج أو البرونز، إذ يصنع منه الهاون الذي لاغناء لأي منزل عنه في ذلك الوقت والى اليوم، ويستخدم الهاون الأطباء والصيادلة والعطارين (بائعي التوابل والعطور) ولانريد أن نطيل الحديث عن الصناعة خوفاً من تسرب الملل إلى نفوس طلبتنا الأعزاء فهذا غيض من فيض.

وتجني الدولة فوائد كبيرة من هذه الصناعات عبر فرض الرسوم عليها، فمصانع النسيج وأسواق الحدادين والنجارين والأساكفة والصفارين، كلهم كانوا خاضعين للدولة وعليهم رسوم محددة يجبيها عامل السوق لصالح الدولة (14).

التجارة:

شكل موقع إيران والعراق في الماضي أيام الدولة الفرثية والساسانية، موقعاً مهماً في الاتصال الحضاري بين الشرق والغرب، وكان هذا الموقع يشكل أقصر طريق تجاري بين الشرق والغرب، وفي حالة استقرار الأوضاع في هذه المنطقة، فإن هذه المنطقة من آمن الطرق التجارية، ولعب هذا الموقع ودوله التي ظهرت في هذه المنطقة، دوراً مهماً في التجارة العالمية، ويشهد على ذلك كثرة انتشار النقود الفضية والنحاسية في مناطق مختلفة من العالم القديم، وشكلت التجارة الداخلية رافداً اقتصادياً مهماً، ناهيك عن التجارة الخارجية التي يشكل طريق الحرير محورها الأساس، ومن ينظر إلى خارطة طريق الحرير، يجد أن هنالك شبكة مهمة ومعقدة من الطرق التجارية، تكاد لاتدع مدينة إلا وتمر بها وتستثمر منتجات سكانها المختلفة، وحتى المدن المطلة على الخليج العربي كانت مرتبطة بهذا الطريق، الذي يعد في ذلك الوقت عصب الحياة الإقتصادية للعالم قبل ظهور الدين الاسلامي، وكانت مدن مرو ونيسابور وهراة وبلخ وهمدان وكرمنشاه والري وتبريز فضلاً عن العواصم المهمة في ذلك الوقت، التي تعد سلوقية وطيسفون (المدائن) والحضر وسنجار والموصل وتدمر ونصيبين (تقع في تركيا) من أهم مراكزها، وحفظت هذه الطرق من قبل الدولة، بما يعرف اليوم بالمراباة، وانتشرت الخانات والمخازن في المدن والمحطات التجارية.

ويتفرع طريق الحرير ليتصل ببلاد الهند والسند (باكستان)، وأفغانستان ثم يتصل ببلاد أرمينية وجورجيا (بلاد الكرج) ثم ليتصل مع أوريا عبر بلاد الشام، فتتجه القوافل صوب القسطنطينية ومدن البحر المتوسط لتصل بعد ذلك إلى روما عاصمة الدولة الرومانية. ولعبت اتفاقات سياسية بين الروم والدول الحاكمة في العراق وإيران، دوراً مهماً في تطور وحماية هذه التجارة الحيوية، وتستفيد الدول من التجارة في توفير السلع التي تحتاجها، وتصدر ما يفيض عن حاجتها إلى الدول الأخرى، مع ما تخلقه التجارة من منافع على طول الطريق الذي تمر به هذه التجارات، وتخلق حركة تجارية وفوائد اقتصادية للدولة عبر الضرائب التي تفرض على الصادرات والواردات، فالقافلة تحتاج إلى الأكياس والحبال، وحيوانات النقل التي تنفق جراء تعرضها إلى أمور كثيرة، وتخلق يد عاملة ماهرة في الصناعة، والخانات تحتاج إلى مخازن وغرف وحماية، وطعام وعلف والى عمال خدمة، وغير ذلك من الأمور التي تنشطها التجارة عبر طريق الحرير.

وقد شكلت مدينة نصيبين (نسيبيس) عقدة المواصلات مع الدولة الرومانية، ومركزاً تجارياً هاماً بين الفرثيين (الاشكانيين) وبين الرومان تتجمع فيه تجارات الدولتين، ليتم تبادل البضائع فيها، ومن بين شروط الصلح التي عرضها الامبراطور الروماني على الملك الإيراني نرسي أن تكون نصيبين وحدها هي نقطة الاتصال بين الدولتين، ولكن الملك الساساني رفض هذا البند من الاتفاقية (15).

وفي مدينة باتنة التي تقع على الشاطئ الشرقي لنهر الفرات، يوجد سوق كبير يقام في شهر أيلول من كل سنة، وترد إليه البضائع من بلاد الهند والصين عبر طريق الحرير وعبر موانئ الخليج العربي. وفي سنة 410م كانت المدن مفتوحة للمعاملات التجارية بين الغرب والشرق، حسب المرسوم الامبراطوري الذي أصدره كل من الامبراطورين هونوريوس وتيودوس الصغير، هي مدينة نصيبين على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة، وكالينيك على شاطيء الفرات وأرتكزانا في أرمينية من ناحية الشمال، كما أخليت مدينتا نصيبين وسنجار من السكان بموجب الاتفاق بين الملك الإيراني والامبراطور الروماني بموجب اتفاق الصلح في سنة 363م (16). لتصبح مدن تجارية ومحطات لتبادل البضائع ومخازن للتجارات بين الدولتين.

أما عن النشاط البحري في الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي وصولاً إلى أرض أفريقيا وبلاد الصين فكانت السفن تمخر عباب هذه البحار ذهاباً واياباً، وكانت موانئ عمان وصحار ودارين وكاظمة وعدن وسيراف فضلاً عن موانئ البحر الأحمر، تعج بالمواد التجارية من بلاد أوربا وأفريقيا والهند والصين، فكانت البضائع تنقل من الخليج العربي والبحر الأحمر عبر الطرق البرية إلى المدائن أو بصرى أو الحضر أو تدمر إلى بلاد أوربا، وكان نهري دجلة والفرات يستخدمان في نقل البضائع إلى مختلف المناطق المطلة على هذين النهرين.

ومن الجدير بالذكر أن الملك أردشير الأول عندما أصبح ملكاً على ميسلين وخرسين، وسع المرافئ البحرية القديمة، وأنشأ مرافئ جديدة، ويشير أحد النصوص إلى أن الإيرانيين والعرب قد اتحدوا واشتركوا في الحكومة معاً، وكونوا أسطولاً بحرياً جيداً، وقد أخذ اسطولهم يمخر عباب البحار جيئة وذهاباً، وكان هذا الأسطول في بداية الأمر منافساً لاسطول الحبشة المدعوم من الرومان ومن ثم البيزنطيين، لكن الغلبة كانت للنشاط العربي الإيراني في جميع البحار ومنها موانئ بحر القلزم (البحر الأحمر) بسبب خبرة العرب ومهارتهم في البحار (17)

وفي سنة 523م حين أراد ملك الحبشة محاربة سكان الحجاز أعد سفناً حربية قيل أن أعدادها تجاوزت الـ 700سفينة، كما كانت بضائع سيلان (سرنديب) والهند تنقل بواسطة سفن حبشية (18).

وازدهرت تجارة العرب عبر مراكزهم التجارية المهمة (مدن القوافل)، وبعد سيطرة الفرس على الحضر أرادوا السيطرة على بلاد اليمن، وقد تنافسوا هم والأحباش على السيطرة على بلاد الحجاز، وما حملة أبرهة الحبشي على مكة إلا دليلاً على ذلك، حيث ورد ذكرها في سورة الفيل، قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ (19).

ومن المواد التي كانت تصدر من إيران وبلاد العرب وبلاد الروم الجلود وقرون الكركدن والذهب والفضة والعبيد والتمور واللبان والكحل الإيراني والعسل والفرو والزجاج والعاج الأفريقي والسجاد البابلي والإيراني والمرجان واللؤلؤ والاقمشة المصنوعة في بلاد الشام

(الدمقس) والموسلين (يصنع في مدينة الموصل) والأدوية المخدرة من آسيا الوسطى وغيرها كثير، وتستورد الفخار الصيني والحرير والورق والتوابل والتحف الصينية (20). واقتضى التطور التجاري قيام عمليات مصرفية لتسهيل التجارة بين الشرق والغرب، فظهر ما يعرف بالحوالات أو الكومبيالات المصرفية، وقد لعب اليهود والنصارى في العراق وإيران دوراً مهماً عبر مؤسساتهم المنتشرة بين الدولة الساسانية والدولة البيزنطية، في اتمام عمليات تجارية كبرى، دون نقل النقود وتحمل مخاطرها (21)

وقد رافق النشاط التجاري اهتمام من قبل الدولتين الساسانية والبيزنطية، بطرق المواصلات وحمايتها، وتأمين خط سير القوافل وحمايتها من السراق عبر ما يعرف اليوم بنظام المرابطة على الطرق الخارجية، فتطور البريد بربط أقاليم الدولة، وانشاء محطات البريد، وجنت التجارة الخارجية الفوائد عبر المراكز والمحطات التي كانت تمثل هيبة وسلطة الدولة، وفضلاً عن ذلك فقد كانت الطرق معلمة باشارات، حفاظاً على أمان وراحة عمال البريد وتجار القوافل، لا بل أن كثيراً من الطرق كانت معبدة (مرصوفة بالحجارة) لتسهل سير القوافل ومنظمة عبر إنشاء القناطر والجسور على الترع والجداول والانهار (22).

المالية:

يتولى رئيس الزراع رئاسة ضريبة الأرض، وبما أن الضريبة تفرض على الأرض تبعاً لخصوبتها ونوعية المحصول ونوع السقي بالمطر أو الري، وقربها أو بعدها عن مراكز المدن والأسواق، ولهذا يترتب كما ذكرنا آنفاً على المسؤول الضريبي مسؤوليات كبيرة أهمها الحفاظ على خصوبة الأرض وأن يهتم بزراعتها وكري الجداول والأنهار والمبازل، ومن ثم ملاحظة المحاصيل الزراعية، وبالتالي فإنه يهتم بجباية ما يقع على الأرض من حق للدولة التي تعد هي المالك الأساس لها، وبهذا تضمن الدولة حقها وحق الفلاح.

أما الصناع والحرفيين في المدن فكان يرأس كل حرفة رجل يعرف برئيس الصنف أو الحرفة، ويكون هو الواسطة بين الصناع من أهل حرفته وبين الدولة، ويقوم هذا الشخص بمراقبة من يعمل في الحرفة، وأعتقد أنه موظف لدى الدولة، ولديه خبرة متميزة في هذه الحرفة، ليعرف طرق الغش والتدليس فيها، ويتوجب على هذا الشخص جباية حق الدولة من أهل الصناعة، ويرأس رؤساء الحرف رجل يعرف بعامل السوق أو شيخ الأصناف الذي تكون واجباته أكبر من رئيس الحرفة، لأنه يراقب جميع أصحاب المهن من حدادين وأساكفة

ونجارين وصفارين وصاغة ونساجين، وغير ذلك من الحرف التي كانت موجودة في إيران والعراق.

وانتشرت صناعة الحرير والاقمشة الصوفية والسجاد وغيرها من الصناعات النسيجية الاخرى في العراق وإيران مركز الدولتين الفرثية والساسانية (23)، وهذه الصناعات كانت منتشرة في المنازل، وخاصة مصانع السجاد والحرير . وكان هنالك عدد من الموظفين المهمين في الجانب المالي منهم صاحب الخراج، وهو يعد من أهم الشخصيات المالية في الدولة، وله مكانة متميزة عند الملك الإيراني الفرثي أو الساساني، يليه رئيس محاسبي القصر، وهذا الشخص يتولى الإشراف على مصاريف العائلة المالكة ومتابعة احتياجاتها، ويتولى صرف ما يطلبه رئيس طباخي القصر، ومسؤول الآثاث والملابس وخدمة الضيوف وطلبات نساء القصر التي لايرد لهن طلب. ثم يليه حارس المسكوكات وهو أشبه اليوم بمحافظ البنك المركزي في الدول، فعليه تقع مراقبة وزن العملة الفضية والذهبية ونوع المعدن ودور الضرب، لأن اقتصاد الدولة والجباية تعتمد على نوع المعدن وقيمته، فالنقد في السابق كانت له قيمة نقدية بحد ذاته كونه معدن ثمين، وقوة شرائية يتبضع بها الناس احتياجاتهم اليومية، وليس الحال كما هو اليوم من استعمال النقود الورقية التي تصدر بقانون وتحدد الدولة قيمتها (24).

وهنالك ضريبة الرأس (الجزية) التي تفرض على عامة الناس من أتباع الدولة، وهي مقدار ثابت تفرض على كل إنسان بالغ عاقل، ويعفى منها النساء ورجال الدين وكبار الشخصيات في البلاط الإيراني (25)، وقد حدد هذه الضريبة الملك كسرى أنو شروان على أقسام بعد أن ضاق الناس ذرعاً بالجزية السابقة، فالطبقة الغنية تدفع 12درهم في السنة والوسطى 8 دراهم والفقيرة 4دراهم، وتدفع هذه الضريبة على ثلاثة دفعات في السنة (26).

وهنالك ضريبة العشور التي تجبى من تجار الدول الأجنبية بمقدار العشر أو مبدأ المعاملة بالمثل، وكانت مبالغ هذه التجارة عظيمة وذلك لإحتكار الساسانيين ومن قبلهم الفرثيين لطريق الحرير المؤدي إلى بلاد الهند والصين، وقد حددت كلتا الدولتين الفرثية والساسانية والرومانية والبيزنطية أماكن محددة تمر منها البضائع لتعشيرها بالعشر (الضريبة)، خوفاً من تجاوز نقاط الجمارك والتهرب من دفع الرسوم المقررة، فعلى سبيل المثال حددت معاهدة الصلح لمعاهدة 562م، في المادة الثالثة التي نصت على أن يستمر

التجار الفرس والروم في تبادل جميع أنواع البضائع، كما كانوا يفعلون منذ الازمنة الغابرة، ولكن على أن تمر البضائع بالمكاتب العادية بالجمرك (27).

وفضلاً عن ذلك كانت هنالك الهدايا التي تقدم للملك الإيراني في عيد التتويج وعيد النوروز والمهرجان وكانت هذه الهدايا تجبى بالقوة وبالاكراه وتشكل مبلغاً مالياً عظيماً في ذلك الوقت (28).

وكانت هذه الضرائب تجبى نقداً وعيناً والنقد الرسمي للدولة الفرثية والساسانية هو الدرهم الفضي، وذلك لندرة الذهب في مناجم إيران والعراق، وكانت الدولة تحتكر التعدين عن الذهب والفضة في تلك العهود، وقد اتبعت الدولة الفرثية والساسانية، نظام العملة الواحدة، فكانت وحدة النقد عندهم هو الدرهم الفضي، وقد حرصت كلتا الدولتين على التدقيق في سكه، ونقاء معدنه، وحافظوا على وزنه، وعياره طول مدة حكمهم، اللهم إلا في فترات قليلة أثناء الفتن والإضطرابات والثورات السياسية، ولا ريب فإن إعتمادهم على العملة الفضية يرجع كما قلنا قبل قليل، إلى توفر هذا المعدن في أمبراطوريتهم، ولم يسكوا نقوداً ذهبية لندرة هذا المعدن في بلادهم، بل كانوا يستخدمون ما يأتيهم من عملة ذهبية من الدولة الرومانية أو البيزنطية، ولو نظرنا إلى معاهدات الصلح مع الرومان والبيزنطيين، لوجدنا أن الفرثيين والساسانيين، كانوا يدونون مبالغ الجزية أو الديون على الرومان والبيزنطيين بالدينر الذهبي، لقد كان الدرهم الساساني من الفضة الخالصة، ويبلغ وزنه مثقال، وعياره يبلغ معدله 98%من الفضة الخالصة، وقد وزن المستشرق الألماني مورتمان 2500قطعة من النقود الفرثية والساسانية في متحف برلين، فوجدها متساوية الوزن تقريباً، مع مراعاة طول فترة الاستخدام والتاريخ الذي يتجاوز الـ2500 سنة منذ سكه في العهد الفرثي أو الساساني.

أما طراز سك الدرهم الفضي، فقد كانت الأساس الذي ضرب به الفرثيين نقودهم، ففي الوجه صورة الملك الفرثي واسمه، وبعض عبارات التعظيم للملك الفرثي، وفي بعض الأحيان توجد بعض النقوش كالقمر والنجمة، أما ظهره فنجد فيه الشمس أو المعابد (معابد النيران) أو صورة أحد الهياكل الدينية، مع وجود صور لحارسين بيدهم الرماح، كما يذكر على الدرهم، ويحتوي الظهر كذلك على تاريخ السك ومكانه واسم الملك الساساني في بعض الأحيان (29)

وكذلك كانت النقود الساسانية، والتي سكت على الطراز الفرثي، وكانت لكل ملك صورته الخاصة به، ومن يطلع على النقود الفرثية أو الساسانية يجد اختلاف الصور للملوك، وكانت العملة تسك في العاصمة طيسفون، وكذلك في مراكز الأقاليم، وقد بلغ عدد مراكز سك العملة في عهد الملك الساساني كسرى أنو شروان بحدود 100 مركز لسك النقود، وكان يكتب على العملة مكان سكها (30). وتبدل النقود عند ارتقاء العرش ملك فرثي أو ساساني جديد، ويقومون بجمع العملة المتوفرة في أيديهم في خزينة الدولة، ويعيدون ضربها باسم الملك ورسمه (31)، ولكي توزعها الدولة على الجند والموظفين، ثم تجمع بقية النقود تدريجياً، كما تفعل الحكومات اليوم في الوقت الحاضر عند استبدال العملة القديمة بالعملة الجديدة، كما كانت الفلوس النحاسية هي العملة الثانية في إيران والعراق قبل ظهور الدين الاسلامي. وعندما فتح المسلمون بلاد العراق وإيران ظلت هذه النقود الفضية هي النقود المستعملة طيلة العصرين الراشدي والأموي حتى عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، إذ أمره الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بتعريب العملة إلى اللغة العربية، بعد أن كانت تكتب بالفارسية أو البهلوية (32)

أما مصاريف الدولة فتنحصر في دفع رواتب الموظفين والجند وكبار رجال الدولة، فضلاً عن الجيش الذي يعد المستهلك الأول في كل دول العالم للنقد فرواتب الجند والقادة وإعداد الحملات العسكرية وتهيئة حيوانات النقل وحيوانات القتال من الفيلة والبغال والجمال والخيول والبغال، وتموين الجيش واطعامه، وكذلك عمل الجسور والقنوات، فضلاً عن نفقات البلاط الإيراني والهبات والهدايا للفقراء أيام الأزمات.

وكانت الدولة تفاجأ بحروب لم تكن قد استعدت لها، فتنقص عندها الاموال، فتبدأ بحملة جباية جديدة وأعمال سخرة تكلف الناس الكثير من الجهد والمال، كما أن سوء المواسم الزراعية قد يكلف الفلاح والصانع المرتبط به اعباءً اضافية، فتتراكم الديون عليه ويقع تحت رحمة جباة الضرائب الذين وصفوا بالقسوة وعدم الرحمة، ولهذا جاءت اصلاحات عدد من الملوك الساسانيين لتلافي هذه المشكلة التي قد تقوض الدولة، فاصدر الملك الساساني كسرى أنو شروان مراسيم عدة تتناول التخفيف عن الناس، فأجرى مسح الأرض وحدد ما يدفع عنها من المال فجعل درهم على كل جريب يزرع حنطة أو شعير، وثمانية دراهم في السنة عن كل جريب من الأعناب وسبعة دراهم عن كل جريب يزرع برسيم (جت)، وخمسة أسداس الدرهم عن كل جريب يزرع أرز، ودرهم واحد عن كل أربعة نخلات إيرانية أو ست نخلات آرامية أو ست أشجار من الزيتون (33).

الهوامش

(1) كرستنسن: إيران ص 110؛ الحديثي: دراسات ص 185.

(2) الحديثي: دراسات ص 185.

(3) باقر: تاريخ ص 307؛ الحديثي: دراسات ص 186.

(4) باقر: تاريخ ص 176.

(5) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الابياري و عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط/1 1938م/1357هـ، القاهرة، ص 5-4

(6) الجهشياري: كتاب الوزراء ص 6.

(7) حلمي: 35500عام ص 237.

(8) باقر: تاريخ ص 176؛ الحديثي: دراسات ص 186.

(9) باقر: تاريخ ص 177-176؛ الحديثي: دراسات ص 187.

(10) باقر: تاريخ ص 177؛ الحديثي: دراسات ص 187.

(11) انظر المالية في هذا الفصل.

(12) كرستنسن: إيران ص 112-111.

(13) كرستنسن: إيران ص 112.

(14) الحديثي: دراسات ص 188-187؛ طارق فتحي سلطان: النشاطات الاقتصادية في الدولة الغورية، مجلة أبحاث التربية الأساسية، جامعة الموصل 2010م.

(15) كرستنسن: إيران ص 116-115؛ الحديثي: دراسات ص 189.

(16) باقر: تاريخ ص 178؛ الحديثي: دراسات ص 190.

(17) كرستنسن: إيران ص 117-116؛الحديث: دراسات ص 190.

(18) كرستنسن: إيران ص 117-116، محمود شيت خطاب: قادة فتح بلاد فارس، بيروت 1965م، ص37 36.

(19) سورة الفيل.

(20) كرستنسن: إيران ص 117؛ الحديثي: دراسات ص 191؛ باقر: تاريخ ص 178.

(21) باقر: تاريخ ص 129؛ الحديثي: دراسات ص 191.

(22) كرستنسن: إيران ص 118-117؛ باقر: تاريخ ص 178؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 27-26؛ الحديثي: دراسات ص 192.

(23) كرستنسن: إيران ص 115.

(24) كرستنسن: إيران ص 110-112؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 25؛ الحديثي: دراسات ص 192.

(25) سلطان: الضرائب بين عدالة الاسلام وظلم الفرس ص8.

(26) كرستنسن: إيران ص 352.

(27) كرستنسن: إيران ص 113.

(28) كرستنسن: إيران ص 112-113؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 25؛ كرستنسن: إيران 114.

(29) محمد: محاضرات ص 77-78. .The Sasanian Dirhams,Lovely Osmile. com,p1-3.
M. Yahoo.com,11/6/2012,H/9A.

(30) محمد: محاضرات ص 78.

(31) كرستنسن: إيران ص114.

(32) محمد: محاضرات ص 78.

(33) كرستنسن: إيران ص 114، 351-352؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 56-57؛ الحديثي: دراسات ص 194.

7

الفصل السابع

التنظيمات الاجتماعية في العهد الساساني

التنظيمات الاجتماعية:

أصل الإيرانيين:

لايمكن كما قلنا في بداية الكتاب أن نحدد أصول شعب من الشعوب اليوم، وذلك لكون العالم القديم مفتوحاً أمام الهجرات المختلفة ومن مختلف الاتجاهات، ولحدوث المصاهرات بين جميع شعوب الأرض، مما ينفي صفة الدم النقي، الذي تدعو اليه بعض الشعوب، ومنهم اليهود على وجه الخصوص، ولأن بلاد إيران مفتوحة من كل الاتجاهات، وليس حالها كحال أمريكا قبل اكتشافها، ولكن يمكن أن نحدد أصول أغلبية الناس في منطقة محددة، فالعراق على سبيل المثال غالبية سكانه من العرب، لكنه يحتوي منذ أمد بعيد على قوميات أخرى بجانب العرب، وكذلك الحال بالنسبة لإيران، يمكن أن نقول أن غالبية سكانها من الآريين Aryen.

ينتمي الإيرانيون من حيث جنسهم إلى مجموعة الشعوب الهندية الاوربية والتي تضم كثيراً من سكان الهند، وينتسب الإيرانيون إلى فرع الجنس الآري، وهو أسم قديم لم يبتدعه المحدثون من علماء الاجناس، وهذه الشعوب الآرية تشرك في لغة واحدة ودين واحد قبل انقسامها وتفرعها إلى شُعَبٍ وأمم عديدة وصل البعض منها إلى أوربا، وكانوا في بداية أمرهم قبائل رعوية تنتقل وراء الماء والكلأ، وتمارس الفروسية والصيد، ولها معرفة جيدة برمي السهام، ثم انتقلت من حياة الرعي والتنقل إلى مجاورة شعوب أعرق منها حضارة، فاستقرت وتأثرت بهم، أما موطنهم الأصلي فهو محل خلاف بين العلماء، فقسم قال إنهم من أطراف الهند وجبال البامير، وقسم قال انهم من بلاد التركستان بين نهري سيحون وجيحون، وقسم ثالث قال بأن موطنهم هي الاراضي الخصبة المجاورة لبلاد ما وراء النهر (1).

ولو أخذنا برأي الأغلبية قلنا بأن أول موطن للشعوب الآرية بعد انفصالها عن بقية الشعوب الهند واوربية، هو آسيا الصغرى، ويرى المحققون أمثال تيل Tiele ويوستي Yusti وماركوارت Marquart وآندراس Andreas أن الموطن المذكور يقع إلى جانب خوارزم وخيوه

الحاليين، أي في الناحية التي أطلق عليها في الأفستا أسم آثيريّن واجه (إيران ويج) Airya-na Vaejah وحين تتحدث الأفستا عن بلاد الآريين تصفها بأنها كانت معتدلة المناخ، ذات أرض خصبة (2)، وتعد القبائل الآرية هي الجد الأصلي لسكان الهند وإيران، وكانت هذه القبائل تطلق على نفسها لفظة آري وتعني الشجاعة والشرف (3)

وقد خالطت وجاورت الشعوب الآرية في الفترة قيد البحث أقوام وأمم عديدة أبرزها العرب الذين تتابعت هجراتهم من شبه جزيرة العرب والعراق، فانتشروا في الأجزاء الغربية من إيران الحالية في الأحواز ومنطقة عراق العجم وعاصمته عراق ويطلق عليها في الخرائط الحديثة اسم أراك.

تتكون الأسرة الإيرانية من الأب والام والأولاد، وتكون مجموعة الأسر القبيلة أو العائلة الكبيرة حالها حال بقية الشعوب الأخرى، ويتحكم زعماء هذه الأسر في قبائلهم، ويسيرونهم كيفما يشاؤون، وفي بعض الأحيان كانت القيادة الناجحة تأخذ بيد القبيلة القوية أو المتنفذة إلى السلطة وحكم البلاد، وفي أحيان أخرى كان زعماء هذه القبائل يدمرون قبائلهم في معارك لا طائل من ورائها. وتحتفظ كل جماعة من الناس سكنون منطقة ما بلغة وعادات وتقاليد خاصة بها.

ويرأس القبيلة أو الأسر الكبيرة مجلس شورى، ويتكون من رئيس الأسرة أو رؤساء الأسر وكبار فرسان الأسرة ومحاربيها، فضلاً عن ذوي الخبرة بأمور الحرب والسياسة، وهو أشبه بمجلس شيوخ القبيلة (4). وكانت هذ المجموعة أو القبيلة التي ترتبط برابطة الدم والنسب تسيطر على منطقة أم مملكة، ثم تسيطر الأخرى على منطقة أخرى وهكذا ويكون قسم من هؤلاء مجلس شورى المملكة.

وكان المجتمع الساساني مجتمع طبقي أيدته الديانة الزرادشتية وطبقته على عموم الناس في كافة أرجاء الدولة الساسانية، وتعتمد الجماعة الإيرانية على عمادين أساسيين هما النسب والملكية، فكان يفصل النبلاء عن عامة الناس حدود محكمة، وكان التمييز يبدو واضحاً في المركب والملبس والمسكن والبستان والخدم والحشم، وبكل ما يميز الأثرياء من امتيازات مادية ومعنوية (5).

وكان لكل فرد في المجتمع الساساني مرتبته ومكانه المحدد في الجماعة، وكان من قواعد السياسة الساسانية المحكمة، ألا يطمع أحد في مرتبة أعلى من المرتبة التي يخولها مولده،

ولهذا يجب أن تتبع الرعية تعاليم ملوكهم التي تنص على: ((أنظروا إلى من هم أقل منكم طبقة ولا تتطلعوا إلى الطبقة الأعلى منكم، ليقنع كل منكم بما هو فيه، وليشكر الله على المرتبة التي هو فيها، حين ينظر إلى غيره ممن هم أقل منه منزلة)) (6)، وكانت القوانين تصون شرف النسب في الأسر النبيلة، كما تحفظ أملاكهم الثابتة ، وكان من عادة ملوك إيران أن يتزوجوا من بنات جميع الملوك الأجانب، كملك الصين والهند وبيزنطة وملوك الترك وملوك الهند، ولكنهم لايزوجون بناتهم من غير أفراد أسرتهم (7).

وقد أقر الساسانيون تنظيمات أسرية، وكانت هنالك خمسة أنواع من الزواج ويترتب عليها بعض الحقوق:

1- أن تتزوج البنت وحيدة أبويها، فيترتب على زواجها أن تعطي طفلها الأول لأسرتها ليحل محلها.

2- أن تتزوج الأنثى بموافقة أبيها وامها، وتعد هذه الزيجة زيجة ممتازة، ويكون من نتيجتها أن ينسب أبناء الزوجة لزوجها في الدنيا والآخرة.

3- إذا مات ذكر قبل البلوغ دون أن يتزوج، أمكن لأسرته أن تجهز فتاة من أسرة أخرى، وتزوجها برجل غريب، ويترتب على ذلك أن ينسب نصف الأولاد الذين تنجبهم تلك الزيجة إلى الرجل المتوفى، بينما ينسب النصف الآخر للزوج الحقيقي الذي هو على قيد الحياة.

4- إذا تزوجت الأرملة دون أن يكون لها أولاد من زوجها الأول، فإن نصف من تنجبهم، ينسبون إلى زوجها الأول.

5- قد تتزوج إمرأة دون إذن أبويها، فيخضع إرثها في هذه الحالة لشروط.

ومما يلاحظ في هذه الزيجات جميعاً هو التناسل والحفاظ على النسل، والسعي لكثرة الأولاد والبنات لدوام المجتمع (8).

وكان هناك تمايز واضح بين الطبقات المختلفة، فكان لكل فرد مكانه المحدد، وحرم على الواحد منهم أن يشتغل بغير الصناعة التي خلقه الله لها ((إنه من واجب الصناع ألا يتدخلوا في الأعمال التي لايعرفونها، ولكن عليهم أن يتقنوا ويعنوا بالعمل الذي يعرفون، وأن يطلبوا عنه الأجر القانوني، ذلك أن الصانع، إذا إشتغل بعمل لايعرفه يفسده ويصبح بسبب تدخله عديم الجدوى)) (9).

وكان الانتقال من طبقة إلى أخرى أعلى منها محظوراً بوجه عام، وقد يقع ذلك بصورة إستثنائية، حينما يظهر أحد العامة موهبة خاصة، وفي تلك الحالة يرفع الأمر إلى الملك، وبعد إختبار الموابذة والهرابذة إياه وطول مشاهدتهم له، فإذا رأوه مستحقاً أمر الملك بالحاقه بغير طبقته، فإذا كان يمتاز بالتقوى المحققة، فإنه يدخل في سلك رجال الدين، وإن كان موهوباً بالقوة والجسارة، الحق بطبقة رجال الحرب، وإن إمتاز بالذكاء، وكانت له ذاكرة قوية الحق بطبقة الكتاب، وعلى أية حال، فإن الإنتقال من طبقة لأخرى أعلى منها، كان محاطاً بقيود صارمة وشروط قاسية وموانع كثيرة (10)

وتحتفل كل أسرة أو أمة بعيد خاص بها أو مجموعة أعياد نذكر منها:

1- عيد النوروز، وهو عيد كبير يقع في أول أيام السنة، ورغم أنه يقع في اليوم الأول من الشهر الأول في العام الإيراني (فروردين)، فإنه لم يكن يصادف أول الربيع وأول الصيف.

2- عيد بهار: ويدعونه بهار جشن، ويقع في أول يوم من شهر آذار طبقاً لتقويم الساسانيين، وكانت تقام فيه مراسم تبعث البشر والفرح والسرور، وكانت توضع طبله على دابة تسير في طرقات المدينة، تاركة الريح تضرب تلك الطبلة، فتصدر أصواتاً عالية، ويصب الناس الماء البارد على وجوههم مظهرين سرورهم لإنقضاء الشتاء.

3- عيد المهرجان: (مهركان) ويقع في السادس عشر من شهر مهر، وكان يحل أول الأمر في الشتاء، ومع مضي الوقت وإختلاف التوقيت، صار يحل في بداية الصيف.

4- عيد سده: ويحتفل فيه الإيرانيين في العاشر من بهمن حيث يشعلون النيران.

5- عيد آبريزان، ويحتفل به في اليوم الثلاثين من شهر بهمن، وفي هذا العيد يرشون وجوه بعضهم البعض بالماء إظهاراً لسرورهم.

6- عيد مزده كبران: ويحتفلون به في الخامس من اسفندار، ويرسلون فيه الهدايا إلى بعضهم البعض (11).

المعتقدات الدينية:

لكل شعب أو أمة معتقد ديني تسير عليه، أو عدة أديان، وهذا هو حال العالم في الوقت الحاضر، فالديانة الاسلامية تحتل مركز الصدارة في العالم اليوم وهو يعد الدين الرئيس

لأغلب لأمم العالم، تليه النصرانية، والبوذية والهندوسية، وكذلك الحال بالنسبة لبلاد إيران في السابق، وعرفت إيران أدياناً عدة تشترك في الخطوط العامة وتختلف في التفاصيل، وذلك للتغيرات السياسية التي رافقت هذه الأديان مع ملاحظة خصوصية كل منطقة والشروط الحياتية الخاصة بكل إقليم.

عرفت بلاد إيران الديانة المزدية، وفي حدود القرن السابع ق.م، ظهر رجل يعرف بـِ زرادشت أو زراتشترا، فدعا إلى ديانة مزدية معدلة، أي أجرى على الديانة المزدية بعض التعديلات، وعرف دعوته أو دينه الجديد باسم الزرادشتية نسبة إسليه. ولد زرادشت على أغلب الظن في بلاد أذربيجان، الواقعة شمال غرب بلاد إيران، ودعا إلى دينه الجديد في بلاده، ويبدو أنه تلقى رفضاً لدعوته هذه في منطقته، فهاجر إلى منطقة بلخ، فلاقت دعوته قبولاً هناك، وسانده حكام تلك المناطق، فانتشرت الزراداشتية في تلك المناطق، وقد قتل زرادشت في أحد المعارك مع سكان بلاد آسيا الوسطى، ويشير وجوده في هذه المعركة ومقتله فيها، إلى أن هذه الحرب كانت في طرف منها دينية، ويبدو أن معتقداته قد ألبت عليه سكان أواسط آسيا من الأتراك الذين كانوا يدينون بدين آخر.

وبعد مقتل زرادشت أخذ المجوس ينشرون أفكاره ومعتقداته بين الناس، وقد عرف العرب قبل الإسلام المجوس، من خلال الاتصال المباشر معهم، وجاءت الآيات القرآنية لتؤكد وجود أتباع هذا الدين مطلقة عليهم لفظ المجوس ﴿إن الذين آمنوا واليهود والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيءٍ شهيد﴾ (12)).

وكلمة مجوس معربة عن كلمة مكوسيا البهلوية، وهي في الفارسية القديمة (مكوش) ووردت في كتاب الافستا باسم (مكاو) وفي الفارسية الحديثة وردت تحت اسم (مغ) و(ومغ) وهو لقب كان يتلقب به رجال الدين في إيران قبل ظهور زرادشت، وكان سكان إيران القدماء يقدسون العناصر الأربعة أو الأخلاط الأربعة وهي: النار والتراب والماء والهواء ، وقد انتقلت بعض من هذه الآراء إلى الديانة الزرادشتية، وكانت طائفة المغ تمارس أعمال السحر والشعوذة والاتيان بغرائب الأشياء، وتعني كلمة مع أو ومغ القريبة من الكلمة الإنكليزية للسحر وهي (13) Magic Or Magicien.

الديانة الزراداشتية:

تشير المصادر إلى أن ويشتاسب والد الملك دارا كان أول أنصار زرادشت، ويبدو أن دارا الأول (521- 486ق.م) أيضاً كان من أنصارها، ويعد هذا تحولاً خطيراً في تاريخ الديانات في بلاد أيران إذ أن أية حكومة إيرانية لم تتبنّ أية عقيدة، بل تركت الناس أحراراً في معتقداتهم، وهذه تعد مشكلة بحد ذاتها في ذلك التاريخ الموغل في القدم. وأصبحت الديانة الزراداشتية وكتابها المقدس الأوستا (الأفستا) دستوراً يحتكم به الناس وتعترف به الدولة قانوناً خاصاً لها، ولكن هذا لم يستمر طويلاً، ففي العهد السلوقي والفرثي، دخلت أفكار جديدة إلى إيران، فتعثرت الديانة الزرادشتية قليلاً، لدخول الفلسفة اليونانية كالجدل والمنطق وعلم الكلام والسببية وغيرها من الأفكار اليونانية، ودخلت كتب سقراط وأفلاطون وارسطو وترجمت لتصبح جزءاً من الثقافة الجديدة في إيران.

وعندما جاء الفرثيين إلى الحكم بعد السلوقيين (اليونانيين بافكارهم ومعتقداتهم ووثنيتهم)، كانوا زرادشتيين، لكنهم لم يعيروا الدين أهمية كبيرة، ولم يعرف عنهم التعصب للديانة الزراداشتية، فبقيت الكثير من المقاطعات التابعة للدولة الفرثية تعيش اللامركزية في إدارتها ودينها، ويبدو أن بعض أتباع الفرثيين (ملوك المقاطعات السبعة) أدرك ما للدين من أهمية في تداعي المملكة وتوحيد الناس وشحذ الهمم.

وبعد سقوط الدولة الفرثية على يد الساسانيين في عام 224م، تبنت الدولة الساسانية الدين الزرادشتي ديناً رسمياً لها على عهد الملك أردشير الأول (14)، وعندما تولى الملك أردشير الأول عرش إيران، وقضى على المعارضين للدولة الساسانية في الداخل، أمر الهريذان هربذ كبير سدنة بيوت النار - تنسر، بجمع النصوص المبعثرة من الأوستا الاشكانية، وبكتابة نص واحد منها، ثم أجيز هذا النص وعد كتاباً مقدساً، وعندما تولى شابور الأول بن أردشير وخليفته، فأدخل في هذه المجموعة من الكتب المقدسة، النصوص التي لاتتعلق بالدين، والتي تبحث في الطب والنجوم وماوراء الطبيعة، والتي كانت موجودة في الهند واليونان وغيرها من البلاد (15). قبل جعل الدين الزرادشتي ديناً رسمياً للدولة الساسانية.

وقد أمر سابور الأول بوضع نسخة من هذه الاوستا في بيت نار آذر كشنسب في شيز - مدينة في أذربيجان - لكن هذا التغيير الذي حدث في، أثار الكثير من الخلاف بين الناس ورجال الدين الزراداشتي الآخرين، فطلب شابور الأول بعقد مؤتمر ديني أو مجمع ديني

برئاسة الموبذان موبذ، الذي حدد نهائياً نص الاوستا، وقسمها إلى 21 قسماً (تسك) على عدد كلمات الصلاة المقدسة، ويقع كل جزء في 200ورقة (16).

والأوستا الساسانية التي لم يبقَ منها اليوم غير أقلها، عبارة عن جمع لنصوص بهلوية، ترجع إلى القرن التاسع للميلاد، أي بعد ظهور الدين الإسلامي بثلاثة قرون، لم تكن مقتصرة على النصوص الدينية الخاصة بالعبادات فحسب، بل كانت في الوقت نفسه نوعاً من دائرة المعارف تحوي العلوم كلها، فعلوم المبدأ والمعاد - الخليقة والقيامة - وأساطير الأولين وعلم التكوين والعلوم الطبيعية والتشريع والحكمة العملية للعهد الساساني كلها مقتبسة من ال 21قسماً، التي تتقسم إليها الأوستا، ومختصر الأوستا الموجود حالياً غير متناسب الأجزاء ففي بعضه وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الفقهية نجد بيانات مفصله، بينما في أجزاء أخرى لاسيما ما يتناول المبدأ والمعاد، ملخصة في بضع كلمات كما يحتوي على مقاطع في الشعائر الدينية وفي قوانين المعابد الزراداشتية (17).

وقد عامل العرب المسلمون في الفتح الاسلامي الزرادشتيين معاملة حسنة كمعاملة أهل الكتاب، وعدوا كتابهم الأفستا كأنه كتاب منزل، وقام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (على ذلك لما روى عن الرسول محمد ((سنوا بهم سنة أهل الكتاب)) (18)

ومما تقدم نستنتج أن معظم الأوستا الساسانية كانت موجودة إلى القرن التاسع للميلاد كما مرّ بنا قبل قليل، في الترجمات البهلوية، ويبدو أن الظروف المادية القاسية التي كان عليها المجوس في ذلك الوقت، مما جعلت من الصعب عليهم القيام باستنساخها نظراً لكثرة مجلداتها، ولعدم وجود دولة مجوسية تطبق تلك التعليمات والشروحات في محاكمها وفي بقية مفاصل الحياة التي تطرقت إليها تلك النصوص والشروحات الكثيرة، فضلاً عن الاضافات التي استجد استخدامها في العهد الساساني، فتركوا استنساخ الكثير من الشروحات الفقهية، لعدم أهميتها، وربما للتطور العلمي الذي حدث في العصر العباسي، الذي أخذ يناقض الكثير من الاضافات على الأوستا، واكتفوا بالنص المهم لديهم (19).

واشتهر الفرس والجنس الآري عموماً بانهم ميالون إلى عبادة وتقديس مظاهر الطبيعة، فالسماء الصافية والضوء والنار والهواء والماء الذي ينزل من السماء، كانت تجذب أنظارهم، وجعلتهم يعبدونها، ويعدونها كائنات الحية، فسموا الشمس بِ عين الإله والضوء ابن الله، وعدوا الظلمة والقحط ونحوهما كائنات شريرة ملعونة (20).

وهنالك نصوص من الأوستا ملحقه بها، تبين أن تقديس الظواهر الطبيعية قد استمر على أنه خاصة أصيلة في الدين الزرادشتي، وإنّا نعرف كيف عمل الزرادشتيون على المحافظة على الماء والنار من النجاسات، ومع هذا ظلت للنار مكانة أعظم من الماء في الدين الزرادشتي (21)

لقد بنى الفرس قبل زرادشت تعاليمهم على أساسين: الأول أن لهذا العالم قانون يسير عليه وأن له ظواهر طبيعية ثابتة والثاني: ان هناك نزاعاً وتصادماً بين القوى المختلفة، بين النور والظلمة والخصب والجدب وهكذا .

فجاءت تعاليم زارادشت مبنية على هذين الأساسين أيضاً، إلا أن من قبله كانوا يعبدون الأرواح الخيرة وهي كثيرة فوحدها زارادشت في إله واحد هو (أهورامزدا)، وكذلك فعل في قوى الشر، فحصرها في شيءٍ واحد سمي بِ (دروج أهريمن)، وبذلك فزارادشت عنده قوتان فقط هما، قوة الخير وقوة الشر (22).

والمشهور من تعاليم زارادشت أنه يقول: إن للعالم أصلين أو الهين، أصل الخير هو (أهورا) أو (أهورامزدا)، وأصل الشر (أهريمن)، وهذان الالهان في نزاع وحرب دائمة، ومن هذين الأصلين قدرة الخلق، فأصل الخير هو النور وقد خلق كل ما هو حسن وخير ونافع، فخلق النظام وخلق الحق وخلق النور وكلب الحراسة والديك ونو ذلك من الحيوانات النافعة، والواجب على المؤمن العناية بها.

وأصل الشر الظلمة، وقد خلق كل ماهو شر في العالم، فخلق الحيوانات المفترسة والحيات والحشرات والهوام، وعلى المؤمن قتلها، والحرب بين هذين الروحين سجال، ولكن الفوز النهائي لروح الخير، والناس في الحرب ينحازون إلى الروحين، فمنهم من ينصر أهورامزدا، ومنهم من ينصر أهريمن، وليس الروحان يباشران الحرب لأنفسهما بل لمخلوقاتهما (23).

وكان الإنسان موضع نزاع بين الروحين لأنه مخلوق (مزدا)، ولكنه خلقه حر الإرادة، فكان بالإمكان أن يخضع للقوى الشريرة. والإنسان في حياته تتجاذبه القوتان، فان هو إعتنق ديناً حقاً وعمل عملاً صالحاً وطهر بدنه ونفسه فقد أخزى روح الشر ونصر روح الخير، استحق الثواب من مزدا، وإلا قوى روح الشر وأسخط عليه مزدا.

كما إن العمل مهم جداً، وأشرف عمل للإنسان هو الزراعة والعناية بالماشية، فحبب إلى الناس أن يزرعوا وأن يعيشوا مع ماشيتهم، وأن يجدوا ويعملوا حتى حرّم على أتباعه الصوم، لأنه يضعفهم عن العمل، وهو يريدهم أقوياء عاملين (24)

وعلم أن الهواء والماء والنار والتراب عناصر يجب ألا تنجس، وكان من مظاهر هذا تقديس النار واتخاذها رمزاً، وتحريم تنجيس الماء الجاري وتحريم دفن الموتى في الأرض ونحو ذلك (25). بل تترك في الصحاري والقفار والمرتفعات (لتنقل لنا بعد أن تتعفن الجثث أمراض الطاعون والهيضة وغيرها من الأمراض الأخرى).

ومع هذا فإن مكانة النار واهميتها عند الزراداشتيين كانت عظيمة، وتميز الاوستا بين خمسة أنواع من نار المعابد، وهي أيضاً النار التي ينتفع بها الناس عادة وهي النار التي توجد في جسم الإنسان والحيوان، وهي النار التي توجد في النباتات وهي النار الكامنة في السحاب أي الصاعقة، وهي النار التي تشتعل أمام أهورامزدا في الجنة، وقد عد المجد الذي يصاحب الملوك الشرعيين الآريين تجلياً لهذه النار، النار السماوية (26)

كما قدست الديانة الزرادشتية الماء إلى حد أنهم لايغسلون به وجوههم بل يغتسلون ببولهم، (فسبحان الله رب العرش العظيم)، ولا يلمسون الماء، إلا أن يكون للزرع أو للشرب.

أما الإنسان فله حياتان، حياة أولى، وفيها تحصى أعماله في كتاب، وعدت سيئاته ديوناً عليه، وفي الأيام الثلاثة التي تعقب وفاة الإنسان تحلق روح الإنسان فوق جسده وتنعم أو تشقى تبعاً لأعماله، وتقام الشعائر الدينية في هذه الايام ايناساً لنفس الميت، وعند الحساب تمر النفس على صراط ممدود على شفير جهنم وهو للمؤمن عريض سهل المجاز وللكافر أحد من الشعرة، فمن آمن وعمل صالحاً جاز الصراط بسلام ولقي أهورامزدا فأحسن لقائه، وأنزله منزلاً كريماً، وإن كان فاسقاً سقط في الجحيم وصار عبداً لأهريمن، ومن تعادلت حسناته مع سيئاته ذهب إلى الاعراف إلى يوم الفصل (27)

وقد غيب عن الإنسان وفق الفكر الزرادشتي في حياته، ما أعد له بعد موته، ولم يعلم الخير من الشر، فكان من رحمة الله أن أرسل رسولاً يهدي به الناس، ويذكر زرادشت أن يوم القيامة قريب، ,ان نهاية هذه الدنيا ليست بعيدة، وسيجمع أهورامزدا لقوته ويضرب به إله الشر ضربة قاضية، ويعذبه بالجحيم هو ومن أطاعه (28)

بجانب هذه التعاليم الدينية، كان لزرادشت فلسفة فيما وراء المادة، ولكن لم تكن بحوثه شاملة كما كان عند اليونان، بل كانت بحوثاً جزئية، كذلك نرى له امتزاجاً بين الدين وما وراء الطبيعة، فمن ابحاثه الفلسفية بحثه في النفس، فالديانة الزرادشتية ترى أن نفس الإنسان قد خلقها الله بعد أن لم تكن، وتستطيع هذه النفس أن تنال الحياة الأبدية السعيدة

اذا حاربت الشرور في العالم الأرضي، وقد منحها الله حرية الإرادة، فهي تستطيع أن تختار الخير أو الشر، وللنفس الإنسانية قوىً مختلفة: مثل الضمير، الوجدان، القوة الحيوية، القوة الروحية، القوة العقلية، والقوة الواقية (29).

وهنا يتبادر إلى الذهن أسئلة عديدة، فهل دين زرادشت دين ثنوي، يرى أن العالم يحكمه الهان إله الخير وإله الشر، وان لكل إله ذاتاً مستقلة ؟ أو هو موحد يرى أن العالم يحكمه إله واحد، وان مافي العالم من خير أو شر وما فيه من قوتين متنازعتين ليستا الا مظهرين أو أثرين لإله واحد ؟.

وإختلف الباحثون في الاجابة على هذه الاسئلة، فيرى كثيرون أنه دين ثنوي كما يدل عليه ظاهر كلامه، وقد ذهب إلى هذا الرأي بعض الكتاب الغربيين، ومنهم من يرى أنه موحد، والى هذا ذهب بعض المؤرخين العرب، ويقول هوك: أن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً ومن الناحية الفلسفية ثنوياً (30)

وكان للزرادشتيون بيوت نار يقيمون فيها شعائرهم الدينية، وكما نعرف، فإن جد أردشير كان قيماً على بيت نار في مدينة اصطخر، وأن الأسرة الساسانية حافظت دائماً على صلتها القريبة بهذا البيت، وكانت هنالك معابد يختص كل منها بإله، ومن المرجح أن تكون هذه المعابد المختلفة، مخصصة لعبادة آلهة الشريعة الزرادشتية جميعاً، وانها كانت من نوع واحد، فكان مركز الخدمة المقدسة هو الهيكل الذي فيه النار المقدسة، وكان لبيت النار ثمانية أبواب وعدة أبهاء على ثمانية أركان، ويمثل هذا النوع من المعابد معبد نار يزد الذي حول إلى مسجد بعد الفتح الإسلامي (31)

ووصف المؤرخ المسعودي خرائب أحد بيوت النيران قائلاً: ((وللفرس بيت نار باصطخر، تعظمه الفرس. .. وقد دخلته وهو على نحو فرسخ من مدينة اصطخر، فرأيت بنياناً عجيباً وهيكلاً عظيماً وأساطين صخر عجيبة، في أعلاها صور من الصخر طريفة، من الخيل وغيرها من الحيوانات عظيمة القدر والاشكال، محيط بذلك حيز وسور منيع من الحجر)) (32)

وكانت هنالك عدة نيران على مراتب منها: نار البيت يكون مسؤول عنه رب الأسرة، نار القبيلة ويكون مسؤول عنه اثنان من الهرابذة، نار الكورة ويكون مسؤول عنه عدد من الهرابذة

يرأسهم موبذ (33)، وفي معبد النار يرتل رجال الدين الزرادشتيين الأدعية المقررة للأوقات الخمسة المحددة في النهار، وهي تأخذ شكلاً علنياً في الأعياد السنوية والفصلية والشهرية، وقد دعي أتباع زرادشت إلى معابد النار، وضرورة زيارتها، لأنها تقربهم من أهورامزدا، وتنقيهم من الذنوب، وكان لكل طبقة من الناس نار خاصة بهم فطبقة النبلاء والأمراء لهم نار خاصة بهم، والطبقة الوسطى من التجار والكتاب لهم نارهم الخاصة بهم وللطبقة السفلى لها نار خاصة بها، ويبدو لنا أن النظام الطبقي قد وجد فيما جاءنا أو وصلنا من بقايا الديانة الزرادشتية، وقد انتشرت معابد النار في كل الأرجاء التي يعتقد أصحابها بالدين الزرادشتي (34).

2- الديانة المانوية:

نسبت هذه الديانة إلى ماني بن فاتك، وهو إيراني الأصل من أهل همدان (أكبتان)، وقيل أنه من أسرة إيرانية عريقة، تنتسب إلى الأسرة الاشكانية الحاكمة، هاجر أبوه إلى العراق، وسكن في إحدى قرى مدينة ميسان (العمارة حالياً في العراق)، وفي العمارة وبحدود سن 215مأو 216م، ولد ماني، واختلط مع أهلها، وتعلم معتقداتهم حيث كانوا يعتقدون بمذهب المغتسلة، ثم تعمق بدراسة بقية الأديان التي كانت في زمانه، فدرس الزرادشية والنصرانية والمذاهب الجنستيكية وخاصة مذهب ابن ديصان ومرقيون، فترك ماني مذهب المغتسلة، وادعى أنه كان يرى الوحي عدة مرات في صورة ملاك اسمه القرين، فكان يدعي بانه يكشف له الحقائق الالهية، ثم بدأ يعلن دعوته فادعى أنه الفارقليط الذي بشر به عيسى (وتتلخص أفكار ماني، إن مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة ، وان الأول هو العظيم الأول أو الآله، وهو يتجلى في خمسة أشياء هي بمنزلة الوسائط بين الخالق والخلق، وبمثابة أقانيم الأب الخمسة: الحلم، والعقل، والعلم، والغيب، والفطنة.

أما إله الشر فقد كون: الضباب، والحريق، والسموم (الرياح الحرة الجافة)، السم، والظلمة، واتفق ماني مع زرادشت في أن عالمي النور والظلمة غي متناهيان من جوانب ثلاثة ويلتقيان في جانب واحد (35).

ويبدو أن ماني حاول المزج بين الديانة الزرادشتية والمسيحية، حيث يتضح أنه أخذ الكثير من مبادي المسيحية مثل التثليث المانوي، ونجد في النصوص المانوية عبارات مأخوذه عن الأناجيل المسيحية، وأخذ ماني فكرته عن تناسخ الأرواح عن المذاهب الهندية كالبوذية

والهندوسية والزرادشتية، وقد ناقض ماني أفكار زرادشت التي كان يدعو الإنسان إلى أن يعيش حياة طبيعية، يتزوج ويعمل وينجب من أجل عمارة الأرض، فدعا ماني إلى سرعة فناء العالم وعدم الزواج، لابل حرّم النكاح، ودعا إلى الزهد وصيام سبعة أيام من كل شهر، وفرض صلوات كثيرة، فيقوم الرجل بالاغتسال بالماء، ويستقبل الشمس قائماً، ثم يسجد اثنتي عشرة سجدة، في كل سجدة منها دعاء ونهى ماني أصحابه عن ذبح الحيوان (وهو مبدأ هندوسي) لما فيه من ايلام للحيوان، وأقر ماني بنبوءة عيسى (ونبوءة زرادشت (36).

وأما الاخلاق التي دعا إليها ماني فعددها سبعة أربعة منها روحانية تتعلق بالعقائد، وثلاثة تبحث في سلوك المؤمنين وهي:

1- خاتم الفم، وهدفه هو الكف عن الكلام المؤدي إلى الكفر أو الخبث.

2- خاتم اليد: وهدفه الاحتراز من كل فعل أو تصرف يغضب النور.

3- خاتم القلب وهدفه تجنب الاستسلام للشهوات الجنسية المحرمة (لأن الزواج عند ماني عده كفراً وعده شهوة حيوانية محرمة، ولهذا انتشر بين أتباعه الشذوذ الجنسي).

وقد لقيت دعوة ماني نجاحاً في البداية لا في بابل بل بين سكان إيران، ويظهر من نص الكفلايا، أن ماني كان قد نجح في ادخال أخوي شابور في دعوته وهما مهر شاه حاكم ميسان فضلاً عن فيروز، وكان هنالك رجل يعرف بِ أردوان ، ومن اسمه يظهر أن من بقايا دولة الاشكانيين المنقرضة، وربما من كبار رجال دولتهم، وكانت له مكانة عند الناس، انخرط في دعوة ماني (37).

وقد ذكرت المصادر العربية ماني ودعوته، وقالت بأن شابور قد غضب على ماني في آخر الأمر (38)، فيقول اليعقوبي: أن الملك سابور (شابور)، قد لبث من أتباع ماني عشر سنوات فقط، وبعد ذلك نفى ماني من إيران، فظل منفياً فزار آسيا الوسطى والهند والصين، داعياً إلى مذهبه، ومؤلفاً للكتب والرسائل التي كان يبعثها إلى الرؤساء والجماعات في بابل وإيران، وأخيراً توفي سابور سنة 272م وخلفه ابنه هرمزد الأول سنة 273م فتجرأ ماني وعاد إلى إيران (39).

ويبدو أن هذه الرواية مشكوك بصحتها، حيث يبدو أن ماني لم يخاصم سابور، ويبدو أن قصة هرب ماني هي من اختراعه أو اختراع أتباعه، اذ كيف تصل الكتب التي كان يبعثها

ماني إلى مختلف مناطق العراق فضلاً عن إيران، فالحقيقة أن ماني كان مقرباً من هرمزد الاول، لا عند سابور فقط، والشيء المؤكد أن بهرام الأول ترك ماني تحت رحمة رجال الدين في المناظرة التي جرت بين ماني وبين الموبذان موبذ، الذي غلبه في المناظرة العلنية وحكم عليه بالموت، فاعدم وسلخ جلده وعلق على أحد أبواب مدينة جندي سابور في الاحواز، وعرف الباب الذي علق عليه ماني باسم باب ماني (40).

وقد حرّم ماني على أتباعه مباشرة المهن التي تغضب العناصر الاربعة (الماء الهواء النار التراب)، للسعي وراء الثراء والبذخ، وحرم عليهم أكل لحم الحيوان (متأثراً بالديانة الهندوسية والبرهمية المنتشرة في بلاد الهند)، كما حرّم على أتباعه طبخ الخضراوات، لأن فيه اغتصاباً لذرات النور فيها، وحرّم عليهم شرب الخمور، وعلى أتباعه أن لايملكوا إلا غذاء يوم واحد، ولباس سنة فقط، وأن يعيشوا بلا زواج، وعلى أتباعه أداء العشر من أموالهم إلى رجال الدين، والمحافظة على الصوم والصلاة، وكانوا يصومون سبعة أيام من كل شهر ويصلون أربعة مرات في اليوم الواحد على أن يتطهروا بالماء الجاري، وفي حالة انعدام الماء عليهم أن يتطهروا بالتراب أو الرمل، وأن يسجدوا 12سجدة في كل صلاة (41)

وبعد مقتل ماني ابتدع أصحابه عيداً خاصاً لهم في ذكرى صلبه سموه بـِ (بيما) تخليداً لذكرى نبيهم ماني، وينصب في هذا اليوم منبراً يرمز إليه بحضور روح زعيمهم الغائب ماني (42).

وبعد صلب ماني ترأس الدعوة أحد أتباعه ويعرف بـِ سيس أو سيسين، وقد أقام هذا في مدينة بابل (تقع في العراق اليوم)، واصبحت بابل مركزاً للديانة المانوية، وفيها موقع الهيئة العليا للديانة المانوية. وقد تعرض أتباع الديانة المانوية للاضطهاد من قبل رجال الدين الزرادشتيين ومن الملوك الساسانيين نرسي وهرمزد الثاني، فعاش أتباعها حياة دينية سرية، (أي بما يعرف في العصر الإسلامي، اذ انتقلت إلى الدين الاسلامي في العصر الاموي والعصر العباسي، وهي حركة الباطنية أي أن الشخص يظهر لك أنه على دينك ومن أتباعك وأنصارك، لكنه يضمر في نفسه أمراً آخر غير ما هو معلن لك، ويتبع أمر رئيسه الديني السري، ويغدر بك في أحرج لحظة أنت تحتاجه إليها للوقوف معك، وخطر هذه التنظيمات أخطر من العدو لأنه عدو غير معروف)، كما حصلت المانوية على رعاية أحد ملوك الحيرة وهو عمرو بن عدي ووجد الكثير من المانوية في مدينة بابل لأنها مهد هذا الدين ، كما

ظهرت في العاصمة الساسانية المدائن (43).

كما أدى اضطهاد المانوية إلى هجرة الكثير من أتباعها إلى أقاليم إيران الشرقية والشمالية، حيث الجبال والقرى النائية البعيدة عن السيطرة المباشرة للدولة الساسانية، كما انتقلت فرقة منهم إلى بلاد الصغد (بلاد ماوراء النهر)، ويبدو أن اضطهاد الدولة الساسانية للديانة المانوية هو بسبب ترك العمل والدنيا والزواج، وهذا يتناقض مع سنة الحياة في الانجاب والزواج والعمل الزراعي والصناعي، الذي تجني ثماره الدولة الساسانية، كما يناقض الشعور القومي الإيراني بحكم بلادهم والنزعة الحربية، بما يتفق مع ميول الإيرانيين لمواجهة التحديات من الرومان والبيزنطيين. وهذه الدعوة تشكل أخطر مناهض لمملكة حربية مثل الدولة الساسانية في ذلك العصر وقد قال الملك الساساني بهرام في أحد مجالسه: ((إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم، فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيءُ من مراده)) (44)

3- الديانة المزدكية:

ظهرت هذه الديانة في إيران أيضاً، ويستفاد من رواية أوردها الطبري أن زرادشت كان رجل دعوة فقط، وأن مزدك كان رجل التنفيذ، فهو خليفة زرادشت عند سفلة الناس (45)

وقد بز مزدك زرادشت، أما شخصية مزدك فلا نعرف عنها إلا القليل، ويشير الطبري إلى أن مزدك ولد في مدينة مذرية على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة، ولعلها مدينة المذار أو الكوت اليوم، وكانت مدينة ماذاريا مدينة عامرة حتى القرن الحادي عشر للميلاد، ويسكنها أشراف الفرس. وقسم آخر يشير إلى أن مزدك ولد في مدينة تبريز أو اصطخر، وأيا كان مكان مولده فلا يثير جدلاً، إذ أن اسمه واسم ابيه بامداد هما اسمان فارسيان كانا معروفان في إيران في القرن الخامس للميلاد (46).

ظهر مزدك في سنة 487م في منطقة فارس، ويقول الطبري انه من نيسابور، وآراؤه كالمانوية الأولى إذ بدأ يناقش الصلة بين الاصلين القديمين النور والظلمة، وهو يختلف عن ماني لأنه يقول: إن الظلمة لاتعمل كما يعمل النور بالقصد والاختيار، ولكنها تفعل على الخبط والاتفاق، وعلى هذا النحو يكون امتزاج النور بالظلمة، وهو الامتزاج الذي نشأت عليه الدنيا، غير ناتج بالقصد والاختيار كما قال ماني، ولكنه كان على الاتفاق والخبط،

وعلى هذا فعلو النور أكثر في الفكرة المزدكية منه في الفكرة المانوية (47)

دعا مزدك اتباعه إلى توثيق صلة الروح بالمادة، ومن أجل ذلك حرم على أتباعه ذبح الحيوان وأكل لحمه، ودعاهم إلى الزهد في الطعام، ونهى مزدك أتباعه عن المباغضة والقتال، ولما كان ذلك يقع بسبب عدم المساواة بين الرجال، فقد أوجب أزالة هذا السبب، وطلب من أتباعه كما طلب ماني (الصديقون) أن يعيشوا بلا نساء والاحتفاظ بطعام يوم واحد ولبس سنة واحدة، والمفروض أن قواعد مماثلة قد فرضت على الطبقات العليا من الفرقة المزدكية، لأننا نجد فيها هذا الميل نحو الزهد ورياضة النفس، ولكن رؤساء المزدكية قد أدركوا، أن الرجال العاديين لايستطيعون التخلص من حب اللذات المادية، أي الرغبة في تملك النساء والأموال، أو المرأة التي يحبونها إلا في اللحظة التي يستطيعون فيها إشباع هذه الرغبة بالاختيار، وبهذه الفكرة ظهرت آراء مزدك الاجتماعية: ((فإن الله إنما جعل الارزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوي بحيث لايكون لأحدهم أكثر مما لغيره، وقد نشأ عدم المساواة بالقوة، فكل يريد إشباع رغباته على حساب أخيه، والحقيقة أن من كان عنده فضلة من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو أولى بها من غيره، فينبغي أن يأخذوا من الأغنياء للفقراء، وأن يردوا من المكثرين على المقلين وذلك ليقيموا المساواة البدائية)) (48)، وينبغي أن تكون النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم في الماء والكلأ والنار (49).

وذكر مزدك أن ذلك من البر الذي يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب، وانه لو لم يكن الذي أمرهم به وحثهم عليه من الدين كان مكرمة في الفعال ورضاء في التفاوض (50)، وقد أصرت المزدكية على وجوب القيام باعمال الخير، فإنهم لم يحرموا القتال فحسب، ولكنهم حرموا أيضاً ادخال الآلام على النفوس، ولهم مذهب في الضيافات، يوصي بأن لايمنع الضيف من شيءٍ يلتمسه كائناً ما كان (51).

واتصل مزدك بالملك الساساني قباذ أثناء قحط عمّ البلاد، فناقشه في بعض الامور، واستطاع استدراجه بالأسئلة الماكرة إلى أن يعلن أن من منع رجلاً من الطعام والشراب، ينبغي أن يقتل به، فخرج مزدك من عند الملك الساساني فقال للعامة المتجمعين حول قصر كسرى فقال لهم: إن الملك قد أباح لكم مافي الأهراء (مخازن الطعام أو ما يعرف اليوم بالسايلوات) من الغلات، فابسطوا أيديكم وأينما وجدتم شيئاً فاستبيحوه (52).

وتم تطاول الطبقات الفقيرة على أموال غيرهم واستولوا على القصور والأراضي

وأصبحوا سادة بلا مهن أو معرفة بالزراعة أو الصناعة، وخير من عبر عن هذه الحالة نص أورده تنسر: ((فاذا حجاب الحفاظ والأدب قد ارتفع وظهر قوم لايتحلون بشرف الفن أو العمل، لاضياع لهم موروثة ولاحسب ولانسب ولا حرفة ولا صناعة، عاطلون مستعدون للغمز والشر وبث الكذب والافتراء، بل هم من ذلك يحيون في رغد من العيش وسعة المال)) (53).

وهكذا عمّ التطاول كل مكان واقتحم العامة قصور الأشراف مغتصبين الحرائر، وكانوا يملكون هنا وهناك أراضي تلفت لأن السادة الجدد لايعرفون الزراعة، ونستطيع أن نقدر حجم الفوضى التي حدثت، بالأوامر التي أصدرها كسرى الأول من بعد لإصلاح ما نتج من المفاسد.

وكانت للمزدكية رتباً دينية فكان يرأس الدعوة المزدكية رئيس يعرف بالمعلم، أو المستشار، وبعد معاداة الدولة الساسانية وحدوث التقاطع معها، إذ دبر لهم مذبحة في سنة 532م، كاد أن يقضي عليهم بها، فظلت تمارس أفكارها السرية في أيام الدولة الساسانية، ثم عادت للظهور من جديد في في العصور الإسلامية، حالها حال المانوية من قبل (54)

وبقيت المزدكية في العصر الاسلامي، فاشار الجغرافيون العرب إلى وجود من يعتقد بالمزدكية في بعض قرى كرمان على عهد الدولة الأموية (55)

4- رجال الدين:

ارتبطت الأديان بإيران برجال الدين، وكان ولازال لهم مكانة متميزة في إيران على الرغم من اختلاف الأديان، وقد ارتبط رجال الدين في كثير من الأحيان بالدولة الساسانية، التي اعتمدت على رجال الدين كداعم ومساعد لها في حل الكثير من المشكلات التي واجهت الدولة الساسانية.

كان رجال الدين من قبيلة ميدية الأصل، وكانت فرقة من هذه القبيلة تعرف بالمغان، تتولى الامور الروحية في منطقة ميديا، إذ كانوا هم السادة الروحيين للديانة المزدية التي سادت إيران قبل ظهور الديانة الزرادشتية، في عصر الدولة الاشكانية (الفرثية). واستمر المغان يعدون أنفسهم قبيلة أو طبقة متميزة من الناس وجبلوا على خدمة الآلهة.

وقد سار رجال الدين (المغان) في عهد الدولة الساسانية جنباً إلى جنب مع طبقة النبلاء، وفي عهود الضعف أو الانحلال، كان رجال هاتين الطبقتين، رجال الدين والنبلاء

يتحدون ضد الملك الساساني، ولكنهما ظلا دائماً منفصلين كطائفتين، لكل منهما تطوراتها الخاصة بها (56).

لقد كان المغان يختارون دائماً من بين قبيلة المغان التي تزايدت على مر العصور، وكان رجال الدين ينسبون أنفسهم نسباً يرجع إلى التاريخ الخرافي لإيران (57)، وقد أسبغت السلطة الروحية على السلطان الدنيوي طابعها المقدس، وكانت تدخل في كل وقت في حياة كل فرد، وفي كل أمرٍ مهم في حياته، فهي بهذا المعنى تلازم الرجل من المهد إلى اللحد، فكان الجميع يجلون المغان وينظرون لهم بكثير من الاجلال والتعظيم، فالأشغال العامة، منسقة وفق نصائحهم وارشاداتهم وهم يتولون المنازعات التي تحدث بين الناس ويفصلون بينهم، ولا يجل الفرس أي شيء أو يرونه عادلاً مالم يقم رجال الدين بذلك (58).

ولايستند تأثير المغان إلى سلطانهم الروحي والى حق القضاء الذي خولتهم الدولة به، والى سلطانهم في اثبات شهادات الميلاد وعقود الزواج وغيرها، والى قيامهم بالتطهير وتقديم القرابين فحسب، بل استند تأثيرهم أيضاً إلى أراضيهم التي يملكونها (تأتيهم عن طريق الوقف وعطايا الملوك، فضلاً عما يقومون بشرائه من الأراضي)، وإلى مواردهم الغزيرة التي يجنونها من الغرامات الدينية والعشور والهبات، ومن ناحية أخرى فان طبقة المغان كانت تتمتع باستقلال بعيد المدى، ويمكن أن نطلق عليهم لفظة دولة داخل دولة.

وفي أيام الملك الساساني سابور الثاني كانت ميديا وخاصة أذربيجان إقليم المغان، وكانت لهم أراضي خصبة جداً في هذه المنطقة، وكانت لهم بيوتهم القروية التي ليس لها أسوار تحميها، لأن الناس كانوا يعتقدون بحرمة التقرب أو المساس برجال الدين وأملاكهم الخاصة بهم، لأنهم يعدونها ملكاً للآلهة، وكان كبار رجال الدين يملكون الكثير من العقارات المهمة والثمينة (59).

وعندما جاءت الدولة الساسانية، واتخذت من الدين الزرادشتي ديناً رسمياً لها، ازدادت مكانة المغان (رجال الدين الزرادشت) وكونوا جماعة منظمة غاية التنظيم، ولها درجات منسقة، والمغان كانت الطبقة الكبيرة من رجال الدين الصغار، وكان رؤساء المعابد يلقبون بـ (مغان مع) والطبقة العليا من رجال الدين تشمل الموابذة، وكانت الدولة الساسانية كلها مقسمة إلى مراكز دينية على رأس كل منها (موبذ). ورئيس الموابذة جميعاً عند الزرادشتيين يقابل البابا عند النصارى ويسمى موبذان موبذ، وأول ما نسمع عن هذا الرجل وهذا

المنصب الديني الكبير، أن الملك الساساني أردشير الأول قد عين موبذان موبذ يعرف بـ ماهياذ (60)

ومن المحتمل أن هذا المنصب كان موجوداً من قبل أو أنه استحدث حديثاً وذلك للتطور الديني في عهد الدولة الساسانية، أو أنه كان موجود من قبل، لكن ليس له هذه السلطة الخطيرة في هذا الوقت، وكان للموبذان موبذ السلطة العليا في المسائل الدينية، وإليه يرجع الفصل في المسائل النظرية في أصول وفروع الدين الزرادشتي (61)

وينظر الموبذان موبذ في المسائل العلمية وفي السياسة وفي السياسة الروحية والموبذان موبذ بلا شك هو الذي يعين ويعزل الموظفين الدينيين.

ومن ناحية أخرى كان الملك يعينه أو يقر تعيينه كما تدل كل الظواهر، وهو يشترك في تكوين هيئات محاكم التفتيش، وخاصة في المناطق التي يشتد فيها العداء للدين الزرادشتي، وهو يعد بحق مستشار الملك الساساني في الأمور المتعلقة بأمور الدين الزرادشتي، وله تأثير في جميع شؤون الدولة بوصفه الرائد الخلقي والمرشد الروحي للملك (62).

وكان الهرابذة (خدام النار)، يديرون المراسيم الدينية في المعابد مما يتطلب معارف خاصة وتجربة عظيمة (63)

وكان الملك الساساني كسرى الثاني، قد أمر ببناء بيوت للنيران في كافة أرجاء الدولة الساسانية، فبنيت هذه المعابد وعين عليها 10000هربذ للزمزمة (64)

وخير دليل على ما يتمتع به الهرابذة من مكانة ومنزلة لدى الدولة الساسانية، أن أحد الهرابذة كان يحكم إقليم فارس، وكان أميراً دينياً على هذا الإقليم أثناء الفتح العربي في القرن السابع للميلاد (65)، والرئيس الأعلى للهرابذة هو الهربذان هربذ، وهو يظهر في بعض عهود العهد الساساني على الأقل بين أعظم الشخصيات تالياً للموبذان موبذ، ومن بين رؤساء الهرابذة يذكر تنسر الذي عاون أردشير على تنظيم شؤون الدين الرسمي (66).

ويبدو من النص الذي أورده الطبري أن الوظائف القضائية كانت من اختصاصات الهربذان هربذ (67)، ويقول المسعودي: إن الهرابذة كانوا يصدرون أحكاماً بوصفهم قضاة (68).

وكان لرجال الدين الزرادشتي دور مؤثر وحيوي مع الناس عبر وظائف متعددة ومتفاوته:

اجراء احكام الطهارة والاعتراف، العفو والغفران، الحكم بالغرامة بعد الاقرار بالذنب، إقامة المراسيم العادية في المواليد، وفي وضع احزام المقدس والزواج والجنازات وسائر الأعياد الدينية (69).

وإذا عرفنا ان الدين يتدخل في أقل أمور الحياة شأناً وإلى أي حد كان الفرد العادي معرضاً ليلاً ونهاراً، لأن يقع في الاثم والنجاسة لأقل غفلة تبدو منه، لفهمنا أن وظيفة رجال الدين لم تكن قط وظيفة شرفية، وان رجل الدين لم يرث منقولاً أو عقاراً، يستطيع بسهولة أن يجني ثروة طائلة بفضل أعماله المختلفة (70).

وكان على الفرد الزرادشتي أن يصلي للشمس أربعة مرات يومياً، وعليه أن يصلي للقمر والنار والماء، وعليه أن يرتل الأدعية قبل النوم وحين يصحو، وأثناء الاستحمام، والتمنطق بالحزام وأثناء الأكل، وحين يذهب للضرورة (قضاء الحاجة)، وإذا عطس، وإذا حلق شعر رأسه، أو قلم أظافره، وحين يضيء السراج (71).

ويجب أن لاتخبو نار البيت، ولايجوز أن تقع الشمس على النار في أي مكان، ولايجوز أن يقترب الماء من النار وآنية المعدن ينبغي أن لاتصدأ، لأن المعادن كانت مقدسة والمراسيم الضرورية للتطهير من لمس ميت أو إمرأة حائض أو نفساء، وخاصةً اذا وضعت طفلاً ميتاً، كل هذه التكاليف كانت صعبة للغاية ومتعبة جداً (72). وقد ذكرت تفصيلات عن مركز رجال الدين في قانون الروحانيين وفي قانون المراسيم الدينية وهما مما جاءت به الأوستا الساسانية (73).

ولم يكن سيطرة رجال الدين على تنفيذ المراسيم الدينية، بل عليهم أيضاً توجيه الناس أخلاقياً، فكانت لهم حكومة الأرواح، وكان التعليم الابتدائي والعالي بوجه عام في أيدي رجال الدين، وهم الذين يختصون لوحدهم في جميع فروع المعرفة العلمية في ذلك الزمان، وقد كانت هنالك آداب دينية وفقهية متسعة للغاية عدا الكتب المقدسة وشروطها وشروحها (74)

ومن الجدير بالذكر أن رجال الدين الزرادشتي وهم المجوس، وهي الفئة المهيمنة على شؤون الدين الزرادشتي، قد اختلفت فيما بينها وتفرقت في شؤون دينها، فعقد لهم مجمعاً دينياً اختاروا من بينهم سبعة موابذة، وجعل لهم رئيساً هو الموبذان موبذ، ووزعهم في أنحاء

البلاد، وكانت لغة الاوستا قد أصبحت قديمة وصعبة الفهم والتداول للغاية، فندب بعض رجال الدين بوضع شروحات وتفسيرات لها، فكان ذلك التفسير الثاني بعد تفسيرات زرادشت نفسه بكتابه المعروف بِ (زند)، وسمي التفسير الجديد بـ ´)الزند) (75).

ومثلما أثرت المانوية والمزدكية، أثرت النصرانية في الفكر الإيراني تأثيراً بليغاً، وانعكست الصراعات الفكرية بين النصرانية والزرادشتية على صور اضطهادات دامية تعرض لها النصارى الإيرانيون، في بعض فترات التاريخ الساساني، وكان جل الصراع الفكري بين الزرادشتية والديانات الأخرى يخفي وراءه مصالح الحاكمين الذين تدعمهم الزرادشتية بفكرها، ومن بين مصالح الطبقات الأخرى الذين وجدوا في تعاليم الديانات المعارضة سبيلاً لإنعتاقهم من تسلط الطبقات الحاكمة وجورها، ولكن حكم التطور قضى تدريجياً على عنفوان الزرادشتيين، وكان كسرى أنو شروان، الذي بدا حكمه كزرادشتي متعصب، كان أول مشجعي المناظرات الفكرية الدينية بين رجال الدين الزرادشتي وبين أساقفة النصرانية، كما شجع الفلسفة والعلوم، وفي ذلك كله تخريب الاساس الفكري الزرادشتي، وبلغ الأمر من اضطراب مواقع الزرادشتية، حتى تركها بعض رجالاتها مثل الموبذان موبذ (بزرجمهر)، وقد أظهر بعض الذين ترددوا في ترك الزرادشتية إضطرابهم وقلقهم، الذي قادهم إلى طريق تشاؤمي في نظرتهم إلى الحياة والى الواقع، وكان ذلك حخال الفيلسوف ورجل الدين الزرادشتي (برزويه) (76).

ومن مؤشرات ضعف الزرادشتية في أواخر أيام الدولة الساسانية، انتشار النصرانية في إيران وازدهار كنائسها وأسقفياتها، حتى لقب ملك إيران كسرى ابرويز بالملك النصراني بسبب تشجيعه إياهم ومنحهم الحرية الدينية الكاملة، وليس خافٍ على أحد ما لأهمية انتشار النصرانية في إيران أثر في إنتشار الاسلام الذي يتفق مع النصرانية في فكرته الأولى في التوحيد.

وبظهور الديانة الإسلامية وانتشارها في إيران أخذ ظل الزرادشتية يتقلص بالتدريج، وأصبح الزرادشتيون قلة ضئيلة الانِ قليلة العدد في أواخر القرن الأول للهجرة، وبعدها أخذت فئات من الذين احتفظوا بدينهم القديم يهاجرون إلى المناطق الشرقية، ثم هاجروا من هناك صوب الصين والهند، ولاتزال جالية زرادشتية في الهند محافظة على ديانتها وطقوسها ويقرب عددها من 180000نسمة ويعرفون بإسم بارسي، كما توجد في إيران

جالية زرادشتية أيضاً تنتشر في أطراف مقاطعة كرمان (77)

الهوامش

(1) أحمد كمال الدين حلمي: 3500 عام من عمر إيران ط/1، الكويت 1399هـ/1979م، ص23.

(2)حلمي: 3500عام ص 24.

(3) حلمي: 3500عام ص 31.

(4) الحديثي: دراسات ص 59- 60.

(5) تنسر: ترجمة يحى الخشاب، القاهرة 1956م ص 40، 48. ؛ محمد: محاضرات ص 31.

(6) مرزبان نامة: نشر ميرزا محمد قزويني، لندن 1909م ص277وما بعدها ؛ محمد: محاضرات ص 31.

(7) كرستنسن: إيران ص 303.

(8) حلمي: 3500 عام ص 240- 241.

(9) كرستنسن: إيران ص 305؛ محمد: محاضرات ص 32.

(10) محمد: محاضرات، ص 32.

(11) حلمي: 3500 عام، ص 241.

(12) سورة الحج: آية17.

(13) باقر: تاريخ ص 181؛ الحديثي: دراسات ص 200.

(14) باقر: تاريخ ص182؛ الحديثي: دراسات ص 200

(15) كرستنسن: إيران ص 130؛ الحديثي: دراسات ص 201.

(16) أحمد أمين: فجر الاسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط/7، القاهرة 1955م، ص 124- 125. ؛ كرستنسن: إيران ص 131؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 30؛ الحديثي: دراسات ص 201.

(17) كرستنسن: إيران ص 131؛خطاب: قادة فتح فارس ص 30- 31؛ الحديثي: دراسات ص 202.

(18) أمين: فجر الاسلام ص 125؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 31؛ الحديثي: دراسات ص 202.

(19) كرستنسن: إيران ص 132؛ الحديثي: دراسات ص 202.

(20) خطاب: قادة فتح فارس ص 31؛ الحديثي: دراسات ص 202.

(21) كرستنسن: إيران ص 134؛ الحديثي: دراسات ص 202.

(22) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، ليبزك 1923،ص135؛خطاب: قادة فتح فارس ص 32؛ الحديثي: دراسات ص 203.

(23) كرستنسن: إيران ص 143؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 32؛ الحديثي: دراسات ص 203.

(24) خطاب: قادة فتح فارس ص 32؛ الحديثي: دراسات ص 203.

(25) أمين: فجر الاسلام ص 123،126؛ الحديثي: دراسات ص 204.

(26) كرستنسن: ص 143؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 33؛ الحديثي: دراسات ص 204.

(27) الحديثي: دراسات ص 204.

(28) امين: فجر الاسلام ص 125- 126؛ كرستنسن: إيران ص 143؛ الحديثي: دراسات ص 204.

(29) خطاب: قادة فتح فارس ص 34؛ الحديثي: دراسات ص 205

(30) أمين: فجر الاسلام ص 127؛خطاب: قادة فتح فارس ص 34؛ الحديثي: دراسات ص 205.

(31) كرستنسن: إيران ص 15؛ الحديثي: دراسات ص 205.

(32) ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر بيروت 1965م 2/137- 138؛الحديثي: دراسات ص 206. .

(33) كرستنسن: إيران ص 152؛ الحديثي: دراسات ص 206.

(34) المسعودي: مروج 2/141؛ ابو الريحان محمد بن احمد: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ليبزك 1923م ، ص 223؛ كرستنسن: إيران ص152- 155؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 35.

(35) كرستنسن: إيران ص 171- 172؛ الحديثي: دراسات ص 211.

(36) أمين: فجر الاسلام ص131- 132؛ الشهرستاني: الملل والنحل ص136؛ الحديثي: دراسات ص 213.

(37) كرستنسن: إيران ص 182- 184؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 40؛ الحديثي: دراسات ص 213.

(38) كرستنسن: إيران ص 186؛ الحديثي: دراسات ص 213؛ الحديثي: دراسات ص 213.

(39) اليعقوبي: تاريخ 1/147.

(40) كرستنسن: إيران ص 186؛خطاب: قادة فتح فارس ص 40- 41؛ الحديثي: دراسات ص 214.

(41) كرستنسن: إيران ص 183- 184؛ الحديثي: دراسات ص 214.

(42) كرستنسن: إيران ص 187؛ الحديثي:دراسات ص 214.

(43) الحديثي: دراسات ص 215.

(44) البيروني: الآثار ص 234؛ كرستنسن: إيران ص 192وما بعدها ؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 41؛ الحديثي: دراسات ص 216.

(45) الطبري: تاريخ 2/92؛دي خوية 1/893– 894؛ ابن الاثير: الكامل 1/413.

(46) أحمد بن داؤد: الاخبار الطوال القاهرة، 1960م ص41؛ الدينوري الطبري: تاريخ 101/ 2–102 ؛كرستنسن: إيران ص 325– 326؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 42؛ كي لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الحكومة بغداد /1954، ص38؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان 88 / 5؛ الحديثي: دراسات ص 216.

(47) الطبري: تاريخ 92/ 2؛دي خويه 1/884؛ الحديثي: دراسات ص 217.

(48) الطبري: تاريخ 2/92؛دي خويه 1/886؛ابن الاثير: الكامل 1/413؛ أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري: تاريخ غرر السير المعروف بكتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، مكتبة الاسدي، طهران 1963م ص 598– 599؛ كرستنسن: إيران،ص 328– 329؛ الحديثي: دراسات ص 218

(49) الشهرستاني: الملل والنحل ص 137؛ الحديثي: دراسات ص 218.

(50)الطيبري: تاريخ 2/92– 93؛ دي خويه 1/886؛ كرستنسن: إيران ص 329؛خطاب: قادة فتح فارس ص 42– 43؛ الحديثي:دراسات ص 218.

(51) ابو الفرج محمد بن اسحاق المعروف بابن النديم: الفهرست، لايبزك 1871م ص 342؛ الحديثي:دراسات ص 218.

(52) الشهرستاني: الملل والنحل ص 138؛ الحديثي: دراسات ص 218.

(53) كرستنسن: إيران ص 342– 343؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 44؛ الحديثي:دراسات ص 219.

(54) كرستنسن: إيران ص 343– 346؛ خطاب: قادة فتح فارس ص44؛ الحديثي: دراسات ص 220.

(55) الاصطخري: مسالك الممالك ص 164؛ ابن حوقل: صورة الأرض ص 270، أحمد أمين: فجر الإسلام ص 137– 138؛الحديثي:دراسات ص 220.

(56) كرستنسن: إيران ص 103– 104؛خطاب: قادة فتح فارس ص 22؛الحديثي: دراسات ص 221.

(57) الطبري: تاريخ 2/92– 99؛ كرستنسن: إيران ص 104؛ الحديثي: دراسات ص 221.

(58) كرستنسن: إيران ص 104؛ الحديثي: دراسات ص 222.

(59) كرستنسن: إيران ص 104- 105؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 22- 23؛ الحديثي: دراسات ص 222.

(60) الطبري: تاريخ 2//96؛ دي خويه 1/816؛ الحديثي: دراسات ص 222.

(61) كرستنسن: إيران ص 106؛الحديثي: دراسات ص 222.

(62) الطبري: تاريخ 2/93؛دي خويه 1/862،965؛ كرستنسن: إيران ص 106؛ الحديثي: دراسات ص 223.

(63) أبو عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي: مفاتيح العلوم، القاهرة 1342هـ ص 216؛ الحديثي: دراسات ص223.

(64) الطبري: تاريخ 2/94؛دي خويه 1/1041- 1042.

(65) كرستنسن: إيران ص 150.

(66) كرستنسن: إيران ص 107؛ الحديثي: دراسات ص 223.

(67) تاريخ الرسل والملوك 2/94؛ دي خويه 1/869.

(68) مروج الذهب 2/146؛ الحديثي: دراسات ص 223.

(69) كرستنسن: إيران ص 108.

(70) كرستنسن: إيران ص 108؛ خطاب: قادة فتح فارس ص 24؛ الحديثي: دراسات ص 224.

(71) الحديثي: دراسات ص 224.

(72) كرستنسن: إيران ص 108- 109: الحديثي: دراسات ص 224.

(73) كرستنسن: إيران ص 109: خطاب: قادة فتح فارس ص 24؛ الحديثي: دراسات ص 224.

(74) كرستنسن: إيران ص 109- 110.

(75) باقر: تاريخ ص 183.

(76) باقر: تاريخ ص 183- 184.

(77) باقر: تاريخ ص 184.

8

الفصل الثامن

العلاقة مع الدولة الرومانية

العلاقة مع الرومان:

شكلت العلاقة مع الرومان محوراً أساسياً من محاور العلاقة بين الدول الحاكمة في إيران بتعاقبها وبين الدولة الرومانية التي مقرها روما، على اعتبار أن هاتين الدولتين لابد وأن تتصادما بطريقة ما، غلب عليها الطابع العسكري، ولو نظرنا إلى البعد الجغرافي لروما في ذلك الوقت مقارنة بإيران، لوجدنا بوناً شاسعاً في المسافات بين هذين البلدين، والهدف من جميع هذه الحروب التي خاضتها روما مع الحكومات المتعاقبة في إيران، لا أجد إلا تفسيراً واحداً لها ألا وهو السيطرة على التجارة والاقتصاد العالمي، تماماً مثلما فعلت أمريكا مع العراق بغض النظر عمن يحكمه، وجاءت بقضها وقضيضها لإحتلاله وتدمير شعبه، ونشر كل ما يمكن نشره من أسباب الفساد فيه، وكانت شعوب المنطقة جميعها تدفع ثمن هذه الحروب، فتدمر أراضيها ويقتل سكانها ويأسرون وينقلون إلى روما كما تنقل أمريكا معتقلي العراق وأفغانستان وفلسطين إلى معسكر الأسر في غوانتناموا بالقرب من كوبا.

كان طريق الحرير Silk Road محور الصراع، فمجيء الإسكندر المقدوني واحتلاله لأغلب دول المنطقة، ليس له إلا هذا التفسير، واقامة الدولة السلوقية التي شكل العراق وشعبه في ذلك الوقت ثقلاً فيها، لا بل اتخذت هذه الدولة من سلوقية على الشاطئ الشرقي لدجلة مقراً لإدارة العراق وإيران من خلالها.

ولانريد أن نطيل في المقدمة حول هذا الموضوع، فنبدأ العلاقة مع الرومان منذ أيام الدولة الفرثية (الاشكانية)، لأن هذا ما يحدده المنهج الدراسي المقرر لطلبتنا الكرام. تأسست الدولة الفرثية أو الاشكانية، بحدود سنة 247- 250ق.م، وسيطرت على كل إيران تقريباً، وطردت السلوقيين منها، وسيطرت على معظم أراضي العراق بحدود بين عامي 160- 14ق.م، باستثناء العاصمة سلوقية التي منحت حكماً ذاتياً كما مرّ بنا، وهذا مايفسر لنا بناء عاصمة جديدة للفرثيين (طيسفون) على الضفة الشرقية لنهر دجلة قبالة سلوقية عاصمة السلوقيين. وتستمر العلاقة مع الرومان، حتى سنة 330م، حيث انشأت

القسطنطينية ودشنت في هذه السنة واعلنت قيام الدولة البيزنطية، وبهذا تمتد العلاقة بين الدولتين الاشكانية والساسانية مع الرومان والبيزنطيين، قرابة الستة قرون، اذ نشأت الدولة الساسانية بحدود سنة 226م.

لقد دخل الفرثيون في صراع طويل مع الرومان الذين وسعوا ممتلكاتهم على حساب السلوقيين، واستمرت هذه الحروب زهاء قرنين ونصف بسبب الأطماع والمصالح في الأقاليم الشرقية للسيطرة على طرق التجارة المهمة المارة في المناطق التي سيطرت عليها الدولة الفرثية، حتى أن مدينة الحضر Hatra الكائنة في إقليم الجزيرة الفراتية (تقع في العراق وتبعد عن مدينة الموصل بحدود 80كم إلى الجنوب منها) قد شيدت لتكون مدينة ثغرية بوجه الرومان، لمنع التقدم الروماني للسيطرة على طريق الحرير بالدرجة الأساس.

وكانت الدولة الاشكانية (الفرثية)، وبوجه خاص العراق وإيران واسطة مهمة للتجارة الدولية ما بين الشرق والغرب وخاصة تجارة الهند والصين واواسط آسيا وبضائعها المهمة مثل الحرير والبهار والعاج والعطور، وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية في معظم العالم المتحضر ولاسيما منذ القرن الأول للميلاد، مع القرن السابق الذي عمت فيه الفوضى والاضطرابات وفقدان الأمن. وقد ساعد السلم الذي عممه أول امبراطور روماني وهو (أغسطس) على إزدهار التجارة الدولية.

لقد واصل الرومان سياسة أسلافهم تجاه الشرق حيث الدولة الفرثية، لكونها المركز الرئيس والمهم والحاجز أمام تحقيق طموحات الرومان في السيطرة على مناطق الخير والزراعة والتجارة، المتمثلة بأراضي العراق بشقيه (بلاد السواد، وعراق العجم، الذي تقطنه قبائل عربية منذ القدم)، ولم تكن كلتا الدولتين الفرثية والرومانية، في وضع يؤهلها للتغلب على الدولة الأخرى، ولهذا اتسمت العلاقة بين الطرفين بالعلاقة الحربية، وكانت تتخللها فترات من السلم توثقه معاهدات معقودة بين الطرفين (1)

والحقيقة أن الرومان (عاصمتهم مدينة روما، وكانت تسيطر على الأجزاء الجنوبية من أوروبا وبلاد الشام ومصر وأجزاء من العراق وشمال أفريقيا)، كانوا في تنافس مستمر مع الدولة الفرثية، لا في السيادة على المناطق، بل في الجانب التجاري، فالحرير الصيني كان لايصل إلى أوربا إلا عبر المرور في أراضي الدولة الفرثية، الذين استغلوا تجارته وتجارة البضائع الأخرى مع الشرق الأقصى، أو ما يعرف ببلاد الصين، فضلاً عن التوابل الهندية،

التي كانت تعبر إلى أوربا عبر أراضي الدولة الفرثية، فكانت الدولة الفرثية تشعر بحاجة الطبقات الراقية من المجتمع الروماني (الامبراطور، زوجاته ومحضياته، نساء الطبقة العليا، رجال الدين الوثنيين وعشيقاتهم)، فكانت الدولة الفرثية تفرض على هذه التجارة ضريبة الترانسيت (المرور)، فيصبح ثمنه باهضاً (2)

وقد كتب امبراطور الصين وو. تي (We ñ Ti 140 – 76ق.م) رسالة وبعثها مع وفد يحمل الهدايا إلى الملك الفرثي، مهرداد الثاني (124– 88ق.م)، يعرض عليه فيها توثيق علاقات الصداقة والتجارة بين البلدين، وذلك بفتح طريق بري خلال مسالك أواسط آسيا (بلاد التركستان حالياً)، ويخترق هذا الطريق بلاد الصين، ثم يمر في أراضي بكتريا (بلخ، وتسمى الآن مزار شريف وتقع في بلاد أفغانستان)، ثم إلى مدينة مرو (ماري الآن وتقع في إحدى جمهوريات التركية في أواسط آسيا)، ثم يتجه إلى الدامغان (طبرستان) ثم إلى همدان ثم إلى العاصمة الفرثية طيسفون، وعرف هذا الطريق فيما بعد بطريق الحرير، أو طريق خراسان، وكان هذا الطريق محمي من قبل الدول على طول الوقت لأهميته للعالم كله في ذلك الوقت. (3)

ونظراً لأهمية هذا الطريق وسيطرة الدولة الفرثية على منافذه، صارت ارمينية والعراق وبلاد الشام ميداناً للصراع الفرثي الروماني، وهذا يعني أن أحد دوافع الحرب الرئيسة بين الطرفين الفرثي والروماني كانت دواقعها اقتصادية، وترجع في أساسها إلى محاولة الرومان الاستيلاء على منافذ تجارة الحرير الصيني وطرق تجارته، التي تقع كلها أو معظمها بيد الفرثيين (4).

وتشير المصادر إلى أن بداية العلاقات السياسية بين الفرثيين والرومان تعود إلى عام 92ق.م، ففي هذه السنة تقدمت الجيوش الرومانية بقيادة القائد لوسيو سولا (Sulla 93– 78ق.م) إلى آسيا الصغرى لمحاربة أرمينية في عهد ملكها تيكران الثاني (94– 54ق.م) الذي تحالف مع مثريداتس السادس (120– 63ق.م) ملك بلاد البنتس واستوليا على عدد من المقاطعات الرومانية في آسيا الصغرى، فارسل الملك الفرثي مهرداد الثاني (124– 88ق.م)

الى امبراطور الرومان رسالة مع وفد محمل بالهدايا لعقد معاهدة صداقة، وذلك لضمان حرية طريق الحرير المجتاز إلى أوربا (5)، وخوفاً من قوة نفوذ الاتحاد الذي أقامه ملك أرمينية، غير أن الرومان استهانوا بقوة الفرثيين واحتقروا وفدهم وطردوه، بما عرف عن

الرومان من عنجهية وكبرياء، فاضطر الملك الفرثي مهرداد الثاني إلى التحالف مع ملك أرمينية وبلاد البنتس، وشكلوا قوة مشتركة، هاجموا بها الجيش الروماني، وأوقعوا به أفدح الخسائر، وقد أيقظت هذه المعركة الرومان من غفلتهم ودعتهم إلى إعادة حساباتهم مع الفرثيين وعقد معاهدة حياد مثل الجانب الروماني فيها القائد لوكولوس (71- 74 Lucullus ق.م)، وقد مثل الجانب الفرثي في هذه المعاهدة الملك الفرثي سانترويكس) Sanatroikes 76- 69ق.م) أخو الملك الفرثي مهرداد الثاني (6).

وقد جدد القائد الروماني بومبي (70- 55ق.م) تلك المعاهدة بعد توجهه إلى الشرق في سنة 67 ق.م والتقى مع الملك الفرثي فرهاد الثالث (69 Phraates III- 60ق.م) وقد نجح القائد بومبي في اقناع الملك الفرثي بمهاجمة ملك أرمينية تيكران الثاني، وكان بومبي يهدف إلى ترك تيكران الثاني بمفرده لكي يستطيع مواجهته على انفراد ويسهل بالتالي القضاء عليه (7)، ثم تمكن القائد بومبي من الانتصار على ملك البنتس والقضاء على دولته وعزل ملك أرمينة في سنة 66ق.م وعين ابنه مكانه، وبذلك بدا الصراع الآن بين الرومان والفرثيين بشكل مباشر (8)

وهنا تخلى القائد الروماني بومبي عن وعده الذي قطعه للملك الفرثي فرهاد الثالث، في أن يكون نهر الفرات هو الحد الفاصل بينهما، وفي أطلاق يد الملك الفرثي في الأراضي التي كانت تعد من ممتلكات الفرثيين في السابق، ولاشك أن سلوك القائد الروماني بومبي قد زرع بذور الشك والفتنة، وغرس بذور النزاع بين الفرثيين من جهة والرومان من جهة أخرى، وكان بمقدوره تجنب إراقة الدماء بين الدولتين القويتين في ذلك الوقت (9).

والواقع أراد القائد بومبي أن يجعل من أرمينية المصد الأول للهجمات بين الفرثيين والرومان، وذلك بتحالفه مع ملك أرمينية الجديد، وأن يجعل بلاد الشام والجزيرة الفراتية ولاية رومانية وذلك في سنة 64ق.م بعد أن كانت من ممتلكات الفرثيين قبل استيلاء ملك الأرمن عليها (10)، ولم يبق أمام الرومان للسيطرة على طريق الحرير إلا السيطرة على بلاد مابين النهرين، المركز الرئيس للتجارة مع بلاد الصين (11).

فاستعد حاكم سوريا الروماني كراكوس (Crassus 54-53ق.م) للحرب مع الفرثيين مستغلاً حالة الفوضى التي أعقبت وفاة الملك الفرثي فرهاد الثالث سنة 60ق.م، والنزاع بين ولديه مهرداد الثالث وأخيه الأصغر أرد الأول على العرش، فعبر القائد الروماني في سنة

53ق.م نهر الفرات وبالقرب من كرها (Carrhaeحران) التقى مع جيش الملك الفرثي أرد الأول (أورود) Orodes I (37-55ق.م)، فدارت بين الطرفين معركة رهيبة في سنة 53ق.م، اندحر فيها الجيش الروماني، وقتل عدد كبير من جندهم على رأسهم القائد الروماني كراكوس، وهذه أول هزيمة يلحقها الفرثيون بالجيش الروماني في أول صدام مباشر بين الطرفين (12).

وكان لهذه الهزيمة أثر كبيرعلى سياسة روما، إذ أنها وضعت حداً لتوسع روما في مناطق من آسيا، وقد استعد الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر Julius Caesar (44-49ق.م) للثأر من الدولة الفرثية، إلا أنه أغتيل قبل أن يكمل مشروعه الهجومي ضد الدولة الفرثية (13)، وكان لمقتل الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر والمشاكل التي خلفها اغتياله الأثر الكبير في فسح المجال أمام الدولة الفرثية للتوسع على حساب ممتلكات الرومان في بلاد الشام وآسيا الصغرى، فضلاً عن أرمينية، فاستولوا في الفترة بين 40- 39ق.م على سوريا، والساحل الكنعاني، وجزء كبير من آسيا الصغرى، وسكوا فيها نقوداً نقشت عليها صور الملك أرد الأول، وكان لهذا التحرك الفرثي أثره السلبي على الوجود الروماني في بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط (14).

فكان من نتيجة ذلك أن قام الحاكم الروماني في مصر أنطونيوس (36-40ق.م)، بتجهيز قواته العسكرية لصد الفرثيين، فتم تعيين القائد الروماني فينتيديوس Ventediusعلى رأس جيش كبير توجه به صوب بلاد الشام، والتقى بابن الملك الفرثي الأمير باكر بن الملك أرد الأول، الذي كان يقود الجيش الفرثي في هذه المعركة، وتمكن من الحاق هزيمه بالجيش الفرثي في منطقة كيليكيا، ثم تبعه نصر آخر سنة 38ق.م فاسترجع به سوريا والساحل الكنعاني (15). Antonius وفي سنة 36ق.م توغل أنطونيوس داخل بلاد إيران من جهة أرمينية، ولكن النصر لم يحالفه، فانقضت عليه الجيوش الفرثية، وأوقفت تقدمه، لابل حاصرته، وأجبر على عقد هدنة بين الرومان والفرثيين، تحفظ ماء وجه روما، فوافق الملك الفرثي فرهاد الرابع Phraates IV (2-37ق.م) على ذلك، وسمح للجيش الروماني بالعودة إلى مصر (16)

ويبدو أن هذه الهزيمة الثانية التي لحقت بالجيش الروماني، أقنعت الامبراطور أغسطس Augustus (14-27ق.م) بعدم جدوى الدخول في حرب خاسرة مع الدولة الفرثية، ورأى أن

مصلحة الدولة الرومانية تقتضي عقد صلح وإبرام معاهدة سلام بين الطرفين تتجه كل منهما للاهتمام بامورها الداخلية (17).

ويبدو أن السبب الرئيس الذي دعا روما إلى الإبتعاد عن الحرب مع الفرثيين هو سيطرتها على بلاد مصر منذ عام 30ق.م، وتشجيعها للتجارة مع الهند والصين عن طريق البحر الأحمر (18).

وكانت رغبة الفرثيين في عقد معاهدة سلام، لتتفرغ الدولة الفرثية لحل مشالكها الداخلية، فعقدت أول معاهدة سلام في العام الأول للميلاد بين الملك الفرثي فرهاد الرابع والامبراطور الروماني أغسطس، اتفق فيه الطرفين على أن يكون نهر الفرات هو الحد الفاصل بين حدود الدولتين، ولضمان سلامة تخوم الامبراطوريتين، ولتنظيم العلاقات التجارية بينهما، وافقا على قيام تدمر وأرمينيا كدول محايدة وحاجزة بينهما (19)

ولتوطيد العلاقات بين الطرفين، أرسل الامبراطور أغسطس إلى الملك الفرثي فرهاد الرابع أميرة رومانية تسمى موزا Museهدية إلى الملك الفرثي، فتزوجها الملك الفرثي وأنجب منها ولده فرهاد الخامس، وتلقى الملك الفرثي هذه الهدية القيمة والثمينة بفرح وسرور، وأرسل أولاده الأربعة ليقيموا في البلاط الروماني وليتثقفوا بالثقافة الرومانية (20)

وقد أتبع الأباطرة الرومان الذين خلفوا أغسطس هذه السياسة السلمية مع الفرثيين وهم تيبريوس Tiberius (14-37م) و كاليجولا Caligula (37-41م)، و كلوديوس الأول Claudius I (41-54م) ونيرون Neron (54-68م) وجالبا Galba (68-69م) وأوثو Otho (69م) وفيتليوس Vitellus (96م) وفسباسيان Vespasian (69- 79م) وتيتوسTitus (79-81م) ودوميتيان Domitian (81-96م) وماركوس نرفا (21) (96-98) Marcus Nerva.

أما الملوك الفرثيين فقد إرتبكت المصادر في ذكرهم، لابل لم تعرف المصادر مدة حكم البعض منهم، فقد توفي الملك الفرثي فرهاد الرابع سنة 2ق.م، وأعقبته فترة من المشاكل والحروب الداخلية، التي جرت بين أبناء البيت الفرثي، وكل منهم يدعي أحقيته في الحكم وهنا تكمن الكارثة، فإذا تنازع ابناء الملك واخوته، فاقرأ على تلك الدولة النهاية ونحن ندرس التاريخ، لابل أن العرب والمسلمين من أكثر الأمم قراة للتاريخ، ولكن لانستفيد من عبره وتجارب ملوكه وحكامه، والملوك الفرثيين هم : فرهاد الخامس (2ق.م -1م)، أرد الثاني (1- 6م)، فانان الأول (ابن فرهاد الرابع (مشاكل داخلية)، أردوان الثالث (كان ملكاً على

ميديا ثم استولى على العرش من فانان الأول) (مشاكل داخلية)، فردان (مشاكل داخلية)، كودرز (مشاكل داخلية)، فانان الثاني (7- 51م) (22)

وبقي الحال كذلك، أي سيادة السلم بين الدولتين، حتى عهد الامبراطور تراجان Trajan (98- 117م)، الذي إنتهج سياسة مغايرة قائمة على التوسع، ووضع يد الرومان على كل منافذ التجارة مع بلاد الهند والصين، تحت السيطرة الرومانية، ومنع الفرثيين من التحكم بهذه الطرق ومنعهم من التمتع بالفوائد الاقتصادية (23). ان موقف الامبراطور تراجان هذا، يعني البدء بالحرب، وإنهاء فترة السلام التي سادت بين الدولتين الفرثية والرومانية، وإعلان الحرب معناه إعداد الجيوش والتحرك بها صوب أرض بلاد وادي الرافدين (24).

وقد شجع الامبراطور تراجان ما كان عليه الوضع السياسي في بلاد إيران والعراق الخاضع للدولة الفرثية، والدولة الفرثية قد أصابها الضعف وعمتها المنازعات، وخاصة بعهد الملك فرهاد الثالث، وأخذت تسير نحو التدهور والانحطاط، لأن ملوكها أهملوا النواحي الحربية، وانشغلوا بمشاكلهم الفردية الضيقة طمعاً في العرش، فما كان من الأمبراطور تراجان إلا أن إتخذ من تدخل الملك الفرثي خسرو Khusrau (106- 129م) في الامور الداخلية لأرمينيا ذريعة للتدخل الروماني للتوجه نحو الحرب في سنة 114م، فتمكن من أخضاع أرمينية، ثم توجه إلى سوريا ودخل عاصمتها أنتوخيا، ثم سار منها سنة 115م لمحاربة الفرثيين في أرض العراق، فعبر نهر دجلة، بسفن قد أعدها في مدينة نيسبيس Nisibis (نصيبين) وهي مدينة تجارية مهمة تقع على طرق التجارة (تقع الآن في تركيا)، فوصل قبالة العاصمة طيسفون فدخلها دون مقاومة، وهذا أمر يثير الغرابة، كيف تسقط العاصمة هكذا، أية عاصمة، لا أقصد طيسفون، فقد هرب الملك الفرثي خسرو إلى مدينة سوسة (الشوش حالياً تقع في إيران) (25)

وظل الامبراطور تراجان يسير ويحتل المناطق ويأسر الأهالي ويجبي الضرائب حتى وصل إلى مشارف الخليج العربي في سنة 116م، فكان أول وآخر إمبراطور روماني يصل إلى الخليج العربي (26)

وفي هذه الأثناء وصلت إلى مسامع الإمبراطور الروماني تراجان أنباء قيام الملك الفرثي خسرو باستعادة جميع المناطق التي سيطر عليها الامبراطور الروماني تراجان، فعاد سريعاً لمواجهة الملك الفرثي، لكنه فشل في إعادة المناطق التي كان قد سيطر عليها في العامين

الماضيين 114- 116م، ويعود السبب في فشل الامبراطور تراجان إلى طول مسافة تموين الجيش البيزنطي، والتعب الذي أصاب الجنود والملل الذي أحدثته طول الحملة، واشتياق الجند إلى عوائلهم وأولادهم ومدنهم، فعاد يجر أذيال الفشل والخيبة إلى روما، وفي الطرق توفي قبل أن يصل إلى العاصمة روما متأثراً بفشله وخسارته الكبيرة جراء هذه الحملة الفاشلة (27).

وعلى الرغم من فشل حملة الامبراطور تراجان هذه، إلا أنها كشفت لروما عن هشاشة قوة الدولة الفرثية، وولدت لدى الاباطرة الرومان فكرة إعادة غزو العراق والسيطرة على طرق التجارة فيه، خاصة وأن الحملة دربت الجند الروماني على مسالك طرق التجارة في العراق، والعسكري عندما يزور أو يغزو مدينة يسجل لديه نقاط الضعف في التحصينات والاستعدادات العسكرية، فضلاً عن معنويات الجند الذين يقاتلهم.

وخلف تراجان في حكم الامبراطورية الرومانية الامبراطور هادريان Hadrian (117- 138م) وأعقبه الامبراطور أنطونيوس بيوس Antoninus Pius (138- 161م) (28)

وفي عام 161م وفي عهد الامبراطور الروماني ماركوس أوريليوس أنطونيوس Marcus Aurelius Antonius (161-180 م)، تمكنت الجيوش الرومانية بقيادة حاكم سوريا أفيديوس كاسيوس Avidius Cassiusفي سنة 165م من الاستيلاء على طيسفون مرة أخرى وقام بتخريب القصر الملكي ونهبه وتدمير محتويات القصر وحرقه، في عهد الملك الفرثي بلاش الثالث (147- 191م)، لكنه اضطر للعودة إلى روما بسبب تفشي وباء الطاعون في جنده (29)

كما تكررت المحاولة لغزو العراق مرة أخرى في عهد الامبراطور الروماني سبتيميوس سفيروس 193-211(Septimius Severusم)، في سنة 198م وفي عهد الملك الفرثي بلاش الرابع (191- 208م)، وقد تمكنت هذه الحملة الرومانية من تدمير مدينة طيسفون مرة أخرى، وجعلت شمال العراق الغربي مقاطعة رومانية، لكن الأمبراطور الروماني فشل في إخضاع مدينة الحضر مرتين الأولى في سنة 198م والثانية في بداية عام 199م، فإضطر للعودة إلى روما دون أن يقضي على الدولة الفرثية التي كان يحلم بالحاقها بروما كما ألحق شمال غرب العراق (منطقة الموصل والجزيرة الفراتية، بما فيها من قلاع وتحصينات في تلعفر وسنجار) (30)

وبعد وفاة الملك الفرثي بلاش الرابع سنة 208م تنازع أولاده الثلاثة على الملك، وبدلاً من أن يوحدوا جهودهم لمقاومة الحملات الرومانية للسيطرة على الدولة الفرثية، قاموا بتقسيم المملكة إلى ثلاثة أقسام ليزداد الضعف أكثر من ذي قبل فأخذ أردوان الخامس الولايات الغربية من الدولة الفرثية عدا منطقة بابل التي أعطيت للأخ الثالث، بينما أخذ بلاش الخامس الولايات الشرقية من الدولة الفرثية (31).

فاستغل هذه النزاعات الامبراطور الروماني كركلا 211-217 (Caracallaم)، وكان الملك الفرثي المعترف بسيادته بين الأخوة المتنازعين هو أردوان الخامس (أرطبان الخامس) -Arta-ban V (208 – 226م)، فأرسل إليه الامبراطور الروماني وفداً يبين رغبته في عقد صلح بين الطرفين، وإقامة علاقات ودية بين الدولة الرومانية والدولة الفرثية، وتأكيداً لهذه الرغبة طلب منه تزويجه من إحدى بناته، وما أن دخل إلى طيسفون لإكمال مراسيم الزواج، والذي حضره عدد كبير من الناس من كلا الدولتين، حتى انقض على الجيش الفرثي، وأوقع بهم أفدح الخسائر، لكن نهاية هذا الامبراطور كانت مأساوية إذ أغتيل على يد أحد جنوده (32)

كما حاول خليفته الامبراطور ماكرينوس 217-218 (Macrinuisم) عقد صلح مع الملك الفرثي أردوان الخامس، إلا أن الأخير فرض شروطاً قاسية لم يستجب لها الامبراطور الروماني، وكان الملك الفرثي قد استعد لأخذ الثأر من الامبراطورية الرومانية ومقاتلة الجيش الروماني، فجرت معركة رهيبة في مدينة نسيبيس، وهي آخر معركة بين الدولتين الرومانية والفرثية، انتهت باندحار الامبراطور الروماني ماكرينوس، ثم أعقبها عقد معاهدة صلح بين الطرفين، دفع الرومان بموجبها غرامة مالية كبيرة للفرثيين، لكنهم لم ينفذوا بقية بنود الصلح المتفق عليها في هذه المعاهدة ومنها إعادة مناطق غرب العراق، التي كان من المفروض أن تسلم للجانب الفرثي (33).

ومما لاشك فيه أن الحروب التي خاضتها الدولة الفرثية كانت أحد أسباب سقوطها، إذ أن هذه الحروب قد استنزفت قواها وفككت من تماسك الحكم، وشجعت الساسانيين على اسقاط الدولة الفرثية(34).

كما كان للنظام الفدرالي دوراً مهماً في اسقاط الدولة الفرثية، فقد يستغل بعض ملوك الأطراف ضعف الملك الفرثي وينشقون عنه أو يعلنون إنفصالهم عن الدولة الفرثية كما حدث في إقليم فارس عندما أعلن أردشير بن بابك الثورة على الملك الفرثي ودخل طيسفون، وأسقط الدولة الفرثية (35)

العلاقات الساسانية الرومانية:

تأسست الدولة الساسانية في عام 226م على يد الملك اردشير الأول، وبعد أن وحد البلاد دينياً وسياسياً، توجه لضبط الحدود الغربية لدولته، وعدّ نفسه وريثاً للدولة الأخمينية التي أسقطها الاسكندر المقدوني، وقتل ملكها دارا وسيطر على بلاد إيران، فأعد أردشير الأول جيشاً كبيراً، مدرباً على أفضل مايرام، وتوجه به صوب سوريا، اذ الممتلكات الساسانية التي استولى عليها الرومان في زمن الدولة الفرثية، فحاصر الجيش الساساني مدينة نيسيبيس (نصيبين) سنة 230م وهدد سوريا وكبدوكيا Cappedoci وتقع في آسيا الصغرى وعاصمتها قيسارية (قيصرية) (36)، فأرسل الامبراطور الروماني سفيروس الكسندر Severus Alexnder (222 –235م) رسالة جاء فيها : ((لاتقم بهذا العمل فتصبح سبباً في ثورة آسيا، وستدخل في حرب كبيرة، وليكن معلوماً لديك بأن القتال مع الرومان يصبح غير القتال مع القبائل المتوحشة، مثل قبيلتك، ومن الضروري أن يخطر على بالك أنتصارات تراجان وسبتيميوس سفيروس)) (37).

فأجابه الملك الساساني أردشير الأول رسالة، مع وفد مكون من أربعمائة فارس بكامل قيافتهم العسكرية، جاء فيها : ((إن ما يمتلكه الرومان في آسيا هو أرث لي، ويجب على الرومان الإكتفاء باوربا، والانسحاب من آسيا وبلاد الشام)) (38).

فأثارت هذه الرسالة حفيظة الإمبراطور الروماني، سفيروس ألكسندر فعد الرسل أسرى حرب، وأخذ يستعد ويهيء نفسه لحرب طويلة الأمد مع الساسانيين، فحشد قواته العسكرية في أنتيوخيا في سنة 231م، وقسم هذه القوات على ثلاثة أقسام، أرسل القسم الأول منه إلى الشمال، وأوكل إلى قائده مهمة مساعدة حليف الرومان ملك أرمينية الفرثي خسروف الثاني (225– 250م) في دعم هجوم الأرمن على مقاطعة أتروباتين Atropaten (أذربيجان)، وأرسل القسم الثاني إلى الجنوب لمهاجمة بلاد فارس، بينما تولى هو بنفسه قيادة الجيش الثالث الذي أراد به غزو العاصمة الساسانية طيسفون (39).

إن هذا التقسيم للجيش الروماني أضعف الجيش وشتت قواه، ولم يحقق الجيشان اللذين أرسلهما الامبراطور الروماني هدفهما، بينما نجد الملك الساساني أردشير الأول قد قام بتجميع جميّع قواته ووضعها تحت قيادته، وركز بهجومه على الجيش الروماني، الذي ولى منهزماً، فاضطر الامبراطور الروماني سفيروس الكسندر إلى عقد صلح مع الساسانيين

سنة 232م مدته أربع سنوات، وتنازل بموجبه عن أرمينية (40). وجرى تحالف قادة ملك أرمينية وملك كوشان والامبراطور الروماني نيرون، لمحاربة الساسانيين، لكن الملك أردشير الأول فتت عرى هذا التحالف (41).

وفي سنة 238م ألمت بالإمبراطورية الرومانية مشاكل عدة، حيث الصراع الذي أعقب مقتل الامبراطور سفيروس الكسندر(235م)، فتمكن الملك الساساني أردشير الأول من استغلال هذا الصراع على العرش في روما لصالحة، فقاد جيشاً من العاصمة طيسفون وتوجه به صوب آسيا الصغرى، وتمكن من طرد الجيش الروماني فيها في سنة 238م، ثم توجه إلى نسيبيس (نصيبين) وكرها في عهد الامبراطور الروماني مكسيمينوس Maximi-nus (235 – 238م)، ولو المشاكل التي ألمت به وبدولته لتفرغ إلى سوريا (42).

أما في عهد الملك الساساني سابور الأول 241-272 (Shahpur I م)، فبعد أن وطد الأمر وسيطر على المعارضين له توجه نحو الغرب فقاد حملة عسكرية، مستغلاً الوضع الداخلي في روما، فتوغل في أنتوخيا عاصمة سوريا واجتاح فيها سوريا حتى بلغ أنطاكية، لكنه إضطر للتراجع أمام الامبراطور الروماني، غوردريان الثالث 244-238 (Gordian III م)، والذي جهز جيشاً هدفه طرد الساسانيين من سوريا، وقد تحقق له ما أراد في هذه السنة، ثم عبر الجيش الروماني نهر دجلة سنة 244م وحاصر طيسفون، وفي أثناء الحصار تمرد عليه جنده فقتلوه سنة 244م، واختاروا قائد حرسه فيليب العربي Philip the Arabian (244 – 249م) ليكون خلفاً له، فعقد فيليب صلحاً مع الملك الساساني سابور الأول واضطر لقبول عقد اتفاقية سلم بين الطرفين، في سنة 244م، كانت شروطها لصالح الدولة الساسانية، اذ دفعت روما للساسانيين الجزية، وتنازل الرومان عن أرمينية وبلاد ما بين النهرين (43)، وبعد هذه الانتصارات تلقب الملك الساساني بلقب ((شاهنشاه إيران وأنيران))، أي ملك إيران وغير إيران (44)

وبعد مرور أربعة عشر أو خمسة عشر سنة على هذه الهدنة بين الساسانيين والرومان، تجددت الحرب بين روما والساسانيين، أي في سنة 258م، فبعد أن تخلص الملك سابور الأول من خسروف الثاني ملك أرمينية سنة 250م على إثر مؤامرة دبرها سابور الأول ضده، كما هرب ابن ملك أرمينيا إلى روما، فطلب مساعدة الامبراطور فالريان 253-260 (Valerian م) (45)، فامتنع الأخير عن دفع الجزية السنوية التي كانت روما قد تعهدت بدفعها للساسانيين، بموجب معاهدة سنة 244م والتي عقدها الامبراطور فيليب العربي، فوجد الملك سابور الأول

أن ايواء ابن ملك أرمينيا السابق وعدم دفع الجزية مبرراً لنقض الصلح، وكتب إلى إمبراطور الروم فاليريان : ((لقد كذب القيصر مرة أخرى وقد أخطأ فيما يتعلق بارمينية، ولهذا توجهت نحو الامبراطورية الرومانية)) (46).

وبدأ الملك سابور الأول في سنة 258م بالزحف نحو سوريا، فاستولى على كرها ونسيبيس وأنتوخيا، ونجح سابور في عبور سوريا واجتاح العديد من المدن السورية بما فيها أنطاكية التي كانت من أمّات المدن السورية، وتجهز الامبراطور الروماني فاليريان إلى قيادة جيشه بنفسه، لاستعادة ما تمّ الاستيلاء عليه من ممتلكات الدولة الرومانية، وتمّ له استعادة ماسيطر عليه الساسانيين، إلا أن الطاعون تفشى بين جيشه، فاعاقه عن دخول أرض الجزيرة الفراتية، فاعطي المجال للملك سابور الأول، لكي يأخذ زمام المبادرة وبالقرب من الرها (أودسا، أورفة حالياً)، جرت معركة طاحنة بين الساسانيين والرومان سنة 260م

فحاصرهم الملك الساساني، وعجز الجيش الروماني عن ايجاد ثغرة لفك الحصار، لكن الجيش الساساني أفشل خططه لفك الحصار عن الجيش الروماني (47)، وقد كتب النصر للساسانيين، ووقع الامبراطور الروماني فاليريان و 70000ألف من جنوده وضباطه أسرى بيد سابور، فقام بنقلهم إلى مدينة جندي سابور (48)، أو فرقهم في ثلاثة مدن قسم في جندي سابور وقسم في سابور والقسم الثالث في مدينة تستر (49)، وأمرهم ببناء سد على نهر الكارون، ويعرف هذا السد بسد الإمبراطور، ولاتزال آثاره موجودة حتى يومنا هذا، وترك الملك سابور الاول الأسرى الرومان يعيشون وفق تقاليدهم وديانتهم الخاصة، وسمح لهم بالتحدث والكتابة بلغتهم، وقد كان من ضمن الأسرى من يعرف البناء والصناعة والهندسة، وقد استخدموا على نطاق واسع في إنشاء الطرق والجسور ألتي ظهرت نتائجها في مدينة الأحواز، كما كان منهم العلماء ولاسيما في مجال الطب الذي اشتهرت به مدينة جندي سابور، وقد أشار المقدسي إلى التقدم العلمي الذي شهدته المدن التي سكن فيها الأسرى الرومان في مجال الطب ((ثم كثر علم الطب والأطباء في هذه المدن)) (50)

وكان للتسامح الذي أبداه الملك سابور الأول مع النصارى الأسرى، أثره في نشر الديانة النصرانية في المناطق الشرقية من الدولة الساسانية، وسمح لهم ببناء كنيستين في مدينة سابور، مارسوا شعائرهم الدينية في الأولى باليونانية وفي الثانية بالسريانية في الوقت الذي كان يضطهد فيه النصارى في روما (51). وقد خلد سابور نصره هذا في أحد النقوش

التي تركها وتعرف بنقش رستم (52). ويظهر في نقش رستم الملك الساساني ممتطياً جواده ممسكاً بيده اليسرى قبضة سيفه، وباسطاً يده اليمنى نحو الامبراطور فاليريان، الذي جثا أمامه، وقد أثنى ساقه اليمنى وأسند اليسرى إلى الأرض، ومد ذراعيه نحو الملك سابور الأول يلتمس عفوه (53).

أما في نقش مدينة سابور فيرينا فيه الملك سابور ممتطياً جواده، وتحت أقدام الجواد شخص ملقى على الأرض، وأمامه الامبراطور فاليريان راكعاً (54)، وتشير بعض المصادر إلى سوء المعاملة التي لقيها الامبراطور فاليريان، إذ قيد بالسلاسل، واهين بشكل كبير حتى توفي بالأسر سنة 267م.

وتدخلت الدولة الساسانية في الشؤون الداخلية الرومانية إذ عين الملك الساساني سابور الأول امبراطوراً للعرش الروماني خلفاً لفاليريان، واختاره ليكون شخصاً موالياً له من أهل أنتوخيا يسمى سرياديش Cyriadis ومنحه لقب إمبراطور، وأجبر فاليريان وجنوده الأسرى على التصديق والموافقة على هذا التعيين بالسجود للامبراطور الجديد، ومقابل هذا التكريم أظهر سرياديس استعداده لأن يكون تابعاً وذليلاً للملك سابور الأول (55)، فقاده عبر الفرات إلى أنتوخيا، وبعد أن استولى عليها سابور الأول توجه نحو كليكيا فاستولى عليها (مدينة قليقية الحالية) واستولى على مدينة طرسوس، ثم توجه نحو آسيا الصغرى (كبدوكيا) واستولى على عاصمتها قيصرية، ثم عاد إلى العاصمة طيسفون محملاً بالغنائم (56).

وأثناء عودة سابور الأول من المعركة التي انتصر فيها على الرومان، وأسر امبراطورهم مرّ بالقرب من تدمر Palmyraوتقع في الأطراف الشمالية لبادية الشام وتتمتع بموقع عسكري وتجاري مهم جداً، فاستخف الملك الساساني سابور بملك تدمر أذينة، الذي أثاره هذا العمل، لأنه سيد بلاد الجزيرة بلا منازع، ويمتلك ثروة اقتصادية مهمة، فضلاً عن قواته العسكرية المدربة والمهيأة لأي طارئ، فجمع الملك العربي أذينة قواته وعبأها، والحق بها من بقي معه من القوات الرومانية المنهزمة من المعركة، فهاجم الملك التدمري أذينة الملك الساساني، والحق بقواته خسائر فادحة، واستولى أذينة على الكرخ ونصيبين، وامتد سلطانه إلى الأقاليم الرومانية في آسيا الغربية، وأصبح شبه والي مستقل عن روما، ثم خلع عليه الإمبراطور الروماني جالينوس لقب إمبراطور (57)

واستمر الساسانيون يحاربون مملكة تدمر دون جدوى، وذلك لمناعة أسوارها وقوة جيشها حتى سنة 265م، حيث قتل أذينة في أحد المعارك، وتولت الزباء الحكم وصية على ابنها الصغير وهب اللات، وحاولت الزباء وابنها الاستقلال عن روما، ولكن ما أن فرغت روما من تصفية مشاكلها الداخلية، حتى أعدت جيشاً كبيراً حاصر مدينة تدمر، قاده الامبراطور الروماني أوراين، سنة 272م، واستبسل التدمريون في الدفاع عن مدينتهم وملكهم، ولكن دون جدوى، فدخلت القوات الرومانية المدينة وأعملت فيها الخراب والنهب والتدمير، ووقعت الزباء أسيرة بيد الرومان ونقلت إلى روما حيث اودعت السجن، ثم وضع لها السم في الطعام فماتت (58)، وخسرت روما بسقوط مملكة تدمر حليفاً قوياً كان يقف بوجه الأطماع الساسانية (59).

ومثلما كانت نهاية تدمر على يد الرومان، شهدت إمارة عربية أخرى هي إمارة الحضر، نفس المصير على يد الفرس في عهد سابور الأول.

وتقع الحضر في أرض الجزيرة إلى الغرب من نهر دجلة بمسافة 70كم، على الأطراف الشمالية لوادي الثرثار، وتبعد عن جنوب غرب الموصل بمسافة 80كم أو أكثر بقليل، وتشهد آثارها الباقية على عظمة وقوة هذه المدينة، والمكانة التي تبوأتها في تاريخ الشرق القديم، وقد صمدت مدينة الحضر أمام هجوم الرومان عليها في سنة 198م، لكنهم فشلوا في تخطي دفاعاتها المنيعة واستبسال جندها، ويبدو أن الرومان قد أدركوا قوة مملكة الحضر، كما إنها لم تشكل لهم خطراً حقيقياً لهم كما شعر بهذا الموقف الساسانيين، فهي بعيدة عن مناطق النفوذ الروماني. ولم يرض الساسانيون أن تكون مدينة قوية ومحصنة تقع خلف تحركاتهم في بلاد سوريا وخلف خطوط دفاعاتهم، إذ أنهم كانوا قد توغلوا إلى مناطق السيادة الرومانية في شمال سوريا، فأعد الملك أردشير جيشاً قوياً فحاصرها، لكنها صمدت أمامه، فتراجع عن حصارها، وعندما جاء الملك سابور الأول أعد لها جيشاً قوياً وحاصرها لمدة سنة كاملة، اضطرت المدينة على أثره للاستسلام، فدخلها ودمر كل شيء فيها وسيطر على ثرواتها، ونقل أهلها أسرى إلى إيران، وأسكنهم مختلف المناطق فكان منهم العلماء والأطباء والمهندسين والخبراء في معرفة أماكن الماء ونقله من مناطق بعيدة، وخاصة اذا علمنا أن أهل الحضر قد عبروا نهر الزاب الأعلى Upper Zap من فوق نهر دجلة (60).

ثم تولى العرش الساساني بعد وفاة سابور الأول ابنه هرمزد الأول Harmizd I (272-273م)، ولم تشر المصادر إلى قيام أي من الأباطرة الرومان بأي عمل ضد هذا الملك، وذلك لقصر فترة حكمه، فضلاً عن انشغال كل من الأباطرة الرومان جالينوس و أورليان بالقضاء على مملكة تدمر، التي أصبحت قوية وتشكل خطراً عليهم وفق اعتقادهم هذا، وبعد وفاة أو مقتل هرمزد الاول تولى العرش الساساني بهرام الأول Vahram I (فهرام الأول 276-273م) بن هرمزد الأول، وكان هذا الملك الساساني كما تشير السيدة الموسوي : ((يفتقر إلى الحنكة والخبرة العسكرية وسوء تقديره للخطر المحدق ببلاده بسقوط (تدمر) الحاجز الذي يحول بينه وبين أعدائه، دفعه إلى التقاعس عن تقديم المساعدة، ولم يكتف بذلك بل أنه حاول كسب ود الامبراطور أورليان وصداقته، فارسل إليه الهدايا الثمينة من ضمنها عباءة أرجوانية اللون، الا أن الأخير لم يعر لهداياه أية أهمية)) (61)

وأثناء حكم الملك الساساني بهرام الثاني 276-293م (VAhram II) تجددت الحرب مع الرومان، وسيطرت القوات الرومانية في عهد الامبراطور ماكسيوس أوريليوس كاروس Car-us M. Aurelius في سنة 282- 283م على منطقة الجزيرة الفراتية، مستغلة انشغال الملك الساساني بالحرب مع أخيه هرمزد الأول في إقليم سجستان، ونظراً لخطورة التمرد طلب الملك الساساني بهرام الثاني من الامبراطور البيزنطي كارلوس عقد هدنة بين الطرفين، لكن الإمبراطور الروماني رفض هذا العرض ورد الرسل والهدايا، وتوعد الملك الساساني بالويل والثبور، وأرسل للملك الساساني رسالة جاء فيها : ((طالما أن ملك بلاد فارس لايخضع فلن أترك القتال، وسأجعل بلاد فارس جرداء لاشجر فيها)) (62).

إن قراءة متفحصة لرسالة الامبراطور الروماني تبين لنا الهدف الذي تسعى له روما، لتدمير أرض الرافدين التابعة للدولة الساسانية في تلك الحقبة، وأن الشجر هي رمز من رموز الحياة والعمران، وأن هدف الحملة، إعادة المنطقة إلى التخلف والبداوة والصحراء والخراب والتدمير.

أزاء ذلك تقدم الامبراطور الروماني كارلوس بقواته التي سيطرت على سنجار وتل أعفر والموصل وتكريت وعبرت إلى العاصمة الساسانية طيسفون (المدائن) وحاصرتها في سنة 283م، ولو وفاة القائد الروماني وتفشي المرض في جنده (يبدو أنهم أصيبوا بالطاعون)، فطلب الملك الساساني بهرام الثاني عقد صلح بين الطرفين، فوافق نائب القائد الروماني وهو ابن الملك ويعرف بـ نوميريانوس Numerianus (283-284م) على عقد هدنة بين

الطرفين تنازل بموجبها الملك الساساني عن منطقة الجزيرة التي احتلتها القوات الرومانية بحكم الأمر الواقع، لأنهم قد سيطروا عليها وخضعت لهم وجبوا الجزية من أهلها قبل توقيع إتفاقية الصلح هذه، كما تنازل الساسانيون عن منطقة أرمينية للرومان (63).

وفي سنة 293م تولى العرش الساساني نرسي ابن سابور الأول Narsea، (293-302) م اعتقد أن بمقدوره محاربة الرومان، واسترجاع ما أخذوه منهم، حيث تنازل لهم الساسانيون عن إقليمي الجزيرة وأرمينية، فأعد جيشاً كبيراً وتوجه صوب أراضي أرمينية، وذلك في سنة 296م، واستولى عليها وطرد ملكها تيرداد الثالث، فاستنجد تيرداد بالأمبراطور الروماني دقلديانوس الذي كان منشغلاً بالقضاء على الثورة المصرية ضد الرومان، فلم يعره أية أهمية (64).

وفي نفس السنة وبعد استيلاء الملك الساساني نرسي على أرمينية، توجه إلى أرض الجزيرة الفراتية التي تعد من املاك الامبراطورية الرومانية بموجب الصلح الذي عقده الامبراطور نوميريانوس مع الملك الساساني بهرام الثاني، فأثار هذا الامر حفيظة الامبراطور الروماني دقلديانوس، فأمر قائده كالريوس (وهو صهر الامبراطور ونائبه) في منطقة الدانوب على التوجه إلى الجبهة الشرقية والتعاون مع ملك أرمينية تيرداد الثالث، فضلاً عن حاكم سوريا العسكري، فالتقى الفريقان في أواخر سنة 296م وبالقرب من مدينة كرها، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين انتهت بهزيمة الرومان وفرار القيصر (نائب الملك) وتيرداد الثالث ملك أرمينية (65).

ولكن القيصر الروماني كالريوس لم يرضَ بالهزيمة، فأعاد تشكيل جيشه وأشرف على تدريبهم وحضهم على الاستبسال في المعركة، وفي المعركة التي جرت في سنة 297م، تمكن بهجوم ليلي مباغت من جهة أرمينية من ايقاع الهزيمة بالجيش الساساني، فاندحر بموجبه الجيش الساساني ووقع أعداد من جنده أسرى في المعركة، كما وقعت زوجة الملك نرسي (أرسان) وأفراد أسرته أسرى بيد الجيش الروماني (66)

وعلى أثر سماع أنباء هذه الانتصارات عبر الامبراطور دقلديانوس نهر الفرات، ويبدو أن الامبراطور كان على مقربة من الأحداث لأهمية المنطقة والمعركة، ولأن الجيش الروماني قد اندحر في العام الماضي، وكان الامبراطور الروماني دقلديانوس يعلق كثيراً على أي نصر يحققه الجيش الروماني ضد الدولة الساسانية، والتقى الامبراطور دقلديانوس مع صهره ونائبه القيصر كالريوس في منطقة نسيبيس (67)

أما الملك الساساني، فلم يكن أمامه إلا طلب الصلح والتفاوض مع الرومان، فارسل وفداً ساسانياً يطلب عقد الصلح بين الطرفين، فوافق عليه الرومان، وتم عقد الصلح في سنة 298م وتمن عدة بنود منها:

1- يكون نهر دجلة حداً فاصلاً بين ممتلكات الدولتين بدلاً من نهر الفرات.
2- يتنازل الساسانيون عن الولايات الخمسة الواقعة على ضفتي نهر دجلة وهي أرزون (أرزن) مك (ملوك) زابدة، رحيمة، كردو (اعتقد انها بلاد الكرد في شمال العراق) إلى أرمينية.
3- تكون ارمينية دولة مستقلة تمتد حدودها الجنوبية إلى قلعة زنتا في إقليم أتروباين، ويعاد تنصيب الملك تيرداد الثالث ملكاً عليها.
4- اطلاق يد الرومان في إقليم ايبريا Iberia كرجستان (جورجيا وتعرف ببلاد الكرج)، وتأتي أهمية هذا البند من أن الايبيريين كانوا يسيطرون على أحد مضايق جبال القفقاس (الممرات القفقاسية) والمسمى بمضيق داريال.
5- تكون مدينة نسيبيس المركز التجاري الوحيد الذي يتم فيه التبادل التجاري بين الرومان والساسانيين (68).

لقد حققت هذه المعاهدة للرومان شروطاً لم يحلموا بها، وهي أقصى ما يتمنونه، كما أعطت المعاهدة أرمينية استقلالاً تاماً نعمت به مدة 40سنة أي حتى عام 337م، إذ أن المعاهدة عقدت في سنة 298م، وظلت أرمينية حليفة للرومان ترتبط معهم بحلف عسكري، ومعاهدة دفاع مشترك (69)

أما نتائج هذه المعاهدة على الجانب الساساني، فكانت وبالاً عليه، وذلك لفقدان الدولة الساسانية كل مناطق غرب دجلة وأرض ما بين النهرين وخيراتها التي أخذت تصب في الخزينة الرومانية بموجب هذا الصلح، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد ضعفت السلطة المركزية في الدولة الساسانية جراء هذه المعاهدة المهينة، وضعف الملك، وظهر دور الأشراف والعظماء، وتحللت المناطق التابعة للدولة الساسنية من التزاماتها تجاه المركز، وتمثلت في تدخل رجال الدين في عزل وتعيين ولي العهد فضلاص عن الملك الساساني الذي أصبح العوبة بيدهم يعزلونه وقت ما يشاؤوا ويعزلونه وقت ما أرادوا، وقد ظهر هذا واضحاً عندما عزلوا الملك آذر نرسي سنة 309م، بعد فترة قليلة من توليه الحكم بعد أبيه هرمزد الثاني

(302- 309م)، كما سملوا عيون أحد إخوته وسجنوا الآخر (هرمز الذي هرب والتجأ إلى الرومان، ونصبوا على عرش الدولة الساسانية سابور الثاني (شابور الثاني Shahpur II 310)- 379م) والملقب بذي الأكتاف (70)، وهو صغير في المهد وظل يحكم 70سنة متواصلة، وقد اصبحت أمه وصية عليه عندما كان صغيراً حتى بلغ سن الرشد، وقد شهد هذا الملك ظهور الامبراطورية البيزنطية في عام 330م في الجزء الأول من حكمه، وكانت الدولة الرومانية منشغلة بمشاكلها الداخلية التي أتعبتها، فضلاً عن الثورات المتكررة التي كانت تحدث هنا وهناك في أراضي الدولة الرومانية المترامية الأطراف (71).

وظلت نصب عين هذا الملك الساساني تطلعات الحكام الساسانيين في استرجاع ما أخذته الدولة الرومانية، فأعد العدة وتوجه صوب أرمينية، وتوجه نحو أملاك الرومان في آسيا الصغرى، ولكن الرومان تصدوا له ساعدتهم قلاعهم الحصينة وتحصيناتهم الدفاعية في الجزيرة (نصيبين) التي أتعبت الجيش الساساني، ثم جرت معركة رهيبة في سهل سنجار، كاد النصر فيها يتحول لصالح الرومان، لولا كثافة القوات الفارسية التي حركها سابور في الوقت المناسب فقلبت الهزيمة إلى نصر، فطلب الرومان عقد الصلح فوافق عليه سابور الثاني (72).

وكان ممكناً للفرس أن يستثمروا النصر لصالحهم ويسيطروا على أراض أخرى في بلاد الأناضول لأن الموقف العسكري كان لصالحهم في معركة سنجار، لكن حدثت أمور داخلية أجبرت سابور الثاني على الموافقة على عقد هذا الصلح (73)

وبهذا تنتهي العلاقة مع الدولة الرومانية لتبدأ صفحة جديدة من العلاقات بين الدولة البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية (إسلام بول أو استانبول في العصر العثماني) والساسانية، إذ سيتناولها الفصل التاسع من هذا الكتاب إن شاء الله.

الهوامش

(1) سامي سعيد الأحمد، و رضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم، مطبعة التعليم العالي بغداد ص22.

(2)ج. هـ. ايليف: فارس والعالم القديم، ترجمة محمد صقر خفاجة، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1959م ص 49– 50؛ الموسوي: العلاقات ص 43. ولمزيد من التفاصيل حول هذه العلاقة راجع: ميثم عبد الكاظم جواد: العلاقة الفرثية الرومانية، 247ق.م-226م، رسالة دكتوراه كلية الآداب جامعة بغداد، 2007م.

(3) ل. لوكهارت: فارس في نظر الغرب، ترجمة السيد يعقوب بكر ص 425؛ دي لاسي أوليري: جزيرة العرب قبل البعثة، ترجمة وتعليق موسى على الغول، عمان 1960م ص132؛ الموسوي: العلاقات ص 43.

(4) الموسوي: العلاقات ص 43.

(5) الموسوي: العلاقات ص 43.

(6) عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، القاهرة 1967م ص 127؛ الموسوي: العلاقات ص 45. علي

(7) علي: التاريخ الروماني ص 127.

(8) الموسوي: العلاقات ص 46.

(9) علي: التاريخ الروماني ص129؛ إبراهيم شريف: الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الاسلامي، مطبعة شفيق، بغداد، 2/244؛ فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد المنعم رائق، مراجعة جبرائيل جبور، بيروت دار الثقافة 1950م ص 274؛ الموسوي: العلاقات ص 47.

(10) حتي: تاريخ سوريا ص 274.

(11) عثمان: الحدود الاسلامية 2/114؛ ايليف: فارس والعالم القديم ص50؛ الموسوي: العلاقات ص 47.

(12) لويد: الرافدان ص145– 151؛ الموسوي: العلاقات ص 48.

(13) ف. دياكوف و س كوفاليف: الحضارات القديمة، ترجمة نسيم اليازجي، دار علاء الدين دمشق 2000م 2/604. ؛ الموسوي: العلاقات ص 48.

(14) الموسوي: العلاقات ص 49.

(15) الموسوي: العلاقات ص 49.

(16) الموسوي: العلاقات ص 49.

(17) ادوارد جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو درة، مراجعة أحمد نجيب هاشم، مطبعة الكاتب العرب للطباعة والنشر القاهرة 1969م 1/65؛ الموسوي: العلاقات ص 50.

(18) عبد اللطيف أحمد: مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء أوراق البردية، القاهرة دار النهضة العربية 1965م ص54؛ دياكوف: الحضارات القديمة 2/611؛ الموسوي: العلاقات ص 50.

(19) شريف: الموقع الجغرافي للعراق 2/248؛ الموسوي: العلاقات ص 50.

(20) الموسوي: العلاقات ص 50.

(21) ب.م تشارلزورث: الامبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبده جرجيس / مراجعة محمد صقر خفاجة، دار الفكر العربي القاهرة 1961م، ص 227؛ الموسوي: العلاقات ص 51.

(22) الموسوي: العلاقات ص 51.

(23) شريف: الموقع الجغرافي للعراق 2/252؛ الموسوي: العلاقات ص 51.

(24) الموسوي: العلاقات ص 51

(25) لويد: الرافدان ص331؛ الموسوي: العلاقات ص 52.

(26) عادل نجم عبو وعبد المنعم رشاد محمد: اليونان والرومان، مطابع التعليم العالي الموصل 1993م، ص331

(27) الموسوي: العلاقات ص 52- 53.

(28) الموسوي: العلاقات ص 53.

(29) الاحمد: تاريخ الرومان ص 189؛ الموسوي: العلاقات ص 53.

(30) الموسوي: العلاقات ص 53.

(31) الموسوي: العلاقات ص 53.

(32) الأحمد: تاريخ الرومان ص 224؛ الموسوي: العلاقات ص 54.

(33) الموسوي: العلاقات ص 54.

(34) باقر: إيران ص 101- 102؛ الحديثي: دراسات ص 58.

(35) علي ظريف الأعظمي: تاريخ الدول اليونانية والفارسية في العراق، تقديم وتعليق عزة رفعت، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ص 36؛ الموسوي: العلاقات ص 54.

(36) محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية 2/1412- 1413؛ أيليف: فارس والعالم القديم ص54- 55؛ الموسوي: العلاقات ص 55.

(37) الموسوي: العلاقات ص 55.

(38) الموسوي: العلاقات ص 56.

(39) الموسوي: العلاقات ص 56.

(40) الأحمد: تاريخ الرومان ص266؛ الموسوي: العلاقات ص 57.

(41) الموسوي: العلاقات ص 57.

(42) الموسوي: العلاقات ص 58.

(43) باقر: إيران ص 117؛ الحديثي: دراسات ص 76. عبد المجيد الحاج حمدان: الامبراطور الروماني فيليب العربي، مجلة دراسات تاريخية العددان 85- 86، 2004دمشق ص90؛ الموسوي: العلاقات ص 59.

(44) الحديثي:دراسات ص 76.

(45) الطبري: تاريخ 1/394. ؛ ابو القاسم محمد الفردوسي: الشاهنامة، ترجمة أبو الفتح علي البنداري، تصحيح وتعليق عبد الوهاب عزام، طهران 1970م 2/57؛ الموسوي: العلاقات ص 59- 60.

(46)الموسوي: العلاقات ص 60.

(47) ابن قتيبة: المعارف ص654؛الطبري: تاريخ 1/394؛ رستم: الروم 2/47؛الفردوسي: الشاهنامة 2/57

(48) باقر: إيران ص 117؛كرستنسن: إيران ص210- 213؛ الحديثي: دراسات ص 76.

(49) الموسوي: العلاقات ص 62.

(50) المطهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية، 3/157؛ الموسوي: العلاقات ص 65.

(51) اسحاق عبيد: الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، تقديم الأب جورج شحاته قنواتي، دار المعارف القاهرة، 1971م ص28؛ جيبون: اضمحلال 1/423- 440؛ ج.م. والاس هارديل: أوربا في صدر العصور الوسطى، ترجمة حياة ناصر الحجي، الكويت 1979م ص11- 12؛ الموسوي: العلاقات ص 65. أبونا: تاريخ الكنيسة 1/27- 28، دي سي. أوليري: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ترجمة وهيب كامل، مراجعة زكي علي مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1962م ص20.

(52) باقر: إيران ص 117؛كرستنسن: إيران ص210- 213؛ الحديثي: دراسات ص 76.

(53) الموسوي: العلاقات ص 62.

(54) الموسوي: العلاقات ص 62.

(55) جيبون: اضمحلال 1/250؛ الموسوي: العلاقات ص 63.

(56) لويد: الرافدان ص162؛ سليم واكيم: إيران والعرب العلاقات العربية الإيرانية عبر التاريخ، بيروت 1967م ص52؛ كرستنسن: إيران ص 210؛ الموسوي: العلاقات ص 64.

(57) صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب قبل السلام، جامعة الموصل 1987، ص 46–47؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 3/76– 80؛ باقر: إيران ص 118.

(58) العلي: محاضرات ص 47؛ باقر: إيران ص 118؛ علي: المفصل 2/78؛ الحديثي: دراسات ص 77.

(59) كرستنسن: إيران ص 21؛ باقر: إيران ص 119؛ الحديثي: دراسات ص 77.

(60) علي: المفصل 3/83– 86؛ باقر: إيران ص119– 121؛ الحديثي : دراسات ص 78. طارق فتحي سلطان و فواز حميد جحمو النيش: النهر العباسي في أعالي الزاب، دراسة تاريخية جيمورفولوجية، مقبول للنشر في مجلة التربية والعلم، كلية التربية /جامعة الموصل.

(61) الموسوي: العلاقات ص 97؛ الطبري: تاريخ 1/397؛

(62) الموسوي: العلاقات ص 98.

(63) كرستنسن: إيران ص 217؛باقر:إيران ص 129– 130؛ الحديثي: دراسات ص 79. ؛ الموسوي: العلاقات ص 98.

(64) ل.ل.ستارجيان: تاريخ الامة الأرمنية مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل 1951م ص 114؛ الموسوي: العلاقات ص 99.

(65) فؤاد حسين حافظ: تاريخ الشعب الارمني منذ البداية حتى اليوم، دار نوبار للطباعة القاهرة 1986م ص56. ؛ ستارجيان: تاريخ الامة الأرمنية ص 114؛ الموسوي: العلاقات ص 101.

(66) رستم: الروم 1/50؛كرستنسن: إيران ص 233؛ الموسوي: العلاقات ص 101.

(67) ستارجيان: تاريخ المة الارمنية ص115؛ الموسوي: العلاقات ص 102.

(68) كرستنسن: إيران ص 222– 223؛ باقر: إيران ص 127؛ الحديثي: دراسات ص 80؛ محمد أمين زكي و محمد علي عوني: تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، مطبعة صلاح الدين، بغداد، 1961م 1/88؛ الموسوي: العلاقات ص 103.

(69) ستارجيان: تاريخ الامة الارمنية ص114.

(70) الموسوي: العلاقات ص 103– 104

(71) الموسوي: العلاقات ص 106– 107.

(72) الموسوي: العلاقات ص 106– 107.

(73) الموسوي: العلاقات ص 106– 107.

9

الفصل التاسع

العلاقة مع الدولة البيزنطية

الدولة البيزنطية:

بدأت الخلافات تظهر والشعوب تتململ من سيطرة الرومان وعنجهيتهم، وكان أول من تململ منهم سكان المناطق الشرقية من الدولة الرومانية، كما كان لوجود النظام الديمقراطي في روما حجر عثرة أمام الاباطرة الرومان في التسلط واتخاذ القرارات المناسبة، فقام الإمبراطور قسطنطين بالبحث عن عاصمة جديدة له واستقر رأيه على القسطنطينية، التي شرع في بنائها سنة 326م واكتمل بناؤها في سنة 330م، ودخلها قسطنطين في احتفال مهيب، ونقل إليها دواوين الدولة الرومانية، لكن روما ظلت تحكم المناطق الغربية من الإمبراطورية، وأصبحت هناك الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية.

كان لانتقال العاصمة إلى القسطنطينية أثره الفّعال في مواجهة التحديات التي كانت روما تعجز عن القيام بها، لكي تعالج ما يحدث على حدودها الشرقية، لكن بانتقال العاصمة إلى القسطنطينية، تغير الوضع، وأصبح الإمبراطور قريباً من ساحة الاحداث، والامدادات كانت تتوالى بسرعة، وبدأت الدولة البيزنطية تعمر ما تهدم من الحصون، وترسل التعزيزات العسكرية تحسباً لأي طارئ قد يقوم به الساسانيين، في بلاد آسيا الصغرى وبلاد الجزيرة الفراتية.

الحروب الساسانية البيزنطية:

لقد اتخذ الصراع الساساني البيزنطي خلال الفترة من 330- 364م طابعاً دينياً، بعد أن كان زمن الدولة الرومانية صراعاً سياسياً اقتصادياً، فاتخاذ الإمبراطور البيزنطي قسطنطين (306-337)، للنصرانية ديناً رسمياً للدولة في سنة 313م، ودخل في صراع مع الدولة الساسانية التي كانت تريد ضم أرمينية اليها (اتخذت أرمينية النصرانية ديناً رسمياً لها في سنة 301م)، فأخذ سابور الثاني يثير المشاكل لأرمينية (1) بهدف إضعاف أرمينية.

وبعد اضعاف ارمينية تفرغ سابور الثاني لمواجهة الدولة البيزنطية، فارسل إلى الإمبراطور البيزنطي رسالة مطالباً إياه باعادة المقاطعات الخمسة التي اقتطعت من دولته في عهد جده الملك نرسي بموجب معاهدة نيسبيس التي عقدت في سنة 298م، ولذلك أخذ

الإمبراطور قسطنطين في سنة 337م، الاجراءات الكفيلة بالاستعداد للحرب لمواجهة التهديد الساساني، وطلب من الأساقفة النصارى مرافقته إلى ميدان المعركة لإقامة الصلوات وحث الجند النصراني على الحرب على اعتبار أنها حرب دينية مقدسة (2)

والواقع أن المعلومات القليلة عن استعداد الإمبراطور قسطنطين غير واضحة المعالم، وهل تمّ عقد صلح أو هدنة بين الطرفين، إن المعلومات تشير إلى أن الإمبراطور البيزنطي قد أوقف تلك الاستعدادات العسكرية، فهل تمّ هذا جراء صلح ؟ أو جراء رسائل متبادلة بين الطرفين ؟ وتشير بعض الاشارات إلى أن ((سابور قد هادن ملك الروم)) (3).

ويبدو أن تلك المهادنة قد كانت قبل سنةِ 337م، إذ كانت العلاقة طيبة بين الطرفين، وقد أرسل الإمبراطور البيزنطي رسالة إلى الملك الساساني سابور الثاني يشكره فيها على حسن معاملته للنصارى في الدولة الساسانية ويوصيه بهم خيراً، ثم بدأ سابور الثاني ينقلب ضد النصارى وبدأ باضطهادهم في سنة 319م، وهذا يعني من الناحية العملية انتهاء فترة الربيع بين الدولتين الساسانية والبيزنطية وبدء الحرب بين الطرفين (4).

وقد توفي الإمبراطور البيزنطي قسطنطين في 22ايار سنة 337م، قبل أن ينفذ خطته في الدفاع أو الهجوم ضد الساسانيين (5)، وخلفه على عرش الإمبراطورية البيزنطية ابناؤه الثلاثة، قسطنطين الثاني Constatine II 337 –340م الذي تولى حكم الجزء الغربي من الإمبراطورية (إيطاليا، غالة، أسبانيا، وقسماً من الشمال الأفريقي، وقسطنطيوس Constantius 337-361م، والذي تولى حكم الجزء الشرقي الإمبراطورية البيزنطية (مصر وسوريا وآسيا الصغرى وتراقيا) أما قسطانز Constans 337-350م، فقد تولى حكم بلاد اليونان ووسط البلقان وقسماً من الشمال الافريقي (6)

غير أن هؤلاء الأخوة لم يكونوا على وفاق، بل طمع كل منهم بأملاك الآخر، وكانت النتيجة أن آل القسم الغربي إلى قسطانز، بعد انتصاره على أخيه قسطنطين IIفي معركة أكويليا Aquileia سنة 340م. وهنا استغل الملك سابور الثاني تلك الأوضاع لصالحه وصالح الدولة الساسانية، فهاجم في نهاية عام 337م أرمينية، واستعاد أتروباتين التي كانت قد ضمت إلى أرمينية سنة 298م بموجب معاهدة نيسبيس (7).

وفي سنة 338م حاصر سابور الثاني مدينة نيسبيس المركز الرئيس للبيزنطيين في منطقة الجزيرة الفراتية، واستمر الحصار لمدة شهرين، ولكن تحصينات المدينة ومقاومة أهلها، فضلاً عن الأمراض التي لحقت بالجيش الساساني، أجبرت الملك سابور الثاني على رفع الحصار والاكتفاء بالغارات على نواحي المدينة، ونهب المواشي والمحاصيل الزراعية، كما إنه هزم قسماً من الفرق البيزنطية التي أرسلت كتعزيزات لفك الحصار عن المدينة (8)

وفي سنة 346م حاصر الملك سابور الثاني مدينة نيسبيس للمرة الثانية، ولكنه لم يوفق في فتح المدينة (9)، وفي سنة 348م سار الملك سابور بجيش قوي نحو أرض الجزيرة الفراتية، فالتقى بجيوش الإمبراطور البيزنطي قسطنطيوس عند مدينة سنكارا (سنجار)، وتدل الخطة التي وضعها الملك سابور الثاني على كفاءة عسكرية وحسن تخطيط لإدارة المعركة وتحريك القطعات في الوقت المناسب، فقد تظاهر بالإنسحاب والهزيمة أمام الجيش البيزنطي، وسمح للبيزنطيين بنهب معسكره، وكانت الخطة تقضي بالانسحاب إلى التلال المحيطة بمدينة سنجار والمناطق المشرفة عليها، وعندما يحل الظلام أمر قواته بمباغتة الجند البيزنطي الغارقين في الاحتفالات والغنائم الوهمية التي أعطيت لهم طوعاً من قبل هيئة أركان الجيش الساساني، وتمكن سابور الثاني من حسم النصر لصالحه (10)

وتقتضي المعركة الليلية علامات خاصة وإشارات وملابس من لون واحد وكلمة سر يعرفها الجند، ويبدو أن الملك الساساني، قد استغل ضوء القمر لصالحه في الهجوم الليلي على مدينة سنجار.

وبعد النجاح التي تكللت به معركة سنكار توجه الملك الساساني سابور الثاني إلى مدينة نيسبيس في سنة 350م، (وهذا يشير إلى أنه قد ظل على الحدود البيزنطية طيلة هذه الفترة)، فحاصرها 70يوماً، أبدى سكانها من الشجاعة ما يفوق الوصف، فضلاً عن الاحتياطات التي اتخذها البيزنطيين لحماية المدينة، ففكر الملك سابور الثاني بإغراق المدينة، فأغلق نهر مقدينيوس Mygdonius (11)، أو نهر جفجغ ففاض النهر حتى أحاط بالمدينة، وانقلب السحر على الساحر، فكان تغريق المدينة وبالاً على الجيش الساساني، إذ غرقت الخيول والجند بالبحيرة، ولم يستفد الملك الساساني من الثغرة التي حدثت، حيث أصلحها أهل المدينة بسرعة لم يتوقعها الملك الساساني، فاضطر الملك سابور الثاني إلى عرض الصلح على البيزنطيين، بسبب مشاكل داخلية ألمت بالبلاد (12) شغلته قرابة السبع سنوات، حتى سنة 353م حيث انفرد الإمبراطور البيزنطي قسطنطيوس بالسلطة (13)

وفي سنة 356م تلقى الملك سابور الثاني رسالة من الإمبراطور البيزنطي يعرض عليه عقد صلح بين الطرفين، وضرورة أن تضع الحرب أوزارها ويعم الرخاء والتجارة، وحمل الوفد بجملة من الهدايا الثمينة (14)، وكان من الأجدر بالملك سابور الثاني قبول مثل هذا العرض.

ويتبين ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين الملك الساساني والإمبراطور البيزنطي التي أوردها أحد المؤرخين، فقد أرسل سابور سفيراً إلى الإمبراطور كونستانس مع جملة من الهدايا ورسالة ملفوفة بالحرير الأبيض وفيها: (يحيا سابور، ملك الملوك، رفيق النجوم، أخو الشمس والقمر، أخاه القيصر كونستانس، وقد أدرك مغتبطاً أن الإمبراطور قد أصلح بالتجربة خطأه وعاد إلى الطريق السوي، وقد مدّ آباؤه (آباء سابور) سلطانهم حتى نهر ستريمون وإلى حدود مقدونيا، وأنه هو (كذلك بغير غرور) قد جاوز في الجلال وكثرة الفضائل، الملوك الأولين، وأن عليه أن يستعيد أرمينية وبلاد الجزيرة التي اخذتا غصباً من جده، وإنا لن نجيز الرأي الذي أجزته في عتوك، الرأي الذي يرى كل فوز في الحرب جديراً بالثناء، من غير أن يفرق بين نصر يرجع إلى الشجاعة، ونصر أساسه الحيلة الخادعة، وكما أن الاطباء يكوون أو يبترون أعضاء الجسد أحياناً، حتى يستطيع استخدام أعضائه الأخرى، فعلى الإمبراطور أن يتنازل عن جزء صغير من أرضه على هذه الطريقة، عن الجزء الذي كان مصدر القلق وإراقة الدماء، حتى يحكم هادئاً باقي مملكته، وإذا عاد السفراء الإيرانيون من غير أن يظفروا بشيء، فإن الملك العظيم سيسير بكل قواه، لحرب الإمبراطور، بعد استراحة الشتاء)) (15)

وكان جواب كونستانس برسالة مع السفراء الإيرانيين وهذا نصها: ((كونستانس المظفر في الأرض والبحر والعظيم دائماً إلى أخيه الملك سابور، رفضاً خالصاً مع لوم شديد لذلك الجشع الذي يتزايد جشعه على الدوام، وإن كان الرومان قد آثروا ـأحياناًـ الحرب الدفاعية على الحرب الهجومية، فإن هذا الايثار، لم يكن عن خوف، ولكنه عن اعتدال، وإذا كان الرومان قد اضطربوا في الحرب في بعض المعارك، فإن النتيجة النهائية للحرب لم تكن تدور عليهم)) (16).

والرسالتان المتبادلتان تظهران أن الحرب باتت وشيكة بين الطرفين، فقاد سابور الثاني جيشاً قوياً وحاصر قلعة آمد Amida (ديار بكر الحالية في تركيا)، وقدر عدد الجيش

الساساني بحدود مائة ألف جندي مدعوم بالفيلة، لكنه ما أن اقترب من أسوار المدينة حتى إنهال عليه الرماة بسهامهم، فأصاب أحد السهام خوذة الملك الساساني، فيما أصاب سهم طائش آخر ابن ملك الهون الذي شارك في الهجوم، فجن جنون الملك الساساني، وقرر استعمال كل الوسائل التي من أجلها هدم سور المدينة، وتمّ استخدام الفيلة التي وصفها مؤرخ المعركة مرسيلينوس ((ليس هناك من شيء أرهب وأهول للعقل البشري من اصواتها وضخامة أجسامها)) (17).

واستولى عليها بعد دفاع مجيد قام به الجيش البيزنطي في سنة 359م، بعد 73 يوماً من الدفاع المستميت عنها، وقد خسر الملك سابور الثاني، في هذه المعركة وحدها 30000من جنده، ثم شرع في تدمير المدينة ونهبها وأسر أهلها فقتل المقاتلة وسبى الذرية (18).

وفي سنة 360م استولى الملك سابور الثاني على سنكار ومدينة بازبدى من مدن الجزيرة الفراتية قرب جبل الجودي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي التصدي له، لكنه فشل في ذلك (19).

وبعد سنتين أي في عام 361م توفي الإمبراطور كونستانس، فصار جوليان إمبراطوراً على الدولة البيزنطية، فضلاً عن روما، وهو الذي عرف بالكافر أو الجاحد أو المرتد لتخليه عن النصرانية وتمسكه بالوثنية (20)

كان الإمبراطور جوليان إمبراطوراً طموحاً، وكان يدور في خلده أن بمقدوره أن يعيد الأمور إلى نصابها في مناطق الاحتكاك بين الدولتين وهي الجزيرة الفراتية ومناطق من آسيا الصغرى، فنقل مقر إقامته إلى أنتيوخيا، فوصلها في 19تموز من سنة 362م (21)

ويبدو ان ظروف الملك سابور الثاني، لم تكن مواتية لتجدد الحرب بين الطرفين، فحاول مفاوضة الإمبراطور البيزنطي جوليان في إقامة السلم والوئام بين الدولتين، إلا أن الإمبراطور جوليات أبى أن يصغي إلى صوت السلم الذي حمله رسل الملك الساساني سابور الثاني وقال لهم ((قريباً ترونني)) (22)، فقاد بنفسه الجيوش البيزنطية وسار ليحارب سابور الثاني (23)، وكان من بين القادة الذين اعتمد عليهم، أمير إيراني هارب التجأ عند البيزنطيين وهو الأمير هرمزد، أخو الملك سابور الثاني، وكان البيزنطيين يأملون في النصر لتصيب هرمزد بدلاً من سابور الثاني، على أمل الحصول من وراء هذه الحرب على مكاسب

خارجية تعزز موقف الإمبراطور المهزوز في الداخل، بسبب تنكره للنصرانية وتشجيعه للوثنية في الدولة البيزنطية.

سارت الجيوش البيزنطية تدعمها جيوش أرمنية في 26آذار 363م من أنتيوخيا فعبر الإمبراطور نهر الفرات على رأس جيش كبير مكون من 65000جندي، واسطول نهري قوامه 1100قارب وسفينة، وعند وصول الجيش إلى منطقة كرها قسمه على قسمين، القسم الاول ويقوده بروكوبيوس Procopius ووجهته شرقاً، إلى نيسيبيس ويدعم هذا الجيش ملك أرمينية أرشاك II، لمهاجمة ولايات الدولة الساسانية الحدودية (إقليم أتروباتين)، ثم ليلتقي بعدها بالجيش البيزنطي الرئيس قبالة المدائن، وسار الإمبراطور مع القسم الآخر من الجيش باتجاه الفرات متوجهاً صوب طيسفون (المدائن) (24)

وقد أخطأ الملك الساساني سابور الثاني التقدير هذه المرة، فظن ان الجيش البيزنطي كعادته سينطلق من نيسيبيس، لذا اتجه بكامل جيشه نحو نهر دجلة لملاقاته (25)، غير أن الإمبراطور سار بالجيش الذي يرافقه الاسطول جنوباً وبمحاذاة نهر الفرات (26).

وهنا انضمت القبائل العربية (المشارقة Saraceenes) الى الجيش البيزنطي الذي تفاجأ قائده بهذا الموقف الجديد، وقدموا للامبراطور البيزنطي تاجاً من ذهب، وقسم الجيش العربي إلى قسمين، دفع القسم الأول مع طلائع جيشه، وضم القسم الثاني تحت امرته (27).

ويشير هذا الموقف إلى رد فعل العرب ضد سابور الثاني الذي لاقى العرب على يديه البطش والتنكيل، فانتقموا منه عند أول فرصة سنحت لهم (28)، وبصحبة القبائل العربية دخل الإمبراطور جوليان حصن قرقيسيوم (قرقيسياء Cercusim)، وظل في هذه المدينة حتى عبرت قواته على الجسر العائم الذي نصبه لعبور الجيش، وبعد عبور القوات العسكرية، أمر جوليان برفع الجسر، دلالة على التصميم على الحرب، وأن لارجعة في هذه الحملة دون تحقيق هدفها الأساس (29).

واتبع الإمبراطور البيزنطي، سياسة الأرض المحروقة، وسيطر على كل ما مر به من مدن، فسيطر على حصن أناثا Anatha (عانه) ثم حديثة (أخياكالا) والانبار حتى وصل قبالة المدائن (30).

وجرت معركة قوية جداً دافع الساسانيون فيها عن مدينهم طيسفون مستخدمين الفيلة، التي وصفها الجيش البيزنطي بأنها كالتلال المتحركة (31)، وقد أبلى العرب الذين التحقوا بالجيش البيزنطي بلاءً حسناً في معارك طيسفون (32)، فبدلاً من أن يكافأهم الإمبراطور البيزنطي، إستهان بالعرب، وهنا وقعت الكارثة على الجيش البيزنطي، فانسحب منه العرب، وأخذوا يهاجمون الجيش البيزنطي ويأسرون من يقدرون عليه (33).

وهنا أدرك سابور الثاني خطأه، فاستمال العرب، وطلب منهم الاستقرار في مملكته على ضفاف الخليج العربي من الاحواز وحتى كرمان وهم من قبائل عبد القيس وبكر بن وائل للاستفادة من خبراتهم الزراعية في إحياء المنطقة، وللاستفادة منهم في معاركه القادمة مع البيزنطيين (34)

كما إن ملك الأرمن توقف عن الالتحاق بالإمبراطور البيزنطي في طيسفون، وكان الإمبراطور بأمس الحاجة إلى هذه الامدادات، وهنا أدرك الإمبراطور البيزنطي خطأه، بالاستهانة بالعرب، وربما بالأرمن، كما دفع الملك الساساني سابور الثاني بتعزيزات قوية أجبر البيزنطيين على الانسحاب، وفك الحصار عن العاصمة الساسانية، وقرر الإمبراطور الانسحاب وفك الحصار عن طيسفون (35)، والعودة إلى بلاده، وكنا قد تحدثنا في بداية الحملة، أن الإمبراطور البيزنطي قد اتبع في طريقه إلى المدائن سياسة الأرض المحروقة (عدم وجود العلف والمواد التموينية التي يحتاجها الجيش) فقرر الإمبراطور حرق السفن وتحطيمها حتى لايستفاد منها الساسانيين، وغير طريق رجوعه إلى مناطق شمال وشرق العراق فاحتل مدينة هوكمبرا (بعقوبة) (36).

وظل الجيش البيزنطي المنسحب يسير باتجاه شمال العراق، يتعقبه الجيش الساساني والعرب المنتشرين في المنطقة، حتى انهك الجيش البيزنطي، ثم عقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاثة أيام، نقضها الجانب الساساني، وفي يوم 26حزيران وفي معركة غير متكافئة هجم الجيش الساساني على مقدمة ومؤخرة الجيش البيزنطي، الذي أتعبه طول الطريق والحر وشحة التموين، ثم قتل الإمبراطور البيزنطي في سنة 363م، بعد أن أصابه سهم في كبده (37).

وقد خلفه على عرش الإمبراطورية البيزنطية جوفيان Jovian، فأمر بسحب الجيوش البيزنطية، والتوجه نحو سوميرا Sumere (سامراء)، وعندما علم الملك الساساني بمقتل عدد

كبير من القادة فضلاً عن الإمبراطور، أرسل فرقتين من الفرسان لملاحقة الجيش البيزنطي، فتوجه الجيش البيزنطي إلى منطقة دورا Dura (الدور الحالية) (38)، وقد حاول الجيش البيزنطي عبور نهر دجله، لكنه فيضانه في تموز منع الجيش البيزنطي من العبور، وعندما رأى الملك الساساني الوضع المتأزم للجيش البيزنطي، أرسل له وفداً للتفاوض وعقد الصلح، فوافق الإمبراطور البيزنطي مضطراً، وتم عقد صلح بين الطرفين، سنة 363م أمده ثلاثون سنة، كسب بموجبه الإيرانيون نصيبين وسنجار والقلعة المسماة بقلعة المغاربة، فضلاً عن 15 حصن آخر، على أن يكون نهر الفرات الحد الفاصل بين حدود الدولتين وأن تعود المقاطعات المتنازع عليها في أرمينية إلى البيزنطيين، وتعهد الإمبراطور جوفيان بألا يساعد أرشك (ملك الأرمن) الذي ثار عليه أتباعه وعزل ثم أخذه الإيرانيون أسيراً إلى إيران، حيث انتحر في الأسر (39).

ثم توفي سابور الثاني سنة 379م، بعد ذلك مباشرة وانتهت فترة الأربعين سنة من الحروب بين البيزنطيين والساسانيين، وإذا ما قمنا بتقييم سياسة سابور، فعهده لم يكن مشرقاً كما كانت تعكسه انتصاراته العسكرية، لأن قوة الجيش وقدرته العسكرية العالية التي وضحت من كثرة الحروب التي خاضها مظفراً كلفت الدولة الساسانية كثيراً، ولعل أوضح مثل لهذا هو انشغال الملك بالحرب، فأضعف السلطة المركزية، قابلها قوة النبلاء والحكام، وتحملت الخزينة جراء هذه الحروب على الجبهة الشمالية وهي موضوعنا الكثير من الانفس والجهد والمال (40)

أما عن العلاقة السلمية بين البيزنطيين والساسانيين فقد مرت بفترة سلم أمدها 57 سنة، وتعرف الفترة من سنة 364- 420م بفترة الهدوء والاستقرار وخفة الصراع، وقد التهت كل دولة بمشاكلها الداخلية، فالدولة البيزنطية كان لها مشاكلها مع الوثنية، فضلاً عن هجمات القبائل الجرمانية، والدولة الساسانية كما تناولناها كانت تعاني من مشاكل عدة تحدثنا عنها، فمالت كل دولة منهما نحو الصلح مجبرة لا مخيرة.

وفي أرمينية فقد اضطرت فرندزم أرملة أرشك إلى الاستسلام للإيرانيين الذين أخذوها أسيرة إلى إيران، بعد أن قاومت مقاومة عنيفة ودافعت عن قلعة أرتجرس، حيث قتلها الساسانيين هناك، وبمقتضى شروط الصلح أيضاً سيطرالساسانيين على الإقليمين القوقازيين إيبريا (جورجيا) وألباني من السيادة البيزنطية، وتعهد البيزنطيين بالمحافظة على

الأبواب القزوينية عند ثغرة داريال التي تحمي أقاليم جنوبي القوقاز من غارات الشعوب المتوحشة (41)

وقد حاول الإمبراطور والنس مرتين أن ينصب الأمير ألب بن أرشك ملكاً على أرمينية تحت حماية البيزنطيين، لكن الساسانيون طردوه في المرة الأولى، وفي المرة الثانية غُلب الإيرانيون على أمرهم، إذ غلبهم القائد الأرمني (موشل)، الذي كان نداً للجيش البيزنطي، حيث أخضع أرزنين والولايات الثائرة الأخرى، ثم إتحد مع جاثليق أرمينية (نرشي) أو (نرسي)، وكان موشل القائد الأرمني يسلخ جلد الأسرى الإيرانيين وهم أحياء، ويحشوها بالتبن ويرسلها إلى باب أحد زعماء الأرمن.

ثم جرت مفاوضات بين البيزنطيين والساسانيين حول أرمينية، أصبح بموجبها الحق للساسانيين التدخل في عرش أرمينية، فقد تنازل الإمبراطور البيزنطي والس بموجب هذه الاتفاقية للملك الساساني سابور بهذا الحق، وجرت منازعات بين المتنافسين على عرش أرمينية، استنجد أحدهم بالشاهنشاه لنصرته، فأصبحت الحجة بيد الساسانيين، فأرسلوا جيشاً بقيادة سورين إلى أرمينية، وبعد السيطرة عليها نصبه الملك الساساني سابور الثالث مرزباناً على أرمينية (42).

وبعد أن أدرك الطرفان البيزنطي والساساني عجزهما عن حل مشاكل أرمينية قررا في سنة 387م تقسيمها إلى قسمين القسم الشرقي للساسانيين والغربي للبيزنطيين (43).

وخلف سابور الثاني عدد من الملوك الضعفاء منهم، أردشير الثاني (379– 383م) و أبناء سابور الثاني، وهم سابور الثالث (383– 388م)، وبهرام الرابع (388– 399م) وكانت عهودهم قصيرة وغير مؤثرة واصبحوا ألعوبة بيد النبلاء ورجال الدين، ثم تسلم الحكم بعد هؤلاء الملوك الملك يزدجرد الأول (399– 421م). الذي استهل عهده وكل من يتحدث عن العلاقة مع البيزنطيين في هذه الفترة، لابد وأن يتناول دراسة تاريخ النصرانية في إيران، فبعد اعلان الديانة النصرانية ديانة رسمية في الدولة البيزنطية على عهد قسطنطين (306– 337م)، أخذت النصرانية في الانتشار في معظم أنحاء العالم عن طريق المبشرين، ولما كانت منطقة الصراع الساساني البيزنطي هي العراق والجزيرة وبلاد الشام، فلابد وأن تتأثر إيران وحكامها الساسانيين بما يحدث في أراضيهم، فأخذ قسم من سكان العراق وإيران يتحولون إلى النصرانية لأسباب عدة لسنا بصددها الآن، فأثار هذا الإنتشار السريع للنصرانية، روع

رجال الدين الزرادشت وتعاونوا هم والملوك الساسانيين من قبل، من أجل ايقاف انتشار النصرانية، لكن الدين والأفكار لاتمنع بالقوة، فسعت الدولة إلى مبدأ الترغيب والترهيب من أجل هدفها ودعم دينها الرسمي وهو الدين الزرادشتي، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان الكثير من رعايا الدولة الساسانية في هذه المدة نصارى، فنصف أرمينية بيدهم، وجنوب العراق بيدهم، وشمال العراق وإقليم الجزيرة، وهذه المناطق تقطنها قبائل عربية، مثل قبيلة كلب وإياد والنمر والشهارجة وتميم وطيء وشيبان وتغلب، وقسم من هؤلاء تنصروا، ونعرف هذا من خلال مخاطبة خالد بن الوليد لهم أبان الفتح الإسلامي لجنوب وغرب العراق.

أدرك الملك الساساني يزدجرد الأول أن الوقت قد حان لإعادة النظر في موقف الدولة الرسمي من الدين النصراني، وفي علاقاتها بالدولة البيزنطية، وكان الملك الساساني قد أصيب بمرض أعيا الأطباء في الدولة الساسانية، فارسل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي أركاديوس Arcadius (395 -408م) يطلب منه طبيباً لعلاجه، فارسل له طبيباً وعالماً وهو أسقف مدينة مرتير وبوليس Martyrpolis (ميافارقين) مع رسالة يوصيه بها بالنصارى الموجودين في بلاده (44)

فحاول هذا الملك اعتماد سياسة المساواة بين معتنقي الديانتين الزرادشتية والنصرانية، وسمح للنصارى بحرية إقامة شعائرهم الدينية، فبنوا الكنائس والأديرة في مختلف مناطق الدولة الساسانية، وفضلاً عن ذلك، فقد عقد نصارى إيران مجمعاً كنسياً لتوحيد موقفهم والعمل وفق مذهب الكنيسة البيزنطية، ويعد هذا بحد ذاته نصراً كبيراً للنصارى في العراق وإيران في عهد الدولة الساسانية، كما إن عقد المجمع الكنسي قد يقرب وجهات النظر بين الدولتين الساسانية والبيزنطية (45)

إن هذا التحول في الموقف من النصارى يدعونا للتساؤل عن أهم أسباب هذا القرار الجريء الذي اتخذه الملك الساساني يزدجرد الأول، ولو بحثنا في أهم سبب لوجدناه أن أغلب رجال الدين الزرادشتي قد بلغوا من القوة والجرأة على الملك الساساني حداً لايحتمل، يساندهم النبلاء والعظماء الذين عزلوا ثلاثة من الملوك الساسانيين من قبله قتلاً وسماً وتنحيةً، هذا هو السبب الرئيس الذي يبدو للعيان وهو الأكثر قبولاً لدى المؤرخين، فقد احتار عدد من المؤرخين حول هذا الموضوع، فقد بلغ من شدة عطفه على النصارى، أن لقبته المصادر النصرانية بالملك النصراني، ومن جهة أخرى فقد نال مقابل هذه الرعاية للنصارى،

حقد وغضب رجال الدين الزرادشت، فوصفته المصادر الزرادشتية الساسانية بالملك الساساني المخادع والأثيم، ولكن يبدو أن الملك يزدجرد الأول كان يقصد من وراء دعمه للنصارى، تلطيف الأجواء التي أفسدها العظماء والأمراء ورجال الدين الزرادشت، فكان هذا القرار إنعطافاً مقصوداً بالنسبة للنصارى، وذلك لخلق قاعدة جديدة يستند إليها، ويبدو أن عددهم في الدولة الساسانية لم يكن عدداً محدوداً كما تصوره المصادر الزرادشتية، إذ لا يمكن للملك الساساني أن يستند على أقلية ليس لها نفوذ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، أراد الملك الساساني أن يضعف موقف ومكانة رجال الدين الزرادشت والعظماء، باستناده على النصارى، ومن خلفهم الدولة البيزنطية، التي بهذا القرار الجريء، يضمن عدم قيامها بحرب ضد الدولة الساسيانية، التي تعاني من الانقسام الداخلي، بسبب موقف رجال الدين الزرادشت والعظماء من الملك الساساني، فقوى مركزه الداخلي والخارجي بدعم النصارى، من إجل إضعاف أعدائه في الداخل (46) .

لكن يبدو أن التسامح في أمور الدين كان ظاهرة طبيعية في عهد الملك الساساني يزدجرد الأول، الذي تسامح مع اليهود أيضاً، الذين لم يكن لهم شأن سياسي داخلي أو خارجي، وتزوج من ابنة رئيس اليهود وهو الجاثليق (رأس اليهود) (47)، وترك لهم الحرية الدينية في إقامة شعائرهم الدينية، على الرغم من العداء القاتل بين النصارى واليهود في ذلك الوقت والذي استمر إلى مطلع القرن العشرين، وتجلى واضحاً في العهدة العمرية لسكان بيت المقدس التي طلب فيها بطريرك النصارى في الاتفاق الذي أبرمه مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (أن لا يسكن اليهود في بيت المقدس أبداً، ولا يدخلوها مادام المسلمين هم سادة الموقف السياسي في القدس.

لكن الملك الساساني يزدجرد الأول قد غير سياسته اتجاه النصارى في أواخر حكمه، ولم يكن هذا التغيير ناتج عن إنقلاب في سياسة الملك الساساني، بل بما فعله النصارى وقاموا به، إذ أنهم أساؤا فهم الحرية الدينية التي منحها لهم الملك الساساني يزدجرد الأول، ولم يدركوا النوايا الخفية لسوك وسياسة هذا الملك، فارتكبوا أفعالاً تحدوا بها الشعور الديني الزرادشتي، ففي سنة 420م تجرأ أحد القساوسة على تهديم وتخريب معبد زرادشتي في خوزستان كان في موقع قريب من أحد كنائسهم (48)

وعلى الرغم من موقف الملك الساساني يزدجرد الأخير، فإنه مات بشكل غامض، مما

يرجح إغتياله من قبل العظماء والأشراف ورجال الدين الزرادشتيين (49)، والذي يؤكد موقف الملك الساساني يزدجرد الثاني، اللين مع النصارى هو محاولة إبعاد أبناء يزدجرد نهائياً عن الحكم، وهذا يرجح لنا أنه مات ميتة غير طبيعية بالسم أو الاغتيال، كما يؤكد هذا الموقف عندما قتلوا ابنه حتى لا يكرر ما فعله أباه من نصرة النصارى في المملكة الساسانية، مما قد يقوض نفوذ رجال الدين الزرادشت والعظماء الذي ينتمون إلى الدين الزرادشتي مستقبلاً.

ثم توالى الملوك الساسانيين على حكم إيران حتى جاء الملك بهرام جور أو بهرام الخامس (420- 438أو 439م) الذي لقي النصارى في عهده إضطهاداً كبيراً بسبب ما قاموا به من أعمال، وبسبب تحريض العظماء ورجال الدين الزرادشت، كما كان لرئيس وزرائه مهر نرسي الذي عرف بتعصبه للدين الزرادشتي وكرهه للنصارى، فيذكر المؤرخ أدي شير : ((أنه لم يترك كنيسة الا هدمها ولا ديراً إلا دكه)) (50)

فهاجر قسم من نصارى إيران والعراق صوب حدود الدولة البيزنطية، فعد بهرام هذه الهجرة سبباً لإعلان الحرب على البيزنطيين، وإلغاء معاهدة الصلح والهدنة بين الطرفين، لأنه عدهم هاربين من بلاده، فطلب الملك الساساني بهرام الخامس من الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني (408- 450م) تسليمه الهاربين، فرفض الإمبراطور طلبه، فرد الملك الساساني بحبس ومصادرة أموال عمال التعدين البيزنطيين، الذين أرسلوا لإستخراج الذهب من بلاد إيران، وادى تصاعد الأزمة إلى قيام الحرب بين الطرفين فهاجم بهرام الخامس حدود الدولة البيزنطية، وكانت منطقتي نيسيبيس وأرمينية هي المسرح لهذه الحرب، وتولى قيادة الجيش الساساني رئيس الوزراء مهر نرسي، وتولى قيادة الجيش البيزنطي أردبور، وفي المعركة التي جرت بينهما في مدينة ثيودوسيوبوليس Thedosiopolis أرضروم، فمنيت القوات الساسانية بهزيمة، وقد حاول مهر نرسي أن يقلب الهزيمة إلى نصر وهو القيام بحملة مضادة يجتاز بها أرض الجزيرة الفراتية، لكنه بسبب قله جيشه اضطر إلى التوقف عند مدينة نيسيبيس التي تعد من ممتلكات دولته في هذا الوقت، فقام البيزنطيون بمحاصرة المدينة، وأقاموا الأبراج الخشبية على أسوارها، في هذا الظرف طلب الملك الساساني من ملك المناذرة (المنذر الأول بن النعمان (418- 462م) اسناده بقطعات عسكرية لمهاجمة أراضي الدولة البيزنطية في بلاد الشام ليفتح عليها جبهة أخرى، وليخفف

الضغط على الجيش الساساني المحاصر والمنهك على حدود بلاده (51)، إلا أن المنذر لم يوفق في هذا الهجوم الذي شنه سنة 421م، فغرق قسم كبير من جيشه أثناء عبورهم نهر الفرات (52)

كما انتشرت إشاعة تفيد أن هناك قوات ساسانية مقبلة نحو الجبهة البيزنطية مدعومة بالفيلة المقاتلة، مما أشاع الفزع لدى الجيش البيزنطي، الذي رفع الحصار عن المدينة، وأحرقوا الأبراج الخشبية، خشية استخدامها من قبل الجيش الساساني، وطلبوا عقد صلح جديد بين الدولتين (53).

لكن الظروف الداخلية لكلا الدولتين لم تكن جيدة بحيث يحسم النصر لصالح أحدهما، فعقد الصلح بين الطرفين، ونصت الهدنة على تبادل للأسرى بين الطرفين، ومنح الحرية الدينية للنصارى في الدولة الساسانية في إقامة طقوسهم وشعائرهم الدينية في أراضي الدولة الساسانية، ومنح هذا الحق أيضاً لأتباع الديانة الزرادشية في الأراضي البيزنطية، ومن يدقق في هذا الشرط الأخير يتبين له، أن هذه الهدنة كانت في صالح البيزنطيين ومن خلفهم نصارى إيران والعراق الخاضعين للدولة الساسانية، بينما من المتعذر أن نجد مجوس زرادشت في بيزنطة، ونصت المعاهدة أيضاً على أن مدة المعاهدة 100سنة، مما يدل على كره الدولتين للحرب ورغبتهم بعقد صلح طويل الأمد بين الطرفين.. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى عقد مجمع كنسي آخر للنصارى في إيران بعد الصلح، وتوصل الاساقفة والمطارنة والبطريرك في مجمعهم الكنسي هذا إلى إتخاذ قرار خطير في تاريخ الكنيسة النصرانية، يتمثل في استقلال الكنيسة العراقية والإيرانية عن الكنيسة الغربية، وأصبح مركز هذه الكنيسة في إيران، وبهذا أبعدت الكنيسة الجديدة التهم التي كان يكيلها رجال الدين الزرادشت والعظماء وبعض الملوك الإيرانيين للنصارى، من كونهم رتلاً أو طابوراً خامساً للدولة البيزنطية. اذ أن انفصال الكنيسة الإيرانية عن كنيسة بيزنطة أبعد كل الشكوك حول ما كان يعلن ويذاع عن نصارى إيران، من أنهم جواسيس للدولة البيزنطية، ويبدو أن إتخاذ مثل هكذا قرار من الكنيسة الإيرانية، قد جرى بدعم من ملوك إيران الساسانيين على أقل تقدير (54).

وتولى العرش الساساني يزدجرد الثاني Jezdegerd II بن بهرام الخامس في سنة 438م، وفي عهد هذا الملك جرت حرب سببها تهرب البيزنطيين من دفع أتاوة للساسانيين لقاء

حماية الممرات القفقاسية من هجمات قبائل الهون، وكانت الدولة البيزنطية عندما تشعر بقوتها تمتنع عن دفع هذه الأموال، كما قام البيزنطيين ببناء بعض القلاع والحصون قرب مدينة نسيبيس فجرت الحرب بين الطرفين سنة 442م وتولى قيادة الجيش الساساني رئيس الوزراء مهر نرسي، الذي خسر الحرب في المرة السابقة، وكانت ظروف الدولة البيزنطية على حدودها الشمالية غير مواتية لسحب القوات من تلك المناطق، فاضطر الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني إلى طلب الصلح، وأرسل قائدة في الجبهة الشرقية (أيتوس) سنة 442م إلى معسكر الملك الساساني يزدجرد الثاني طالباً الصلح فوافقت عليه الدولة الساسانية، ونصت شروط الصلح الجديد على مايأتي:

1- تعهد الجانب البيزنطي بدفع تكاليف حماية حدود الدولتين (الممرات القفقاسية).
2- امتناع الدولتين عن بناء أية تحصينات عسكرية على الحدود .
3- مدة المعاهدة 60سنة (55).

ولم تغير هذه المعاهدة من حقيقة الأوضاع السابقة لتلك المعاهدات بين الدولة الساسانية والدولة البيزنطية، أما عن سياسة يزدجرد الثاني مع رعاياه من النصارى، فقد كان عطوفاً عليهم في السبعة سنوات من حكمه الأولى، حسبما أشارت المصادر النصرانية إلى ذلك، ووصفته بالملك الرحيم العطوف على رعاياه من النصارى، لكنه غير موقفه منهم في السنة الثامنة من حكمه، وهذا يدعونا إلى التساؤل عن أسباب هذا التغيير، هل جاء بضغط من رجال الدين الزرادشتتين، الذي لم يتغير موقفهم العدائي من الديانة النصرانية ومعتنقيها من داخل الدولة الساسانية، أو ممن هاجر إليها هرباً من ضغط الدولة البيزنطية، بعد المجامع التي عقدت في الدولة البيزنطية، وكفرت البعض من أتباع الديانة النصرانية، أو كان للموقف الخارجي، مثل علاقات الدولة الساسانية مع الدولة البيزنطية، أو ما كان يجري من أحداث داخل أرمينية (56)

ويبدو أن السببين معاً كانا وراء ذلك الاضطهاد الذي تعرض له النصارى، فقد عرف عن هذا الملك تمسكه بالديانة الزرادشتية، فقد تزوج من ابنته، ويبدو أنها قد تنصرت، بتأثير الرهبان الذين زاروها في مرضها، وعرضوا عليها الدخول في النصرانية، فقبلت بهذا العرض، ولربما تأثر بهذا الدخول في النصرانية بعض من حاشيتها ووصائفها، فعلم الملك الساساني بدخول زوجته (أخته لأن الديانة الزرادشتية لا تحرم زواج الأقارب من الدرجة

الأولى أو المحارم من الطبقات العليا) فقتلها، ولم يقف الاضطهاد عند النصارى فقط، بل شمل اليهود أيضاً، فحرم عليهم عيد يوم السبت في سنتي 454- 455م، (الذي لايعملون فيه أي شيء)، كما ذاق نصارى أرمينية (المنطقة أو القسم التابع لإيران حسب اتفاق الصلح بين الدولة البيزنطية والدولة الساسانية) الأمرين على يد هذا الملك الساساني (57)

وأصبح الدين الزرادشتي الدين الرسمي للدولة الساسانية حتى سنة 484م (58) وخيم على العلاقات السياسية بين الدولتين الساسانية والبيزنطية جو من الصفاء والسكون خلال المدة التي أعقبت وفاة الملك يزدجرد الثاني سنة 457م حتى عهد الملك قباذ الأول Kobad I (488- 513م)، ولم تعد الدولتين تشكل خطراً على الأخرى، إذ إتجه هم كل منهما إلى تثبيت كيانها داخلياً وخارجياً، فسقطت روما بيد القبائل الجرمانية عام 476م (59).

ولم تكن الدولة الساسانية بأحسن حالاً من الدولة البيزنطية، فبعد وفاة الملك الساساني يزدجرد الثاني حدث صراع على العرش بين ولديه هرمزد الثالث Harmizd III (457- 459م) الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه، وأخيه فيروز Firuz حسمت لصالح الأخير (60).

تولى فيروز العرش الساساني بعد صراعات مريرة ودامية، سنة 459- 484م، وواجه سبعة سنوات من القحط الشديد، وانقلب عليه الهياطلة فضعفت قوته العسكرية ((61، وكانت بيزنطة تشهد في هذه الفترة صراعاً مذهبياً مريراً وجدلاً في المسائل الأصولية في الديانة النصرانية، وخلافهم هو في طبيعة السيد المسيح (، وكان لهذا الانقسام خطره في الكنيسة النصرانية، كما انعكس أثره على نصارى إيران وكنيستهم التي دخلت أيضاً في خضم هذا الصراع المذهبي الذي اشتد أثره بين النساطرة وخصومهم المنوفست (اليعاقبة) حول طبيعة السيد المسيح (62)

وقد حاول فيروز في أوائل عهده الاستعانة بالبيزنطيين، وطلب من امبراطورهم المال لدعم حملته الحربية على الكداريين، لكن حملته فشلت وانتهت به إلى الأسر في المرة الأولى في سنة 469م والى القتل في المرة الثانية في سنة 484م (63).

واصبحت الدولة الساسانية خاضعة للهياطلة لمدة نصف قرن في عهد خلفاء فيروز الثلاثة (64)، وبعد موت فيروز تولى العرش الساساني الملك بلاش أخا فيروز الذي وصفته المصادر النصرانية بالملك الطيب الذي جاء لإسعاد رعيته، وحصل في عهده النصارى على ما يريدونه من حرية دينية تحت حماية الدولة الساسانية، كما ابتعدت الكنيسة الإيرانية في

عهد فيروز وخليفته من بعده قباذ بن فيروز، عن الكنيسة الغربية، واستقرت الكنيسة الإيرانية على المذهب النسطوري المخالف لمذهب اليعاقبة (65)

وفي عهد قباذ بن فيروز زادت مشاكل إيران، إذ تولى قباذ العرش بمساعدة الهياطلة ضد عمه بلاش، كما طلب الملك قباذ من الإمبراطور البيزنطي إعانة مالية، تأخر في دفعها البيزنطيين، لقاء حماية إيران للممرات في بلاد الخزر، وكان هذا ما دفع قباذ إلى تجهيز حملة عسكرية قوية، توجهت نحو الدولة البيزنطية، فاجتاح بلاد الجزيرة الفراتية، وفتح مدينة آمد، فحصل منها على غنائم كثيرة، لكنه أجبر على عقد صلح مع البيزنطيين بسبب ثورات داخلية قامت بها قبائل الهون الذين هددوا الحدود الشمالية للدولة الساسانية (66)

وبعد عشر سنوات من حكم قباذ تآمر-عليه العظماء فعزلوه وسجنوه (67)، وعينوا أخاه جاماسب (496- 498أو 499م)، ثم هرب قباذ إلى الهياطلة مرة ثانية، واستعاد عرشه، لقاء زيادة الضريبة للهياطلة (68)

لم يكن في خزينة الدولة ما يكفي لمصاريفها ورواتب جندها وموظفيها، فقد جاءت الحجة بيد قباذ لنقض الصلح مع البيزنطيين، فطالب قباذ البيزنطيين، بدفع مستحقات الدولة الساسانية حسب المعاهدة المبرمة بين الطرفين، فارسل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي أنستاسيوس الأول Anastassius I (491-518م) بدفع 500 قنطار من الذهب (ديون متراكمة منذ عقد الاتفاقية بين الطرفين)، لتنفقها الدولة على الجند وتعمير الحصون المطلة على الممرات القفقاسية، فامتنعت الدولة البيزنطية من دفع هذه الأموال للساسانيين من سنة 457- 502 أي من وفاة الملك يزدجرد الثاني والى هذا الوقت، فتجددت الحرب بين الطرفين، وقد كانت الدولة الساسانية في وضع لاتحسد عليه فالصراع بين الاخوة بعد وفاة يزدجرد الثاني والصراع مع الهياطلة، جعل موقف الدولة الساسانية في وضع لايمكن أن تتخذ فيه أي موقف حازم تجاه الدولة البيزنطية (69)، وكانت أرمينية هي الضحية، ثم جرت الحرب (70).

واضطرت الدولتين لطلب الصلح الذي عقد في عام 506م والذي نص على مايأتي:

1- ترك مدينة آميدا للبيزنطيين مقابل دفع 1000ذهب للساسانيين.

2- مدة الصلح 7سنوات .

3- تلتزم بيزطة بدفع الجزية للساسانيين مقابل حماية الأخيرة لممرات القفقاس (71).

وقد مكنت هذه المعاهدة الساسانيين من التفرغ للهياطلة وتنظيم شؤون دولتهم (72)

أما البيزنطيين فقووا حدودهم الشرقية وبنوا حصوناً ومدناً عدة منها أنستاسيوبوليس Anastassiu Polisأي مدينة أنستاسيوس وسماها الساسانيين داراز Daraz أو دارا Dara لأنها بنيت في المكان الذي قتل فيه الملك داريوس (73)، وحصنوا الكثير من المواقع البيزنطية في منطقة آسيا الصغرى والجزيرة الفراتية والمناطق الخاضعة لنفوذهم في أرمينية (74).

وبعد أن انتهت معاهدة الصلح بين الدولتين الساسانية والبيزنطية في عام 506م، اجتمعت عدة عوامل على بدء الحرب، فقد توفي الإمبراطور البيزنطي أنستاسيوس الأول سنة 518م، وتولى الدولة البيزنطية الإمبراطور جستين الأول Justin I (527-518م)، والذي تلكأ في دفع المبالغ المقررة لحماية الممرات القفقاسية وفق الاتفاق بين الطرفين (75)

وتشير المصادر إلى أن قباذ الأول حرض المنذر الثالث ملك المناذرة على غزو أراضي الدولة البيزنطية فهاجم في سنة 519م مناطق ايميسا وابامية أو أفامية Apamea، وإن المنذر الثالث لم تتقطع غاراته عن أراضي الدولة البيزنطية لمدة خمسين سنة،، وقد أتعبت غارات المنذر الثالث، فرق الحدود البيزنطية، لأنه يغير في كل مرة على منطقة غير التي هاجمها في المرة السابقة، كما أثار الرعب في نفوس سكان المناطق الحدودية، بحيث تركت القوات البيزنطية في حالة توتر وانذار شبه دائم ((أنه أنهك قوى بيزنطة وداس أنفها في الوحل خلال خمسين عام)) (76).

كما لعب التغيير الذي حدث في الدولة الساسانية دوره في تحسين وضع الدولة الساسانية، ألا وهو التغيير الذي حدث بانقلاب الملك على المزدكية، فحسن هذا من موقفه الداخلي ومن بينها محاولة الملك قباذ الأول لتصيب ابنه خسرو Khusraw I (كسرى أنو شروان) في عام 519م (77).

وقد طلب الملك قباذ من الإمبراطور البيزنطي أن يتبنى ابنه كسرى، وبعث له برسالة جاء فيها: ((أريد منك طلب، موافقتك عليه لاتكون سبباً في حفظ علاقات الصداقة بيني وبينك فحسب، وإنما في ظله تنعم الدولتان بالصلح والهدوء، وطلبي هو أن توافق على تبني ابني خسرو)) (78)

ويشير هذا التصرف من قبل الملك قباذ الأول، إلى قيام الإمبراطور البيزنطي جستين الأول، بالتزام قضية كسرى ضد منافسيه المطالبين بالعرش، وكاد الإمبراطور البيزنطي جستين الأول أن يوافق على طلب الملك قباذ الأول، لولا معارضة مستشاره بروكلوس Proclus الذي أقنعه بأن قبوله لذلك التبني، يعني تسليم الدولة البيزنطية للساسانيين على طبق من ذهب، والذين طالما ألبسوا حيلهم ومكرهم لباس الصداقة، وبما أن القانون البيزنطي يشير إلى أن الأبناء يرثون الآباء، فان الغاية من ذلك هو أن يصبح كسرى ولياً للعهد الساساني ووريثاً للامبراطور البيزنطي، واقترح علية قبول عرض الملك الساساني قباذ بشرط أن يتم التبني وفق الطريقة البربرية لا بوثيقة مكتوبة، فكتب الإمبراطور البيزنطي إلى الملك قباذ رسالة جاء فيها: ((لامانع لدي من أن أتخذ خسرو ولداً بشرط أن أربيه تربية تليق بالبرابرة)) (79)

وأخذ يستعد للحرب، واحتج برغبة الدولة البيزنطية السيطرة على الممرات القفقاسية، فضلاً عن السيطرة على شواطئ البحر الأسود. وقامت الدولة البيزنطية بالهجوم على ممتلكات الساسانيين في أرمينية وبلاد الجزيرة الفراتية في سنة 527م (نيسيبيس) (80).

ثم توفي الإمبراطور البيزنطي جستين الأول في الأول من آب من سنة 527م، وتولى العرش البيزنطي جستيان الأول Justinian I(527 –565م) الذي بدأ عهده بالمواصلة الحرب مع الساسانيين، فاوعز إلى القائد بليزاريوس ببناء قلعة حصينة في ميندوس Mindouss قرب الحدود الساسانية، وقد عارضت القوات الساسانية المتواجدة في المنطقة من بناء هذا الحصن وعدوه خرقاً للمعاهدة بين الطرفين، فجرت معركة عسكرية في سنة 528م، حيث هدم الساسانيين القلعة من أساسها وانتصروا على الجيش البيزنطي (81).

ويبدو أن نجاح الساسانيين في هدم قلعة ميندوس شجعهم على القيام بعمل مماثل تجاه مدينة دارا، فأرسلوا مهددين بالاستيلاء عليها، فلما سمع الإمبراطور جستيان بذلك، قام بتعيين بليزاريوس قائداً عاماً للجيش البيزنطي في المشرق، وأوكل إليه مهمة الدفاع عن مدينة دارا، وقد أعد القائد البيزنطي خطة دفاع عى شكل حلقات كل فرقة تشكل خط دفاع عن المدينة، وحفر خندقاً عميقاً حول المدينة، فإذا تراجعت فرقة أو سقطت أماكنها، تقدمت الفرقة التي تليها لتحل محلها، ثم وصلت الجيوش الساسانية إلى مدينة دارا بقيادة فيروز مهران، وعسكرت في منطقة أموديوس Amodius التي تقع بالقرب من مدينة دارا، وقبل

بدء المعركة تبادل الجانبين؛ الرسائل والخطابات، التي تبين فيها موقفه من الحرب، وأن النصر سيكون حليفه، ثم جرت معركة عنيفة جداً، في تموز 530م، تأذى بها البيزنطيين بسبب السهام، ثم أصبح القتال بالسلاح الأبيض، ودافع البيزنطيون دفاعاً مستميتاً عن مدينة دارا، إلى أن كتب لهم النصر (82).

ثم أخذت القوات البيزنطية تلاحق الجيش الساساني في السنة التالية في أرمينية، وخسر الجيش الساساني مواقعه في الجزيرة الفراتية (83)، وعلى الرغم من انتصار البيزنطيين، فقد عرضوا الصلح على الساسانيين، إلا أن الساسانيين رفضوا أكثر من عرض للصلح تقدم به البيزنطيون، وظلت الحرب سجالاً حتى سنة 532م، إذ تولى الحكم من بعده كسرى الأول (كسرى أنو شروان) 531- 579م الذي ضبط أمور البلاد، وكانت هنالك معاهدة مبرمة مع الجانب البيزنطي، وهي السنة الثانية من حكم كسرى أنو شروان، لكن هذا الصلح كان هشاً، ويمكن لأي طرف القيام بنقضه، وكان شبح الحرب متوقعاً في أي وقت. فطلب الملك الساساني كسرى أنو شروان تجديد المعاهدة، فسرّ الإمبراطور جستنيان بهذا العرض، ونصت المعاهدة على مايلي:

1- يدفع البيزنطيون سنوياً 11 ألف قنطار من الذهب إلى الساسانيين.

2- تكون دار تابعة للبيزنطين وتكون منزوعة السلاح.

3- ابقاء ايبريا ولازيكا تحت السيادة الساسانية.

4- إعادة قلعتي بولوم وفراانجيوم إلى الساسانيين.

يتعاون الطرفان في حماية الممرات القفقاسية.

وتم التوقيع على هذه المعاهدة في سنة 532م. ومن سنة 532م إلى 540م تفرغت الدولتان إلى إصلاح أوضاعهما الداخلية، ولم تقم الدولة البيزنطية بنقض الصلح على الرغم من ثقل تلك المعاهدة (معاهدة 532م)، على البيزنطيين من الناحية المالية، فقد اعتقد البيزنطيين أن دفع المال للساسانيين، أفضل من الحرب، وما داموا قد أحتفظوا ببعض المناطق، كما أن هنالك هموماً مشتركة بين الجانبين وهو الممرات القفقاسية، الا أن الملك الساساني كسرى أنو شروان أراد نقض ذلك الصلح بعد أن أمن الداخل، فليتفرغ لحرب البيزنطيين، متذرعاً بعدة حجج، والذي يريد الحرب يتذرع دائماً بأية حجة.

وقد كتب الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول يعلمه بأنه يعرف بنوايا الملك الساساني كسرى أنو شروان كتب اليه: ((إن نقض الصلح ووطأة ميدان الحرب ليس بالعمل السهل، ويجب أن تعلم أنه بعد بدء الحرب من الصعب إعادة الصلح، إنك تدينني على مكاتبات دونت من دون سوء نية، مفسراً إياها كما يروق لك، من دون أن تفهم القصد الحقيقي من كتابتها، حتى تجد ذريعة لبدء الحرب، ولكن مقابل تلك الاتهامات التي لا أساس لها نستطيع نحن أن ندعي أن المنذر التابع لك والمعين من قبلك قد هاجم على أراضينا في زمن استتاب السلم بيننا، وارتكب أقبح الأعمال، فاستولى على مدننا وسلب ونهب ممتلكات كثيرة، وأسر من الناس بقدر ما قتل، وإن عليكم والحال هذه أن تعتذروا لا أن تدينوا. .. أعلم أن نقض المعاهدة وصمة عار لاتناسب الرجال العاديين، فكيف يناسبك، وأنت من الملوك والحكام العظماء)) (84)، ولم يجب كسرى على رسالة جستنيان، بل حبس الرسل.

وكانت هنالك خصومات ونزاعات مستمرة بين المناذرة (عرب الحيرة) وبين الغساسنة (عرب بصرى)، وكان المناذرة في حلف دائم مع الساسانيين، يقدمون الدعم لهم ويطلبون الدعم منهم (85)، وكذلك كان المناذرة، وكلاهما عرب المناذرة من لخم والغساسنة من غسان، وكلاهما قبائل عربية، لكن المصلحة قد تدفع بالأخ إلى محاربة أخيه، وهكذا الأمر بين المناذرة والغساسنة، فتندفع الدولتين في صراع أججه المناذرة أو الغساسنة، فقام كسرى أنو شروان بخرق الاتفاقية، بسبب الخصومات بين المناذرة والغساسنة، وأن الغساسنة هم الذين اعتدوا على المناذرة، فقاد جيشاً عبر به نهر دجلة وتوجه صوب مدينة الرها، واستولى عليها في سنة 540م، واستولى على مدن منبج وحلب وأنطاكية، وكانت أنطاكية من أغنى مدن الشام، فاستولى على كنوزها وثرواتها وسبى أهلها، وأسكنهم في مدينة بناها لأجلهم سماها رومية قرب المدائن، ودامت الحروب سنوات عدة، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين، حتى اقتنع الطرفان في سنة 545م بعقد الصلح، إلا أن القتال تجدد بين الدولتين، بسبب أن كسرى حاول إخضاع اللازيين في القوقاز، وهم نصارى، لكن هذه المحاولة كانت عقيمة، ولم يكتب لها النجاح بسبب تدخل البيزنطيين ودعمهم للازيين، ثم تمّ التوصل إلى عقد صلح دائم مع البيزنطيين في سنة 562م، وعلى جميع الجبهات ولمدة خمسة سنين

1- التخلي عن لازيكا للبيزنطيين مقابل دفعهم 30الف قطعة ذهبية سنوياً للساسانيين على أن يدفع منها جزية سبع سنوات مقدماً تليها أي في السنة الثامنة جزية ثلاث سنوات مقدماً أيضاً وبدءاً من السنة العشرة يكون الدفع سنوياً.

2- يحترم الساسانيون الحقوق الدينية لرعاياهم من المسيحيين فيرفعوا عنهم الاضطهاد مقابل امتناع هؤلاء عن التبشير بالمسيحية في الأراضي الساسانية.

3- لا يسمح الساسانيون للقبائل الاسيوية من الهون واللان وغيرهم من التوغل في الإمبراطورية البيزنطية عبر الممرات القفقاسية، ويمتنع البيزنطيون من ارسال الجيوش إلى تلك الجهات أو إلى أية جهة أخرى من الجهات الساسانية.

4- على العرب الموالين لكلا الجانبين الالتزام بشروط المعاهدة، فلا يهاجم المناذرة الأراضي البيزنطية، ولا يهاجم الغساسنة الأراضي الساسانية.

5- على التجار الساسانيين والبيزنطيين المرور عبر المناطق الكمركية المحددة (نيسيبيس وكالينيكوس وارمينيا) مهما كان نوع البضائع التي يحملونها، لمنع التجار البيزنطيين من التجسس في الإمبراطورية الساسانية والقيام بالعمل نفسه في الإمبراطورية البيزنطية.

6- تكريم السفراء والموظفين الذين يستخدمون خيول البريد سواء كانوا من الساسانيين أو البيزنطيين، كل حسب مكانته الرسمية، وحسب المناسبات، وأن ينالوا ما يستحقونه من الاهتمام والعناية، وأن يودعوا بمثل ما استقبلوا به من تكريم، مع إعفاء ما يحملونه من سلع من الرسوم الكمركية.

7- يجب ان يمتنع التجار العرب التابعين لكلا الدولتين عن السفر في طرق غير معروفة تجنبا لدفع الرسوم، وعلى كل هؤلاء الذين يتاجرون بين الدولتين اتباع طريق نيسيبيس ودارا، وعليهم عدم دخول الاراضي الساسانية او البيزنطية الا بتصريحات خاصة، وان المخالفين لذلك سوف يلقي القبض عليهم موظفو الحدود ويسلمون إلى السلطات لينالوا العقاب.

8- ان الهاربين من الخدمة العسكرية أثناء الحرب سواء كانوا من الساسانيين ام من البيزنطيين يجب عدم منعهم من الرجوع إلى أوطانم إذا رغبوا في ذلك، أما أولئك الذين يفرون أثناء السلم فيجب تسليمهم بخلاف اردتهم إلى الجهة التي فروا منها.

9- امتناع الجانبين عن اقامة التحصينات على الحدود حتى لا تتخذ ذريعة لتجديد المنازعات بينهما.

10- عدم اقامة حامية كبيرة في دارا، ويكتفي بوضع قوة في حدود المعقول لحماية المدينة، ويجب الا يجعل قائد قوات الشرق البيزنطي من دارا قاعدة له، وعلى حاكم

دارا منع الغارات على الحدود الساسانية، والمحافظة على مصالح الرعايا الساسانيين.

11- إذا قام اشخاص غير مسؤولين بالاعتداء على الحدود من أجل السرقة أو ليشعل الخلاف بين الدولتين فيجب على ضباط الحدود من الجانبين القيام بتحقيق شامل، واذا استعصى الأمر على هؤلاء فيجب إحالة الموضوع على قائد قوات الشرق، فإن لم يحل المشكلة في مدة شهر فيجب تعويض المتضرر بمقدار ضعف اضراره، وأن الطرف الذي يقع عليه الضرر يجب أن يتصل بحاكم الدولة الاخرى، فإن لم يتم الضمان الكافي او التعويض المضاعف خلال سنة فان السلام يعد لاغيا.

12- على الشعوب التابعة لكل أمة ألا تهاجم أو تشن حربا ضد شعوب تابعة للطرف الأخر، حتى ينعم الجيع بالسلام.

13- إن الله مع من ينشد السلام وهو على من يحاول تغيير العهود(86).

ثم عقدت معاهدة أخرى في سنة 572م (وهذه السنة التي عقدت فيها المعاهدة تكون عام الفيل أو الذي قبله، وهي السنة التي ولد فيها خير البشر محمد بن عبد الله، وكانت مدة هذه المعاهدة خمسين سنة، وتمّ الاتفاق في هذه المعاهدة على أن يترك كلا الطرفين بلاد الطرف الآخر التي استولى عليها في الحرب، ثم السماح للتجارات أن تمر عبر أراضي الدولتين الساسانية والبيزنطية، وأن يمنح النصارى في الدولة الساسانية الحرية الفكرية في إقامة طقوسهم الدينية، وأن لايسعى كلا الطرفين إلى التبشير بدينه في بلاد الطرف الآخر (87)

وإذ انتهت الحرب مؤقتاً بين الجانبين، لكنها انتقلت إلى مكان آخر ألا وهو اليمن، إذ استولى الفرس بمساعدة أهل اليمن على اليمن وطردوا الاحباش منها بعد حملة أبرهة على مكة المكرمة في عام 570م (88).

وبعد وفاة كسرى أنو شروان تولى ابنه هرمزد الرابع العرش سنة 579م الذي كان بحق أن يطلق عليه كسرى العادل، وعدالته قد فاقت عدالة والده انوشروان، وكان متسامحاً مع الجميع فحقد عليه رجال الدين الزرادشت، لحمايته للنصارى، ومنع رجال الدين الزرادشت من اضطهادهم، وكان هذا التسامح مدعاة لثورة رجال الدين الزرادشت عليه، فعزلوه ثم قتلوه (89).

وعندما تولى العرش الساساني هرمزد الرابع، كانت المفاوضات بين الساسانيين والبيزنطيين جارية على قدم وساق، فعمل الملك الساساني على إفشالها بمطالبه من الدولة البيزنطية، وذلك بسبب أن البيزنطيين كانوا هم المنتصرين في هذه الحرب (معركة سنجار) (90).

كما وأن بنود الصلح ستكون في غير صالح الساسانيين، وذلك لانتصار البيزنطيين على والده في معركة سنجار، ثم تجددت تلك المفاوضات من غير طائل في سنة 581م، ثم استؤنفت الحرب بين الطرفين، لكن الارستقراطية ورجال الدين والقادة العسكريين لم يرضوا بهرمزد الرابع فعزلوه وسملوا عينيه وقتلوه، وولوا ابنه كسرى أبرويز الحكم، في سنة 590م (91)، أو 591م.

لقد عمل الإمبراطور البيزنطي موريس (موريق) على مناصرة كسرى أبرويز، لمعيشة هذا الأخير فترة من الزمن في الدولة البيزنطية وتأثره بالمعتقدات والخرافات السائدة في بيزنطة في ذلك الوقت. وقد طلب موريس من كسرى لقاء العون العسكري والمادي التنازل عن مدينتي دار وميافارقين التي كان البيزنطيين قد استولوا عليها في أحد المعارك، ويبدو أنه وافق على طلب الإمبراطور أو ظل يتماهل في توقيع اتفاقية بين الطرفين، ولكن مقتل الإمبراطور البيزنطي موريس أجج الموقف حدة، وعد الملك كسرى أبرويز مقتل الإمبراطور البيزنطي موريس، ذريعة لإلغاء كل الاتفاقات والمعاهدات، لابل عده الصديق الحميم لكسرى والإمبراطورية البيزنطية، فبدأت حرب جديدة، فاستولى القادة الفرس على مناطق في آسيا الصغرى (بلاد الأناضول) وبلاد الشام، فتم استيلاء الجيش الساساني على عدد من المدن الهامة مثل دمشق بيت المقدس الاسكندرية الرها أنطاكية، ثم استولى الجيش الساساني على كالسدون قبالة القسطنطينية، ثم ضرب الحصار على القسطنطينية، لكن الجيش الساساني لم يمتلك من العدد الحربية ومعدات البحر لغزو القسطنطينية، وعبور مضيق البسفور (92). أزاء هذا التطور الخطير في العلاقة الحربية بين الدولتين برز الإمبراطور هرقل، وأوقف الهجوم الساساني واستعاد آسيا الصغرى من الساسانيين، وطرد جيوش الساسانيين من أرمينية وأذربيجان، واستولى سنة 623و624م على مدينة جازك، حيث ضرب بيت نار آذر كشتاسب، فهرب منه كسرى حاملاً النار المقدسة (93).

وفي السنوات التالية، استولى الخزر على الدويند (باب الأبواب) وتحالفوا مع الإمبراطور البيزنطي هرقل، ثم غزا هرقل وادي نهر دجلة واستولى سنة 628م على قصر الملك الساساني في (دستكرد) (94).

واستعد لحصار المدائن، فهرب كسرى أبرويز، وعرض الصلح على الإمبراطور البيزنطي، وتفاوض أحد ابناؤه مع الإمبراطور البيزنطي على عقد الصلح المهين مع الإمبراطور المنتصر هرقل (95).

وبهذا انتهت آخر مرحلة من مراحل الصراع الساساني البيزنطي، لتبدأ بعدها حقبة تحرير العراق وبلاد الشام من أراضي الدولتين الساسانية والبيزنطية، والتي دفع العرب الموجودين في أراضي كلتا الدولتين ثمنها باهضاً لها، أثناء الصراع العسكري الساساني البيزنطي ومن قبله الفرثي الروماني (96).

الهوامش

(1) سنتناولها في فصل خاص إن شاء الله، أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت دار المكشوف 1955م ص 75؛ نعيم فرح: تاريخ بيزنطة منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن للميلاد، دمشق 1978م1/41؛ عمر كما توفيق: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعارف، القاهرة 1967م ص24. ؛ عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1966م 1/119؛ الموسوي: العلاقات ص 104.

(2) أدي شير: تاريخ كلدو وآشور، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1912م 2/65؛ الأب البير ابون: تاريخ الكنيسة الشرقية من انتشار المسيحية حتى مجيء الإسلام، الموصل المطبعة العصرية، 1973م /1 37– 38؛ الموسوي: العلاقات ص 105.

(3) الطبري: تاريخ 1/400؛ الموسوي: العلاقات ص 105.

(4) أبونا: تاريخ الكنيسة 1/37؛ بطرس نصري الكلداني: ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، الموصل، مطبعة الآباء الدومنيكان، 1905م 1/77.

(5) تشارلزورث. م.ب: الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبدة جرجيس، مراجعة محمد صقر خفاجة، القاهرة، دار الفكر العربي 1961م.ص216؛ أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة طه بدر، القاهرة، مطبعة الفكر العربي، 1953م، ص 26؛ الموسوي: العلاقات ص 106.

(6) رستم: الروم ص 74؛ الموسوي: العلاقات ص 106.

(7) ادوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو درة، مراجعة أحمد نجيب هاشم، مطبعة الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة، 1969م،1/553؛ الموسوي: العلاقات ص 107.

(8) الموسوي: العلاقات ص 107.

(9) الموسوي: العلاقات ص 107؛ نقلاً عن سايكس: تاريخ إيران 1565.

(10) الموسوي: العلاقات ص 108.

(11) نهر من بقايا نهر سكير العباس الواقع على نهر الهرماس قرب ملتقاه بنهر الخابور، لسترانج: بلدان ص 127، 128هامش ((33؛ الموسوي: العلاقات ص 108)).

(12) مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمه عن السريانية مار غريغور لويس صليبا شمعون، حلب، دار ماردين للطباعة 1966م 1/193– 194؛ الموسوي: العلاقات ص 108.

(13) جيبون: اضمحلال 1/553؛ نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسيم مؤنس ومحمود يوسف زايد، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ص41؛ ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزير توفيق جاويد، مراجعة زكي علي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة

1961م ص26؛ الموسوي: العلاقات ص 109.

(14) سايكس: تاريخ إيران 1/568؛ كرستنسن: إيران ص226؛ الموسوي: العلاقات ص 111.

(15) كرستنسن: إيران ص 226.

(16) كرستنسن: إيران ص 227؛ مفيد رائف محمود العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية (عصر الاكاسرة 226- 651م)، دار الفكر المعاصر، دمشق دار الفكر 1999م ص48- 49. ؛ الموسوي: العلاقات ص 111، ولو أنها اوردتها بصيغة أخرى لكنني آثرت النقل عن كرستنسن.

(17) سيتن لويد: الرافدان، ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس، القاهرة 1948م ص 166؛ كرستنسن: إيران ص 229- 233؛ الموسوي: العلاقات ص 112.

(18) لويد: الرافدان ص 167.

(19) ياقوت الحموي: معجم البلدان 1/311؛ رستم: الروم 1/76، فرح: تاريخ بيزنطة 1/41الموسوي: العلاقات ص 113.

(20) رستم: الروم 1/76؛ فرح: تاريخ بيزنطة 1/41؛ سعيد عبد الفتاح عاشور أوربا العصور الوسطى مكطتبة الانجلو المصرية 1983م 1/60؛ الموسوي: العلاقات ص 113.

(21) رستم: الروم 1/83؛ الموسوي: العلاقات ص 113.

(22) رستم: الروم 1/84.

(23) رستم: الروم 1/84؛ الموسوي: العلاقات ص 113.

(24) لويد: الرافدان ص 168؛ الموسوي: العلاقات ص 114.

(25) رستم: الروم 1/85.

(26) لويد: الرافدان ص169.

(27) الموسوي: العلاقات ص 115.

(28) الطبري: تاريخ 1/400؛ ابن مسكوية: تجارب 1/111؛ ابن الأثير ك الكامل 1/254؛ الموسوي: العلاقات ص 115.

(29) الموسوي: العلاقات ص 116.

(30) الموسوي: العلاقات ص 117- 121.

(31) الموسوي: العلاقات ص 121- 124.

(32) الطبري: تاريخ 1/404؛ الموسوي: العلاقات ص 124.

(33) الطبري: تاريخ 1/401؛ علي: المفصل 2/643؛ الموسوي: العلاقات ص 126.

(34) علي: المفصل 2/643؛ الموسوي: العلاقات ص 126- 127.

(35) الموسوي: العلاقات ص 127.

(36) أبو الفدا: تقويم البلدان ص294؛ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع 1/207؛ الموسوي: العلاقات ص 127- 128.

(37)جرت المعركة على تلال حمرين قرب مدينة مرنكس Maranx الواقعة على المشارف الغربية لهذه الجبال. الموسوي: العلاقات ص 129.

(38)سالم الآلوسي: اكتشاف مهم في تلول العبرة الصغيرة، مجلة سومر، بغداد 1954م، مجلد 10، 1/147؛ الموسوي: العلاقات ص 130.

(39) كرستنسن: إيران ص 227. ؛ الموسوي: العلاقات ص 131.

(40) الحديثي: دراسات ص 85؛ كرستنسن: إيران ص 229؛ باقر: إيران ص 131.

(41) كرستنسن: إيران ص 227- 228.

(42) كرستنسن: إيران ص 229. ؛ الحديثي: دراسات ص 84.

(43)

(44) نصير عبد الحسين صبار الكعبي: التاريخ السياسي للدولة الساسانية في المصنفات العربية الإسلامية حتى نهاية القرنالخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الكوفة 2002م ص87؛ الموسوي: العلاقات ص 138.

(45) باقر: إيران ص،113، 132؛ الحديثي: دراسات ص 86.

(46) باقر: إيران ص 113؛ كرستنسن: إيران ص 258؛ الحديثي: دراسات ص 86.

(47) الطبري ر: تاريخ /؟؛ كرستنسن: إيران ص 258؛ الحديثي: دراسات ص 86.

(48) كرستنسن: إيران ص 258- 259؛ الموسوي: العلاقات ص 140.

(49) كرستنسن: إيران ص 259؛ باقر: إيران ص 133؛ الحديثي: دراسات ص 87.

(50) كرستنسن: إيران ص 266- 267؛ تاريخ كلدو 2/111؛ الموسوي: العلاقات ص 142.

(51) الطبري: تاريخ 1/412؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، عني بتصحيحه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة 1938م ص 158؛ نينا بيغوليفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت 1985 ص89؛ علي: المفصل 3/159؛ الملاح: الوسيط ص213.

(52) بيغوليفسكيا: العرب ص90؛ غوستاف روتشتاين: تاريخ السلالة اللخمية، ترجمة منذر البكر، مجلة كلية الآداب جامعة البصرة 1984م ص245؛ علي: المفصل 3/208؛ الموسوي: العلاقات ص 144.

(53)كرستنسن: إيران ص 267؛ الموسوي: العلاقات ص 144.

(54) باقر: إيران ص 134؛ كرستنسن: إيران ص226؛ الحديثي: دراسات ص 89.

(55) الموسوي: العلاقات ص 146.

(56) كرستنسن: إيران ص 268؛ باقر: إيران ص 135؛ الحديثي: دراسات ص 90.

(57) كرستنسن: إيران ص 268؛ باقر: إيران ص 135؛ الحديثي: دراسات ص 90.

(58) في ارمينيا، الموسوي: العلاقات ص 147.

(59) رستم: الروم 1/140.

(60) الدينوري: الأخبار الطوال ص61؛ الطبري: تاريخ 1/413؛ ابن البطريق: التاريخ المجموع 1/ 183- 184؛ ابن مسكويه: تجارب 1/120؛ الموسوي: العلاقات ص 148.

(61) الموسوي: العلاقات ص148.

(62) كرستنسن: إيران ص 277؛ باقر: إيران ص 136؛ الحديثي: دراسات ص 91.

(63) كرستنسن: إيران ص ص2780279؛ الحديثي: دراسات ص 92؛ باقر: إيران ص136.

(64) ابن البطريق: التاريخ المجموع 1/188- 190؛ العابد: معالم الدولة الساسانية ص55؛ كرستنسن: إيران ص 280؛ الموسوي: العلاقات ص 149.

(65) الحديثي: دراسات ص 93.

(66) باقر: إيران ص 141؛ كرستنسن: إيران ص 224؛ الحديثي: دراسات ص 94.

(67) حسين الطوسي: سياسة نامة، ترجمة يوسف حسين بكار، بيروت دار القدس ص214- 228؛ الموسوي: العلاقات ص 150- 151.

(68) الطبري: تاريخ 1/419؛ ابن الأثير: الكامل 1/266؛ كرستنسن: إيران ص 336؛ الموسوي: العلاقات ص 151.

(69) بيغوليفسكيا: العرب ص 101؛ الموسوي: العلاقات ص 152.

(70) الفصل 12. مخصص للعلاقة مع أرمينية

(71) رستم: الروم 1/137؛ الموسوي: العلاقات ص 156.

(72) الموسوي: العلاقات ص 156.

(73) مار ميخائيل: تاريخ 2/38؛ الموسوي: العلاقات ص 156.

(74) الموسوي: العلاقات ص 157.

(75) الموسوي: العلاقات ص 156.

(76) بيغوليفسكيا: العرب ص 106،101؛ الموسوي: العلاقات ص 157.

(77) كرستنسن: إيران ص 338.

(78) الموسوي: العلاقات ص 158.

(79) الموسوي: العلاقات ص 159.

(80) الموسوي: العلاقات ص 161.

(81) الموسوي: العلاقات ص 162.

(82) بيغوليفيسكيا: العرب ص110؛ الموسوي: العلاقات ص 163.

(83) الموسوي: العلاقات ص 164.

(84) بيغوايفيسكيا: العرب ص117؛ الموسوي: العلاقات ص 199- 200.

(85) سنتناول هذا الموضوع بالتفصيل عند الحديث عن العلاقة بين الساسانيين وعرب الجزيرة في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

(86) Bury History of the Later Roman,Vol. 2,pp. 121 - 122اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، ص64- 66؛ العلان، السياسة الساسانية، ص 117-118.

(87) كرستنسن: إيران ص 357- 358؛ باقر: إيران ص 145- 146؛ الحديثي: دراسات ص 102- 103.

(88) الطبري: تاريخ /؟؛ كرستنسن: إيران ص 358؛ علي: المفصل 3/211؛ الحديثي: دراسات ص 103.

(89) باقر: إيران ص 153؛ الحديثي: دراسات ص 108.

(90) كثر الحديث عن معارك سنجار، وحقيقة الأمر أن سهل سنجار كان أفضل موقع حربي لجيشين متحاربين، فأرضه مكشوفة وتتيح للمهاجم والمدافع من استغلال ثناياها ووديانها وجبالها للقتال والمناورة، وهذه المدينة فيها قلعة رومانية، ولاتزال بعض بقاياها قائمة إلى الوقت الحاضر وخاصة في قلعة سنجار (المؤلف) وقد أخذت طلبة قسم التاريخ في إحدى سنوات الخير لزيارتها وزيارة القلعة التاريخية الرومانية في تلعفر أيضاً.

(91) تولى الحكم بعد ثورة بهرام جوبين على والده هرمزد الرابع في سنة 590- 591م.

(92) كرستنسن: إيران ص 431؛ الحديثي: دراسات ص 114- 116.

(93)كرستنسن: إيران ص 431؛ الحديثي: دراسات ص 116.

(94) الحديثي: دراسات ص 116.

(95) كرستنسن: إيران ص 474،433؛ باقر: إيران ص 155؛ الحديثي: دراسات ص 116.

(96) للمزيد من التفاصيل الموسوي: العلاقات ص 198- 224، حيث ذكرت الباحثة تفاصيل مطولة عن العلاقات، آثرت أن لاأشير إليها، لمن أراد الاستزادة. وكذلك من ص 223- 272.

10

الفصل العاشر

العلاقة مع العرب وسكان شبه الجزيرة العربية

العلاقة مع العرب:

ارتبط الساسانيون مع العرب والقبائل العربية بصلات وثيقة منذ القدم بحكم الجوار والعلاقات الاقتصادية بين الطرفين، وبحكم أن الفرثيين (الاشكانيين) والساسانيين قد استولوا على أراضٍ يقطنها العرب، ومن هنا نشأت العلاقة بين الطرفين. لقد انتشر الساميون (ومن بينهم العرب)، في المناطق المطلة على ضفتي الخليج العربي، وانطلقت قسم كبير من هذه الهجرات العربية الكلدانية والآرامية والبابلية والآشورية والعربية، صوب بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر، واستوطنوا مناطق مختلفة، وأسسوا دولاً عديدة في هذه المنطقة، حتى جاء قمبيز في عام 539ق.م واسقط الدولة البابلية الحديثة، وقضى على كل ما هو حضاري في بلاد الرافدين، ونقل الأموال والخزائن والعلماء والمدونات والرقم الطينية، إلى بلاد إيران، وحتى مسلة حمورابي لم تسلم من السرقة فوجدت في بلاد عيلام.

ومارست القبائل العربية حياتها الطبيعية من رعي وزراعة وتجارة، وتعلموا لغات الأقوام الحاكمة وتدرجوا في الإدارة والجيش، وتوالت الدول على حكمهم ومنهم الفرثيون الارشاقيين (Arsasids)، أو الاشغانيين، وهذه الدولة كما تناولناها ظهرت في حدود 250-247ق.م في بلاد إيران، وانتزعت السلطة من يد السلوقيين خلفاء الاسكندر المقدوني، وبنى ملوكها عاصمة لهم، قبالة سلوقية الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة، للدولة الجديدة هي طيسفون، وهي رابع عاصمة للدولة الفرثية بعد أشاك وهيكاتومبيلوس وأكبتانا عاصمة الماذيين القديمة، وبسيطرة الفرثيين على المناطق المطلة على الضفة الشرقية للخليج العربي وغرب إيران والعراق، وقعت معظم القبائل العربية القاطنة في هذه المناطق تحت إمرتهم، ومنها بلاد الجزيرة الفراتية (الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات).

وقد توسعت الدولة الفرثية إلى مناطق أبعد بين سنتي 160- 14ق.م، فضمت بلاد ميدية وفارس وبابل، فضلاً عن المناطق الجنوبية في منطقة الابلة قرب البصرة، إذ قامت فيها دولة آرامية تعرف بدولة (كراكينة) وعلى بلاد آشور، كما إن نقل العاصمة إلى طيسفون، له دلالات كثيرة منها رغبة هذه الدولة الجديدة وهي الدولة الفرثية نقل إدارتها إلى أرض العراق، لما له من أهمية بشرية واقتصادية وتجارية، فضلاً عن خبرة سكانه في النشاطات الاقتصادية التي كانت معروفة في ذلك الوقت، والتي تمثل القمة في الصناعة والزراعة

وتربية المواشي، والري وإقامة السدود وكري الأنهار، مقارنة بما كان عليه الفرثيين من قبل، إذ كانوا قبائل رعوية تمتهن الصيد والرعي، ولها خبرة محدودة في القتال (1).

ومن المناطق التي ارتبطت بعلاقة مع الدولة الفرثية من العرب هي مملكة الحضر.

مملكة الحضر: (Hatrra Kingdom)

تقع مدينة الحضر في العراق إلى الجنوب الغربي من مدينة الموصل الحالية، وتقع في منطقة زراعية متميزة، وكانت تعرف باسم (عربايا)، أي بلاد العرب (2)وتقع الحضر في بريّة) أرض مفتوحة وهي ليست صحراء كما وصفتها الموسوي) بازاء تكريت (3)، وتحديداً بين تكريت والموصل من جهة والفرات من جهة أخرى على بعد ثلاثة كيلومترات من مجرى وادي الثرثار الحالي (4).

وكان مجرى وادي الثرثار دائم الجريان وعلى طول أيام السنة، قبل أن تغور مياهه في باطن الأرض، وتشير الروايات المحلية التي يتناقلها الناس جيلاً عن جيل، إلى أن سكان الحضر نقلوا مياه نهر الزاب من فوق نهر دجلة عبر طرق علمية، كما فعل الملك الآشوري سنحاريب في جروانة، عندما عبر ربط نهر الكومل بنهر الخوصر ليغذي المنطقة الشرقية من الموصل حيث العاصمة نينوى، وعندما صعّد نبوخذ نصر المياه نحو الجنائن المعلقة في بابل.

يرجع تأسيس مدينة الحضر تقريباً إلى القرن الأول ق. م، وهذه الفترة هي فترة حرجة جداً، بدأ فيها ضعف الدولة السلوقية، وقيام الدولة الفرثية الفتية، التي لم تسيطر على الوضع في إيران والعراق إلا بحدود سنتي 160- 16ق.م.، وانشغال الفرثيين في صراعات مع الاقوام الشمالية والجنوبية والشرقية التي تجاور دولتهم، في ظل هذا الفراغ السياسي، نشأت مدينة الحضر، ومن يطلع على بقايا مدينة الحضر الحالية (القصر الدواوين بيوت الملك المعابد، الأسوار، التماثيل، الآبار، البوابات، والأبراج) يتبين له عظم هذه المدينة والجهود الفنية التي بذلت في بنائها، والصناعات القائمة في ذلك الوقت، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نتساءل كيف كان الوضع قبل بناء هذه المدينة ؟.

من المرجح أن هذه المدينة بدأت على طرق القوافل، وبنيت أول الأمر باللبن والطين والأحجار المتوفرة في شمال المدينة بالقرب من مدينة سنجار، ولما توفرت الأموال بيد

المتنفذين بنوا الحضر واتخذوها عاصمة لهم، في وسط الجزيرة الفراتية، وتلقب حكامها بلقب ملك، حالهم حال الملوك الذين عاصروهم أو سبقوهم. وقد نمت هذه المدينة وازدهرت في عهد الدولة الفرثية (5)، فكان حاكمها أو ملكها تابع اسمياً للملك الفرثي، وقد قيل أنه كانت له الأولوية على كل ملوك الطوائف في عهده (6)

ويبدو أن هذا التكريم الذي حظي به ملك الحضر، ناتج عن أهمية موقع المدينة وثقلها التجاري والسكاني، ولربما موقفها المساند للفرثيين ضد الرومان، إذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية للبضائع بين الشرق والغرب، والى أهميتها العسكرية في الدفاع عن الدولة الفرثية ضد الرومان من جهة ثانية، وبخاصة بعد استيلاء الرومان على بلاد سوريا في عام 64ق.م، ثم قيامهم بمد نفوذهم على مصر في عهد الإمبراطور أنطونيوس (40- 36ق.م)، وترتب على هذا التوسع الجديد للرومان زوال أهمية دولة أرمينية وبروز أهمية مملكة حدياب التي كانت الحضر تابعة لها (7)

وعندما تولى الإمبراطور تراجان العرش الروماني (98- 117م)، نظم أمور روما وأعد جيشاً قوياً زحف به نحو أراضي آسيا الصغرى، فسيطر على سوريا، ثم أراد التوجه نحو أراضي الدولة الفرثية، على اعتبار أنها من أملاك الاسكندر المقدوني، ففكر في الاستيلاء على طيسفون عاصمة الدولة الفرثية، وبقية مدن العراق الجنوبي، هنا تبلورت فكرة تحصين مدينة الحضر من قبل ملك الحضر والإمبراطور الفرثي، وأن تتكون القوة العسكرية في مدينة الحضر من فرق من الجيش الفرثي، تكون موجودة في الحضر ومقيمة بشكل دائم بالقرب منها في معسكرات خارج المدينة، وفرق عربية يقودها أمراء عرب (8)، وكما قلت قبل قليل، إن تحصينات مدينة الحضر تثير إعجاب الناظر اليها من حيث القوة والمتانة والدقة العسكرية في اختيار مواقع الابراج (9)، وقد مكنها ذلك التحصين المتميز فضلاً عن شجاعة أهلها بقيادة ملكهم نصرو مري 114 (N asru Marya)- 138م من الصمود أمام الحصار الذي فرض على مدينة الحضرمن قبل الإمبراطور الروماني تراجان في سنة 117م، وبعد أن فشل في احتلال وتدمير الحضر، الموقع العسكري الأهم في منطقة الجزيرة، عاد يجر أذيال الخيبة والفشل منسحباً إلى بلاد الشام (10)

وقد وضع أهل الحضر تمثال الإمبراطور الروماني تراجان، أمام أقدام الآلهه في معابد الحضر للسخرية من الإمبراطور، ولتأكيد انتصارهم عليه في حملته لإحتلال مدينتهم العزيزة الحضر (11).

ولم تنفك الإمبراطورية الرومانية وأباطرتها عن التفكير في احتلال مدينة الحضر، على الرغم من أنها لم تشكل خطراً على الرومان، ولكن حسد الرومان لها ولتجارتها والأرباح التي تجنيها الحضر من هذه التجارة، فضلاً عن كثرة سكانها ومهاراتهم في مختلف أنواع الصناعات، جعلت لعاب الأباطرة الرومان يسيل للسيطرة عليها، وأخذ موقعها واستعباد أهلها وفرض الجزية عليهم، فكان أن كرر الحملة على الحضر، الإمبراطور الروماني سبتيميوس سفيروس (193- 211م)، فقاد حملة تجاوز فيها الحضر سالكاً طريق سنجار - تلعفر - الموصل - تكريت - سامراء - منحرفاً إلى طيسفون، فحاصرها وخربها سنة 198م، ثم توجه قاصداً بلاد سوريا، وفي طريق عودته عرج على مدينة الحضر، فحاصرها بسبب أنها كانت تقف إلى جانب الفرثيين أولاً وثانياً، لأنها وقفت إلى جانب خصمه ومنافسه على العرش الروماني حاكم سوريا نايجر (Nigger)، الذي فشل في منافسته على عرش روما، فانسحب إلى نيسيبيس (12).

لكن الإمبراطور الروماني تعجب من صمود الحضر وقوة أهلها الذين طاردوا جيشه المتعب المنسحب عن مدينتهم سنة 198م، فجدد حملته عليها سنة 199م، فحاصرها عشرين يوماً، وكان قد تعلم درساً من حصار العام الماضي، فأكثر من الفعلة في هذه الحملة ومن معدات نقب الأسوار وتمكن من فتح ثغرة في أسوار الحضر، لكن أهل الحضر ردموا هذه الثغرة، التي تقع في سور المدينة الخارجي، وقاوموا الجيش الروماني مقاومة شرسة، وكبدوه خسائر فادحة، اضطر على أثرها لفك الحصار والانسحاب عن مدينة الحضر، بعد أن أنهك الحضريون جيشه (13).

وقد زاد هذا الانتصار الثاني للحضر على الجيش الروماني أثره في زيادة قوة أهل الحضر، وإصرارهم للمحافظة على استقلالهم، وعدم تبعيتهم لأحد، وأخذوا يطلقون على أنفسهم (دي عرب زكيا) أي (العرب المنتصرين)، وتلقب ملكهم عبد سميا (Abd Smya) (190- 200م) بـ (ملكا دي عرب) أي ملك العرب (14)

وإذا كان الرومان قد عجزوا عن فتح مدينة الحضر واحتلالها، لأنها بعيدة عن مراكز تموينهم، ويجب توفير الامدادات لجيشهم المنهك من طول السفر وقساوة المناخ الذي لم يعتاد عليه الجيش الروماني، لكن الموقف تغير بتولي الساسانيين لحكم، بعد القضاء على الدولة الفرثية (15)، ختاماً كان الفرثيون أبعد نظراً من الساسانيين في علاقتهم مع مملكة

الحضر العربية، فساندوها معنوياً وعسكرياً، فوقفت بوجه الرومان وحمت عاصمتهم وحمت مملكة الحضر، لكن الساسانيين كانوا أقصر نظراً من الفرثيين في هذا الجانب، وفي مجال العلاقات الدبلوماسية بشكل عام.

وبعد قيام الدولة الساسانية في عام 226م ودخولهم إلى سلوقية وسيطرتهم عليها، اتخذوا من طيسفون عاصمة لهم، وبعد استتباب الأمن في الدولة الساسانية توجه ملكهم الأول أردشير بن بابك، لحرب الرومان فتوجه إلى مدينة الحضر لفتحها والقضاء على مملكتها، فبدلاً من أن يقف إلى جانبها ويستثمر هذا الجهد المنظم والمدينة الحصينة في حربه ضد الرومان، واعتقد أنه لايمكن بقاء مدينة قوية مثل مدينة الحضر خلف خطوط جيشه وتموينه، لهذا هاجمها وفرض الحصار عليها في سنة 232م في عهد ملكها سنطروق الثاني (Sanatreg II)(200 - 241م)، وعلى الرغم من الغموض الذي أحاط بتلك الحملة من عدة نواحٍ، فلم تذكر المصادر عنها شيئاً، ولا عن تفاصيل ذلك الهجوم عن المقاومة التي أبداها سكّان الحضر ضد الغزو الساساني الجديد لأراضيهم، إلا أن اتخاذ الملك سنطروق الثاني لقب (المظفر ملك البلاد العربية)، تشير إلى أن النصر كان حليف ملك الحضر وسكانها، وان الملك الساساني أردشير قد مني بهزيمة ساحقة، أجبرته على التراجع عن حصار الحضر، وذلك لتكبد جيشه خسائر فادحة في الأرواح والمعدات (16).

ويبدو أن نفوذ مدينة الحضر وقوتها قد تضاعفت، فوصل نفوذها إلى أعالي نهر الخابور (17)، (في شمال العراق حالياً)، كما أن أهلها قد شرعوا فعلاً بعد هذا الهجوم إلى زيادة تحصيناتها العسكرية ومواقعها الدفاعية المتقدمة التي تقع على أطراف مدينة الحضر، وأكد هذه التحصينات الشاعر عدي بن زيد العبادي بقوله:

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ   ـلة تجبى إليه والخابور

ـشاده مرمراً وخلله كلسـ   ـاً فالطير في ذراه وكور (18)

وكان لمدينة الحضر ستون برجاً كباراً، وبين البرج والآخر تسعة أبراج صغار (19).

ومع أن أهل الحضر حرصوا كل الحرص على أن تكون بلادهم مستقلة تمام الاستقلال، إذ لا داعي للتبعية للأجنبي، لكن أصرار الساسانيين على إحتلال الحضر، حيث أن الحضر

كانت تصلها معلومات استخبارية عن إصرار الملك الساساني على تدمير الحضر، لقرب المسافة بينهما وحركة التجار الذين كانوا ينقلون أدق الأخبار إلى ملك الحضر، فدعاها هذا الموقف إلى التحالف مع الرومان، لكسب تأييدهم ودعمهم لها ضد الساسانيين، فدُفع أهل الحضر إلى حلف لم يريدوه أصلاً، والذين كانوا قريبين منه ومن مناطق نفوذهم في سنكار (مدينة سنجار الحالية وتقع في منطقة الجزيرة وتسمى شنكارا أيضاً)، وكان في هذه المدينة المهمة التي تقع في أعلى وادي الثرثار حامية عسكرية رومانية لحماية المدينة ولتكون نقطة إنذار مبكر للرومان من خطر الساسانيين، ويؤكد هذا التحالف العثور على ثلاثة نصوص في أحد معابد الحضر يعود تاريخ أحدها إلى سنة 235م أو قبل هذا التاريخ بقليل، أي في زمن الإمبراطور الروماني سفيروس الكسندر (222- 235م)، والنصان الآخرين يعود تاريخهما إلى عهد الإمبراطور الروماني غورديان الثالث (238- 244م)، (20)، وقد عثرت على هذه النصوص، إحدى بعثات التنقيب التي جرت في مدينة الحضر في عام 1951م.

إن وجود مثل هذه النصوص يؤكد وجود علاقات متبادلة بين الرومان ومملكة الحضر، كيف لا وان الحضر دولة مستقلة تعقد ما تشاء من اتفاقات مع من تشاء من الدول، ووجود هذه النصوص في المعبد يؤكد حرمة هذه الاتفاقات وحرمة الالتزام ببنودها، لكن مايثير التساؤل هو، لماذا لم تقدم الدولة الرومانية للحضر المساعدة الكافية للوقوف بوجه الغزو الساساني ؟، وهل قدمت الدولة الرومانية دعماً لأهل الحضر ؟، وما هو نوع هذا الدعم ؟ وهل تمّ بالفعل؟

وتختلف المصادر فيما بينها في تحديد اسم الملك الساساني الذي أسقط مملكة الحضر فبعضهم أشار إلى الملك أردشير بن بابك (21)، اما الآخر (22)فله روايتين حول هذا الموضوع الأولى يؤيد ابن قتيبة، وفي الثانية ينسب نهاية مملكة الحضر إلى الملك الساساني سابور ذي الأكتاف (309- 379م) (23)، بينما يشير الطبري والثعالبي وياقوت الحموي وابن خلدون إلى أن سقوط الحضر واحتلالها كان في عهد الملك الساساني سابور الأول، وهو الأرجح (24)

ويعود السبب في ذلك، إلى أن المؤرخ الروماني أميانوس مرسيلينوس Ammianus Marceilinus كان مرافقاً للامبراطور الروماني جوليان JULIAN(361)- 363م) في حملته على العراق في القرن الرابع للميلاد، كان قد شرح تفاصيل تلك الحملة، فلما وصوا إلى مدينة الحضر وجدوها أثراً بعد عين فوصفها قائلاً: ((وهي مدينة عتيقة واقعة في وسط

صحراء، لقد خربت منذ أمد بعيد)) (25)، ويفوق ذلك وثيقة اكتشفت في مصر حديثاً وهي معاصرة لتلك الأحداث، ذكر فيها أن الملك الساساني سابور الأول حاصر مملكة الحضر سنة كاملة من 12نيسان 240- 1 نيسان 241م (26).

والراجح أن ذلك تمّ والملك أردشير بن بابك لايزال على قيد الحياة، وعليه فإن أساس الخلط في الروايات بين الملك سابور الأول والثاني، ويعود السبب إلى تشابه الأسماء واختلاطها على النقلة من بعدهم، فقال الحموي: ((وإنما ذكرت هذا لأن بعضهم يغلط ويروي أنه ذو الأكتاف)) (27)

ووفق ما كشفت عنه التنقيبات عن طريق الكتابات المثبتة، فإن آخر ملوك الحضر هو سنطروق الثاني (200- 241م) الذي حرف اسمه إلى الساطرون عند المؤرخين العرب وفيه يقول الشاعر عدي بن زيد العبادي:

وأرى الموت قد تدلى من الحضـر   على رب أهله الساطرون (28)

أما ما ورد عن الضيزن (Dhaizan) التي وردت عند المؤرخين العرب من خيانة فهي لاتمت إلى الحضر بصلة، بل هي في الواقع أخت الملك سابور التي أسرتها قبيلة قضاعة العربية واسمها ماه، والتي أسرت في منطقة شهرزور شمال العراق (29)

وفيها يقول الشاعر عمرو بن سليم القضاعي:

لقيناهم بجمع من علاف   وبالخيل الصلادمة الذكور

فلاقت فارس منا نكالاً   وقتلنا هرابذ شهرزور (30)

ولما علم الملك سابور بما فعلته قضاعة بمدينة شهرزور وأسرهم لأخته، حتى جهز جيشاً كبيراً وتوجه به إلى شهرزور فهرب الضيزن من وجهه محتمياً بأسوار الحضر (31) وبموافقة ملكها سنطروق الثاني، أو بالتحالف معه، وترجح الموسوي أن هذا الحدث قد تمّ سنة 238م وفق ما توفر لها من روايات لم أطلع عليها (32).

أي قبل هجوم الملك الساساني على الحضر، ومن المؤكد أن الضيزن قد شارك الملك سنطروق الثاني في الدفاع عن مدينة الحضر، إذ حاصرها الملك سابور (شهر، سنة، سنتان، أربع سنوات)، وورد أبيات شعرية تؤكد طول مدة الحار على مدينة الشمس الحضر فقال الأعشى الكبير:

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمى وهل خالد من نعم

أقام به شاهبور الجنو د حولين تضرب فيه القدم (33)

والمؤكد أن حصار الملك سابور لمدينة الحضر قد استمر لمدة سنة كامل، حسبما أوردته أحد الوثائق التي عثر عليها في مصر كما ذكرنا ذلك من قبل (34)، أو أكثر من ذلك حسب أبيات الشعر السابقة.

وعلى كل حال فقد صمم الملك الساساني سابور على إنهاء مملكة الحضر، ويشير طول الحصار إلى قوة الجيش والدفاع المستميت لأهلها ضد الحصار الساساني، كما ويبدو أن القبائل العربية التي كانت تابعة لمدينة الحضر وترتبط معها بعلاقات دبلوماسية أو تجارية قد تخلت عنها، ولا نعرف ما هو السبب الذي يقف وراء ذلك السكوت، ولماذا سمحت الإمبراطورية الرومانية للملك سابور بهذا الحصار، الذي قطع عنها البضائع التجارية من الهند والصين.

وقد أشار أحد الشعراء إلى صمود أهل الحضر ومناعة أسوارها التي استطاع سابور أن يقتحمها قائلاً:

ومصرع ضيزن وبني أبيه وأحلاس الكتائب من تزيد

أتاهم بالفيول مجللات وبالأبطال سابور الجنود

فهدم من أواسي الحصن صخراً كان ثقاله زبر الحديد (35)

وتتهاوى الرواية التاريخية التي أشارت إلى خيانة النضيرة ابنة الضيزن، وهي من الروايات المدسوسة على العرب، لأن شرف العربي هو أسمى ما لديه، فكيف تدل إمرأة على قتل قومها، ونحن نعرف أن المرأة العربية تفدي نفسها لتنقذ أهلها وقومها (36)

وبهذا فقد خسرت المنطقة مملكة قوية كان لها دور تجاري وسياسي وعلمي جيد جداً، ولو استفادت منها الدولة الساسانية، لكان خيراً لها في مواجهة التحدي الروماني والبيزنطي، وأصبحت مدينة الحضر أثراً بعد عين.

العلاقة مع المناذرة:

حظيت المنطقة الغربية لنهر الفرات بموقومات جغرافية وبشرية مكنتها من أن تقيم دولة، وتكمن تلك المقومات في الأرض والسكان والدولة، ونظراً لقرب الحيرة من المدائن، ظلت الحيرة تابعة للدولة التي تحكم العراق، وكانت لهذه الدولة في أوقات مختلفة علاقات مستقلة في علاقاتها مع الغساسنة في الشام، أو مع القبائل العربية في مختلف المناطق، لكن التأثير الساساني ظل واضحاً وطاغياً على علاقاتها معه، لا بل ذابت في بعض الأحيان في علاقاتها مع الساسانيين.

وترجع علاقة المناذرة بالدول التي حكمت إيران إلى العهد الفرثي، لأن هذه القبائل كما ذكرت في مقدمة الفصل، كانت متواجدة على الساحة السياسية في المنطقة، وأثناء فترة الضعف في العهد الفرثي، استطاعت القبائل التنوخية (37)، في المنطقة، واستطاع زعيمهم جذيمة الأبرش أو الأبرص (208- 268م) من توحيد هذه القبائل العربية تحت زعامته وسيطر على المنطقة الممتدة بين الحيرة والأنبار (38)، وعندما سقطت الدولة الفرثية في عام 224م، وقامت الدولة الساسانية أدرك الملك الساساني أردشير ابن بابك (224- 241م) أن التحالف مع هذه القبائل العربية، خيرٌ من معاداتها، فاعترف الملك أردشير بن بابك بسلطان زعيمهم جذيمة الأبرش التنوخي على منطقة غرب نهر الفرات، ما بين الحيرة وفيروز سابور (39)

وتولى حكم الحيرة، بعد وفاة جذيمة الأبرش ابن أخته، وتشير أغلب المصادر إلى أن عمرو ابن عدي اللخمي (268- 288م)، الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة المناذرة في الحيرة أو ماتعرف بالدولة اللخمية، فهو ((أول من اتخذ مدينة الحيرة منزلاً له من بين ملوك العرب، وأول من مجد أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق، وإليه ينسبون، وهم ملوك آل نصر)) (40)

وقد تحالف هذا الملك العربي مع الساسانيين أيضاً، وفقاً لما أملته عليه شروط التحالف والصداقة كما فعل خاله جذيمة الأبرش (41)، من قبل عندما كان متحالفاً مع الملوك الفرثيين.

وتشير المصادر إلى أنه تقلد منصبه من الملك الساساني سابور الأول بن أردشير (42)

والتحالف مع الدولة الساسانية الفتية واتخاذ الجانب السلمي معها يذكرنا بقوة الساسانيين، وعدم مقدرة المناذرة من مواجهتهم وجهاً لوجه، فآثر المناذرة الدخول في تحالفات سياسية مع الدولة الساسانية (43)

وبعد وفاة الملك الساساني بهرام، وإضطراب الأوضاع في الدولة الساسانية، تمكن أمرؤ القيس الأول من أن يبسط سيطرته على القبائل العربية الساكنة في جنوب العراق، ويقيم تحالفات جديدة وسعت من نفوذ منطقة الحيرة، وقد أشار إلى هذه العلاقات نقش التمارة(44)

وفي عهد ملك المناذرة عمرو بن امروء القيس (288– 328م) توثقت العلاقات بين مملكة المناذرة والدولة الساسانية، واستفاد هذا الملك من دعم الساسانيين له وأقره سابور ذي الأكتاف على الحيرة بعد وفاة والده أمرؤ القيس (45)، فعقد سلسلة من التحالفات مع القبائل العربية من ربيعة ومضر القاطنين في العراق والحجاز والجزيرة (46)، وهم من قبائل أسد ونزار ومذحج ومعد (47)، وإياد ولخم والأزد ودوس وتنوخ كندة (48) والتحالفات لاتعني السيطرة والاحتلال، بل هي اتفاقات ومعاهدات تسمح للناس والتجار بالسفر لقاء هدايا ودية يقدمها ملك المناذرة لرؤساء هذه القبائل، ويستفيد من هذه العلاقة كلا الجانبين.

وهنالك نص يشير إلى فرار الملك امرؤ القيس إلى بلاد سورية في سنة 293م، وهذا يعني حدوث خلاف كبير مع الدولة الساسانية، التي ترتبط بتحالفات مع المناذرة، فكيف يهرب امرؤ القيس ويترك دولته (49)، ؟، وهل خالف الخط المرسوم للدولة الساسانية ؟، أم أنه تعرض لضغوط قبيلة أجبرته على ترك موقعه ؟، وهل كانت هجمات قبائل إياد هي السبب المباشر لذلك الخلاف مع الساسانيين ؟، فقد أغارت ((إياد على سواد العراق واكثروا الفساد فيه، فمكثوا حيناً لايغزوهم أحد لصغر ملكهم. وفي عهد الملك الساساني سابور الثاني (310– 379م) استطاعت قبائل إياد وعبد القيس وبكر ابن وائل وتميم وتغلب، أن تستغل الاوضاع المتردية في الدولة الساسانية، وأن تفرض سيطرتها على بعض المناطق، فجهز سابور الثاني حملة عسكرية قوية، لضبط الأمن في هذه المناطق (50)

وقد ازدادت هجمات القبائل العربية على أطراف الدولة الساسانية في عهد الملك الساساني سابور الثاني (ذو الاكتاف) (309– 379م)، ولما تمكنت الدولة الساسانية من ضبط أمورها الداخلية، توجه سابور إلى المناطق العربية الواقعة جنوب العراق والمناطق المطلة على

الخليج العربي، وفرض سيطرته عليها بالقوة، ونكل بكل من كان يشك به، وأخذ قسم كبير من العرب أسرى وعاملهم بوحشية وقسوة منقطعة النظير، فقام بخلع أكتافهم ونقب أكتاف البعض الآخر، حتى لايستطيعوا حمل السيف أو الرمح أو ركوب الخيل (51).

وبعد وفاة أمرؤ القيس عين سابور ذو الأكتاف ابنه عمرو الثاني (328- 377م) ملكاً على المناذرة، ولم تقدم لنا المصادر شيئاً عن سيرته أو علاقاته مع العرب أو الساسانيين (52)

وبعد وفاته عين الساسانيين أوس بن قلام (377- 382م) ملكاً على الحيرة (53) ويعني هذا الانتقال انحراف الدولة الساسانية عن المناذرة، لأن هذا الملك الجديد ليس منهم، ويبدو أن المناذرة أو أعوانهم قتلوه، وأعادوا الحكم في الحيرة لأسرة المناذرة، فتولى الحكم امرؤ القيس الثاني بن عمرو(382- 403م) (54). وتتكرر نفس المشكلة وهو عدم امتلاكنا شيء عن سيرة هذا الملك، وكيف كانت علاقته مع القبائل العربية أو مع الدولة الساسانية (55). ثم توثقت العلاقات بين المناذرة في الحيرة والساسانيين في عهد ملكهم النعمان الأول (390- 418م)، وكان هذا الملك معاصراً للملك الساساني يزدجرد الأول (399- 420م)، وكانت تحت تصرف هذا الملك كتيبتان، الشهباء وتتكون من الفرس، والدوسر وتتكون من قبائل تنوخ ولخم، وكان يغزو من لايدين له بالتبعية من العرب (56)

وغزا النعمان هذا الشام، وأكثر المصائب في أهلها وسبى وغنم، وكان يغزو بهاتين الكتيبتين أهل الشام ومن لم يطعه من العرب (57).

إن وجود هاتين الكتيبتين تحت تصرف الملك النعمان الأول، جعلته في موقف ممتاز أمام أي تحدٍ قد تواجهه مدينة الحيرة والمناطق التابعة لها، وهاتين الكتيبتين مدربتين تدريباً جيداً ومستعدة للقتال في الصحراء أو المناطق الزراعية أو المدن، بسبب تنوع تدريباتها العسكرية، فكتيبة الشهباء مدربة للقتال في غير المناطق الصحراوية، وكتيبة الدوسر مدربة للقتال في الصحراء، وتطبق مبدأ الكر والفر في الحرب والالتفاف والمناورة العسكرية.

ويبدو أن إقامة هذه الدولة والاعتراف بها من قبل الفرس، قد جعلها لتكون دولة حاجزة Buffer State بين الدولة الساسانية والقبائل العربية التي تقطن في أطراف العراق، ولتكون المصد الأول لهجمات البيزنطيين قبل الوصول إلى العاصمة الساسانية طيسفون (58)

وبلغت الصلات بين المناذرة والساسانيين، أوج عظمتها عندما أرسل الملك الساساني يزدجرد الأول (399- 420م) ابنه الأمير بهرام الخامس (بهرام جور) ليتربى في كنف الملك النعمان الأول (59)، فاختار له المربيات والمؤدبين من العرب والفرس (60)، ثم أكمل ابنه المنذر الأول (418- 462م) مهمته في الإشراف على تربية الأمير الساساني بهرام الخامس، بل أن القوة العسكرية التي رافقته إلى المدائن وأجلسته على العرش، كان يقودها ابن الملك، النعمان بن المنذر الأول، بعد أن همّ العظماء والأشراف ورجال الدين ابعاده وإخوته عن العرش الساساني، بعد أن قتلوا والده (61). فدخل ((المدائن في ظل الرماح العربية، فأجلسه النعمان على عرش الأكاسرة)) (62).

وهذا الموقف يثير تساؤلات كثيرة أبرزها، ما هي الدوافع التي دفعت بالملك الساساني إلى ارسال ولده إلى دولة المناذرة وللاشراف على تعليمه الإدارة وفنون القتال، فضلاً عن تعلمه اللغة العربية، فقد تخرج وهو يروي الشعر العربي ويستحسنه، لا بل كان يقول الشعر العربي ؟، وهل كان الملك الساساني يشعر بأن الأشراف والعظماء هم غير أمناء على تربية ولده ؟ أم أن الجو في العاصمة الساسانية طيسفون لم يعد صالحاً لتربية أحد أبنائه، نتيجة لكثرة الدسائس وخوف الملك الساساني من قيام هؤلاء باغتيال ابنه ؟، فدفعه هذا إلى الالتجاء إلى المناذرة والاعتماد عليهم في حماية أحد ابنائه.

ولم تقف معونة ملك المناذرة المنذر الأول على ايصال بهرام الخامس إلى الحكم، بل ساعده في حملاته العسكرية ضد الدولة البيزنطية ففي سنة 421- 422م، فقد هاجم البيزنطيون أرمينية، فاستنجد الملك الساساني بالملك المنذر الأول فقاد جيشاً صوب بلاد الشام، إلا أن البيزنطيين كمنوا له وهزموه، وتكرر هذا العمل في السنة التالية إذ لاقى جيش المنذر المصير نفسه (63)

واستمرت العلاقة الطيبة بين الدولتين على مايرام طيلة حكم المنذر بن النعمان الأول (431- 473م)، وبعد وفاة المنذر تولى ابنه الأسود بن المنذر الحكم، (473- 493م) ويبدو أن العلاقة في عهد هذا الملك كانت سيئة، إذ سجنه الساسانيين مدة عشرين سنة، وهذا يعني بقاء الحيرة بلا ملك أو أن الساسانيين قد عينوا عليها أحد قادتهم، ولا نعرف سبب هذا الخلاف بين المناذرة والساسانيين، بحيث دعاهم إلى سجن الملك طوال هذه المدة، ويبدو أنه خالفهم في أشياء لم يرتضوها له فسجنوه (64).

ورغم هذه العلاقة السيئة بين المناذرة والساسانيين، ألا أن البعض من ملوك الحيرة قد شارك الساسانيين أو قام بقيادة الحملات العسكرية بالنيابة عنهم، فقد شارك النعمان الثاني (500- 504م) في الحرب الدائرة بين الساسانيين والبيزنطيين سنة 502م، وعلى الرغم من هذه المساعدة، إلا أن الساسانيين قد قاموا بتعيين أحد الاشخاص على الحيرة وهو أبي يعفر بن علقمة، ولاندري ماهو السبب وراء هذا الانحراف الذي كان ما يتكرر دائماً (65). وقد حكم أبو يعفر مدة ثلاثة سنوات، ثم تولى حكم الحيرة المنذر بن امرؤ القيس، (المنذر الثالث)، (514- 554م)، والملقب ابن ماء السماء وبذي القرنين (66)

الذي اتسمت العلاقة في عهده مع الساسانيين بالتوتر الشديد في عهد قباذ الذي دعا العرب إلى المزدكية فرفضها العرب جملة وتفصيلاً، فقام قباذ بتعيين الحارث الكندي الذي قبل دعوة مزدك وأيد قباذ في طلبه وعزل عن الحيرة المنذر الثالث (67)

وقد قابل الحارث الكندي الملك قباذ، وتبين له حالة الضعف التي كان عليها، فزاد طمعه في الدولة الساسانية، وأخذ يغير على أرض السواد، وأمر أصحابه أن يقطعوا نهر الفرات إلى الجهة الشرقية ويغيروا على السواد، ويبدو أن عزل المنذر الثالث كان بسبب عدم تمكنه من القضاء على تحركات الحارث الكندي، فرأى قباذ في قوة الحارث خير عون له في ضبط السواد فولاه الحيرة (68) وعلى أية حال فان فترة حكم الحارث الكندي لم تدم سوى ثلاثة سنوات (525- 528م)، انتهت بمجيء كسرى أنو شروان 531- 579م)، إذ طارد المزدكية وحارب أتباعها، وأعاد المنذر إلى حكم الحيرة، فقام المنذر بتعقب القبائل الكندية، وألقى القبض على رؤسائهم وقتلهم في ديار بني مرينا، وقد قال الشاعر أمرؤ القيس فيهم:

ملوك من بني عمرو بن حجر   يساقون العشية يقتلونا

فلو في يوم معركة اصيبوا   ولمن في ديار بني مرينا

ولم تغسل جماجمهم بغسل   ولكن في الدماء مرملينا (69)

وفي فترة حكم الملك النعمان بن المنذر585- 602م، اتخذت العلاقة بين مملكة الحيرة والدولة الساسانية منحىً آخر، يختلف عمن سبقه من ملوك الحيرة الذين كانوا يدينون بالولاء الكامل للدولة الساسانية، ويبدو أن النعمان بن المنذر حاول أن يمارس نوعاً من

الاستقلالية في علاقاته مع الدولة الساسانية، التي أمعنت في التدخل في شؤون دولة المناذرة (70)، ومما يؤكد هذا التوجه هو عدم معارضة الملك النعمان للهجمات التي قامت بها القبائل العربية ضد الدولة الساسانية، والتي كانت تتخذ من الصحراء في أطراف الجزيرة العربية مسكناً ومرعىً لها تتجول فيه في أوقات المطر ونمو الكلأ، وكانت هذه الهجمات مفاجئة للساسانيين وفي بعض الأحيان تقوم بهزيمة القطعات الساسانية المرابطة في المسالح على أطراف الدولة الساسانية وفي مناطق نفوذها (71)، لأنها كانت تختار الوقت والمكان الملائم لمهاجمة العدو، وتتميز هجماتهم بالسرعة والمباغتة، ولهذا كانت الدولة الساسانية تقطع قسماً من زعماء القبائل القطائع، ويعرف هؤلاء بِ ذوو الآكال، وقد عرفهم ابن حبيب بأنهم: ((أشراف كانت الملوك تقطعهم القطائع)) (72).

ومدحهم الشاعر الأعشى بقوله:

حــولــي ذوو الآكــال من وائــل كالليل من باد ومن حاضر

المطعموا اللحم إذا ما شتوا والج علوا القوت على الياسر (73)

والهدف من قيام الملك الساساني من منح هؤلاء الأشراف الأموال والهدايا والألقاب والقطائع هو لضمان عدم تجاوزهم على مناطق نفوذ الدولة الساسانية، التي لاتستطيع أن تحارب هؤلاء أبداً وذلك لاتباعهم طريقة الكر والفر التي لم يعتاد عليها الساسانيين، فضلاً عن العمق الذي توفره الصحراء لهم كغطاء لتحركاتهم، وكانت كثير من القبائل العربية لاتعترف بالسيادة الساسانية عدا بعض من قبيلة تميم التي تقطن في اليمامة ((كانوا لقاحاً لايدينون للملوك إلا بعض تميم من كان باليمامة)) (74).

وحين نسأل عن طبيعة الطاعة من قبل هذه القبائل العربية للدولة الساسانية هو الكف عن غزو السواد والمناطق التي يسيطر عليها الساسانيين، وذلك لأهمية السواد بالنسبة للساسانيين (75)، وهذه السياسة التي سارت عليها الدولة الساسانية لم تدم لفترة طويلة بسبب جهل الساسانيين لطبيعة العرب وأخلاقهم ومبادئهم، كما إن سياسة النعمان اختلفت عمن سبقه من ملوك الحيرة، إذ أخذ يتعاطف مع القبائل العربية، وصار يوثق علاقاته مع زعمائها لإنهاء الوجود الفارسي في جنوب العراق (76).

ويبدو لي أن الملك النعمان بحكم علاقته مع الساسانيين، قد اطلع على ما ينويه الساسانيين تجاه العرب، خاصة إذا علمنا أن حملة سابور ذي الأكتاف لم تكن غائبة عن العقلية العربية التي عانت من سياسته في المناطق العربية التي سيطر عليها، فلم يرض على الأقل بما سيقوم به الساسانيين تجاه العرب هذا أولاً، وثانياً أراد النعمان أن ينأى بنفسه عن الصراع على العرش الساساني الذي كان جارياً بين كسرى ابرويز وبهرام، وبعد انتصار كسرى أبرويز على بهرام، استدعى كسرى ابرويز النعمان إلى وليمة، وقدم له العشب بدلاً من الخبز، أو التمر بالنوى، وطلب منه أن يأكل النوى، فقال له الملك النعمان هذا أكل بهائمنا، فأثرت هذه الحركة في نفسية الملك النعمان، وبعد رجوعه إلى الحيرة، استدعى أبناء عمومته من قبائل معد، وأخبرهم بما كان من الملك كسرى، فخربوا وعاثوا في الأرض فساداً، فحقد كسرى على النعمان، وأخذ يسعى للقضاء عليه (77) وقد وردت آراء كثيرة عن أساب مقتل الملك النعمان منها:

1- أن الملك الساساني طلب منه فرساً أصيلاً.

2- قتل النعمان لعدي بن زيد كاتب كسرى أبرويز.

3- رفض تزويج النعمان إحدى بناته من كسرى أبرويز.

وهذه العوامل كلها ثانوية بالنسبة للسبب الأساس لمقتل النعمان وهو تخوف الدولة الساسانية من توحد القبائل العربية، إذ كانت الدولة الساسانية تراقب الوضع على الساحة العربية، كما كانت تراقب زعماء الوفود الذين يحضرون مجالس النعمان، وما كان يدور من حديث في هذه المجالس من أحاديث تمس السيادة الساسانية في المنطقة العربية، وقد عبر كسرى أبرويز عندما سأله ابنه عن سبب مقتل النعمان: ((إن النعمان وأسرته وحدوا سياستهم وأهدافهم مع القبائل العربية، كما أنه اختط لنفسه سياسة لاتتسجم والمصالح الساسانية، حيث لم يمنع هجمات القبائل العربية على الممتلكات الساسانية، كما لم يعمل على ضمان وأمن القوافل التجارية الساسانية من تعرضها لهجمات القبائل العربية)) (78)، و((أن النعمان وأهل بيته واطئوا العرب، واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم، وقد وقعت إليهم بذلك كتب)) (79).

وقد أراد كسرى أبرويز أن يقلل من شأن العرب في أحد مجالسه، وكان النعمان حاضراً في ذلك المجلس، فخطأ رأي الملك الساساني، وأجابه بحقيقة الأمر فقال له كسرى بعد هذا المجلس: ((إنك لأهل لموضعك من الرئاسة في أهل إقليمك ولما هو أفضل)) (80)

وحين رجوع النعمان إلى الحيرة، أرسل إلى زعماء القبائل العربية وأعلمهم حقيقة الأمر، وشكل منهم وفداً لمقابلة كسرى أبرويز، وكان هؤلاء الزعماء يمثلون خيرة حكماء العرب وخطبائها، وممن امتازوا بحسن الكلام ورجاحة العقل (81)، وبين لهم النعمان ما يدور في عقل ملك الفرس عنهم: ((إنما أنا رجل منكم، وإنما ملكت وعززت بمكانتكم، وما يتخوف من ناحيتكم، وليس شيء أحب إليّ مما سدد الله به أمركم، وأصلح به شأنكم، وأدام به عزكم، والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط، وتنطلقوا إلى كسرى، فاذا دخلتم عليه نطق كل رجل منكم بما حضره، ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه... ولا تتخذلوا له انخذال الخاضع الذليل)) (82)

ثم كتب النعمان رسالة مع الوفد إلى كسرى ابرويز ((وقد أوفدت إليك أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فليسمع الملك،... وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم)) (83). وبعد مقابلة الوفد من قبل كسرى قال الملك الساساني لوزرائه ومرازبته: ((ما خفت من العرب منهم كاليوم، بما كنا نتوكته من إفضاء الملك لهم قد دنا)) (84).

ثم أخذ النعمان يدعو الشعراء إلى مجالسه ويكرمهم ويجزل لهم العطايا، بحيث أقلق هذا العمل كسرى أبرويز فأخذ يشن الحملات على القبائل العربية، وقد سئل الملك كسرى ابرويز عن سبب شن هذه الحملات العسكرية على العرب، فقال: ((إنني لا أجاور سلطاناً هو أقوى مني)) (85).

ونتبين خطة الملك الساساني من خلال عدة محاور سارت عليها الدولة الساسانية منها:

1- اخراج قبائل إياد من تكريت والموصل والجزيرة الفراتية.

2- عزل آل المنذر عن الحكم.

3- ابعاد بنو شيبان عن السواد (86)

وقد وصل كل ما كان يدور في مجالس كسرى إلى الملك النعمان، فتوجه الملك النعمان إلى القبائل العربية، عبس بنو شيبان حيث أودع أهله وماله وسلاحه، وفي أثناء تجواله القي القبض على النعمان من قبل عملاء كسرى، فاودع السجن وقتل بعد ذلك، ثم نصب كسرى أبرويز أياس بن قبيصة الطائي ملكاً على الحيرة، وأسنده بقوة عسكرية بقيادة النخيرجان،

لكن اياس فشل في إدارة مملكة الحيرة، وقد عبر كسرى عن خطأه في قتل النعمان فقال: ((وليت أعرابياً لايعقل من الأمور شيئا)) (87).

لكن الأمور كانت أسرع من أن يعالجها كسرى أبرويز فوقعت معركة ذي قار بين الجيش الساساني وبين القبائل العربية بزعامة بني شيبان، وكان النصر فيها للعرب، وعندما سمع الرسول (بحديث الحرب هذه قال: ((هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا)) (88).

وكانت معركة ذي قار إحدى أوجه المقاومة العربية للتواجد الفارسي في العراق وحلفائهم من ضعاف النفوس وقد تأتى هذا الانتصار من:

1- الوقفة الشجاعة لبني شيبان وحلفائهم العرب.
2- كان بنو شيبان مدركين أن الهزيمة إما كسرى أو النزول على حكمه، ومعناه ضياع الرجال والمال والعرض، كما أن النزوح عن الديار حسبما أمرهم به كسرى معناه الموت عطشاً أو بأيدي تميم الذين كانوا على خلاف معهم حول الأرض والمرعى، فكان ذلك حافزاص قوياً لثباتهم على القتال وحرصهم على النصر.
3- العطش الذي أصاب الجيش الفارسي، بعد أن حرمهم بنو شيبان من الحصول عليه.
4- تعاطف بعض القبائل العربية التي كانت في الجيش الساساني، وبخاصة إنسحاب قبيلة إياد من المعركة وبتنسيق مع بني شيبان، وبشكل يوحي بانهزامهم.
5- موقف النساء العربيات ودعوتهم للرجال للحفاظ على أعراضهن وقلن في ذلكم شعراً كثيراً كن يتغنين به في المعركة (89)

ثم عزل الفرس اياس بن قبيصة عن الحيرة، وعينوا بدله أحد قواد الفرس المعروف بـ أزاذبه بن ماهان والذي بقي قائداً عسكرياً على الحيرة حتى مجيء الجيوش الإسلامية وحررت العراق من الفرس (90).

العلاقة الساسانية مع مملكة كندة:

ظهرت مملكة كندة كقوة في وسط الجزيرة العربية، ولعبت دوراً مهماً في الأحداث السياسية في المدة التي ظهرت فيها، وذلك لوقوعها على طرق القوافل والتجارة بين بلاد اليمن والشام وبين بلاد اليمن والدولة الساسانية.

ينتسب الكنديون إلى كندي وهو ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد ابن يشجب بن زيد بن عريب بن زيد كهلان بن سبأ وهي من القبائل القحطانية (اليمنية)، وقد هاجرت هذه القبيلة من اليمن، واستقرت في وسط وشمال الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن الرابع للميلاد، واستقرت في منطقة غمر ذي كندة الواقعة في الطرف الجنوبي الغربي من منطقة نجد على مسيرة يومين من مكة (91)

وتكاد تكون المعلومات حول هذه الدولة وكيفية نشأتها شبه معدومة، سوى معلومات متناثرة ضمتها بعض المدونات أو أبيات من الشعر تناقلتها الألسن عبر الأجيال، فلا نعرف تفصيلات عن كيفية بدء العلاقة بين دولة كندة ودولة المناذرة ولا عن علاقة كندة مع الغساسنة أو الدولتين الكبيرتين الدولة الساسانية والدولة البيزنطية.

ويعد حجر بن عمرو الملقب بـ(آكل المرار) الذي عاش في منتصف القرن الخامس للميلاد هو المؤسس الحقيقي لتلك المملكة (92)، وتعد أول إشارة مفصلة تناولت هذه الدولة (دولة كندة) كانت في عهد ملكها الحارث بن عمرو الكندي الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه عمرو المقصور، وعرف هذا الملك بالحارث الحراب لأنه كان يحرب الناس (93)، وفي عهده ظهر اسم هذه المملكة وتناولتها أقلام الباحثين (94).

ومن يتناول دولة كندة لابد وأن يتناولها من فترة حكم الملك الحارث بن عمرو(490-528م)، فقد ذكر المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) (95)، أنه في سنة 490م هزم رومانوس Romanus حاكم فلسطين من قبل الإمبراطور البيزنطي أنستاسيوس الأول، سيدي قبيلتين هما جبلاس. شلاشمشس أو جمالوس Jamalos (جبلة بن الحارث) و(اوكاروس Ogaros (حجر) فطرد الأول وأسر الآخر. ويرد اسم حجر عند المؤرخة (بيغوليفسكيا) (96)، وهي تنقل عن المؤرخ نفسه بصيغة (أجر ابن آرثه الملقب ثالبان) أي (حجر بن الحارث الثعلبان أو ثعلبة) وتؤكد أن المؤرخ (ثيوفانس) قصد بـ آرثه ثالبان (Arethas O. Thalabayn) الحارث الكندي والد كل من أجر (حجر) وبديكرم (Badikarim) (معد يكرب). وتقدم دليلاً على ذلك فتقول: ((وذكره (ثيوفانس) مرتين لآرثه باسمه القبلي ثالبان، إنما أراد به أن يميز بينه وبين سميه آرثه (فيلارخ الروم) أي عامل الروم البيزنطي الحارث الغساني. وآرثه الملقب ثالبان (97).

ولايشك المؤرخ اولندر(98)، في نسبة حجر الذي وقع في أسر الحاكم رومانوس إلى الحارث الكندي فيقول: ((ان حجر أحد أبناء الحارث الكندي الذي كانت أمه على ماتروي الروايات من بني ثعلبة من قبيلة بكر. وبعد هذه الأحداث بأربعة أعوام أي في سنة 501م أو 502م يذكر ثيوفانس (99)، اسم أمير آخر من أمراء كندة هو أخٌ لحجر يسمى بديكرم (معد يكرب)، والذي شن غارة على فينيقية وسوريا وفلسطين وعاث بها فساداً، ووصف نجاحه في هذه الغارة بقوله: انقض كالريح على هذه المواضع، وابتعد أسرع من ذلك بالغنائم، حتى أن البيزنطيين في تعقبهم له لم يستطيعوا البتة اللحاق بالعدو)) (100)

وقد كانت تلك الغارات شديدة الوطأة على الدولة البيزنطية، بحيث اضطر الإمبراطور أنستاسيوس في سنة 502م أن يعقد صلحاً مع آرثه الملقب ثالبان والد معد يكرب وحجر، ومع أننا لانعرف شروط الصلح بالتفصيل، إلا أنه يبدو أنه يتعلق بوقف الهجمات التي تقوم بها مملكة كندة على الأراضي البيزنطية، كما تضمن أيضاً إقامة تحالف بيزنطي ـ كندي ضد الساسانيين وحلفائهم المناذرة، ومن هذا المنطلق يتضح لنا من خلال هذه الاتفاقية أو المعاهدة، أن مملكة كندة أصبحت حليفة للبيزنطيين (101).

ويبدو أن هذا التحالف ترجم إلى واقع عملي من خلال الحملة التي قام بها ملك المناذرة النعمان الثاني (498– 503م) لمساندة الساسانيين في معاركهم ضد البيزنطيين خلال السنوات (502– 506م) ففي 26تشرين الثاني، وفي الوقت الذي كان فيه الملك الساساني قباذ الأول مشغولاً بمحاصرة مدينة آميدا تقدم النعمان الثاني، بطلب من الملك قباذ الأول بقواته من الجنوب إلى منطقة كرها، فسلب ونهب حتى وصل إلى مدينة أدسا (102)

وفي سنة 503هاجم منطقة الخابور، فاستغل بني ثعلبة هذه الفرصة فهاجموا مدينة الحيرة عاصمة المناذرة، واستولوا على قافلة كانت في طريقها إلى الحيرة، فقتلوا جميع من كان فيها واقتادوا ابلهم وما تحمل من متاع وتجارات (103)

ويبدو أن تلك الحملة التي هاجمت الحيرة، كانت بقيادة الحارث بن عمرو بن حجر الكندي، من خلال اللقب الذي أطلق على الحملة (بني ثعلبة) لأن ثعلبة كانت أحد فروع قبيلة بكر بن وائل وهي التي شاركت معه في الهجوم وساندته (104)، ومن الواضح أن هذا الهجوم كان بمثابة الرد على تحركات المناذرة المضادة للبيزنطيين، مما يؤكد تبعية دولة كندة للبيزنطيين (105)

ثم جاءت وفاة ملك المناذرة النعمان الثاني كعامل مساعد لملك كندة الحارث الكندي في مد نفوذه على العراق ومنافسة المناذرة في عقر دارهم، وبخاصة أن حلفاء المناذرة (الساسانيين) كانوا يعانون من متاعب داخلية (المزدكية) وخارجية (البيزنطيين والهياطلة) في هذا الوقت (503- 505م).

وقد استغل الحارث الكندي اضطراب أوضاع المناذرة والساسانيين في مد نفوذه في مناطق غرب الفرات، لكن يبدو أن نفوذه قد زال بعد زوال تلك الأوضاع الطارئة، فضلاً عن عدم ذكر اسم الحارث من بين الملوك الذين حكموا الحيرة (106)

وأشارت المصادر العربية إلى كيفية تمكن الملك الحارث الكندي من استغلال الوضع لصالحه: ((فلما رأى الحارث ماعليه قباذ من الضعف طمع في السواد، فأمر أصحاب مسالحه، أن يقطعوا (يعبروا)الفرات فيغيروا في السواد فأتى قباذ وهو بالمدائن فقال: هذا من تحت كنف ملكهم، ثم أرسل إلى الحارث بن عمرو أن لصوصاً من لصوص العرب قد غاروا، وأنه يحب لقاءه، فلقيه، فقال له قباذ: لقد صنعت صنيعاً ما صنعه أحد قبلك، فقال له الحارث: ما فعلت ولا شعرت، ولكنها من لصوص العرب، ولا استطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود، فقال له قباذ: فماذا تريد ؟ قال: اريد أن تطعمني من السواد ما أتخذ به سلاحاً، فأمر له بما يلي جانب العرب من أسفل الفرات، وهي ستة طساسيج)) (107)مما تقدم يتضح (108)إن الحارث الكندي استغل حاجة الملك قباذ الأول إلى ضبط حدود دولته ومنع غارات الاعراب عليها في توسيع سلطانه ومد نفوذه إلى العراق، وإن ذلك جاء ملبياً لحاجة حلفائه من قبيلتي بكر بن وائل وتغلب، اللتين تحركتا خلال ذلك الوقت نحو الشمال تاركتين مناطقهما القديمة في اليمامة ونجد، لتستقرا في العراق على مقربة من الحدود الساسانية (109). ويبدو انه وجد ان الاتفاق مع الساسانيين يعود عليه بفوائد ومنافع لا يمكن ان يغتنمها من البيزنطيين، ولا سيما ان ارتباطه معهم قد ضعف إذ لم يكن انقطع بشكل تام بعد عقدهم للصلح مع الساسانيين سنة 506م، ولا يستبعد ان يكون الحارث قد تعهد بدفع ضريبة إلى الساسانيين مقابل السماح له بذلك التوسع (110)، ومما تجدر الاشارة إليه ولا يدعو إلى الشك أن الدولة الساسانية وجدت في تحالفها مع كندة فضلاً عن تامين حدودها الجنوبية من هجمات القبائل العربية، ما يحقق مصالحها الاقتصادية وطرق تجارتها المارة في شبه الجزيرة العربية (111).

ويذكر أن المنذر الثالث (505- 554م) بعد ان يئس من الحصول على المساعدة ضد عدوه اللدود المغتصب للعرش ابو يعفر (112)، فقد عين الملك قباذ الأول بعد وفاة ملك المناذرة النعمان الثاني سنة 503م رجل من قبيلة لخم لكنه ليس من الأسرة المالكة، وإنما من ذميل وهو بطن من بطون لخم، يسمى ابو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي بن ذميل بن ثور إبن اسس بن ربي بن نمارة بن لخم، ولم يتحدث اصحاب الاخبار عن علاقة هذا الرجل بالأسرة المالكة ولا عن كيفية تعيينه والاسباب التي أدت إلى اختياره لهذا المنصب، وكل ما ذكرته انه حكم ثلاث سنين ثم انتقل الحكم من بعده إلى المنذر الثالث بن امرؤ القيس، لأن الملك قباذ الأول كان في وضع يصعب عليه تقديم تلك المساعدة، اضطر إلى التقرب من الحارث الكندي، فتزوج ابنته هند، وتمكن بفضل مساعدته له من تولى عرش الحيرة سنة 505م بعد ازاحة أبي يعفر عنه(113). وبذلك نجح المنذر الثالث في تجاوز عوامل المنازعات والصراعات التي كانت قائمة بين دولة كندة والمناذرة (114).

وبعد أن أمن المنذر الثالث لنفسه وضعاً مستقراً داخل دولته عمل على توسيع نفوذه وسلطانه فيشير (روتشتاين) (115) إلى أنه قام في سنة 519م وبتحريض من ملك الساسانيين قباذ الأول بالهجوم على الأراضي البيزنطية في عهد الإمبراطور جستين الأول (518- 527م) وانه تمكن من أسير قائدين هما ديموسترتوس (Demostratus) او تيموستراتوس (Timostratus)ويوحنا (Johannes).

ومع ان المؤرخة (بيغوليفسكيا) (116) تؤيد قيام المنذر الثالث بذلك الهجوم وتخريبه لمدينتي ايميسا وافامية، إلا أنها تعدها حملة من الحملات التي أراد بها تعزيز نفوذ دولته ولا سيما أن الساسانيين في ذلك الوقت لم يكونوا في حالة حرب مع البيزنطيين.

ومما يؤكد أن المنذر الثالث خلال تلك الحقبة حاول أن يمارس دوراً سياسياً ودبلوماسياً مستقلاً عن سياسة الساسانيين، وثيقة سريانية معاصرة للأحداث جاء فيها " انه في كانون الأول من عام 524م وصل رسول الإمبراطور البيزنطي جستين الأول (ابرام بن اوبور) إلى المنذر الثالث ليعقد صلحاً وحلفاً معه، وان الأخير وافق على اطلاق سرح القائدين لقاء فدية مناسبة " (117).

ويبدو أن ذلك التقارب بين المنذر الثالث وبيزنطة لم يرض الملك الساساني قباذ الأول فطرده ونصب الحارث الكندي بدلاً عنه على عرش الحيرة وذلك سنة 525م (118)، ويذكر ان

سبب نقمة الملك قباذ على ملك المناذرة المنذر الثالث وعزله إياه تعود إلى أن الأخير تصرف بطريقة مزدوجة، فكان يتسلم من الإمبراطور البيزنطي مساعدات بين حين واخر عندما كان لا ينحاز إلى جانب الساسانيين، وقد كان متفقاً مع البيزنطيين على أن لا يحرك ساكناً حين تنشب الحرب بينهم وبين الساسانيين، هذا في الوقت الذي كان فيه الملك الساساني يتوقع منه ولاءً مطلقاً له بصفته حليفاً دائماً له (119).

وتنسب روايات المصادر العربية سبب تخلي الملك قباذ عن المنذر الثالث إلى أنه رفض الدخول في الديانة المزدكية في حين وافق الحارث الكندي على الدخول فيها (120)، والواقع ان هذه الرواية تبدو ضعيفة لأنه لم نجد بين المصادر المتوافرة لدينا ما يشير إلى أن الملك قباذ الأول كان قد عزل الموظفين أو الحكام الذين لم يدخلوا في المزدكية من بين الساسانيين انفسهم فكيف اذا كان الامر متعلقاً بالعرب وهم في الأصل لم يكونوا تابعين للساسانيين في معتقداتهم، وما يضعف تلك الرواية اكثر ويجعلها بعيدة عن القبول ما ذكره (ابن خلدون) (121) ان الحارث الكندي أبى أن يتزندق مع قباذ ملك الفرس ".

ومهما يكن الامر فان التعاون بين الملك قباذ الأول والحارث الكندي اجبر ملك المناذرة المنذر الثالث إلى ترك ملكه (122) خلال السنوات من 528 ñ 525م وهي المدة التي استولى فيها الحارث الكندي على عرش آل لخم (123).

ويبدو أن الحارث الكندي لم يكن مطمئناً إلى قوة وضعه في الحيرة لان الاوضاع في الدولة الساسانية لم تكن مستقرة، ولذلك أخذ يسعى إلى تحسين علاقته مع البيزنطيين الذين يظهر انهم رحبوا بذلك التقارب، إذ عهدوا إليه مهمة حراسة حدودهم الجنوبية واطلقوا عليه لقب (124) (فيلارخس (Phulareos) (125)، لان الملك قباذ الأول وابنه كسرى انوشروان كرسا جهودهما خلال المدة ما بين سنة ñ529 528م للقضاء على المزدكية واتباعها، الا ان الحارث لم يتمكن من الافادة من وضعه الجديد إذ استحكم العداء بينه وبين ديوميدس (Diomedos) حاكم فلسطين البيزنطي الذي اجبره على الفرار إلى الحدود الداخلية لانديكا (Indca) (الهند) - (126)أي وسط الجزيرة العربية (127)- ربما بقصد الحصول على العون والمؤازرة من قاعدة حكمه دولة كندة ومن دار في فلكها من القبائل العربية الساكنة في المناطق الوسطى لبلاد العرب (128). ويبدو أن المنذر الثالث كان يراقب هذه التطورات عن كثب، فانقض على عدوه وقتله في أثناء انسحابه، وذلك في آذار سنة 528م (129).

وبمقتل الحارث الكندي زالت قوة واهمية دولة كندة، فلا نجد في المصادر المتوافرة لدينا بعد ذلك ذكر لعلاقات اقامها مع الساسانيين أو البيزنطيين أبناء الحارث الكندي الذين شغلوا بالخلاف والتنازع فيما بينهم على الملك والسلطان (130).

العلاقة مع اليمن:

تقع اليمن في أقصى الطرف الجنوبي من قارة آسيا، وتتمتع بموقع استراتيجي وعسكري وتجاري مهم جداً، لهذا كانت الأنظار تتجه إليها دائماً، ونظراً لوجود العداء بين الدولتين، فلا بد وأن تقع اليمن في حلقة الصراع بين الساسانيين والبيزنطيين، لأن كل دولة تتعقب مصالح الدولة الأخرى لتضغط عليها سواء كانت اليمن أو أرمينية أو غيرها من المناطق الأخرى.

ولم يقتصر الاهتمام السياسي للدولتين الكبيرتين غلى منطقة القفقاس وتخوم أرض الجزيرة فحسب، بل تجاوزهما إلى تخوم شبه الجزيرة العربية الواقعة على الطرق البعيدة ذات الاهمية التجارية المارة بمحاذاة سواحل البحر الأحمر التي أرادت كل منهما السيطرة عليها ووضعها تحت نفوذها، فبيزنطة سعت للتخلص من الاحتكار الساساني للتجارة ولا سيما تجارة الحرير المارة بأراضيهم إلى الاتصال المباشر بمنابع التجارة الشرقية عن طريق البحر الاحمر (131). وبما ان الرأس الشمالي (بلاد الشام) لهذا الطريق تحت سيطرتها، فلم يبق امامها سوى السيطرة على رأسه الجنوبي (اليمن)، ويبدو ان الدرس الذي تلقوه في حملة اليوس جالوس* (Aelius Galus)سنة 24ق.م، جعلهم لا يفكرون مطلقاً باستخدام القوة العسكرية(132)، لذا لجأت إلى الطرق الدبلوماسية من خلال التقرب من الحبشة** التي كانت تدين بالديانة المسيحية *** وكانت هي الأخرى تطمع بالاستيلاء على اليمن إذ كانت ترى فيها امتداداً طبيعياً لملكتها (133). ولم تكن اليمن بعيدة عن طموح الساسانيين الذين كانت تربطهم بها علاقات تجارية تعود إلى ما قبل الاسلام، فكانوا يرسلون قوافلهم التجارية إليها، ويوكلون حراستها إلى جماعات من زعماء القبائل يتمتعون بنوع من النفوذ فيها (134)، وكانت لهم سفن في ميناء (ادوليسAdulis) (عدولي*) تتاجر مع الحميريين (135)، وكانت بيزنطة تراقب تلك العلاقات بعين الريبة والحذر، وتخاف من حدوث تقارب بين الطرفين، لان ذلك التقارب يعني وقوع طريق البحر الأحمر في قبضة الساسانيين وبذلك يتمكنون من احكام حصارهم على بيزنطة ويحرمونها من تجارة الشرق (136).

ومما زاد في مخاوف بيزنطة الاتصالات التي كانت بين الملك الحميري ذو نواس** (517 525 م) وبين ملك المناذرة المنذر الثالث، الذي كان يدور في فلك السياسة الساسانية، ولذلك أدت بيزنطة دوراً اساسياً وبارزاً في تمكين الحبشة من الاستيلاء على اليمن سنة 525م* (137).

وعلى ضوء تطور العلاقات بين بيزنطة والحبشة بذل الإمبراطور جستنيان جهوداً حثيثة لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية على حساب عدوته الدولة الساسانية فارسل

الى ملك حمير سمه يفع اشوع** (531- 525م) ونجاشي الحبشة كالب الاصبحة *** (Kaleb ElleíAsbeha)سنة 530–531م رسوله جوليانوس (Julianus) للتفاوض معهما بمهمتين متشاكلتين، طلب في الأولى مَنها باسم الاخوة في الدين اعلان الحرب على الساسانيين وحلفائهم اللخميين بتكوين جيش كبير تتوحد فيه قوى الاكسوميين والحميريين وعرب وسط وشمال شبه الجزيرة العربية*، أما المهمة الثانية فكانت ذات هدف اقتصادي بحث، هو اقناع نجاشي الحبشة بالقيام بدور الوسيط بدلاً من الساسانيين، إذ يقوم ملك الحبشة بشراء الحرير من الهنود ثم يبيعه للبيزنطيين (138).

ان تلك السفارة كشفت عن الأهداف الحقيقية للدبلوماسية البيزنطية فقد تمكنت باسم الدين من تحقيق ما فشلت روما في تحقيقه سنة 24ق.م (أي فشل حملة اليوس جالوس)، وها هي مرة أخرى تتخذ من الدين وسيلة لخلق قوة عسكرية تتوحد فيها قوى العرب لتوجهها ضد عدوتها اللدودة وحلفائها اللخميين، بمعنى إنها أرادت أن تمارس الضغط على الدولة الساسانية من ناحية العرب (139).

وبحسب ما ذكرته المصادر فان دبلوماسية جستنيان اخفقت في تحقيق أهدافها، فمع أن ملكي حمير والحبشة قد وعدا رسول الإمبراطور خيراً، إلا أن أي منهما لم ينفذ وعده، إذ كان من الصعب على الحميريين اجتياز أرض واسعة بعيدة وطرق طويلة تمر بصحارى وقفار لمحاربة شعب اكثر استعداداً منهم لخوض المعارك (140)، أما الاحباش فلم يكونوا في وضع يسمح لهم بشراء الحرير من الهنود، لأن التجار الساسانيين وبسبب قرب بلادهم كانوا يقيمون في الموانئ التي كانت تقف عندها السفن الهندية وقد اعتادوا شراء جميع حمولتها (141)، وان تعامل /زهل تلك الموانئ مع التجار الساسانيين يعود إلى عهد بعيد ولذلك لم

يشاؤا الاساءة إليهم بالتعامل مع منافسيهم(142)، والاكثر من ذلك أن الاحباش انفسهم لم يقطعوا علاقتهم التجارية مع الساسانيين (143).

وهكذا ظل الساسانيون يحتكرون تجارة الحرير لأنفسهم، وظل ذلك الأمر يفزع بيزنطة ولا سيما في أثناء الحروب بينهما، الا أن الأمور تيسرت بعد عشرين سنة، إذ تمكن قسيسان بين سنة 552و سنة 554م من أن ينقلا معهما من الصين وهما عائدان شرانق دودة القز في قصبة مجوفة، واخذت الإمبراطورية البيزنطية تنتج ما يلزمها من الحرير (144)، وهذا يعني أنه أصبح لدى البيزنطيين انتاج محلي من الحرير استعاضوا به مما كان قد لحق بهم من خسارة وصاروا إلى حد ما في مأمن من تحكم الساسانيين في مقدراتهم.

حملة أبرهة الحبشي على اليمن:

أفلحت الجهود البيزنطية في التحريض على غزو الجزيرة العربية، وذلك لفتح طريق تجاري جديد يربط الحبشة واليمن ومدن الحجاز المهمة في ذلك الوقت وهي مكة والمدينة والطائف برباط سياسي جديد تقوده الدولة البيزنطية عبر دولة الحبشة.

وتكللت الجهود البيزنطية في توجيه حملة عسكرية كبيرة جداً، منطلقة من الحبشة، صوب بلاد اليمن، وكانت اليمن في منتصف القرن السادس للميلاد، محطة تجارية مهمة، إذ كانت محط السفن التجارية القادمة من شرق أفريقيا وبلاد الهند والصين، فعجت موانئها وأسواقها بمختلف أنواع البضائع الإفريقية والهندية والصينية من العاج والذهب والفضة والحديد والتوابل، وكذلك غصت أسواق وموانئ اليمن بمنتجات الدولة البيزنطية وأوربا، فازدهرت الحياة الاقتصادية في اليمن، ولحقتها موانئ البحر الأحمر ومدن الحجاز التي أخذت تلعب دوراً مهماً في نقل هذه البضائع.

وقد أشار القرآن الكريم في سورة الأيلاف إلى ذلك، قال تعالى: ((لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف))، فكانت قوافل الحجاز تنطلق شتاءً إلى اليمن وصيفاً إلى بلاد الشام حاملة البضائع التجارية، من هنا أصبح لليمن مركز إقتصادي مهم جداً في ذلك الوقت، وقد جرت هذه الخطة وفق مرحلتين الأولى هي قيام الحبشة باحتلال اليمن، على اعتبارها أنها المحطة المهمة في طريق التجارة الأفريقية ـ الهندية ـ الصينية ـ البيزنطية، فكانت موانئ اليمن في

بداية القرن السادس للميلاد، من أنشط الموانئ المطلة على البحر العربي، بما عرف عن التجار الحضارمة من نشاط منقطع النظير في التجارة البحرية مع أفريقيا والهند والصين، فكانت الموانىء اليمنية المختلفة تعج بالسفن القادمة والذاهبة إلى هذه البلدان سالفة الذكر، ونشط التجار اليمنيين في استيراد وتصدير مختلف أنواع البضائع التجارية، إذ غصت مخازن اليمن بالبضائع التجارية القادمة من الهند والصين والتي كان أهمها الحرير والفخار الصيني والبهارات، فضلاً عن بضائع ومنتجات شبه الجزيرة العربية، ومنها الصمغ والعطور واللبان والعود اليمني، أما البضائع الإفريقية فكانت تتمحور حول قرون الفيلة وقرون وحيد القرن (الكركدن) والذهب و العبيد والجواري الإفريقات، فضلاً عن الأخشاب التي تشتهر بانتاجها أفريقيا.

وتخلصت الدولة البيزنطية بالتالي من إحتكار الساسانيين للتجارة وطرقها مع الهند والصين عبر طريق الحرير. وقد عثر على نص يبين لنا مقدار الضرائب المفروضة على السلع التجارية التي كانت تمر في بلاد العرب، صحيح أنه في فترة سابقة لدراستنا، لكنه يبين لنا أهم البضائع ومنها الأنسجة الصوفية وصبغ الأرجوان والحرير والعاج الخام والمصنع والعطور بأنواعها وزيت الزيتون والفواكه المجففة كالتين والجوز والجبن والخمر والزجاج (145).

ومما تجدر الإشارة إليه فإن تجار اليمن لم يكن لهم الفراغ الكافي لإيصال المواد التجارية إلى سواحل البحر المتوسط، حيث الدولة البيزنطية، أو لم تكن لهم الخبرة الكافية في الطرق التي تمر بها التجارة من اليمن إلى بلاد الشام، ولربما لم يستطع اليمنيين الخوض في غمار شيءٍ مجهول العواقب، فتركوا هذه المرحلة من الطريق التجاري إلى تجار قريش، لما تتمتع به قريش من مكانة دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية مع القبائل العربية المنتشرة في القرى والمفاوز على طول الطريق التجاري إلى الشام.

وفي مكة المكرمة تقع الكعبة المشرفة التي كان يحج إليها جميع العرب من مختلف المناطق في الجزيرة العربية وخارجها، وكانت القبائل تضع أصنامها وأوثانها فيها، وعندما يحج العرب، كانت قريش تقدم له تسهيلات في الحج (الرفادة، السقاية، الملابس والأمان الذي لاغنى لأي عربي عنه في ذلك الوقت في الأشهر الحرم)، ولذلك كانت قبائل قريش تسير في تجاراتها غير آبهة أو خائفة من أحد، فضلاً عن الإيلاف (العهود أو الإتفاقات)،

التي عقدها جد الرسول محمد (مع زعماء هذه القبائل. وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرحلة والتجارة وما تجنيه قريش من أرباح من جراء الاتجار مع الشام واليمن فقال تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فل يعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف﴾ (146).

إن انطلاق حملة عسكرية كبيرة، وعبور جيش مدعوم بالفيلة، وتغيير نظام الحكم في اليمن لم يكن بالأمر السهل والهين في ذلك الوقت، فضلاً عن تأثيره على كل أوضاع المنطقة، فأصبحت الأمور الآن بيد الأحباش، فهم الحكام وبيدهم الضرائب والتجارة، يمنعون من يشاؤون، ويسمحون لمن يشاؤون، فبعد أن كانت اليمن تحكم من قبل أبنائها، أصبحت اليوم محتلة (147)، تسخر طاقاتها وإقتصادها لخدمة الحبشة، وهذا أمر صعب للغاية بالنسبة لسكان اليمن، فبعد أن كانوا سادة أنفسهم، أصبحوا عبيداً أو خدماً للمحتل الحبشي، ومن ورائه الدولة البيزنطية، يخضع سكان اليمن لتوجهات الحبشة وأوامرها، ولم تكتف الحبشة بهذا الاحتلال لليمن، فأرادت أن تمد يدها إلى مكة المكرمة، المركز الديني والتجاري لكل العرب في شبه الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها (148)

فقاد أبرهة حملة كبيرة توجه بها صوب مكة المكرمة لهدم الكعبة المشرفة وساق عدداً من الفيلة، لكن الله (حمى الكعبة المشرفة، وحمى أهلها مما أريد بهم من سوء، فرجع أبرهة الحبشي بأسوأ حال هو وجيشه، وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها، قال تعالى: ((ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول)) (149). وبعد رجوع الجيش المنهزم من مكة، بان لأهل اليمن الضعف الذي أصبحت عليه اليمن، فاستنجد أحد زعماء اليمن، بعدوة الدولة البيزنطية، وجاء باحتلال آخر لليمن وهو الاحتلال الفارسي، الذي طرد الأحباش وجاء بالفرس، وظل الأمر هكذا حتى مبعث الرسول محمد ﷺ، حيث أسلم سكان اليمن وتحرروا من السيطرة الفارسية، وشكلوا قسماً كبيراً من الجيش الإسلامي المتجه صوب الدولتين الساسانية والبيزنطية.

الهوامش

(1) باقر: إيران ص 93- 96؛ الحديثي: دراسات ص 56- 57. ولمزيد من التفاصيل: خالد حمو حساني: المقاومة العربية للنفوذ الساساني (الحيرة من 226- نهاية موقعة ذي قار)، رسالة ماجستير كلية التربية /جامعة تكريت 2003.

(2) فؤاد سفر ومحمد علي مطصفى: الحضر مدينة الشمس، بغداد، مطبعة رمزي 1974م، ص 17؛ مهدية فيصل الموسوي: العلاقات السياسية الساسانية البيزنطية 226- 638م، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة بغداد نكلية التربية ابن رشد 2006م، المكتبة الافتراضية جامعة الموصل تحت رقم 448 تاريخ ص 67.

(3) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص85؛ الموسوي ص 67.

(4) طه باقر وفؤاد سفر: المرشد إلى مَواطن الآثار والحضارة، وزارة الثقافة والإرشاد سلسلة الثقافة الشعبية رقم (1962 (45م، ص31؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 67.

(5) علي: المفصل 2/612.

(6) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة 1964م 1/55؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 67.

(7) سفر: الحضر ص11، 26؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 67.

(8) سفر: الحضر ص 29؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 68.

(9) رافقت رحلة علمية لطلبة كلية الآداب /جامعة بغداد، بصحبة الدكتور محمد صالح العابد والدكتور بدري محمد فهد في عام 1984 لزيارة الموقع الأثري لهذه المدينة، مع طلبة السنة الرابعة قسم التاريخ، واطلعنا على هذه التحصينات العسكرية. وكانت هنالك في الوقت نفسه بعثة تنقيب قد اكتشفت أحد المعابد المهمة في المدينة برئاسة الأستاذ الدكتور جابر خليل إبراهيم.

(10) الموسوي: العلاقات السياسية ص 68

(11) نجمان ياسين محمد: الحضر مملكة العرب المنتصرين، مجلة آفاق عربية العدد 1- 2 السنة 24، دار الشؤون الثقافية بغداد 2002م ص44؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 68.

(12) الموسوي: العلاقات السياسية ص 68

(13) سامي سعيد الأحمد: تاريخ الرومان، مطبعة التعليم العالي (د.ت) ص220؛ سفر: الحضر ص32؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 69.

(14) ياسين: الحضر مملكة العرب ص45؛ سفر: الحضر ص 32؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 69.

(15) الموسوي: العلاقات السياسية ص 69.

(16) علي: المفصل 2/615؛ سفر: الحضر ص 32؛ الموسوي: العلاقات الساسانية ص 69.

(17) الخابور نهر ينبع من تركيا ويقع في إقليم الجزيرة ويمر بسهل السندي الذي تقطنه قبيلة كردية قوية شديدة البأس تحمل اسم السهل نفسه، ويقع عليه الجسر العباسي الذي كان الممر الوحيد العبور إلى مدينة زاخو. طارق فتحس سلطان و فواز حميد حمو النيش: الجسر العباسي في مدينة زاخو، دراسة تاريخية جيموفولوجية، مقبول للنشر في مجلة التربية والعلم، كلية التربية جامعة الموصل. وليس نهر الخابور في سوريا كما أوردته الباحثة الموسوي ص 69.

(18) عدي بن زيد بن أيوب العبادي: ديوانه، تحقيق وجمع: محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية للطباعة والنشر، بغداد 1965م ص 88؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 70

(19) أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، بيروت ندار إحياء التراث العربي 1988م ص124؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 70

(20) سفر: الحضر ص 32؛ فواد سفر: ثبت بسادة الحضر وملوكها / مجلة سومر، ج/ 1و 2مجلد 28، السنة 1972م بغداد ص 15. ؛ الموسوي: العلاقات السياسية ص 70

(21) ابن قتيبة: المعارف ص653؛ الموسوي: العلاقات الساسانية ص 70.

(22) ابن الفقيه: مختصر ص124،185؛ الموسوي: العلاقات ص 71

(23) الدينوري: الأخبار الطوال ص 51؛ علي بن الحسن الاصفهاني: الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر بيروت 2/134؛ أبو الفتح محمد بن أحمد الابشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، تحقيق محمد مفيد قميحة، بيروت دار الكتب العلمية 1986م 1/450؛ الموسوي: العلاقات ص 72.

(24) الطبري: تاريخ 1/395- 396؛ حسين بن محمد الميرغني: غرر السير ترجمة هت زوتبرغ، باريس، المطبعة الوطنية 1950م ص 489؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان 2/286. ؛ عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون بيروت، مؤسسة الاعلمي لطباعة والنشر بيروت 1971م 2/170. الموسوس: العلاقات ص 72؛

(25) العراق في القرن الرابع للميلاد: ترجمة فؤاد جميل، مراجعة سالم الآلوسي، بغداد الموسوعة الصغيرة العدد 413، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988م ص84؛ الموسوي: العلاقات ص 72.

(26) سفر: الحضر ص 34؛ الموسوي: العلاقات ص 72.

(27) معجم البلدان 2/268.

(28) الديوان ص205؛ الموسوي: العلاقات ص 73.

(29) الطبري: تاريخ 1/395؛ ياقوت: معجم البلدان 2/268،3/375.

(30) الاصفهاني: الأغاني 2/134.

(31) الطبري رتاريخ 1/395، ياقوت: معجم 3/268؛ الابشيهي: المستظرف 1/450؛ الموسوي: العلاقات ص 74.

(32) سفر: الحضر ص 35؛ الموسوي: العلاقات ص 74.

(33) الطبري: تاريخ 1/395؛ الأصمعي نهاية الأرب ورقة 235؛ الموسوي: العلاقات ص 74.

(34) سفر: الحضر ص 34؛ الموسوي: العلاقات ص 75.

(35) الاصفهاني: الأغاني 2/135؛ الموسوي: العلاقات ص 75.

(36)الطبري: تاريخ 1/395– 396؛ المقدسي: البدء والتاريخ 3/157الاصفهاني: الأغاني 2/134؛ الفردوسي: الشاهنامة 2/58– 59؛ سفر: الحضر ص16؛ الموسوي: العلاقات ص75– 76.

(37) التنوخ المقام والاستقرار والتنوخيين مجموعة من القبائل العربية التي استقرت وتحالفت فيما بينها للعيش في البحرين، ثم انتقلوا إلى أرض العراق الجنوبية واستقروا فيها، الطبري: تاريخ 1/610– 612؛ الموسوي: العلاقات ص 174. والكلمة تستخدم الي اليوم عنما يراك من الجمل أن يبرك إلى الأرض فيقال له نوخ نوخ مرتين أو ثلاثة فيبرك الجمل ويشد العقال في قوائمة الأمامية (الباحث).

(38) الطبري: تاريخ 1/612– 613؛ يوسف رزق الله غنيمة: الحيرة المدينة والمملكة العربية، مطبعة دنكور، بغداد 1936م ص 119– 122،120،؛ الموسوي: العلاقات ص 174.

(39) باقر: إيران ص 157؛ محمد ثامر النفزاوي: فارس وبيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع الميلادي، تونس دار الجنوب للطباعة والنشر ص17؛ خالد صالح العسلي: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الاسلامية المبكرة، بغداد، دار الشؤون الثقافية 2002م، ص97؛ العلي: محاضرات ص 64– 72؛ الموسوي:العلاقات ص 175.

(40) اليعقوبي: تاريخ 1/179؛ حمزة بن الحسن الاصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بيروت دار مكتبة الحياة، 1961م ص76؛ الموسوي: العلاقات ص 175. وامه الرقاش بنت مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان.

(41) هاشم يحي حسين الملاح: الوسيط في السيرة والخلافة الراشدة، دار الكتب للطباعة والنشر؛ جامعة الموصل 1994ص220؛ إبراهيم محمد علي: المناذرة دراسة سياسية حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الموصل 1982م ص 30؛ الموسوي: العلاقات ص 175.

(42)غنيمة: الحيرة ص 130؛ الموسوي: العلاقات ص 175.

(43)محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي: مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة 1342هـ؛ صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام بغداد 1960،ص 66.

(44) رينيه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام ترجمة عبد الحميد الدواخلي، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الدار القومية للطباعة والنشر، ص 33- 34

(45) ابن الأثير: الكامل 1/396.

(46) الطبري: تاريخ 2/53.

(47) خالد العسلي: الأعراب في النقوش العربية الجنوبية، مجلة العرب العدد 5 كانون الثاني 1971م ص 403؛ علي: المفصل 3/192.

(48) الطبري: تاريخ 1/609- 632؛ ابن الاثير: الكامل 1/340.

(49) علي: المفصل 3/194.

(50) ابراهيم خوري وأحمد جلال التدمري: سلطنة هرمز العربية، رأس الخيمة 1999م مجلد 1/ 136؛ ابن قتيبة: المعارف ص656؛ الطبري: تاريخ 1/399؛ الموسوي: العلاقات ص 105.

(51) الثعالبي: تاريخ غررالسير، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، طهران 1963م ص540؛ الطبري: تاريخ 2/60.

(52) ابن حبيب: المحبر ص358؛ الطبري: تاريخ 2/61- 62

(53) ابن حبيب: المحبر ص358؛ ؛ الطبري: تاريخ 2/65.

(54) الطبري: تاريخ 2/65؛ ابن حبيب: المحبر ص 358.

(55) الطبري: تاريخ 2/65

(56) الاصفهاني: تاريخ ص79؛ الطبري: تاريخ 1/405؛ الموسوي: العلاقات ص 175.

(57) الطبري: تاريخ 2/67؛ ابن الأثير: الكامل 1/400.

(58) الملاح: الوسيط ص 219- 220؛ أحمد أمين: فجر الإسلام مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1945م 1/16؛ جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام 10/280؛ فيليب حتي

وآخرون: تاريخ العرب المطول، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1965م، 1/108.

(59) الطبري: تاريخ 1/404؛ ابن الأثير: الكامل 1/257.

(60) الطبري: تاريخ 2/69.

(61) الطبري: تاريخ 1/406- 409؛ أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ابن مسكويه تجارب الأمم وتعاقب الهمم، بيروت دار الكتب العلمية 2003م، 1/114- 118.

(62) يحى الخشاب: إسلام فارس ص14، علي: المناذرة ص 35؛ الموسوي: العلاقات ص 176.

(63) سالم أحمد محل: العلاقات العربية الساسانية خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل 1982م، ص 180؛ علي: المفصل 3/ 208؛ الموسوي: العلاقات ص 177.

(64) الطبري كتاريخ2/90.

(65) ابن حبيب: المحبر ص359؛ الطبري رتاريخ 2/104. كرستنسن: إيران ص 337؛

(66) ابن حبيب: المحبر ص 359.

(67)ابن حبيب: المحبر ص 360؛ المقدسي: البدء 3/168.

(68)الطبري: تاريخ 2/95- 96.

(69) ابن حبيب: المحبر ص369- 370. ؛ ابن الاثير: الكامل 1/435.

(70) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف القاهرة ط/ 8، 1977م ص44؛ إبراهيم محمد على: طبيعة العلاقة بين مملكة الحيرة والدولة الساسانية خلال فترة حكم النعمان بن المنذر 585- 602م، مجلة التربية والعلم المجلد 18، العدد 4، السنة 2011م، ص 71.

(71) علي: طبيعة العلاقة ص 71- 72.

(72) محمد بن حبيب: المحبر، بيروت 1361هـ ص 253؛ علي: طبيعة العلاقة ص 72.

(73) ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمد حسين، القاهرة 1950م ص145.

(74) ابن حبين: المحبر ص 253. ؛ علي: طبيعة العلاقة ص 72.

(75) كستر: الحيرة، ملاحظات في علاقاتها، ترجمة خالد المسلي، مجلة بين النهرين العدد 7، السنة الثانية، 1974م ص243- 244؛ علي: طبيعة العلاقة ص 72.

(76) كستر: الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية، ترجمة يحى الجبوري، بغداد 1976م ص 41؛ على: طبيعة العلاقة ص72.

(77) بيغولوفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن 4 إلى القرن 6، ترجمة صلاح

الدين عثمان هاشم، الكويت 1985م ص146؛ هاشم يحى حسين الملاح: الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، الموصل 1994م، ص236- 237؛ علي: طبيعة العلاقة ص 72.

(78) كرستنسن: إيران ص 40- 41؛ كستر: الحيرة ومكة ص 40- 41.

(79) أبو حنيفة أحمد بن داؤد الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، 1960م ص110؛ الملاح: الوسيط ص 237.

(80) أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي: العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين القاهرة 2/ 4- 9؛ على: طبيعة العلاقة ص 73.

(81) علي: المفصل 3/279؛ علي: طبيعة العلاقة ص 73.

(82) ابن عبد ربه: العقد 2/9- 10؛ علي: طبيعة العلاقة ص73.

(83) ابن عبد ربه: العقد 2/10- :11؛ علي: طبيعة العلاقة ص 74.

(84) عبد الملك بن قريب الاصمعي نهاية الادب في اخبار الفرس والعرب مخطوطة مصورة ورقة 245ا وب ؛ محمود عبد الله العبيدي: بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي الاسلامي، بغداد 1984م ص133؛ علي: طبيعة العلاقة ص 74.

(85) أبن الاثير: الكامل 1/472.

(86) عبد الله عبد العزيز البكري: معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة 1954م، 1/ 70- 71.

(87) ابو الفرج الاصفهاني: الأغاني، بيروت 1970،2124؛ الدينوري: الاخبار ص111؛ على: طبيعة العلاقة ص 76.

(88) علي هبة الله بن جعفر ابن مأكولا: كتاب تهذيب مستمر الاوهام، بيروت 1410هـ، 1/110؛ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الاصحاب، تحقيق علي البجاوي، بيروت 1412هـ، 1/73؛ ابن الأثير: الكامل 1/482- 490. على: طبيعة العلاقة ص 77.

(89) أحمد العاني: الدولة الساسانية في العراق مجلة الرائد، العدد 28السنة 2008م، ص1، -Ya hoo. A10/6/2012 com. D- p 10/H. m

(90) الطبري: تاريخ 2/194- 195؛ علي: طبيعة العلاقة ص 77. ؛ الملاح: الوسيط ص 241.

(91) أبو بكر محمد بن الحسن ابن دريد: الاشتقاق، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 362؛ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ط/3، بيروت دار الكتب العلمية 2003، ص 419، 425 ؛ ياقوت: معجم البلدان 4/211؛ الموسوي: العلاقات ص 181.

(92) أبو الفدا: المختصر 1/121علي: المفصل 3/321- 322؛ الموسوي: العلاقات ص 181.

(93) ابن دريد: الاشتقاق ص75.

(94) جونار اولندر: ملوك كندة من بني آكل المرار، ترجمة وتحقيق عبد الجبار المطلبي، دار الحرية للطباعة، بغداد 1973م، ص 92؛ الموسوي: العلاقات ص 182.

(95) اولندر: ملوك كندة ص92؛ الموسوي: العلاقات ص 182

(96) بيغوليفسكيا: العرب ص ص168؛ الموسوي: العلاقات ص 182.

(97) اولندر: ملوك كندة ص92

(98) اولندر: ملوك كندة ص92

(99) اولندر: ملوك كندة ص 93؛ الموسوي: العلاقات ص 183.

(100) بيغوليفسكيا: العرب ص169؛ الموسوي: العلاقات ص 183.

(101) اولندر: ملوك كندة ص 93؛ الموسوي: العلاقات ص 183.

(102) بيغوليفيسكا: العرب ص 166- 167؛ الموسوي: العلاقات ص 184.

(103) الموسوي: العلاقات ص 184.

(104) اولندر: ملوك كندة ص 107،94؛ الموسوي: العلاقات ص 184.

(105) الموسوي: العلاقات ص 184.

(106) اولندر: ملوك كندة ص 197،94؛ الموسوي: العلاقات ص 185.

(107) الطبري: تاريخ 1/420؛ ابن مسكويه: تجارب الامم 1/125- 126؛ ابن الاثير: الكامل 1/415؛ الموسوي: العلاقات ص 186.

(108) الصفحات التالية نقلت كاملة من كتاب السيدة الموسوي مع مصادرها ومراجعها.

(109) اولندر، ملوك كندة، ص114؛ فرعون، دور مملكة كندة، ص22.

(110) اولندر، المصدر نفسه، ص114؛ علي، المفصل، ج3، ص341.

(111) فرعون، دور مملكة كندة، ص22- 23.

(112) ابن حبيب، المحبر، ص 359؛ الاصفهاني، تاريخ سني، ص 81؛ الطبري، تاريخ، طبعة دار المعارف، ج2، ص 104؛ غنيمة، الحيرة، ص162، الموسوي: العلاقات ص185. ،187.

(113) اولندر، ملوك كندة، ص108؛ بيغوليفسكيا، العرب، ص96، الموسوي: العلاقات ص 187.

(114) الملاح، الوسيط، ص230.

(115) تاريخ السلالة اللخمية، ص، 255. ؛ الموسوي: العلاقات ص 187.

(116)العرب، ص 106؛ الموسوي: العلاقات ص187 .

(117) العرب: ص 103؛ روتشتاين: تاريخ السلالة اللخمية، ص255. ؛ الموسوي: العلاقات ص 187.

(118) اولندر: ملوك كندة، ص114.

(119) اولندر: ص115؛ الملاح: الوسيط، ص205.

(120) ابن حبيب: المحبر، ص 369؛ الاصفهاني: الاغاني، ج 9، ص96؛ ابن الاثير: الكامل، 1/279؛ أبو الفداء: المختصر، 122 /1. ؛ الموسوي: العلاقات ص 188.

(121) تاريخ 2/276.

(122) الاصفهاني: تاريخ سني، ص83.

(123) اولندر: ملوك كندة، ص113؛ علي: المفصل، ج3، ص341. هناك من المؤرخين من يرى أن تولي الحارث الكندي لعرش المناذرة كان سنة 529م، وأن المنذر ظل طريداً حتى إعاده إليه الملك كسرى انوشروان بعد ارتقائه العرش سنة 531م (ابن حبيب: المحبر، ص 369؛ الاصفهاني: تاريخ سني: ص 83؛ ابن الاثير: الكامل 1/279؛ ابن خلدون: تاريخ، 2/274؛ محل: دور العرب، ص390، إلا أن اشتراك المنذر إلى جانب الساسانين في الحرب ضد البيزنطيين في آذار سنة 529م وسنة 530م و531م تجعلنا نستبعد صحة ما ورد.

(124) كرستنسن: إيران، ص344- 346.

(125) اولندر: ملوك كندة، ص115؛ بيغوليفسكيا: العرب، ص 172؛ علي: المفصل، 3/343.

(126) يقصد بها جزيرة العرب، لأن بضائع الهند تأتي عن طريقها.

(127) بيغوليفسكيا: العرب، ص107، 172؛ الملاح: الوسيط، ص206- 207.

(128) بيغوليفسكيا: العرب ص172. ؛ الموسوي: العلاقات ص 189.

(129) اولندر: ملوك كندة، ص95؛ بيغوليفسكيا: العرب ص108، 173؛ علي: المفصل 3/343وعند كرستنسن ان المنذر قضى على الحارث وعاد إلى عرشه سنة 529م: إيران: ص346.

(130) علي: المفصل 3/353- 357.

(131) العريني: الدولة البيزنطية، ص 88؛ أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) (القاهرة: دار الفكر العربي، 1965م)، ص 164؛ عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية 1/120.

*حملة اليوس جالوس: هدف هذه الحملة الاستيلاء على اليمن وجعل البحر الأحمر بحراً رومانيا،

وقد حدثت هذه الحملة في عهد الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر سنة 24ق.م،انطلقت من مصر برئاسة والي مصر الروماني اليوس جاللوس وبمساعدة أحد الأدلاء العرب يسمى صالح، وقد واجهت من المصاعب والعقبات ما جعلها تنكص على اعقابها (حتي واخرون: تاريخ العرب، 1/158؛ علي: المفصل، 45 ñ 2/44وللتفصيل، أحمد صالح محمدالعبادي: الاطماع الاجنبية في اليمن قبل الاسلام 24ق.م 628ñم،رسالة ماجستير غير منشورة، (بغداد: جامعة بغداد-كلية التربية، 2001م)،ص 32-42 . ؛ الموسوي: العلاقات ص 193.

(132) الشريف: مكة والمدينة، ص152- 153؛ العبادي: الاطماع الاجنبية، ص43.

**الحبشة (اثيوبيا): يقال ان الحبشة سميت بهذا الاسم نسبة إلى القبائل اليمينة التي هاجرت إلى سواحل افريقيا بين السنوات 250ñ 232م كبني حُبَيَشْ والجعز التي تنسب إليهم اللغة الجعزية لغة اهل الحبشة ويسمي العرب ملكهم بالنجاشي او ملك اكسوم نسبة إلى عاصمتهم اكسوم (علي: المفصل، 449/3- 451 ؛ جواد مطر الحمد: الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم خلال الالف الأول قبل الميلاد حتى عشية الغزو الحبشي 252م، (الشارقة: دار الثقافة العربية، 2002م)، ص482؛ العبادي: الاطماع الاجنبية، ص (52).

*** اعتنق الاحباش المسيحية على المذهب الاريوسي اليعقوبي، وصارت الديانة الرسمية للبلاد زمن ملكهم عيزانا Ezana الذي لا يعرف سنوات حكمه على وجه التحديد، سنة 354م بتأثير المبشر الهندي الاصل ثاوفيلس، وقد نجح في أنشأ كنيسة في ظفار وصار رئيس اسقفيتها والمشرف على باقي الكنائس في اليمن ومن ضمنها كنيسة نجران (حتي وآخرون: تاريخ العرب 1/80؛ علي: المفصل/3، ص 456؛ مار اغناطيوس: الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، مجلة (البطريركية)، ع31، س4، (دمشق: بطريركية انطاكيا وسائر المشرق للسريان الارثوذكس، 1965م)، ص20.

(133) الشريف: مكة والمدينة، ص161؛ حتي واخرون: تاريخ العرب 1/82؛ الملاح: الوسيط،ص96.

(134) علي: المفصل 2/632.

*عدولي: ميناء حبشي اشتهر في عصر ما قبل الإسلام كأهم ميناء بالبحر الاحمر، ولا سيما لتجارة المرور (الترانزيت) ولتسويق السلع الافريقية مثل العاج والرقيق وغيرها، كذلك أشتهر بصناعة نوع من السفن تسمى العدولية، وقد تدهور هذا الميناء بسبب استيلاء الساسانيين على اليمن سنة 575م، ثم بزوغ فجر الاسلام، فلم يبقى منه إلا ذلك النوع من السفن التي اكتسبت شهرة بسواحل الخليج (بيغوليفسكيا: العرب، ص 189الهامش).

(135)حوراني: العرب والملاحة، ص198.

(136)العبادي: الاطماع الاجنبية، ص158.

**ذو نواس: هو اخر ملوك حمير، اسمه زرعة بن زيد بن كعب كهف الظم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن حُشم بن وائل بن عبد شمس بن الغوث بن جدار بن قطن بن عريب بن الرئش بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وإنما سمي (ذا نواس) لذؤابة (شعر في أعلى الناصية) كانت تنوس (تتذبذب) على راسه (الدينوري: الاخبار الطوال، ص(63، واسمه عند البيزنطيين (دميانوس)، وعند السريان (مسروق) وفي النقوش (يوسف اسار) سمي يوسف بعد اعتناقه اليهودية. اغناطيوس، افرام الأول: كتاب الشهداء الحميريين، مجلة (المجمع العلمي العربي)، مج23، ج1، (دمشق: مطبعة الترقي، 1948م)، ص(5).

* ان الصراع بين الحبشة واليمن الذي انتهى بانتصار الاحباش لم يكن صراعاً دينيا فحسب وانما كان صراعاً سياسياً اقتصادياً اتخذ مظهراً دينيا، فاتخذ ملك اليمن ذو نواس (يوسف) اليهودية ديانة رسمية لبلاده إنما كانت ضربة موجهة ضد فئة من رعاياه جمعت ثروة كبيرة من متاجرتها مع الحبشة وبيزنطة واعتنقت المسيحية، أما في الخارج فقد أراد وضع حد لامتداد النفوذ البيزنطي في بلاده ولا سيما أن نجران كانت مركزاً مهماً لذلك النفوذ، ولقطع شريان التعاون بين الحبشة وبيزنطة عطل تجارة ميناء ادولس)Adulisعدولي) ومنع قوافل التجارة الحبشية العبور عبر اراضيه وقتل عدد من التجار البيزنطيين ونهب بضائعهم (كوبيشانوف: الشمال الشرق الافريقي، ص34- 35؛ العلان: السياسة الساسانية، ص 159-160 .

(137) إذ ارسل ذو نواس رسله إلى المنذر الثالث يعرض عليه التعاون معه في القضاء على المسيحيين في بلاده مقابل ثلاثة الالف دينار (كوبيشانوف: الشمال الشرق الافريقي، ص(50.

** سمه يفع اشوع: اسيميفايوس (Esimiphaeus) عند البيزنطيين هو ابن عم ذو النواس، ترك جانبه وانضم إلى الحبشة سنة 524م، فحاولت الاخيرة الافادة منه في حربها ضد اليمن، فجعلت منه رئيساً للمهاجرين المسيحيين اليمنيين، وقبل انطلاق حملتها على اليمن إعادته ومن معه من المهاجرين إلى سواحل اليمن الجنوبية واوكلت إليه مهمة بث الاضطراب في صفوف الحميريين في اليمن وتشجيع المتمردين على ترك الملك الحميري ذي نواس والانضمام إلى الاحباش (كوبيشانوف: الشمال الشرق الافريقي، ص71-70 وبعد استيلائهم على اليمن عينه نجاشي الحبشة كالب إلا اصبحة حاكماً على اليمن بصفته تابعاً له (بروكوبيوس: جنكهاي /1 .(103-102

*** كالب الا اصبحة: تعني الا (Elle) ذو او لآل، اما (اصبحة) فاسم أجداده او قبيلته التي انحذر منها علي: المفصل (3/470).

* ان تكوين ذلك الجيش مرتبط إلى حد كبير بالمهمة الثالثة التي جاء من أجلها رسول الإمبراطور، وهي طلبه من ملك الحميريين سمه يفع اشوع السماح لقيس زعيم قبيلة معد التابعة للحميريين، المعروف بشجاعته وتمرسه في القتال، بالعودة إلى زعامة القبيلة، وكان قيس قد هرب إلى البادية بعد أن قتل أحد أقارب سمه يفع اشوع، وكان بامكان الاخير ان يطالب بدمه ويقتله وفقاً للعرف الجاري بأخذ الثار، الا ان الإمبراطور أراد أن يستغل شجاعة قيس ليقوم بمهمة مهاجمة الساسانيين وحلفائهم اللخميين (كوبيشانوف: الشمال الشرق الافريقي، ص 98؛ بيغوليفسكيا: العرب، ص202).

(138) بروكوبيوس: جنكهاي 20 /1؛ كوبيشانوف: الشمال الشرق الإفريقي، ص95- 96.

(139) كوبيشانوف: الشمال شرق الإفريقي ص100.

(140)بروكوبيوس: جنكهاي، 20 /1؛ كوبيشانوف: الشمال شرق الإفريقي ص96.

(141)بروكوبيوسجنكهاي 1/20؛ حوراني: العرب والملاحة، ص103.

(142) كوبيشانوف: الشمال الشرق الافريقي، ص 97؛ حوراني: العرب والملاحة، ص103.

(143) كوبيشانوف: الشمال الشرق الافريقي ص109.

(144) Homo: Roman Political,p. 204؛ بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 277؛ جيبون: اضمحلال، 2/428- 429. ؛ الموسوي: العلاقات ص 197.

(145) العلي: محاضرات ص55.

(146) سورة الإيلاف آية 1- 4.

(147) العلي: محاضرات ص 95.

(148) العلي: محاضرات ص 262- 263.

(149) سورة الفيل آية1- 5.

11

الفصل الحادي عشر

العلاقة مع الترك والهياطلة والخزر

(في الشرق والجنوب الشرقي

والشمال والشمال الشرقي)

العلاقة مع الهياطلة وغيرهم في الشرق والجنوب الشرقي والشمال الشرقي:

امتدت حدود الدولة الفرثية ومن بعدها الساسانية باتجاه الجنوب الشرقي حيث القبائل الآرية في منطقة البنجاب والهند وجبال الهملايا، أما من الشرق فكانت القبائل التركية غير المتحضرة والرعوية، والتي كانت تتجول في المنطقة المحصورة بين نهري سيحون وجيحون (سيرا دريا وآمو دريا)، أما القبائل الأخرى فكانت منتشرة فيما يعرف اليوم المنطقة المحصورة بين بحري آرال وقزوين، وكانت هذه القبائل مصدر قلق بالنسبة للدولة الفرثية ومن بعدها الدولة الساسانية، وتمارس هذه القبائل الرعي والسلب والنهب للمناطق المتحضرة وقطع الطرق التجارية بين مختلف المدن، فضلاً عن أهم طريق يربط إيران بالعالم الخارجي ألا وهو طريق الحرير العظيم.

وكانت هذه القبائل البدوية غير المتحضرة تتبع الماء والكلأ، وبخاصة في أوقات القحط، إذ تضيق عليهم سبل العيش، فيتجهوا إلى المناطق الزراعية والحضرية، لفرض سيطرتهم عليها وجبي الأموال من أهلها، وهذا دائماً يحدث في أوقات انشغال الدولة الفرثية والدولة الساسانية في صد الهجمات الرومانية والبيزنطية، وكثيراً ما تجبر هذه القبائل الدولة الفرثية أو الساسانية على التنازل للرومان أو البيزنطيين، وتوقع معهم معاهدات صلح، تكون في غير صالح الدولة الفرثية أو الساسانية . وسنتناول علاقة الدولة الفرثية مع هذه الأقوام.

تعود أولى العلاقات بين الدولة الفرثية وبلاد الترك إلى عهد الملك مهرداد الأول (138-174ق.م)، فعندما شعر هذا الملك الفرثي بالضعف الذي حلّ بالدولة السلوقية، جهز جيشاً وتوجه به نحو مملكة بكتريا وتعرف ببلاد البخت نسبة إلى إقليم بلخ وتنسب إليها الجمال البختية ذوات السنامين، وكانت مملكة يونانية أسكن الاسكندر المقدوني فيها نحواً من 20000 من جنده، وبعد وفاته كونوا لهم إمارة مستقلة حكموها بأنفسهم، عاصمتها مدينة بلخ (1)، ودخل الملك مهرداد الأول في حرب طاحنة معهم وتمكن من إخضاعهم له (2)، بعدما وجدوا أنفسهم وحيدين في هذه المنطقة وخوفاً من أي اتصال مع السلوقيين في بلاد

العراق وسوريا. وفي عهد الملك الفرثي فرهاد الثاني (125-138ق.م)، أوشك على الاستيلاء على ممتلكات الدولة السلوقية في بلاد الشام ، لولا قيام قبائل الأسكيثيين التي اندفعت نحو ممتلكات الدولة الفرثية، وتمكنت من الاستيلاء على زرنك (زرنج) والتي صارت تعرف منذ ذلك الوقت باسم سكستان أو سجستان Sagistan أي بلاد السكا، وقد قتل الملك الفرثي فرهاد الثاني، في إحدى المعارك معهم في سنة 125 ق.م، وتقع زرنج اليوم في أقصى الجنوب الغربي من أفغانستان، وكانت في يوم من الأيام عاصمة للإمارة الصفارية في سجستان (3)

وفي نفس السنة أي 125ق.م إندفعت نحو أراضي الدولة الفرثية قبيلة من سكان صحاري بحر قزوين تسمى (يوئتشي) (Yue-Tehi)، فحاول الملك الفرثي أردوان الثاني (أرطبان الثاني 124-125) (Artaban IIق.م) من التصدي لهم إلا أنه دفع حياته ثمناً لهذا التصدي فقتل في سنة 124ق.م في أحد المعارك مع هذه القبيلة (4). ومن هذا نستنتج ونقدر قوة هذه القبائل وشدتها وبأسها في الحروب، إذ أنها تمكنت من إختراق دفاعات الملك العسكرية، والملك كما نعرف محاط بخيرة الرجال من المشاة والرماة والنشابين، فضلاً عن الخيالة المدربين، ولم تقتل هعذه القبائل الرعوية ملكاً واحداً بل قتلوا ملكين متتاليين من ملوك الدولة الفرثية.

ولكن الحال تغيرت بتولي الملك مهرداد الثاني (88-124ق.م) بعد مقتل أبيه أرطبان الثاني، إذ أعد العدة لهم وتولى إعداد جيش قوي أشرف على تدريبه بنفسه، وإختار له خيرة القادة، وألحق الهزيمة بالأسكيثيين وطردهم من بلاده وتخلص من شرهم (5)

وقد استغلت القبائل الرعوية في جنوب الدولة وشمالها وشرقها كل الظروف الملائمة للتهجم عليها بسبب ضعف الدولة في بعض الأحيان، وبسبب الضنك الإقتصادي الذي كانت تعيشه هذه القبائل في مناطقها الصحراوية، والتي كانت تتخذها مراعي لمواشيها، تكسب منه رزقها ومعيشتها، وظل الحال هكذا حتى قيام الدولة الساسانية في عام 224م.

كما اهتمت الدولة الساسانية منذ تأسيسها بمشكلة الحدود مع المناطق غير المتحضرة في الجنوب الشرقي وفي الشرق والشمال الشرقي وفي الشمال الغربي، وكانت هذه المناطق مناطق تخلخل سكاني تقل فيها الحاميات العسكرية، ومع هذا فقد أولت الدولة الساسانية هذه المناطق أهمية خاصة، وبخاصة منطقة سجستان التي كانت تعين عليها أحد أفراد

الاسرة الحاكمة (ابن الملك أو أخوه أو ولي العهد) وذلك لأهميتها الاستراتيجية، فضلاً عن قربها من مملكة كوشان الهندية، المركز الرئيس للتجارة بين إيران والهند من جهة، ولأنه يمنع عن الدولة الساسانية، هجمات القبائل البربرية في بلاد ماوراء النهر (6).

ولدينا في الصلح الذي عقده الملك الساساني بهرام الثاني (293-276م)، في سنة 283م خير دليل للتفرغ لأحد قادة التمرد في إقليم سجستان (تمرد أخو الملك هرمزالأول) (7).

وفي عهد الملك سابور الثاني الملقب بذي الأكتاف (379-310م)، واجه خطر مملكة الكوشانيين في وادي السند بعد سنة 309م (8).

وبعد سنة 350م واجه الملك سابور ذي الأكتاف خطر قبائل الاسكيثيين والهون وهي قبائل مغولية نسبت إلى اسم أحد قادتهم أو مناطقهم هيو نج نو Hiu-ng-nuكانت تقطن مناطق غرب الصين وشمالها (9). واستمرت حملات الملك السباساني في جبهة المشرق قرابة الـ 7سنوات، إذ كانوا يغيرون على الحدود الشمالية الشرقية من الدولة الساسانية، وتمكن من إخضاعها، وعقد اتفاق مع زعمائها وهو السماح لهم بالاستيطان في المناطق الشمالية من دولة كوشان، مقابل تعهدهم بتقديم الدعم للملك الساساني سابور ذي الأكتاف وللدولة الساسانية، إذا دخل الحرب ضد البيزنطيين (10)، مع المحافظة على أمن مناطقهم، أي أعطاهم مايشبه الحكم الذاتي في بلادهم.

وفي عهد بهرام بن يزدجرد (438 _ 420م)، تجرأ الترك مرة أخرى على الدخول في أراضي الدولة الساسانية، ودخلها بجيش عظيم، في عام 425م إذ هاجم الهياطلة مملكة بكتريا (بلخ) وسيطروا عليها، بعد أن عبروا نهر جيحون، وأخذوا يغيرون على أراضي الدولة الساسانية، ويؤثرون في مسيرتها وعلاقاتها الخارجية (الضغط عليها أثناء خوضها حرب خارجية وخاصة مع البيزنطيين (11). فعظم ذلك على الفرس، ودخل العظماء على بهرام فحذروه فتمادي في لهوه، ثم تجهز يريد أذربيجان، ليتنسك في بيت نار هناك، ويرافقه سبعة من العظماء و 300 من ذوي البأس والشدة والنجدة، واستخلف أخاه نرسي على المدائن، ولم يشك الناس أنه قد هرب من خاقان، فهادنوا ملك الترك وانقادوا له وبذلوا له الخراج (الجزية)، خوفاً على نفوسهم وبلادهم، فبلغ ذلك خاقان، فأمن ناحيتهم، ثم توجه بهرام من أذربيجان إلى خاقان في تلك الناحية، فثبت للقتال وقتل الملك بهرام خاقان الترك بيده، ورجع الترك منهزمين، وظفر بهرام بتاج ملك الترك وأكليله، وغلب على طرف بلاده، فعين عليه أحد المرازبة، ثم عين أخاه نرسي على خراسان، وأمره بالمقام في مدينة بلخ (12).

وفي عهد الملك هرمز الثالث (459-457م)، لجأ أخوه فيروز (484-459م)، إلى بلاد الهياطلة (Haphthalite)، طالباً منهم المساعدة لإعادته إلى العرش الساساني (13)، فساعده ملك الترك وأمده بقوة عسكرية كبيرة، مقابل تنازله عن مدينة الطالقان (14). والهياطلة هم شعب تركي يقطن بلاد ما وراء النهر وهم قسم من قبائل الهون ويسميهم العرب الهياطلة والفرس تدعوهم بِ هفتال ويسميهم البيزنطيين هيفتاليت، ويمتازون ببياض بشرتهم، والموطن الأصلي لهم منطقة طخارستان وجغنيان (الصغانيان) والتي تقع جنوب نهر جيحون، ويطلق هذا اللفظ الهياطلة على كل المناطق التي تقع إلى الشرق من نهر جيحون أي شرق وشمال شرق حدود الدولة الساسانية، وهذه حالة يؤسف لها، إذ يستنجد الأخ على أخاه بدولة أخرى، وسيكون لهذا آثاره السلبية، إذ سيتكرر هذا العمل مع دول أخرى تقف في مقدمتها الدولة البيزنطية، ولايمكن لدولة ما أن تقدم المساعدة، حباً بالملك أو بشعب من الشعوب، بل تقدم جيشها لقاء ثمن باهض، ويصبح هذا الثمن حق لها، بعد أن كان ملك للدولة التي استنجد أحد أفرادها بالدولة الأجنبية. لكن الهياطلة انقلبوا عليه، ولم يكتفوا بما إتفق عليه معهم وهي إعطائهم الطالقان، فهاجموا حدود الدولة الساسانية، في ظروف قحط شديد مرت بها الدولة الساسانية (15).

وقد لجأ الملك الساساني قباذ الأول (496-488م)، إلى خاقان ملك الهياطلة، لكي يساعده عسكرياً لإستعاده ملك أبيه فيروز، والذي سيطر عليه عمه بلاش (488-484م)، وظل ينتظر في بلاط ملك الهياطلة أخشنوار أربعة سنين، فلما عزل العظماء وأهل البيوتان والأشراف والموبذان موبذ الملك الساساني بلاش، كان الملك المقترح هو قباذ وهو الآن حليف الهياطلة، ثم لاقى المصير نفسه بعد عشرة سنوات (16).

ونصبوا أخيه جاماسب (499-496م)، إلا أن قباذ هرب من السجن وتوجه إلى ملك الهياطلة، فاستقبلوا حليفهم أحسن استقبال، وأمدوه بجيش كبير بعد أن وعدهم بزيادة الجزية لهم (17).

وقد ساعده الهياطلة بالجيش الذي أعاده إلى العرش ثانية في مهاجمة أرمينية، وهذه خطوة جريئة من الهياطلة والملك الساساني، واستطاع قباذ من قلب موازين القوى في أرمينية بهذا الدعم من الهياطلة، واحتل عاصمتهم ثيودوسيوبوليس، وكسب زعيم الأرمن إلى جانب الساسانيين، وانقلب ضد البيزنطيين، بعد أن رأى أن الكفة لصالح الساسانيين، فعينة قباذ حاكماً عسكرياً على ارمينية (18).

إلا أن الهياطلة لم يدعوا حليفهم الملك قباذ يهنأ إنتصاره على البيزنطيين ، فقام قسم من الهياطلة يقال لهم السابرية بمهاجمة الحدود القفقاسية التي تقع إلى الشمال الشرقي من الدولة الساسانية في إقليم خراسان، فترك قسم من الجيش وغادر بالقسم الأكبر لمجابهة المستجدات على الجبهة الشرقية، فاستغل البيزنطيين هذا الوضع لصالحهم وأرسلوا تعزيزات عسكرية كبيرة، أجبرت الملك قباذ على عقد الصلح ليتفرغ للسابرية، فتفرغ لهم مدة عشرة سنوات حتى استطاع إخضاعهم (513-502م) (19).

وكان كل ملك ساساني يقوم بتحصين الثغور المطلة على بلاد المشرق، ويقومون ببناء حصون جديدة وشحنها بالمقاتلة، كلما سنحت لهم الفرصة بذلك وتوفرت الأموال اللازمة، فعلى سبيل المثال، فقد قام الملك الساساني فيروز (484-459م)، بناحية صول واللان ببناء تحصينات عسكرية في هذه المناطق، ثم زاد على هذه الحصون حصوناً كثيرة ابنه الملك قباذ (496-488م) ، وعندما تولى العرش الساساني ابن قباذ الملك كسرى أنو شروان (579-531م) قام بنفس ما قام به جده وأبيه من قبل، فحصن كل ما أمكن تحصينه في هذه النواحي تحسباً لأي طارئ .

وبعد أن استقرت امور الدولة للملك الساساني فيروز قررالهجوم على بلاد الترك، وقد خاض حربين متتاليتين خسر في الأولى جيشه ومعداته، ووقع أسيراً لديهم ودفع لهم مبالغ كبيرة من المال، وترك ابنه قباذ رهينة لديهم حتى يؤدي الجزية كاملة (20)حيث تنازل لهم عن الطالقان.

وخسر الملك فيروز في الحملة الثانية حياته ثمناً لما أعطاه عندما طلب مساعدة الهياطلة، فأخذ الهياطلة يتدخلون في الشؤون الداخلية للدولة الساسانية، وفرضوا عليها غرامات كبيرة لكن أحد قادته وهو حاكم إقليم سجستان، والمعروف بسوخرا، قام بمباغتة جيش الهياطلة، بعد أن جمع المنهزمين من الجيش الساساني، وتوجه بهم لحرب الهياطلة، وتمكن من الانتصار عليهم، واستعاد كل ما أخذه جيش الهياطلة من الملك الساساني فيروز (21).

وقد تدخل الهياطلة في تنصيب ولي عهد فيروز، إذ أن فيروز لم يعين ولي عهد له، فتدخل الهياطلة عندما نشب النزاع بين ولديه قباذ وبلاش، فلما استأثر بلاش بالسلطة، لجأ قباذ إليهم، فأمدوه بجيش مقابل ثمن باهض (22)

ويبدو أن ملك الترك الذي يسميه ابن الأثير سيجيور خاقان، قد تحالف مع ملك الخزر وأبخز وبلنجر، فأطاعوه، فعبر إلى أراضي الدولة الساسانية، وكتب إلى كسرى يسأله الأتاوة ويتهدده إن لم يفعل، فلم يجبه كسرى أنو شروان إلى طلبه، وذلك لأن كسرى قد حصن الثغور وشحنها بالمقاتلة، فأينما كان يتوجه خاقان، كان يجد قوة عسكرية ساسانية مهيئة للتصدي له فعاد خائباً إلى بلاده دون أن يحقق أي شيء (23).

وبنى كسرى أنو شروان سوراً يفصل بينه وبين خاقان ملك الترك، بحيلة اتبعها حتى أقنع ملك الترك فأرسل إليه : ((إن جندنا قد كرهوا صلحنا لإنقطاع العطاء والغارات، ولا آمن أن يحدثوا حدثاً يفسد قلوبنا، فنعود إلى العداوة، والرأي أن تأذن لي في بناء سور يكون بيني وبينك، نجعل عليه أبواباً، فلا يدخل إليك إلا من تريد، ولايدخل إلينا إلا من نريده، فأجابه إلى ذلك)) (24). وبنى لأنو شروان السور من البحر، وألحقه برؤوس الجبال، وعمل عليه أبواب الحديد، ووكل به من يحرسه (25)

وفي عهد ابنه هرمز الرابع (590-579م)، توجه أحد ملوك الترك ويدعى شايه في 300000 من الترك، وقصد مدينتي هراة وباذعيس، وأرسل رسالة إلى الملك الساساني هرمز يأمره فيها باصلاح الطرق ليعبر إلى بلاد الروم، وتحالف مع هذ الملك التركي ملك الخزر، ويبدو أن هذا الهجوم قد دبر أمره بليل، أي بفعل الدولة البيزنطية، التي كانت تشجع هكذا محاولات ضد الدولة الساسانية، وتبذل الغالي والرخيص من أجل تنفيذها، فأرسل الملك الساساني هرمز أحد قادته مع عدد كبير من الجند، ويعرف هذا القائد بهرام خشنش، ويعرف بجوبين، فهزم ملك الترك وقتله، فتولى القيادة ابنه برموده، فأسره بهرام وأرسله إلى الملك الساساني هرمز، وعاد الترك إلى بلادهم منهزمين (26).

إن هذه الحروب التي استمرت لمدة طويلة والجهد العسكري الكبير الذي بذل يشير إلى عظم خطرهذه القبائل البدوية غير المتحضرة، بحيث استمر يحاربهم لمدة عشرة سنوات، ولو حسبنا الخسائر التي أحدثتها هذه الحرب للجيش الساساني لوجدناها كبيرة جداً، فانظر عزيزي القارئ، كم هي المشكلة كبيرة، ليبقى الملك الساساني وجيشه مشغولاً طيلة هذه العشر سنوات أو أكثر، كم احتاج هذا الجيش من خيام أو ملابس أو اسلحة ؟، وكم جندي أو قائد فُقد من هذا الجيش ؟ وكم من خطة وضعت طيلة هذه الفترة ؟ كل هذه الأسئلة تثير التساؤلات، ولا نجد لها جواباً شافياً.

وفي سنة 531م أرسل الإمبراطور البيزنطي أحد قادته وهو سيتاس لحرب الساسانيين، في عهد كسرى أنو شروان (579-531م)، إلا أن هذا القائد لم يكن يرغب بالحرب، لأنه إعتقد أنها عديمة الجدوى، ولما كان الملك الساساني قد رفض عرض الإمبراطور البيزنطي جستنيان بعقد الصلح، فأشاع هذا القائد بين عيونه إشاعة تقول : بأن الإمبراطور البيزنطي جستنيان قد تحالف مع الهياطلة، وإنهم بصدد شن هجوم على الأطراف الشمالية والشرقية للدولة الساسانية، فقام العيون (التجار وعابري السبيل)، ببث هذه الإشاعة بين صفوف الجيش الساساني الذي ملّ الحرب أيضاً، فاضطر الجيش الساساني إلى الانسحاب من المعركة، بعد ان وصلته أنباء عن وفاة الملك الساساني قباذ في 13أيلول 531م (27). فانظر إلى حجم الإشاعة، والكل يعرف أن الاشاعة فيها جزء كبير من الغش والكذب، لكنها لاتخلو من حقيقة ولو صغيرة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، أنظر إلى تخوف الجيش الساساني من هجوم الهياطلة، كيف لا، وأنهم قد ظلوا يحاربونهم أكثر من عشرة سنوات، وهاهم الآن قد تحالفوا مع البيزنطيين، فالحال تستوجب وقف العمليات العسكرية على الجبهة البيزنطية، والتفرغ للهياطلة.

ففي سنة 557م طلب الملك الساساني كسرى أنو شروان، عقد صلح مع البيزنطيين، بعد أن رفض عروضاً عدة للصلح معهم، ويعود السبب في ذلك إلى تحركات الهياطلة على الحدود الشرقية للدولة الساسانية، والتي أجبرت كسرى انو شروان إلى عقد صلح مدته ستة سنوات، ومن ثمّ تجديده في عام 562م، للتفرغ لحرب الهياطلة وتامين الجبهة الشرقية للدولة الساسانية، (28)

وفي سنة 568م استقبل الإمبراطور البيزنطي جستين الثاني Justin II وفداً من دولة الكوك ترك عرض فيه ذا الوفد استعداد الأتراك للقيام بدور الوسيط في التجارة مع الصين، دون مرور منتجات الصين في أراضي الدولة الساسانية، كما عرض الوفد على الإمبراطور البيزنطي، إقامة حلف عسكري مشترك ضد الدولة الساسانية، فوافق الإمبراطور البيزنطي على هذا العرض المغري، ودولة الترك كوك (الدولة التركية الزرقاء)، وقد تأسست هذه الدولة التركية في حدود سنة 552م في السفوح الشرقية لجبال الالتاي في المنطقة الممتدة من بلاد المغول وشمال الصين حتى البحر الأسود، واستمر حكمها حوالي 163عاماً أي بقيت لحدود سنة 745م، أي قبل سقوط الدولة الأموية بأربعة سنوات، وقد

عاصر خاقانها (موكان خان) الملك الساساني كسرى أنو شروان، وفي سنة 557م، تحالف خاقانها مع كسرى أنوشروان على إقتسام بلاد الترك الهياطلة (الهون البيض) التي كانت تمتد من ايبريا (جرجان) إلى نهر جيحون، فانتقل ما وراء النهر وقسم من فرغانة وتركستان الغربية وكاشغر وختن إلى دولة الكوك ترك، وأصبح باقي أراضي الهياطلة للملك الساساني كسرى أنو شروان، لكن الطمع ليس له حدود، فلم يرض كسرى بهذه القسمة الضيزى لجانبه، إذ أنه حصل على حصة الاسد من املاك الهياطلة، وطمع أكثر، و((سار إلى ما وراء نهر بلخ وانتهى إلى ختلان، زقتل أخشنواز ملك الهياطلة بجده فيروز، وملك مملكته، فأضافها إلى ملكه)) (29)، فحاول تعطيل طريق الحرير ليحرم سكان دولة الكوك ترك من فوائد جمة، ولهذا نراهم يعرضون التحالف مع أعداء الساسانيين وهم البيزنطيين (30)، ويمر هذا الطريق الشمالي من أواسط آسيا إلى بحر قزوين ومن ثم إلى البحر الأسود دون المرور بالأراضي الساسانية (31).

وفي سنة 588م في عهد الملك هرمزد الرابع (590-579م)، تحرك الترك مرة أخرى ضد الدولة الساسانية، وتعرضت حدودها الشمالية الشرقية، وبتحريض من الدولة البيزنطية، إلى هجمات القبائل الآسيوية التركية من دولة الكوك ترك ومن قبل الخزر، فقد توجه إلى حدود الدولة الساسانية خاقان الترك شابه بجيش قوامه 300000مقاتل، واجتاح أراضي الدولة الساسانية، فسيطر على باذغيس وهراة، وكتب إلى الملك الساساني هرمز يأمره فيه بعمارة الطرق والقناطر واصلاح المعابر وإعداد العلوفات في الطرق والمراحل، ليعبر إلى حليفته الدولة البيزنطية، كما اجتاح ملك الخزر بلاده بجيش كبير فوصل إلى حدود أرمينية، فوصل إلى ميديا فعاث وخرب (32). وقد وجه الملك الساساني هرمز (590-579م) إلى ملك الخزر جيشاً، فانسحب إلى بلاده، دون مواجهة، فتفرغ الملك الساساني هرمز إلى مواجهة الترك، فارسل أحد قادته وهو بهرام جوبين، وتمكن بهرام من قتل شابه وأسر ابنه، وغنم من الترك أموالاً كثيرة (33).

مما تقدم يبدو لنا أن العلاقة مع الترك والخزر وغيرهم كانت تتسم بما يلي :

1- إن السمة العامة للقبائل التركية وغيرها هي أنها مناطق طرد سكاني، لوجود الصحاري مع شظف العيش، فكانت هذه القبائل تنظر دائماً باتجاه ممتلكات الدولة الساسانية.

2- استغلال هذه القبائل لحالات الضعف الداخلي التي تمر بها الدولة الساسانية مثل وفاة ملك أو تولي ملك ضعيف.

3- أثناء انشغال الدولة الساسانية بالحرب مع البيزنطيين، كانت هذه القبائل تستغل إنشغالها فتغير على حدود الدولة الساسانية.

4- قامت هذه القبائل بعقد تحالفات مع الدولة البيزنطية أكثر من مرة، ضد الدولة الساسانية.

5- لجوء عدد من الملوك الساسانيين إلى الهياطلة الترك لمساعدتهم في استعادة العرش، وهذا أفسح المجال للترك للتدخل في شؤون الدولة الساسانية، وفرض شروط قاسية عليها من السيطرة على المناطق والتنازل عنها من قبل الشخص المتحالف مع الهياطلة، وفرض الجزية على الدولة الساسانية.

6- كان الأجدر بالملوك الساسانيين ملاحظة قوة هذه القبائل واستغلالها لصالح الدولة الساسانية، وتجنيد هذه القبائل في الجيش الساساني، لمجابهة الدولة البيزنطية، أو القيام بضرب القبائل التركية بعضها ببعض، وبالتالي الحفاظ على حدود الدولة الساسانية، من هجمات هذه القبائل غير المتحضرة (البدوية)، أو كسبها بالمال والهدايا والأوسمة وغير ذلك مما يرضي رؤساء هذه القبائل.

ثم تنقطع عنا أخبار الترك والهياطلة، ربما بسبب التقلبات الكثيرة التي شهدها العهد الساساني المتأخر، وانشغال الدولة وكتّابها بهمومهم الداخلية، بحيث لم يدونوا لنا شيئاً عن الترك أو الهياطلة وتحركاتهم، فضلاً عن أزمة الصراع على العرش، فتركت هذه المناطق لتعيش مشاكلها الخاصة وهمومها، وأصبحت خارج اهتمام الدولة الساسانية، ولربما دخل الترك في صراعات داخلية فيما بينهم في هذه الفترة، فضلاً عن التحركات العسكرية العربية (معركة ذي قار) والإسلامية من بعدها في العصر الراشدي، وظل الوضع هكذا حتى عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان).

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد تعرضت دولة الترك كوك لضربات قوية من قبل إمبراطورية التانغ Ta' ingوفي عهد إمبراطورها Tai' Tsung، فتجزأت الدولة إلى إمارات صغيرة أشبه بدويلات المدن أو ملوك عصر الطوائف، فهذه مملكة بخارى التي تديرها الملكة خاتون، وصية على ابنها، وهذه مملكة سمرقند، وأشروسنة وفرغانة والشاش واسبيجاب،

وكان كل منهم مستقل في إدارة مملكته، ولربما كانت تربطهم رابطة الدم أو القرابة، لكن هذه الدويلات كانت تساند بعضها بعضاً في أوقات الهجمات، أو تعرض أحد هذه الدويلات إلى هجوم خارجي كما حدث لمملكة بخارى عندما تقدم لفتحها العرب المسلمون (34)

في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (عندما وجه القائد المسلم سعيد بن عثمان بن عفان ورافقه الشاعر مالك بن الريب الذي قال :

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى   وأصبحت في جيش بن عفان غازيا.

الهوامش

(1) باقر: مقدمة 2/458؛ الموسوي: العلاقات ص 32، 37.

(2) الموسوي: العلاقات ص 37.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 297؛ياقوت: معجم 3/190؛ أبو الفدا: تقويم البلدان ص 340؛ الموسوي: العلاقات ص 41.

(4) الموسوي: العلاقات ص 41.

(5) الموسوي: العلاقات ص 41.

(6) كرستنسن: إيران ص 218. الموسوي: العلاقات ص 98.

(7) كرستنسن: إيران ص 217؛ الموسوي: العلاقات ص 98.

(8) الموسوي: العلاقات ص 105 .

(9) الموسوي: العلاقات ص 108 .

(10) العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية ص 48؛ حافظ: تاريخ الشعب الأرمني ص 61؛ لويد: الرافدان ص 166؛الموسوي: العلاقات ص 109؛

(11) الدينوري: الأخبار ص 61؛الطبري: تاريخ 1/413؛ الموسوي: العلاقات ص 148(الهامش). لسترانج: بلدان ص 418؛

(12) ابن الأثير: الكامل 1/404 .

(13) الدينوري: الأخبار الطوال ص 61 ؛ الطبري: تاريخ 1/413؛ ابن البطريق: التريخ المجموع 1/183-184؛ابن مسكويه: تجارب الامم1/120؛ الموسوي: العلاقات ص 148 .

(14) ابن الأثير ك الكامل 1/407 .

(15) الموسوي: العلاقات ص 148 .

(16) الطبري: تاريخ 1/418؛ ابن مسكوية: تجارب 1/123 ؛ ابن الأثير: الكامل 1/265؛ الموسوي: العلاقات ص 150 .

(17) كرستنسن كإيران ص 336؛ الموسوي: العلاقات ص 151 .

(18) رستم: الروم 1/136-137؛ الموسوي: العلاقات ص 152 .

(19) الموسوي: العلاقات ص 156 .

(20) ابن حوقل: صورة الأرض ص 442، الاصطخري: مسالك الممالك ص 270؛ الموسوي: العلاقات ص 149 .

(21) ابن الأثير: الكامل 1/409 .

(22) ابن البطريق: التاريخ المجموع 1/190؛ الثعالبي ر: غرر السير ص583.

(23) الكامل 1/437.

(24) ابن الأثير: الكامل 1/441.

(25) ابن الأثير: الكامل 1/441.

(26) ابن الأثير: الكامل 1/441.

(27) الموسوي: العلاقات ص169.

(28) الموسوي: العلاقات ص 224-225.

(29) المسعودي: مروج 293-294 /1.

(30) حسين علي الداقوقي: الممالك والشعوب في بلاد ما وراء النهر قبل الفتح العربي الإسلامي، محاضرة ألقاها على طلبة كلية التربية ابن رشد 2000-2001م، علي فرحان زوير: الهياطلة تاريخهم ودورهم في المشرق خلال العصر الاموي، المكتبة الإلكترونية /جامعة الموصل، وهي أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد كلية التربية ابن رشد 2005م ص 96وما بعدها ؛ الموسوي: العلاقات ص 223.

(31) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ص275.

(32) الدينوري: الأخبار الطوال ص 79؛ اليعقوبي: تاريخ 1/145؛ الطبري: تاريخ 1/462-463 ؛المسعودي: مروج 1/253؛ الموسوي: العلاقات ص 236-237.

(33) الدينوري: الاخبار الطوال ص79-82؛ اليعقوبي: تاريخ 1/145-146؛ الطبري: تاريخ 1/463؛ الموسوي: العلاقات ص 238-239.

(34) طارق فتحي سلطان: العرب والصين في القرون الوسطى، مطبعة العلا، الموصل، ط/1، 1426هـ/2005م: الحركة الفكرية العربية في بخارى في القرنين الثالث والرابع للهجرة، مطبعة الرسول، ط/1، الموصل 1427هـ/2006م.؟ بيكند منفذ بلاد التركستان، مجلة العدد 4السنة 2006.

12

الفصل الثاني عشر

العلاقة مع الأرمن (في الشمال الغربي)

العلاقة مع الأرمن :

شكلت بلاد الأرمن التي تقع في الشمال الغربي من إيران والمطلة على بحر قزوين والمضايق القفقاسية عقدة المشاكل بالنسبة للدولة الفرثية والساسانية والرومانية والبيزنطية والعرب المسلمين في العصور الأموية والعباسية والعثمانية وإلى الوقت الحاضر.

والأرمن شعب صعب المراس ينتمي إلى مجموعة الشعوب الآرية، وهم ضخام الأجسام، يتمتعون بقوة كبيرة، ويقطنون مناطق الجبال في أرمينية، وسميت بلادهم باسمهم، أو سموا باسم بلادهم، كانوا عنيدين جداً، وغير متحضرين، وقد أعطتهم مناطقهم الجبلية حصانة وقوة ومنعة، بحيث أنهم كانوا يسيطرون على الكثير من الممرات والمضائق، وأعانتهم الثلوج ووعورة المنطقة على السيطرة على منطقتهم بشكل جيد، بحيث يصعب على المهاجم السيطرة على منطقتهم أو التوغل فيها دون بذل جهود أوعقد تحالفات عدة.

وحتى عندما دخلت النصرانية وتغلغلت بين الشعب الأرمني، أضافت عليهم عبئاً كبيراً، فالنصرانية مثل غيرها من الأديان السماوية، ديانة سلمية تدعو إلى حرية العبادة والتفكير، لكن الأرمن طبعوا النصرانية بطابع منطقتهم، فزادتهم عنفاً إلى عنفهم، فدخلوا في صراعات عدة مع الدولة الفرثية والساسانية، كما دخلوا في صراعات مريرة مع الدولة الرومانية قبل تنصرها وبعد تنصرها، فضلاً عن الصراعات الكبيرة مع الدولة البيزنطية.

وقد كنت اتابع عن كثب تحركات الأرمن في العراق وسوريا بعد القضاء على دولتهم من قبل الروس المسقوف قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى، والتقيت بعدد من كبار السن منهم الذين شهدوا المذبحة التي دبرها الروس لهم، وابتليت بها الدولة العثمانية، والصقت تهمة إبادة الأرمن بها، والتقيت بأحد ملوكهم في مدينة الموصل، وكان يحمل ختم ملك أرمينيا، وكان على قيد الحياة في السبعينات من القرن الماضي (كان يبلغ الخامسة والسبعين من العمر، وكان والده ملك أرمينيا، وكان سبب تعرفي به أنه تلقى دعوة لحضور احتفالات عيد الجيش العراقي، وقد وجه الدعوة له رئيس جمهورية العراق، أحمد حسن البكر). والهدف من هذه المتابعة هو معرفة سبب هذا العنف الذي يتميزون به عن غيرهم من شعوب الأرض، منذ القدم وحتى اليوم.

تقع دولة أرمينية إلى الشمال الشرقي من بلاد الأناضول، ويحدها من الشمال جبال القفقاس، ومن الصعب رسم حدود معينة لأرمينية، لتغير تلك الحدود من فترة لأخرى، فعند قوة الدولة تتوسع حدودها ومناطق نفوذها، وإذا ما ضعفت الدولة فإنها تتحجم حدودها وكذلك مناطق نفوذها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن ضعف الدول المجاورة لأرمينية هو الآخر أحد اسباب مد النفوذ والسيطرة على مناطق الدولة الضعيفة، والعكس صحيح.

والمنطقة التي تتكون منها أرمينية جبلية معقدة التضاريس يبلغ ارتفاعها بين 1800-1500م عن مستوى سطح البحر، وتحدها سلسلة جبال القفقاس وسلسلة جبال البونتيك، وطوروس وزاجروس التي يبلغ ارتفاعها بحدود 5156م، وتشرف هذه الجبال على وديان شديدة الانحدار، تنساب منها مياه أنهر دجلة والفرات وأراكس وكور (1).

ولعب موقع أرمينية الجغرافي وطبيعة أراضيها، دوراً بارزاً ، في تحديد تاريخ وطبائع الناس الذين يعيشون فيها، فهم من ناحية أشداء، ككل شعب يقطن الجبال، ومن ناحية أخرى نراهم سذجاً، بسطاء القلوب كسكان الريف، أما مناخها فهو شديد البرودة في الشتاء، وشديد الحرارة في الصيف، مما يوفر للأرمن المزايا والصفات التي تجعل منهم محاربين أقوياء، شديدي البأس، فضلاً عن أن الجبال والطبيعة الجبلية التي وفرت لهم حصناً منيعاً في وجه من يريد أن يسيطر على أرمينية (2)

وأصل الأرمن هو من بلاد البلقان، دفعتهم ضغوط عدة نحو هذه البلاد الجبلية المعقدة، وسكنوها، إذ قدمت لهم هذه المناطق الحماية الطبيعية، وكونوا لهم مملكة خاصة بهم ، مكنتهم من بسط نفوذهم على المناطق المجاورة لهم، ودخلوا في حروب عدة دفاعاً عن النفس تارة وتوسعاً تارة أخرى، فحاربوا الدولة الآشورية التي فرضت سيطرتها عليهم في بعض الفترات، ومن جاء بعدها من الدول مثل مملكة ميديا، وكان من ملوكهم الذين عاصروا الدولة الآشورية الملك ميداس الثاني، الذي انتحر بعد سيطرة الملك الميدي كريزوس على أرمينية، في سنة 675ق.م (3).

خضعت أرمينية مراراً تحت سيطرة الدول التي حكمت إيران والعراق بحكم موقع أرمينية المسيطر على عقدة مواصلات المناطق الشمالية من هذه الدول، ولتعرض هذه الدول للهجمات التي تشنها شعوب منطقة أرمينية، فكانت هذه الدول تتحرك لبسط سيطرتها على أرمينية، والاحتلال مهما كان نوعه والبراقع التي جاء من أجلها والشعارات التي يرفعها،

وهي شعارات كذابة ومغلفة، ودائماً يأتي الاحتلال بالعملاء الذين لايرحمون الشعوب الأرمنية، فتارة تحتل أرمينية الدولة الأخمينية وتارة اليونانيين وتارة الرومان وهكذا، ونظراً لأهمية أرمينية فقد سجل الملك داريوس في أحد النقوش في سنة 521ق.م : ((لقد أحتللت أرمينيا)) (4). وهذه العبارة تعني الكثير، وتحمل معانٍ وتفسيرات عدة. وبعد دخول الاسكندر المقدوني وعبوره لمضايق البسفور والدردنيل، وتوجهه إلى إيران، إذ قضى على الدولة الأخمينية، وبالقضاء على الدولة الأخمينية، فقد استفاد الأرمن في ناحيتين :

1- لقد حقق لهم احتلال إيران استقلالاً كاملاً.

2- أفسح المجال أمام من تأثر بالحضارة الإيرانية (الثقافة، المعتقدات) للإفادة من الحضارة اليونانية، ولقد أطلق البعض من المؤرخين لقب أوربيو آسيا على الأرمن، وذلك لمعاصرتهم للحضارتين الشرقية والغربية (5)

وفي هذه الفترة ساد الهدوء والأمن أراضي أرمينية، وحكمت نفسها بنفسها في عهد الملك الأرمني أورنت الأول، ولكن بعد وفاة الاسكندر المقدوني تنازع خلفاؤه على الحكم وتقاسموا الدولة وقسموها إلى أقسام ثلاثة، والذي يهمنا منها هو الدولة السلوقية، التي كانت أرمينة وبلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام (سوريا) من نصيبها، لا بل اتخذت هذه الدولة من أنطاكية عاصمة لها، ودخلت أرمينية تحت سيطرتها، إذ قسمت إلى قسمين يحكم كل منهما قائد عسكري، وشمل القسم الأول من أرمينة مناطق الفرات وأرضروم وموش وفان (وان) وأريفان) فيما شمل القسم الثاني من أرمينية مناطق غرب نهر الفرات وسيفاس وارزند جيان وملتين (6). وبعد تحرر أرمينية من السلوقيين وقعوا تحت تأثير سيطرة أجنبية أخرى هي الدولة الفرثية فقد جرت عدة حروب بين الدولة الفرثية ودولة أرمينية، وفي إحدى المعارك مع الفرثيين، وقع قائد الجيش الأرمني وابن الملك وولي عهده تيكران (ديكران) في الأسر ، وظل سجيناً لدى الفرثيين، وقد حاول والده فكه من الأسر، ودفع فدية للملك الفرثي، إلا أن الملك الفرثي رفض طلب ملك أرمينية، وظل الأمير تيكران في الأسر، حتى توفي والده ملك أرمينية، وأصبح العرش الأرمني خالياً من الملك وتشكل مجلس لإدارة البلاد لحين حسم الموضوع، ثم علم الملك الفرثي فرهاد الثالث بوفاة ملك أرمينية، فأرسل إلى ولي عهد أرمينية السجين عنده ووعده باعادته إلى عرش أرمينية بشرط أن يوقع معه معاهدة سلام، فوافق تيكران على عرض الملك الفرثي، ووقع معه معاهدة صلح تنازل بموجبها الملك الأرمني عن مناطق شمال العراق والجزيرة الفراتية،

فضلاً عن أنطاكية (عاصمة السلوقيين التي سيطر عليها والده من قبل)، ونصب تيكران ملكاً على ارمينية تحت اسم الملك تيكران الثاني (7) في سنة 95ق. م .

كان ديكران ثاقب الذهن بعيد النظر، وأراد أن يقوي مركز أرمينية الضعيف في الداخل وموقفها المهتز في الخارج جراء سيطرة الدولة الفرثية، على خيرة الأراضي الزراعية والطرق التجارية، التي تنازل عنها الملك تيكران الثاني، أثناء فترة الأسر، فتزوج من ابنة ملك البنط (البنتس)، وذلك لكي يضمن لنفسه سنداً قوياً وحصناً منيعاً يحميه من هجمات الرومان في الغرب، وقد اشترك الملك ديكران الثاني في عدة حروب ضد الرومان، كان النصر فيها حليفه، وبعد هذه الانتصارات التي تكللت بالنجاح نقل العاصمة إلى مدينة تيفرانوسيرت الواقعة جنوب أرمينية، والتي نمت بسرعة كبيرة، لكنها سقطت بسرعة كما نشأت (8)

وعوداً على بدء فقد بدأت العلاقة بين الدولة الفرثية وبلاد الأرمن في زمن الملك الفرثي فرهاد الثالث Phraates III (60-69ق.م) الذي اشتد الصراع في عهده مع ملك أرمينية تيكران الثاني (54-94ق.م)، إذ استغل ملك الأرمن تيكران الثاني الفوضى والاضطرابات التي أعقبت وفاة الملك الفرثي مهرداد الثاني، فاستولى ملك أرمينية على بعض المناطق التابعة للدولة الفرثية بعدما أمن الملك ديكران الثاني الجبهة الغربية، فتفرغ لمواجهة أعداؤه التقليديين وهم الفرثيين، فسيطر على ميديا وشمال العراق، ثم توجه إلى الجزيرة الفراتية وسيطر على أهم مدنها، توجه بعدها إلى بلاد سوريا وأحتل أنطاكية عاصمة السلوقيين، كما بسط ديكران سيطرته على مناطق من أواسط آسيا الشمالية (بلاد القفجاق)، ومنطقة حدياب (منطقة بين الزابين، وهي من أخصب الأراضي الزراعية وتمتاز بخصوبة أرضها ونشاط سكانها، وحدياب هو الاسم الآرامي لمدينة أربيل الحالية التي تقع في شمال العراق) (9)

كما سيطر ملك ارمينية على بعض المدن في الأجزاء الغربية من الجزيرة الفراتية وجعل هضبة سنجار الحد الفاصل بينه وبين الفرثيين، وهذا يعني أن طرق التجارة أصبحت بيد ملك أرمينية، ولم تكن روما ترضى بقيام إمبراطورية أخرى على حدودها الشرقية والجنوبية الشرقية مثل أرمينيا، وتسيطر على طرق التجارة المهمة مع الصين، فهي لاتكف عن محاربة الفرثيين وتعدهم أبرز أعدائها، ولهذا تحالف الرومان والفرثيين على حرب مملكة أرمينية،

وجرت مراسلات بين الطرفين، فاحتقر القائد الروماني وفد الدولة الفرثية وطرده، مما دفع الفرثيين إلى التحالف مع مملكة أرمينية (10)

وبعد أن قضى القائد الروماني بومبي على مملكة البنتس (حلفاء الأرمن)، لجأ ملك البنتس (البنط) Pontus ميترادیت السادس Mithridstes VI (63-12ق.م) إلى صهره تيكران الثاني، بعد أن سيطر الجيش الروماني على مملكته، وقد واجه ملك الأرمن تيكران الثاني التحالف الفرثي الروماني، فعجز عن المقاومة، وأعلن رغبته بالصلح مع الرومان (11)، إلا أن الرومان عادوا ونكثوا بوعودهم، وقاموا بهجوم على مملكة أرمينية، وسيطروا على المناطق السهلية من المملكة، ولكنهم عندما توغلوا في المناطق الجبلية الوعرة، التي لايعرفها إلا من رآها ورأى وعورة مسالكها، وهي لاتزال إلى اليوم من أعقد المناطق قرب القوقاس (قفقاسيا)، فجبالها الشاهقة وعمق وديانها ووعورة مسالكها التي لاتسمح ممراتها في بعض المناطق إلا بمسير شخص واحد مع دابته فقط، فكيف بجنيش مثل الجيش الروماني في ذلك الوقت.

وهنا بدأت المقاومة المسلحة بين الرومان والأرمن الذين جمعوا قواهم وامتصوا صدمة الهجوم الروماني، وقام بتنظيم المقاومة الملك تيكران يساعده ويعاونه صهره الملك ميترادیت، وانتصرت القوات الأرمنية على القوات الرومانية، وعاد ملك البنط (البنتس) لبسط سلطته من جديد على مملكته (12).

وقامت روما بارسال حملة كبرى، تمكنت من الانتصار على ملك أرمينية، وانتصرت عليه بعد خيانة أحد ابنائه، وقد اضطر ديكران للاستسلام للرومان، بعد أن تنازل لهم عن مناطق من مملكته، وتنازل عن تاج المملكة مع دفع فدية قدرها 6000قطعة ذهبية، وتعادل تقريباً ديناريوس (دينار ذهبي) (13). وهكذا عاد تيكران الثاني إلى الحكم، وأعلن تبعيته للرومان بعد أن كانت أرمينية دولة مستقلة (14).

وبعد وفاة تيكران لعب خلفاؤه دور اللعب على الحبلين فتارة يتحالفون مع الفرثيين وتارة أخرى يتحالفون مع الرومان، أي أنهم كانوا يتحالفون مع الطرف القوي، في لعبة شد الحبل، وكانت هذه السياسة المتقلبة سبباً مباشراً لتدخل الرومان في بعض الأحيان في شؤون أرمينية الداخلية، وما يتبعها من تحالفات سياسية أو علاقات خارجية مع الممالك المجاورة لهم (15).

وقد حكم مملكة أرمينية من سنة 53-2م، عدة أمراء أجانب، كانت روما تعينهم من قبلها حكاماً على مملكة أرمينية، والحاكم الأجنبي لايخدم الشعب المحتل أبداً، ولايجلب إلى الحكم إلا من هو أقذر منه، لهذا عانت مملكة ارمينية من الاحتلال الروماني وتبعاته، وأصبحت أرمينية بخيراتها بقرة حلوب تصب في خزينة الأمبراطورية الرومانية، ونتيجة لهذا الاحتلال البغيض طلب الناس في أرمينية مساعدة الدولة الفرثية، وظنوا أن هذه الدولة الجارة ستكون أفضل من الرومان، لكن الفرثيين ألغوا هوية أرمينية ونصبوا حاكماً فرثياً من قبلهم ، عرف بِ تريتاد، وتوج على أرمينية، وعرفت هذه الدولة بدولة أرساسيد (أرشاغويتس) التي حكمت أرمينية لفترة تزيد على القرنين أو أكثر (16).

وعندما جاء تراجان إلى حكم روما، اتخذ من تدخل الفرثيين في أرمينية ذريعة، فقد تدخل الملك الفرثي خسرو Khusrau (129-106م)، وكان الرومان يعدون أرمينية من الدول التابعة لهم ، فتمكن تراجان من إخضاع أرمينية، ثم وصل إلى شواطئ الخليج العربي (17)، وظل الوضع مضطرباً في أرمينية حتى قيام الدولة الساسانية.

العلاقات الساسانية الأرمنية :

قامت الدولة الساسانية كما نعرف في حدود سنة 224م، واتخذت من مدينة طيسفون مقراً لها، واصبحت وجهاً لوجه مع مملكة أرمينية، وتعد هذه السنة سنة شؤم على أرمينية، فقد قاموا بتوجيه جيوشهم صوب أرمينية، وعدوا مملكة أرساسيد (أرشاغويتس) دولة عدوة لهم، لأنها من صنع الدولة الفرثية السابقة، وقد انهارت هذه الدولة أمام دولة الساسانيين الفتية والقوية. ونصبوا أمراء يدينون لهم بالولاء والتبعية، وبعد الاحتلال الساساني لأرمينية ببضعة سنوات لجأ أناك وهو أحد الأمراء الفرثيين إلى الملك تريتاد الثاني كلاجئ سياسي عنده، لكنه كان يضمر الشر في نفسه، فدبر مؤامرة لاغتيال الملك تريتاد الثاني، وفعلاً نجحت خطته، وعمت في أرمينية موجه عارمة من الفوضى والتسيب، استمرت عدة سنوات (18).

وبعد استتباب الأمر لسابور الأول بن أردشير، أرسل قوة عسكرية إلى أرمينية تمكنت من اغتيال الملك الأرمني خسروف الثاني (250-225م)، وإن هذا الاغتيال يبعث على قوة الدولة الساسانية، وتأثيرها على الأوضاع في أرمينية (19).

وفي سنة 250م تجددت الحرب مع روما، فبعد أن قتل الملك خسرو الثاني ملكأرمينية، عين سابور الأول ابنه هرمزد الأول نائباً على أرمينيا، وكان تيرداد الثالث بن خسرو الثاني، قد فرالى روما، وطلب من الإمبراطور فاليريان Valerian (253-260م)، مساعدته في المطالبة بعرش أرمينية، فوافق الإمبراطور فاليريان على طلبه، ووجد في ذلك فرصة للثأر من الدولة الساسانية جراء المعاهدة التي عقدها فيليب العربي سنة 244م (20)

وبالمقابل عدّ الملك سابور الأول، إيواء الإمبراطور الروماني فالريان، لتيرداد الثالث، حجة لنقض الصلح، وتجددت الحرب بين الرومان والساسانيين في عهد الإمبراطور الروماني كاروس، الذي توفي دون أن يحقق هدفه، وعقد خليفته الإمبراطور نوميريانوس، الصلح، فتنازل الملك بهرام الثاني سنة 283م عن أرمينية والجزيرة الفراتية للرومان (21)

وفي سنة 286م عين الإمبراطور الروماني، دقلديانوس Diocletien (284-305م) تيرداد الثالث Tiridad III (286-331م) ملكاً على أرمينية، وبعد توليه منصبه، شن هجوماً مباغتاً على أراضي الدولة الساسانية، فسيطر على الجزيرة الفراتية وعلى منطقة أتروباتين التابعة للساسانيين، ولم يتمكن الملك الساساني من مواجهة ملك أرمينية، المدعوم من قبل الرومان (22)

لكن العلاقة مع الدولة المجاورة، وهي أرمينية، تغيرت بمجيء الملك الساساني نرسي Narsea (293-302م)، فقام بمهاجمة مملكة أرمينية، فسيطر عليها سنة 296م وطرد ملكها تيرداد الثالث، الذي استنجد بالرومان مرة أخرى ضد الساسانيين (23)

وبعد سيطرة الملك الساساني نرسي على أرمينية سار في نفس السنة وهاجم بلاد الجزيرة واشتبك مع الجيش الذي أرسله الإمبراطور دقلديانوس فهزمه الملك الساساني، وفي السنة التالية قام القائد الروماني بالثأر لهزيمته، وغير من وجهة الهجوم ففي سنة 297م توجه من جهة أرمينية، وفي هجوم ليلي مباغت استطاع هزيمة الجيش الساساني، ويعني هذا الهجوم أن أرض أرمينية، أصبحت مسرحاً للعمليات العسكرية بين الساسانيين والرومان، وتواصلت الهجمات على الدولة الساسانية حتى طلب الملك الساساني الصلح وتمّ عقد صلح بين الطرفين وعرفت بمعاهدة نسيبيس 298م ومن شروطها : أن تبقى أرمينية دولة مستقلة، ويرجع الملك تيرداد الثالث ملكاً عليها، وتعود المناطق الخمسة المطلة على نهر دجلة لدولة أرمينية، وتكون حدودها الجنوبية ممتدة حتى قلعة زنتا في إقليم أتروباتين (24)

ومن ينظر إلى هذه المعاهدة يجد أنها كانت في صالح دولة أرمينية، مقارنة بروما، وهذا يشير إلى أهمية دولة أرمينية بالنسبة للرومان، نظراً لما تتمتع به أرمينية من موقع استراتيجي ومهم على طرق التجارة الدولية، فضلاً عن المحافظة على وحدة أراضي أرمينية واتخاذها كدولة حاجزة بين القوتين المتصارعتين وهما الدولة الرومانية والدولة الساسانية وبهذا نعمت أرمينية بفترة من الهدوء امتدت لأكثر من أربعين عاماً (25)، تفرغت فيها لشؤونها الداخلية ولتنظيم امورها، لكن هذه المعاهدة جعلت من أرمينية حليفة للرومان ترتبط معهم بمعاهدة دفاع عسكري مشترك (26).

وفي هذه الفترة أي مطلع القرن الرابع للميلاد، دخل المبشرون النصارى إلى منطقة أرمينية، وتغلغل فيها الدين النصراني، ونتيجة لانتشار النصرانية في أرمينيا، واعتناق أمرائها وملوكها للنصرانية، كان لابد من اعتبارها ديناً رسمياً للدولة الأرمنية، وكان ذلك في سنة 301م، ويعود السبب الرئيس إلى سرعة انتشار النصرانية في أرمينية هو رغبة الشعب الأرمني في أن يتخذ ديانة موحدة، فقد كان قسم من سكانها يدين بالزرادشتية والمزدكية والمانوية، فضلاً عن انتشار عبادة الظواهر الطبيعية التي كانت تؤمن بها أغلب الشعوب الآرية ومنهم الأرمن، صحيح أن النصرانية لم تحل مشكلة الإله الواحد، بل جاءت بثلاثة أقانيم أو آلهه، لكنها جاءت بنظم ومعايير أخلاقية تفتقد إليها كثير من الديانات السابقة لها، وكان هذا كافياً لانتشارها في ذلك الوقت.

وعندما أعلنت الدولة البيزنطية أن الديانة النصرانية هي دينها الرسمي في سنة 313م في عهد الإمبراطور قسطنطين (337-306م)، فأصبحت والحال هذه حليفة لأرمينية، وقد سعى الملك الساساني لضعضعة أوضاع أرمينية الداخلية، لأن الذي يضعف في الداخل، لايستطيع مواجهة أعدائه في الخارج، أو يقوم بتحالفات جديدة، أو على الأقل يقوم بصد أي إعتداء خارجي قد تقوم به دولة ما، قد تكون الدولة الساسانية هي أحد أطراف النزاع الجديد مع أرمينية النصرانية، وبدلاً من أن يواجه الملك سابور الثاني دولة أرمينية بارسال الجيش الساساني والدخول معها في حرب، قد تتخذها الدولة البيزنطية ذريعة للدفاع عن أرمينية النصرانية، فأخذ الملك سابور الثاني يثير المشاكل الداخلية في أرمينية، فقام بدعم النبلاء وملاك الأراضي والوثنيين، ضد أتباع الدين الجديد (النصارى) وقد نجحت خطته في إحداث فتنة داخلية في أرمينية(27)

وانشغل البيزنطيون بمشاكلهم الداخلية ونزاعهم على العرش ، مما أفسح المجال أمام الدولة الساسانية للتفرد بدولة أرمينية المجاورة لهم والتي تعدها الدولة الساسانية حليفة للبيزنطيين، فقام الملك سابور الثاني بمهاجمة أرمينية في أواخر سنة 337م بمهاجمة أرمينية وتمكن من إستعادة أتروباتين التي ضمت إلى أرمينية بموجب معاهدة نسيبيس في سنة 298م (28) ، وبهذا فقدت أرمينية هذا الإقليم المهم وموارده، لكن الدولة الأرمينية صدت الهجوم الساساني ضدها، مما يؤكد قوة المواجهة، فاتجه الجيش الساساني إلى مناطق أخرى تابعة للدولة البيزنطية (29).

وفي سنة 340م توفي ملك أرمينية خسروف كوداك (340-337م)، فاستغل هذا الفراغ السياسي الملك الساساني سابور الثاني، وأرسل أخيه الأمير نرسي للاستيلاء على أرمينية، فتمكن من السيطرة عليها، ونصب نفسه ملكاً على أرمينية، وأصبحت أرمينية بحكم سياسة الأمر الواقع تابعة للدولة الساسانية في سنة 341م (30)، لكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً، ففي سنة 342م تمكن الأرمن من هزيمة نرسي الساساني، ونصبوا بدله الملك ديران بن خسروف (350-342م) (31)

حاول الملك ديران الإهتمام بأرمينية وإدارة شؤونها الداخلية، ورأى أن ينأى عن الصراع البيزنطي الساساني، فقد وجد أن كفة الملك الساساني سابور الثاني قد رجحت، فمال إلى مهادنتهم وعقد اتفاق معهم ليأمن جانبهم، وفعلاً عقد الملك ديران بن خسروف معاهدة سلام مع الساسانيين تعهد لهم فيها بدفع الجزية، وأن لاتكون أرمينية ممراً للجيوش البيزنطية، لكن عقد مثل هذه المعاهدة مع الدولة الساسانية، وضعف إدارة الملك للبلاد ونقمة الشعب على الملك الأرمني من جراء فرض ضرائب جديدة عليه، فاستغل الملك الساساني سابور الثاني هذه الأوضاع لصالحه، وطلب من حاكم أتروباتين الساساني، القيام بالمهمة، فاحتال حتى أسر الملك الأرمني وسمل عينية ونقله مع أسرته إلى طيسفون إذ سجن فيها (32)

وإزاء هذا التصرف من الساسانيين، طلب الأرمن المساعدة من الدولة البيزنطية، التي لبت طلبهم بسرعة، وسار الإمبراطور قسطنطينوس على رأس الجيش، ولما علم الملك الساساني سابور الثاني بهذا التحرك توجه بجيش كبير، واحتل أرمينية وفرض سيطرته عليها، وجرت معركة في أحد سهول أرمينية كتب فيها النصر للأرمن وحليفتهم الدولة

البيزنطية، فطلب الملك الساساني الصلح فوافق عليه الإمبراطور البيزنطي، ومما جاء في بنود الصلح :

1- إعادة الملك الأرمني الكفيف ديران بن خسروف إلى بلاده مع بقية أفراد أسرته .
2- يتولى عرش أرمينية ابن الملك ديران أرشاك الثاني Arshak II (351-367م).
3- عدم التدخل في شؤون أرمينية.

وقد عاد الملك أرشاك الثاني مع أسرته إلى أرمينية وتولى حكم البلاد، لكن لم تغب عن باله ما فعله الساسانيين بهم وبملكهم، فقرر الثأر لأبيه ودولته، فتحالف مع البيزنطيين ضد الساسانيين، ووضع أرمينية أرضاً وشعباً وجيشاً تحت الوصاية البيزنطية (33)، كما تزوج من ابنة أحد كبار قادة الجيش البيزنطي وهي أولمبياس Olympias، وبذلك خرجت أرمينية من التبعية للساسانيين ودخلت تحت الوصاية البيزنطية مرة أخرى (34)، وهذا العمل يعد من أكبر الأخطاء، لأن الولاء للأجنبي لايجلب إلا الخراب للبلد.

وفي سنة 356م كتب الإمبراطور البيزنطي قسطنطينوس رسالة إلى الملك سابور الثاني يعرض عليه الصلح وعقد هدنة طويلة الأمد بين الجانبين، فرفض الملك سابور الثاني العرض وطالب الإمبراطور البيزنطي بعدة مطالب من ضمنها إعادة دولة أرمينية إلى الساسانيين (35)

وبعد حروب عديدة وانتصارات وهزائم تم التوصل إلى عقد هدنة جديدة ما يهمنا منها ما يتعلق بأرمينية فنصت معاهدة 363م على شروط عدة أهمها :عدم تدخل الدولة البيزنطية في شؤون أرمينية (36)

وفي سنة 383م تولى سابور الثالث حكم الدولة الساسانية (383-388م) وهو بن سابور ذي الأكتاف، أما أرمينية فقد اضطربت أوضاعها فتولى عرشها أرشاك الثالث ArshakIII 377-390)م، فاستغل الملك سابور الثالث هذا الوضع لصالح الدولة الساسانية نظراً لانشغال الدولة البيزنطية ببعض المشاكل مع أعدائها في الغرب والشمال، وحاول اللعب في أرمينية كما فعل أسلافه من قبل، وهو التدخل في شؤون أرمينية الداخلية، فعين الملك الساساني على عرش أرمينية خسروف الرابع وزوجه من أخته وأمده بجيش كبير سيطر على معظم أراضي أرمينية، وبهذا العمل أصبح لأرمينيا ملكين هما أرشاك الثالث وخسروف الرابع، فما كان من أرشاك الثالث إلا الإنحياز للدولة البيزنطية، وكان على رأس الدولة البيزنطية

الإمبراطور ثيودورس الأول 395-379م) الذي كان متحمساً لضم أرمينية إلى جانبه ضد الساسانيين، وبعد حروب عدة قرر الملك الساساني والإمبراطور البيزنطي تقسيم أرمينية إلى قسمين شرقي وغربي (37).

وكان هذا التقسيم يصب في غير مصلحة أرمينية فقد قسم شعبها وأرضها، فيما عده الجانب الساساني مغنماً كبيراً لهم، أما الجانب البيزنطي فقد إضطر إلى عقد مثل هذه الاتفاقية المريرة التي قسمت بموجبها أرمينية رغماً عن شعبها ورضاء الإمبراطورية البيزنطية مرغمة، لانشغالها في حرب القبائل الجرمانية المتوحشة في الشمال. أما فيما يتعلق الأمر بأرمينية فقد كانت هذه المعاهدة التي قسمتها هي ضربة قاضية لحياتها السياسية والاجتماعية والعسكرية (38)

وفي عهد الملك الساساني بهرام الرابع (399-388م) انحاز ملك أرمينية الساساني إلى جانب البيزنطيين، واتجه إلى الإمبراطور البيزنطي ثيودورسيوس الأول Theodosius I 395-379)م)، الذي عهد إليه بحكم القسم الغربي من أرمينية والذي كانم يعرف بعد التقسيم أرمينية البيزنطية، لكن الملك الساساني استطاع من أسره وعين أخاه بهرام سابور أي أخو خسروف الرابع ملكاً على أرمينية (39)

ثم أعاد الملك الساساني يزدجرد الأول Jezdegerd I، (420-399م)، خسروف الرابع إلى حكم أرمينية بعد وفاة أخيه بهرام سابور بحدود سنة 416-414م (40)، وقد تجددت الحرب بين الساسانيين والبيزنطيين، وكانت أرمينية أحد مسارحها في سنة 421م، ثم عقدت معاهدة صلح بين الطرفين مدتها 100سنة (41)

ومن ينظر إلى مدة المعاهدة يتبين رغبة الجانبين البيزنطي والساساني بعدم جدوى الحرب ورغبتهم بعقد سلام دائم بين الجانبين، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فقد كان الساسانيين هم الأكثر نقضاً للمعاهدات المعقودة بين الجانبين، وهذه النقطة لايختلف عليها أثنان.

وفي سنة 450م عمل الملك الساساني يزدجرد الثاني على ضم أرمينية إلى دولته، وعمل جاهداً لتغيير دين أهلها إلى الزرادشتية، فبدأ بمضايقة أهلها، ولما وجد أن جهوده السلمية باءت بالفشل، جهز جيشاً واحتل به أرمينية، وانتصر على الجيش الأرمني سنة 451م في

معركة أوارابر Auarair، وأجبر أهلها على اعتناق الدين الزرادشتي، وهدم الكنائس الأرمنية وحولها إلى معابد للنار، وظل الأمر هكذا حتى سنة 484م .

وفي سنة 502نقض الملك قباذ معاهدة 442م وهاجم أرمينية البيزنطية، واستولى على عاصمتها ثيودوسيوبوليس دون مشقة، لأن حاكمها المدعو قسطنطين تواطىء مع الساسانيين مما سهل لهم احتلال العاصمة الأرمنية (42).

وفي سنة 527م نشبت الحرب بين الساسانيين والبيزنطيين، فهاجم الجيش البيزنطي أرمينيا الساسانية بقيادة القائدين بليزاريوس Belisurius وسيتاس Sittas، وقاموا بنهب الممتلكات العامة والخاصة، لكنهم لم يوفقوا في الاستيلاء عليها (43)

وحدثت معركة أخرى في سنة 530م التي انتصر فيها البيزنطيون، وبموجب معاهدة الصلح سيطر البيزنطيين على قلعتين في أرمينية الساسانية هما قلعة بولوم Bolum وقلعة فارانجيوم Pharangiumالتي كانت تضم منجماً للتنقيب عن الذهب (44)

وفي سنة 532م عقد صلح آخر بعد عدة حروب عادت بموجبه قلعتي بولوم وفارانجيوم إلى السيادة الساسانية في عهد الملك الساساني كسرى انو شروان (45)

وتجددت الحرب بين الساسانيين والبيزنطين في سنة 543م، على الرغم من انتشار مرض الطاعون بين أفراد الجيش الساساني، فخرج كسرى أنو شروان إلى أرمينيا الساسانية، بقصد مهاجمة أرمينية البيزنطية، فوصلته أنباء عن ارسال الإمبراطور البيزنطي جستنيان مبعوثيه لعقد صلح بين الجانبين، فظل كسرى ينتظر في أرمينية الساسانية، ثم تأخر المبعوثين، فقام كسرى أنو شروان بارسال أسقف مدينة دوبيوس Dobius إلى قائد جيش أرمينيا البيزنطية فاليريان Valerian ليسأله عن سبب تأخر مبعوثي الإمبراطور البيزنطي، فتبين له أن أحدهما قد اصيب بمرض الطاعون، ولما وصلت أنباء تضعضع أوضاع الدولة الساسانية بسبب انتشار الطاعون، وثورة ابن كسرى عليه بدعم من العظماء، أمر الإمبراطور البيزنطي بارسال ثلاثة جيوش لملاقاة كسرى أنو شروان، ولما تأخر وصول المبعوثين البيزنطيين، نقل كسرى أنو شروان جيشه إلى منطقة الجزيرة التي لم ينتشر فيها مرض الطاعون، للحفاظ على البقية الباقية من الجيش الساساني، وأمر قائد جيش أرمينية الساسانية بتحصين المناطق التي تحت نفوذه، والقيام بمنع أي تقدم للجيش

البيزنطي، فقام نابيدس بالتوجه إلى قرية أنكلون Anglon وهي منطقة جبلية وعرة المسالك ذات ممرات ضيقة، وقام بسد الممرات وحفر خنادق حول هذه الممرات وكمن خلفها.

وصلت الجيوش البيزنطية الثلاثة إلى قرية أنكون الواقعة في منطقة دوبيوس، فوجدت أن الأمور في غير صالحها، وكان قادة الجيش البيزنطي مختلفين لايسمع أحدهما نصيحة الآخر، فجرت معركة انتصر فيها الجيش الساساني، ففشلت الحملة البيزنطية، وتحول هدفها من هجومية إلى دفاعية (46).

ولما عقدت معاهدة سنة 562م حددت الممرات والمنافذ التجارية التي كانت تم من خلالها البضائع التجارية، وكان من بينها أرمينية حيث تجبى الضرائب فيها (47)

وفي سنة 572م نقضت المعاهدة السابقة (التي عقدت سنة 562م) بسبب أرمينية، فقد أعلن الثورة على حاكم أرمينية الساساني سورين 572-564م، الأمير الأرمني وردان الثاني ماميكونيان (574-572م) وقتلوا سورين، والتجأوا إلى القسطنطينية، طالبين حماية الإمبراطور البيزنطي، فاستقبلهم الإمبراطور البيزنطي جستين الثاني، وفي هذا الوقت بالذات وصل وفد من طيسفون للمطالبة بدفع الأموال المستحقة للساسانيين، لم يرفض الإمبراطور البيزنطي الطلب الساساني، بل طالب بحماية الأرمن النصارى في أرمينية الساسانية، وهدد كسرى بعدم رفض هذا الطلب، وإلا فسوف يقوم بتنصيب ملك جديد على الدولة الساسانية (48)

ونشبت الحرب من جديد، وكانت أرمينية هي المسرح والميدان الذي يجري فيه التنافس والحرب لأهميتها الاستراتيجية والعسكرية، وتعاون الإمبراطور جستين الثاني مع الثائر وردان الثاني ماميكونيان، وساعده بالجيش اللازم، وفعلاً تمكن من صد هجوم الجيش الساساني، واستعادة العاصمة الأرمنية الساسانية دوين (توين أو دبيل) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فكر الإمبراطور بالاستعانة بالأرمن وضمهم إلى جيشه، لما يتمتعون به من صفات قتالية (49)

وفي سنة 572م حاول الجيش البيزنطي التوجه إلى أرمينية الساسانية، بقوات كبيرة إلا أنهم فشلوا في السيطرة عليها وعادوا إلى بلادهم (50)، وفي سنة 574م عقدت هدنة بين الطرفين، لم يتم التطرق فيها إلى أرمينية وهذا يعني تخلي الدولة البيزنطية عنها في هذه

المعاهدة وكانت مدتها سنة واحدة، ولم يقم كلا الجانبين بتجديدها، فتوجه الملك كسرى أنو شروان عبر أرمينية الساسانية، وسيطر على أرمينية البيزنطية (51)

وأخذ يسرع في توجهه إلى أراضي الدولة البيزنطية متجاوزاً عاصمة الأرمينيتين الساسانية والبيزنطية (ثيودوسيوبوليس وقيصرية على التوالي)، والسيطرة ودخول الجيش يعني فرض الجزية وتبديل الحكام أو إعلان تبعيتهم للدولة الساسانية، وتخريب الأراضي التي تمر عبرها الحملات العسكرية الساسانية.

وعاد الجيش الساساني بعد أن اندحر وغرق معظم جنده. وفي سنة 576م أرسل الإمبراطور تيباروس الثاني رسالة إلى كسرى أنو شروان يعرض فيها الصلح، فرحب كسرى أنو شروان بذلك، وأنه سيجد في الصلح الجديد فرصة لتعويض خسارته في أرمينية في حملته السابقة والحصول على المزيد من الذهب من الدولة البيزنطية (52)

لكن الوفد البيزنطي لم يعط الساسانيين أي قطعة ذهبية فوافق الملك الساساني كسرى أنو شروان، ولما ذهب الوفد إلى الإمبراطور البيزنطي لتوقيع المعاهدة أضاف شرطاً إضافياً وهو المطالبة بمدينة دارا فرفض كسرى أنو شروان هذا العرض وطلب منهم مقابل ذلك أن يعيدوا اليه أرمينية الساسانية (53)

وقد أثبت الإمبراطور البيزنطي تيباروس قصر نظره في عقد الصلح بين الدولتين، مما أفسح المجال لحرب جديدة كانت كلتا الدولتين في غنىً عنها (54)

وفي سنة 578م توجهت الجيوش الساسانية إلى أرمينة، فوجدوها محصنة والجيش البيزنطي مستعد للقتال، فآثر الساسانيون الانسحاب عنها، وأخذوا يخربون كل ما مروا به من مدن وقرى وكنائس وأديرة دون أن يحققوا شيئاً يذكر (55)

وإزاء ذلك السلوك من الجانب الساساني، قام القائد البيزنطي موريس بهجوم على عاصمة أرمينية الساسانية دوين وخربها وأسر عدداً كبيراً من سكانها ثم اتجه جنوباً إلى مدينة أرزن الواقعة قبالة مدينة مرتير وبوليس فخربها وأخلاها من السكان الأرمن وأجلاهم إلى جزيرة قبرص خوفاً من انتقام الساسانيين منهم بعد عودة الحملة البيزنطية، اذ كان الساسانيون قد اشترطوا لعقد المعاهدة (576م) التي لم توقع تسليمهم الثوار الأرمن مقابل عقد المعاهدة، وهو الشرط الذي رفضه البيزنطيين (56)

ولو وافق الإمبراطور البيزنطي على عقد الهدنة لما حدث ما حدث، من تخريب وتدمير للمدن والقرى والزرع وهلاك الناس، وهذا الشيء لايعوض بيوم وليلة، فإعداد جندي مقاتل أو فلاح أو وجود شجرة مثمرة، أو بناء مدينة، تحتاج إلى عشرات السنين، لكي تعود الأمور إلى طبيعتها، فضلاً عما تتلفه الحرب من أموال وأضرار نفسية على الجانبين، فالزوجة التي فقدت زوجها الفلاح وهو يعمل في أرضه ويقدم الجزية والخراج للدولة، والأم التي أسر إبنها ولاتعرف أين ذهب به الجيش الساساني أو البيزنطي، والأخت التي فقدت أخيها ماذا تفعل ؟ أنها مآسٍ مروعة لايعرفها إلا من عاش مثل هكذا ظروف صعبة.

وفي سنة 579م أدركت الدولتين أن الصلح هو الأصوب وتم عقد معاهدة تجاذب فيها الطرفان لعبة شد الحبل في المفاوضات وما يهمنا منها هو ما يتعلق بأرمينية، فقد طلب الملك الساساني جملة شروط منها:

1- تسلم بيزنطة الثوار الأرمن.

2- تنازل بيزنطة عن أرمينية الساسانية للساسانيين وإقليم ايبريا، مقابل تنازل الساسانيين عن مدينة دارا المهمة (57)

لكن هذه المعاهدة لم تتم وعادت حليمة إلى عادتها القديمة، وهي الحرب وما أداركم ما الحرب ؟ !!! جنبكم الله إياها أنتم وأولادكم وأحفادكم إلى يوم الدين شرها، وبدأت الحرب سجالاً بين الطرفين .

ثم تولى كسرى الثاني أبرويز بن هرمز الحكم Aparuse (590-728م) وقد عارض هذا التعيين القائد بهرام جوبين، ودخل العاصمة الساسانية، وهرب كسرى أبرويز إلى حدود الدولة البيزنطية، وطلب النجدة من الإمبراطور البيزنطي موريس، كما أرسل بهرام جوبين إلى الأرمن طالباً تأييدهم ووعدهم بعدم التدخل في أمورهم الداخلية، وأن يجعل حدود دولتهم تمتد من قيصرية عاصمة إقليم كبدوكيا في الغرب إلى نهر أرس (الرس) في الشرق، وأن يقر حكم زعيمهم وردان الثاني ماميكونيان الذي كان قد هرب إلى القسطنطينية (58)

ووجد الإمبراطور البيزنطي موريس أن الفرصة مواتية له، فشرط على كسرى أبرويز عدة شروط وافق عليها، بشرط الآن يعيده إلى مملكته، فزوده بجيش عبر به بلاد أرمينية في سنة 591م، وانضمت إليه قوات القائد الأرمني موسيل وقوات خاله بندويه، فلما سمع

بهرام جوبين الأخبار خرج من الطيسفون باتجاه أترورباتين وفي جنزك Ganzak جرت معركة رهيبة، انتصر فيها الملك كسرى أبرويز ووقع الصلح والتزم به، وتزوج الملك كسرى أبرويز بابنة الإمبراطور البيزنطي موريس (ماري، مريم)، حتى مقتل الإمبراطور موريس في سنة 602م أو 603م (59).

وظلت أرمينية حلقة مهمة في الصراع البيزنطي الساساني، فقد كانت ممراً لكلا الطرفين للعبور إلى أراضي الدولة الأخرى، كما كانت كلتا الدولتين تترك فيها حاميات احتياطية، تحسباً لأي طارئ قد تتعرض له أراضي كلتا الدولتين، ولم تكن أرمينية معبراً للقوات الساسانية والبيزنطية فحسب، وإنما كانت ممراً للقبائل الغازية (قبائل القفقاس والخزر وغيرها من القبائل الأخرى)، فهي قد شكلت عقدة مواصلات لا بد للقادم من الغرب من أن يمر بها، وكذلك للعابر من الشرق لابد وأن يمر بها، كما لايمكن لأي جيش ساساني أو بيزنطي من ترك أرمينية وراءه دون سيطرته، لأنها تصبح أشبه بسكين الخاصرة، تمنعه من التقدم باتجاه العدو، ولهذا كثرت الحملات العسكرية الرومانية والفرثية والبيزنطية على أرمينية، ودفع الشعب الأرمني كثيراً من أبنائه ضحية هذا الصراع المرير الذي زجت أرمينية به، من دون أن يكون لها في كثير من الأحيان ناقة أو جمل لتدافع عنه، وهذا ما جعل الشعب الأرمني صعب المراس يتوجس من كل شيء يراه أو يشاهده، ويعده خطراً عليه بشكل دائم.

الهوامش:

(1) بول أميل: تاريخ أرمينيا، ترجمة شكري علاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 5-6.

(2) أميل: تاريخ أرمينيا ص 6.

(3) أميل: تاريخ أرمينيا ص 6.

(4) أميل: تاريخ أرمينيا ص 8.

(5) أميل: تاريخ أرمينيا ص 8.

(6) أميا: تاريخ أرمينيا ص 8-9.

(7) أميل: تاريخ أرمينيا ص 10.

(8) أميل: تاريخ أرمينيا ص 10.

(9) طه باقر و فؤاد سفر: المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، بغداد 1962م الرحلة الخامسة ص 4. ؛ الموسوي: العلاقات ص 45.

(10) الموسوي: العلاقات ص 45.

(11) شريف: الموقع الجغرافي للعراق 2/241؛ ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص71-70؛ الموسوي: العلاقات ص 46.

(12) أميل: تاريخ ارمينيا ص 12.

(13) أميل: تاريخ أرمينية ص 134-12.

(14) شريف: الموقع الجغرافي 2244؛ ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 83؛ الموسوي: العلاقات ص 47.

(15) أميل: تاريخ أرمينيا ص 13.

(16) أميل: تاريخ أرمينيا ص 14-13.

(17)عبو: اليونان والرومان ص 331؛ الموسوي: العلاقات ص 52.

(18) أميل: تاريخ أرمينيا ص 14.

(19) الموسوي: العلاقات ص 58؛ ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 107؛ أديب السيد: أرمينية في التاريخ العربي، حلب، المطبعة الحديثة، 1972م، ص 44.

(20) الطبري: تاريخ 1/394؛الفردوسي: الشاهنامة 2/57؛ الموسوي: العلاقات ص 60

(21) كرستنسن: إيران ص 217؛ الموسوي: العلاقات ص 98.

(22) ستارجيان: تاريخ الامة الأرمنية ص113؛ الموسوي: العلاقات ص 99.

(23) ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 114؛ حافظ: تاريخ الشعب الأرمني ص56؛ الموسوي: العلاقات ص 99. أما الرومان فكانوا منشغلين في القضاء على تمرد وثورة أهل مصر ضدهم، فلم يستطع الإمبراطور دقلديانوس من مساعدة ملك أرمينية في استعادة عرشه من الساسانيين. (الموسوي: العلاقات ص(99.

(24) حافظ: تاريخ الشعب الأرمني ص 57؛ الموسوي: العلاقات ص 102.

(25) الموسوي: العلاقات ص 103.

(26) ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 114؛ الموسوي: العلاقات ص 104.

(27) ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 116؛ الموسوي: العلاقات ص 104.

(28) الموسوي: العلاقات ص 107.

(29) الموسوي: العلاقات ص 107.

(30) ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 124؛ الموسوي: العلاقات ص 107.

(31) حافظ: تاريخ الشعب الأرمني ص60؛ الموسوي ك العلاقات ص 107.

(32) ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 126؛ الموسوي: العلاقات ص 110.

(33) ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 126؛ حافظ: تاريخ الشعب الأرمني ص 61؛ الموسوي: العلاقات ص 110.

(34) رستم: الروم 1/76؛ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 126؛ الموسوي: العلاقات ص 111.

(35) كرستنسن: إيران ص 226؛ العابد: معالم تاريخ الدولة الساسانية ص49-48.

(36) لويد: الرافدان ص173؛ الموسوي: العلاقات ص131.

(37)ستارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية ص 152؛ الموسوي: العلاقات ص 136.

(38)الموسوي ك العلاقات ص 137.

(39)الموسوي: العلاقات ص 137.

(40)كرستنسن: إيران ص 241؛ الموسوي: العلاقات ص 137.

(41)كرستنسن: إيران ص 267؛ الموسوي: العلاقات ص 144.

(42)رستم: الروم 137-1/136؛ الموسوي: العلاقات ص 152.

(43)كرستنسن: إيران ص 342؛ رستم: الروم 1/186؛ الموسوي: العلاقات ص 161.

(44)الموسوي: العلاقات ص 164-163.

(45)الموسوي: العلاقات ص 171-170.

(46)الموسوي: العلاقات ص 217.

(47)عبد القادر أحمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية بيروت 1966م، 66-64؛ الموسوي: العلاقات ص 223.

(48)رستم: الروم 1/199؛ حافظ:تاريخ الشعب الأرمني ص76-75؛ الموسوي: العلاقات ص 224.

(49)السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، بيروت دار النهضة العربية 1982م، ص104؛ الموسوي: العلاقات ص 225.

(50)رستم: الروم 1/200؛ غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص31؛ الموسوي: العلاقات ص 227.

(51)رستم: الروم 1/200؛ الموسوي: العلاقات ص 230-229.

(52)الموسوي: العلاقات ص 230.

(53)الموسوي: العلاقات ص231.

(54)الموسوي: العلاقات ص 231.

(55)الموسوي: العلاقات ص 232.

(56)حافظ: تاريخ الشعب الأرمني ص 76؛ الموسوي: العلاقات ص 233.

(57)الموسوي: العلاقات ص 234-233.

(58)غريغورس الملطي ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثولوكية بيروت، 1958م ص90؛حافظ: تاريخ الشعب الأرمني ص 77؛ الموسوي: العلاقات ص 240.

(59)الدينوري: الأخبار الطوال ص90؛ الطبري: تاريخ 1/466؛ رستم: الروم 1/202؛ كرستنسن: إيران ص 428؛ الفرد. ج بتلر: فتح العرب مصر، ترجمة محمد فريد، مكتبة مدبولي القاهرة 1966م ص96؛ الموسوي: العلاقات ص 242-241.

13

الفصل الثالث عشر

سقوط الدولة الساسانية

سقوط الدولة الساسانية :

في حدود السنة السادسة أو بداية السنة السابعة للهجرة، أكد الرسول محمد (على عالمية الدعوة إلى الدين الإسلامي، بعد الرسائل التي وجهها محمد (الى ملوك وحكام الدول التي تقطن في جزيرة العرب، والإمبراطوريات العظمى في ذلك الوقت، وكان من بين الدول التي أرسل لها الرسول (الدولة الساسانية اذ أرسل رسالة إلى الملك كسرى أبرويز، يدعوه فيها إلى الدخول في الدين الإسلامي، وهذا نص الرسالة: ((بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك)) (1)، وبدلاً من أن يجيب الملك الفارسي كسرى على رسالة الرسول (مزق الرسالة، وهمّ بقتل مبعوث الرسول (، لكنه أطلقه، فلما وصلت أنباء استقبال مبعوث الرسولﷺ (وقيام ملك الساسانيين بتمزيق الرسالة قال ﷺ: ((مزق الله ملكه))، فكان كما قال (، وزيادة في الاستخفاف بدعوة الرسول (أرسل إلى حاكم اليمن الفارسي باذان، بارسال من يلقي القبض على الرسول (وارساله مقيداً إلى المدائن، وارسل شرطيين من اليمن تنفيذاً لأمر كسرى، فوصلا المدينة المنورة، فأخبرهما الرسول (بمقتل كسرى في صبيحة ذلك اليوم، وتولي شيرويه الحكم من بعهده، وأرسل معهما رسالة إلى حاكم اليمن الساساني، يدعوه فيها إلى الإسلام، فأسلم هذا الحاكم وحسن إسلامه (2)

وكما نعرف، فبعد وفاة الرسول (حدثت حروب الردة، وكانت أعظمها بالبحرين وهجر واليمامة، وتمكن الخليفة الراشد أبو بكر الصديق (من القضاء عليها، وضبط أمور الجزيرة العربية، فكر الخليفة الصديق (بالتوجه لجبهة العراق، ولو تساءلنا عن السبب المباشر لهذا التوجه، لرأينا أن معظم حركات الردة التي حدثت في أطراف الجزيرة عربية الشرقية، كانت مدعومة من الدولة الساسانية، لإرباك الوضع على أطراف الدولة الساسانية، ولإشغال العرب بأنفسهم عن مواجهتها والتصدي لنفوذها في العراق والجزيرة الفراتية (3).

وكان بنو شيبان قد عرفوا مدى الضعف الذي حلّ بالدولة الساسانية منذ معركة ذي قار التي حدثت بحدود سنة 610م، وظلوا يغيرون على أطراف الدولة الساسانية، دون خشية من قوتها وبطشها، وكان هنالك عدد من الفرسان من بني شيبان، يحملون على أطراف الدولة الساسانية، وكان من أشجعهم المثنى بن حارثة الشيباني، الذي كان يغير على السواد، قبل وأثناء حروب الردة، ويبدو أن بني شيبان قد أسلموا وحسن إسلامهم منذ أواخر عهد الرسول محمدﷺ ((فبلغ أبا بكر الصديق خبره، فسأل عنه، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني (4)، ويبدو أن المثنى بن حارثة الشيباني، كان في حاجة إلى دعم عسكري وسياسي، فتوجه المثنى إلى المدينة المنورة، وقابل الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وطلب منه المساعدة وضرورة إمداد بني شيبان بجند وبدعم مادي وبشري، فقال للخليفة أبي بكر الصديق : ياخليفة رسول الله (إستعملني على من أسلم من قومي، أقاتل هؤلاء الأعاجم من أهل فارس، فكتب له أبو بكر الصديق (كتاباً، تمّ بموجبه تعيينه قائداً على جبهة بلاد فارس، فتوجه إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام، وأراهم كتاب الخليفة الصديق (، فالتحقوا به، وأعلنوا اسلامهم، وحسن إسلامهم أيضاً (5)

ولم يعط الخليفة أبو بكر الصديق (موافقه للمثنى بن حارثة الشيباني، بل تدارس العرض الذي قدمه المثنى بن حارثة الشيباني، وأعلمه فيه إستعداد عرب العراق والخليج العربي لدعم تحركاته العسكرية، للروابط القبلية التي تربط بني شيبان بهذه القبائل، واستعدادها للقتال إلى جانب بني شيبان، بعد أن ذاقت هذه القبائل الذل والهوان على يد الفرس، كما أن العرب لم ينسوا ما فعله سابور ذي الأكتاف بهم وبزعمائهم من قبل، فتناولت الروايات والقصص أفعال سابور بهم.

ولم يكتف الخليفة أبي بكر الصديق (بإرسال المثنى وحده إلى جبهة العراق، فكتب إلى خالد بن الوليد للحاق به، ويأمره بأن يجند من لم تثبت عليه الردة، ويضمهم إلى جيشه المتوجه به إلى أرض العراق (6).

ويبدو أن بقايا المناذرة قد جندوا البعض من ضعاف النفوس من العرب إلى جانبهم لمواجهة العرب المسلمين وللتصدي لتحركاتهم المتجهة صوب الحيرة، وهذا ما قام به المنذر المغرور، لهذا كان التوجه إلى حرب المرتدين الموالين للمناذرة، كان مطلباً ملحاً للخليفة الصديق) (7)

توجه القائد خالد بن الوليد (إلى جنوب العراق في محرم من سنة 12هـ/623م، على رأس جيش يبلغ تعداده 10000جندي، وانضم إليه جيش المثنى بن حارثة الشيباني المكون من 8000جندي، فأصبح عدد جند المسلمين في العراق، بحدود 18000جندي (8)

سار خالد بن الوليد (باتجاه العراق، حاملاً معه وصية الخليفة ابي بكر الصديق رضي الله عنه: ((أن سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الأبلة، وتألف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم)) (9).

وتنفيذاً لتوجيهات الخليفة الصديق (كتب القائد العسكري لجبهة العراق خالد بن الوليد (رسالة إلى حاكم مدينة الأبلة الفارسي هرمز يدعوه فيها إلى الدخول في الدين الإسلامي أو الجزية أو الحرب، وكانت هذه الشروط الثلاث التي يقدمها الجيش الإسلامي عند تقدمه لفتح أية منطقة من المناطق. ومما جاء بالرسالة : ((أما بعد : فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت، كما تحبون الحياة)) (10)

رفض القائد الفارسي لمنطقة الأبلة هرمز هذا العرض السخي الذي قدمه القائد الإسلامي خالد بن الوليد (، وسبق لهذا القائد أنه كان يستهين بمن تحت يده من غير الفرس، ووصف بعدة أوصاف فقالوا عنه : ((أخبث من هرمز)) و ((أكفر من هرمز))، فحشد قواته قبالة قوات خالد بن الوليد في منطقة كاظمة، وهي منطقة لاستراحة القوافل التجارية على طريق البصرة، لأن خالد بن الوليد (قد عسكر فيها وعبأ قواته فيها، لانتظار رد القائد الفارسي هرمز، وأخذ كل الاحتياطات الموجبه في مواجهة كهذه، وعرف عن حرص خالد بن الوليد، أنه كان لاينام ولا ينيم، حرصاً منه على المسلمين من البيات (الهجوم الليلي) (11).

ونتيجة لرفض الفرس لشروط المسلمين جرت في منطقة كاظمة أولى المعارك الكبرى بين العرب والفرس، بعد معركة ذي قار، عرفت بمعركة ذات السلاسل، وذلك لأن القائد الفارسي، قد قيد الجند الفارسي بسلاسل من حديد، حتى لايهربوا من المعركة، وحتى يكونا صفاً واحداً لايستطيع المسلمين أن يجتازوه إلى الصف الذي يليه، وليعيث تقدم الجيش الإسلامي، وقد اعترض الجند الفارسي على هذا التصرف غير الحكيم من القائد هرمز : ((قيدتم أنفسكم لعدوكم، فلا تفعلوا، فإن هذا طائر سوءٍ فأجابوهم : أما أنتم فحدثونا أنكم تريدون الهرب)) (12).

وانتهت المعركة بهزيمة القوات الفارسية التي لم يعرف عددها أو قوتها، وقتل القائد الفارسي هرمز، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة وزرع أربعة أخماسها على المقاتلين، وأرسل الخمس إلى الخليفة الصديق ﷺ، فكان هذا أول غنيمة من الفرس يتسلمها الخليفة الصديق ﷺ وكان من بين الخمس فيل ضخم، فتعجب من رآه من الأطفال والنساء ممن لم يروا الفيل من قبل (13).

واصل القائد المسلم خالد بن الوليد (تقدمه نحو مدن العراق الواحدة تلو الأخرى، وقد وصلت مسامع الانتصار الإسلامي في ذات السلاسل إلى الملك الساساني، فأخذ يحشد القوات تلو القوات والقطعات تلو القطعات للثأر من المسلمين، لكن النتيجة كانت محسومة لصالح المسلمين الذين توكلوا على الله، فأثابهم بالنصر تلو النصر ففتح الجيش الإسلامي مناطق غرب العراق وانتصر في معارك المذار والولجة وأليس ثم سيطر المسلمين على أمغيشيا، ثم تقدموا نحو مدينة الحيرة (14).

ثم حشد الفرس الجيوش للدفاع عن مدينة الحيرة، التي عدوها أهم حصن في المنطقة الغربية من العراق، وقاتل أهل الحيرة معهم، إلا أنهم أدركوا أن لاقبل لهم بمواجهة الجيش الإسلامي، فطلبوا الصلح، فوافق عليه القائد خالد بن الوليد وعلى شروط أهل الحيرة التي شرطوها لأنفسهم، وهنا علينا أن ندرك أهمية الصلح والسلم في العقيدة العسكرية الإسلامية منطلقة من شعار: ((وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله))، لاعقيدة التدمير والتخريب التي تدعو إليها الدول المتحضرة مثل أمريكا وغيرها اليوم عندما تهاجم أية منطقة في العالم لاتشكل أي تهديد لها. وبلغ مقدار الصلح بين أهل الحيرة والجيش الإسلامي 190000درهم في السنة، وتضمن لهم أرواحهم ومساكنهم ودور عبادتهم، ويدافع المسلمون عنهم ضد أي اعتداء قد يحدث عليهم، هذه هي الدعوة الإسلامية، لا أن يأتي المحتل ويسرق أموال الدول ويقتل كيفما يشاء ويبريء المجرمين القتلة ويقتل الأبرياء (مجزرة حديثة في العراق التي ارتكبتها القوات الأمريكية - المتحضرة والديمقراطية جداً جداً - ضد الأبرياء العزل في منازلهم). (15)

تقدم خالد بن الوليد ليستكمل فتح الأطراف الغربية من العراق وفق خطة مرسومة، فجاءه أمر من لايرد أمره وهو الصديق (بالتوجه إلى بلاد الشام لنجدة المسلمين ضد الروم البيزنطيين الذين تجمعوا باليرموك من أرض الأردن الغالية، فأعطى قيادة الجيش

الإسلامي إلى القائد المثنى بن حارثة الشيباني (16)، فسار خالد بن الوليد (في أسرع طريق يربط العراق بالشام، وخطته في عبور الصحراء تدرّسها اليوم الأكاديميات العسكرية، فهو قد عبر الصحراء الخالية من الماء، وأخذ من الماء كفايته، وضمر الإبل التي تحمل الماء، وفي أقصر طريق يعرفه العالم اليوم ، مع المحافظة على جنده من الهجوم المتوقع من الروم.

وبعد وفاة الصديق تولى الخلافة عمر بن الخطاب فكان أول همه جبهة العراق، فندب الناس للتوجه إلى العراق فتثاقلوا، لأن وجه فارس كان ((من أكره الوجوه إليهم، وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم)) (17). إلا أن المثنى بن حارثة الشيباني (شجع الناس على التوجه صوب العراق وخاطبهم قائلاً : ((أيها الناس، لايعظمن عليكم هذا الوجه، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شقي السواد وشاطرناهم، ونلنا منهم وإجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها)) (18). وبعده قام الخليفة عمر (خطيباً فحث الناس على الجهاد والمشاركة في هذه الحملة على حدود الدولة الساسانية (19).

فقام أبو عبيد بن مسعود الثقفي وتبعه قرابة ألف رجل فضمهم الخليفة (إليه، وأمره على الجيش المتوجه إلى العراق، على الرغم من أنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام من المهاجرين أو الأنصار، لكن تطوعه أولاً وحثه الناس على الجهاد جعله يتولى قيادة هذه الحملة وأصبح المثنى أحد قادة الحملة، وأوصاه الخليفة عمر (بطاعة الصحابة من المهاجرين والأنصار وأن لايتعجل لقاء العدو إلا بعد التأني والحيطة، ((اسمع من أصحاب النبي (وأشركهم في الأمر، ولاتجتهد مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لايصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف)) (20).

توجه الجيش الإسلامي بقيادة أبي عبيد الثقفي إلى العراق، وكان أبو عبيد لايمر بقوم من العرب إلا حضهم على المشاركة في الحملة ووعدهم بالغنائم، فسار معه خلق كثير من عرب العراق، وخاض أبو عبيد الثقفي عدة معارك منها معركة النمارق، ومعركة السقاطية، وانتصر على الحاميات الفارسية فيها، فأقلقت هذه الانتصارات الملك الساساني، فأرسل تعزيزات كبيرة إلى جبهة العراق. وعسكر الطرفان عند مكان يعرف بالمروحة، وكان المسلمون على الضفة الغربية لنهر الفرات، أما الجيش الفارسي فكان على الضفة الشرقية لنهر الفرات (21).

وتعجل المسلمون للقاء العدو الفارسي فعبروا الجسر، وكان الوقت رمضان من سنة 13هـ/634م، مما أعطى الفرس مزايا أفضل من المسلمين، وبلغ عدد الجند الفارسي ما يقرب من 4000 مقاتل مدججين بالسلاح تدعمهم الفيلة، مما أدى إلى إرباك المسلمين، لأنهم لم يعتادوا على مقاتلة هذه الحيوانات من قبل، وحينما حاول قائد الجيش الإسلامي أبي عبيد الثقفي التصدي لآحد الفيلة، جرحه الرماة واشتشهد في المعركة، فكان هذا مما أربك الجيش الإسلامي، وحينما انسحب المسلمون إلى الخلف وجدوا أن أحد المسلمين قد قام بقطع الجسر لتشجيعهم على الصمود في المعركة، مما تسبب في الحاق أضرار كبيرة بالجيش الإسلامي في هذه المعركة التي أخذت تعرف بمعركة الجسر، ثم تولى قيادة الجيش بعده القائد المثنى بن حارثة الشيباني (22). الذي انسحب بالجيش الإسلامي إلى ناحية أليس (آلوس الحالية في العراق قرب مدينة حديثة).

أثرت هذه المعركة في معنويات الجند الإسلامي المتواجد في جبهة العراق، وفي المدينة المنورة ظل الخليفة عمر (لايذكر جبهة العراق لمدة تتجاوز العام أو أكثر، لكنه ظل يحث الناس على الجهاد في جبهة العراق، ويرسل من ينتدب منهم فيلحقه بالمثنى بن حارثة الشيباني، وظل الناس يتثاقلون عن جبهة العراق حتى همّ الخليفة عمر (أن يغزو العراق بنفسه، لكن الصحابة (منعوه من مغادرة المدينة خوفاً من استشهاده، وأثر ذلك على المسلمين، ثم جاءه وفد من الأزد فأرسلهم إلى العراق، وجاءه جرير بن عبد الله البجلي في ألف رجل من بجيلة، وشرط على الخليفة أن يكون له ربع السواد فوافق على ذلك (23) وسار إلى العراق بمن معه من بجيلة.

كما إن خطورة الموقف العسكري، وتأزم الوضع على جبهة العراق، لوجود العاصمة الساسانية فيه وقوة الدولة الساسانية وقوة جيشها، جعلت الخليفة عمر (يتجاوز الكثير من الأمور فسمح للمرتدين ممن حسن إسلامهم بالالتحاق بجبهة العراق، وقد حشدت الدولة الساسانية جيشاً كبيراً وعينت عليه القائد مهران وعسكر الطرفين في منطقة البويب (قرب الكوفة فيما بعد)، وكتب القائد مهران إلى المثنى بن حارثة الشيباني : ((أما أن تعبروا إلينا وأما أن نعبر إليكم فقال المثنى: اعبروا، فعبر مهران، فنزل على شاطئ الفرات معهم في الملطاط)) (24)، واجتمع الطرفان في البويب (25)، وجرت معركة عنيفة بين القوات الإسلامية والساسانية، استمات فيها كلا الطرفين، وذلك لأهميتها، وكتب الله (النصر

للمسلمين وقتل قائد الفرس قتله فتىً نصراني من تغلب، وذلك أن المثنى قد استعان بعرب العراق من النصارى وقال لهم : ألستم بعرب ؟ فانضموا إلينا (26). وظل المسلمين يغيرون على السواد فيما بين الفلوجة وعين التمر لمدة 18 شهراً (27).

أدركت كلتا الدولتان أن هذه المعارك الجانبية لم تحسم الأمر، فاستعد الفرس لمعركة مصيرية واستعد المسلمون كذلك، ووصلت إلى مسامع الخليفة كثرة الحشود التي حشدها الفرس لمواجهة المسلمين، فندب الناس للقتال وأمر عليهم الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وأوصاه باستشارة المثنى بن حارثة الشيباني لخبرته في حرب الفرس، أما الفرس فقد عين كسرى يزدجرد لهذه المعركة القائد الشهير رستم، ووقعت المعركة بالقرب من الحيرة على حافة الصحراء على الضفة الغربية لنهر الفرات في موضع يقال له القادسية، بحدود سنة 15أو 16هـ، وبالغ البعض في عدد الجند الفارسي، فأوصلهم بين 40000الى 120000جندي مدججين بأفخر أنواع الاسلحة، بينما قللت المصادر من عدد الجند الإسلامي، فأوصلته بين 10000-6000 جندي، وقد توفي القائد المثنى بن حارثة الشيباني (28). بعد جرح أصابه في أحد المعارك مع الفرس، وجرت مفاوضات بين الطرفين مثل المسلمين فيها ربعي بن عامر الذي جلس مع رستم على فراشه، لكنها لم تؤد إلى نتيجة تذكر، وكانت هذه المعركة من أعنف المعارك إطلاقاً، واستخدمت فيها الفيلة، التي دبر لها المسلمون مكيدة، فكانوا يضعون الشوك في حزمة ويربطونه بذيول الجمال فيحرقونه، فتهرب الجمال صوب معسكر الساسانيين، فتخاف منها الفيلة، وكان ضرر الفيلة على الجيش الساساني أكبر من فائدتها، واستمرت أربعة أيام تواصل القتال في بعض أيامها ليلاً ونهاراً، مما يدل على تصميم الجانبين الساساني والإسلامي على تحقيق النصر، وأخيراً كتب الله النصر للمسلمين وقتل رستم، فارتعب ملك الفرس، وخاصة بعد أن علم أن الجيش الإسلامي على أبواب المدائن التي استسلمت بعد حصار قصير ومعارك عنيفة، وفرّ منها كسرى إلى مدينة حلوان، واستمر بتجهيز الحملات العسكرية، وكانت معركة جلولاء التي انتصر فيها المسلمون، ثم حشد كسرى كل ما تبقى لديه في معركة فتح الفتوح ((معركة نهاوند)) التي قصمت ظهر الدولة الساسانية. وبهذا قضي على آخر أمل للدولة الساسانية باستعادة ملكها (29) وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان (استكمل فتح كل بلاد ومدن ايران ففتحت همدان والري وسابور وأرجان ودارابجرد وأذربيجان واصبهان واصطخر وجرجان

وخراسان وسجستان وطبرستان، فانهارت الدولة الساسانية، وقتل كسرى على يد طحان نام عنده، فطمع في ملابسه في سنة 31هـ/651م (30).

أسباب سقوط الدولة الساسانية :

في ختام دراستنا هذه عن الدولة الساسانية، لابد لنا من وقفة نقفها ونحن قد أكملنا شوطاً دراسياً في دراسة التاريخ الساساني، وعندما ندرس تاريخ دولة من الدول منذ نشأتها وحتى سقوطها أو زوالها، لابد لنا من تشخيص بعض الأسباب التي أدت إلى سقوطها، لكي نأخذ منها الدروس والعبر لنستفيد منها في حياتنا الحاضرة، ومن بين الأسباب التي وجدناها مؤثرة نذكر :

1- ظهور الدين الإسلامي الحنيف، الذي شكل قوة حضارية، أعطت للعرب دفعاً مادياً وروحياً في مواجهة الدولة الساسانية.

2- تولى رئاسة الدولة الساسانية ملوك ضعاف، صغار السن، النساء، ممن لم تكن لديهم خبرة بالأمور السياسية.

3- كثرة أعداد الملوك الساسانيين الذين حكموا الدولة في أواخر عهدها، فبالكاد كان البعض يعرف أسماءهم.

4- فرض الضرائب الباهضة على الناس في عموم الدولة الساسانية، مما أثقل كواهلهم، وبالتالي أدى إلى ضعف الحالة الاقتصادية، وإلى تذمر الناس من الملوك والحكام الساسانيين.

5- الظلم الذي لحق الشعوب المغلوبة، من قبل الحكام الساسانيين، ويشهد على ذلك كثرة الأموال التي كانت تكتنزها الدولة الساسانية، بدليل وجود المباني والقصور الفخمة، في حين كان أغلبية الناس من الفقراء، كانوا لايجدون ما يسدون به رمقهم.

6- كثرة الحروب التي أنهكت الدولة الساسانية، فأصاب الجيش الساساني الملل والتعب، وزجته الدولة الساسانية في حروب خاسرة، لا داعي لها.

7- تعدد الديانات واختلافها، فوجود المزدية والزرادشتية والمانوية والمزدكية والديصانية والمرقونية والنصرانية، كل هذه الديانات فرقت الناس، وجعل بعضهم يحقد على بعض.

8- قلة خبرة الملك الساساني، كسرى يزدجرد، فكان الأجدر به عندما رأى الهزائم المتكررة لجيشه، أن يجلس إلى طاولة المفاوضات ويحافظ على ملكه بأي طريقة من الطرق التي عرضها عليه المسلمون، لكنه كان عنيداً مستبداً برأيه حتى أورده المهالك.

9- ارتفاع الروح المعنوية للجند الإسلامي الذين جاؤا لتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، في حين أن الجند الساساني كانت معنوياتهم منهارة، ولا هدف لديهم ليقاتلوا من أجله.

10- استخدام الجيش الساساني للفيلة، التي أصبحت وبالاً عليه بدلاً من ان تسخر لخدمة الجيش الساساني، فهربت الفيلة خوفاً من الإبل، وأخذت تدوس الجند الساساني وتربك القادة الساسانيين.

11- ربط الجند الساساني بالسلاسل، فبدلاً من أن يعطى الجندي حرية الحركة والمناورة، أصبح مقيداً مع الآخرين، وشكلت السلاسل قيداً ثقيلاً على الجند الساساني.

12- الخفة وسرعة الحركة التي تمتع بها الجيش الإسلامي (الكر والفر والمناورة والإلتفاف) وخفة الاسلحة والتجهيزات (الخيول، السيوف، الدروع) مقارنة مع الجيش الساساني المدجج بالأسلحة والتجهيزات والدروع للخيل وللمقاتلين، مما أثقل حركتهم في جميع المواقف مقارنة مع الجيش الإسلامي.

الهوامش

(1) الطبري: تاريخ 2/654-655.

(2)الطبري: تاريخ 2/656.

(3)محمود عبد الله إبراهيم العبيدي: بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي، بغداد دار الحرية للطباعة والنشر 1984م، ص 166-170؛ أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، بيروت 1977م ص 205؛ الملاح: الوسيط ص 353.

(4)البلاذري: فتوح ص242؛ الملاح: الوسيط ص 353.

(5)البلاذري: فتوح ص 242؛ الملاح: الوشيط ص 353.

(6)البلاذري: فتوح ص 242؛ الملاح: الوسيط ص 353.

(7)الملاح: الوسيط ص 353.

(8)الطبري: تاريخ 3/343،347؛ الملاح: الوسيط ص 354.

(9)الطبري: تاريخ 3/343؛ الملاح: الوسيط ص354.

(10)الطبري: تاريخ 3/347-348؛ الملاح: الوسيط ص 354.

(11)الطبري: تاريخ 3/348؛ الملاح: الوسيط ص354.

(12)الطبري ر: تاريخ 3/348؛ الملاح: الوسيط ص 355.

(13)الطبري: تاريخ 3/349-350؛ الملاح: الوسيط ص 355.

(14)الطبري: تاريخ 3/350-360؛ الملاح: الوسيط ص 355.

(15)الطبري: تاريخ 3/359-362؛ الملاح: الوسيط ص 355.

(16)الطبري: تاريخ 3/393؛الملاح: الوسيط ص 356.

(17)الطبري: تاريخ 3/444؛ الملاح: الوسيط ص 362-363.

(18)الطبري ك تاريخ 3/445؛ الملاح: الوسيط ص 363.

(19)الطبري: تاريخ 3/445.

(20)الطبري ر: تاريخ 3/445؛ البلاذري: فتوح ص 251؛ الملاح: الوسيط ص 363.

(21)الطبري: تاريخ 3/446-454؛ الملاح: الوسيط ص 363.

(22)البلاذري: فتوح ص 252-254؛ الطبري: تاريخ 3/454-455؛ الملاح: الوسيط ص 364.

(23)البلاذري: فتوح ص 253؛ الملاح: الوسيط ص 364.

(24)الطبري: تاريخ 3/491-463؛الملاح: الوسيط ص 365.

(25)الطبري: تاريخ 3/463.

(26)الطبري: تاريخ 3/364-367؛ الملاح: الوسيط ص 365.

(27)البلاذري: فتوح ص 255؛ الملاح: الوسيط ص 365.

(28)خليفة بن خياط: تاريخ خليفة 1/101؛ البلاذري: فتوح ص 256؛ الطبري: تاريخ 3/483-490؛ الملاح: الوسيط ص 366-367. ؛عبد الرزاق علي الانباري: تاريخ الدولة العربية، بغداد 1985م ص87.

(29)خليفة: تاريخ خليفة 1/107؛ البلاذري: فتوح ص 258-260، 263، 264؛ الطبري: تاريخ 3/ 529-570. ؛ طه حسين: الشيخان، دار المعارف القاهرة، 1969م ص156-157؛عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1967م 1/202-206؛ الملاح: الوسيط ص 366-367.

(30)البلاذري: فتوح ص 200-207، 311، 318، 323، 370، 385؛ ابن خياط: تاريخ 1/131-144؛ الطبري: تاريخ 4/246 وما بعدها ؛ الملاح: الوسيط ص 405-406.

الملاحق

ملحق رقم (1)

جدول تعاصري بأسماء الملوك السلوقيين الذين حكموا بلاد فارس وما يقابلهم من الملوك الفرثيين إلى عهد الملك مهرداد الثاني (88- 124ق.م) . أخذت هذه الملاحق من رسالة السيدة الموسوي ، لدقتها

الملوك السوقيين	الملوك الفرثيين
سلوقس الأول (280 - 323ق.م)	
انطيوخوس الأول (261- 280م)	
انطيوخوس الثاني (246-261ق.م)	
سلوقس الثاني (226– 246م)	طتيرداد الأول (214-247ق.م)
سلوقس الثالث (223- 226ق.م)	اردوان الأول (196- 214ق.م)
انطيوخوس الثالث (187 -223ق.م)	اردوان الأول (196- 214ق.م)+
سلوقس الرابع (175-187ق.م)	فريابت بن اردوان (181-196ق.م)
	فرهاد الأول (174- 181ق.م)
انطيوخوس الرابع (164- 175ق.م)	
انطيوخوس الخامس (162 - 164ق.م	
ديمتريوس الأول (150- 162ق.م)	
اسكندر الأول (146- 150ق.م)	مهرداد الأول (ابن فريابت)
ديمتـريوس الثـاني (ابن ديمتـريوس الأول)	(138- 174ق.م)
(143- 146ق.م)	
تريفون (المغتصب) (137- 143ق.م)	فرهاد الثاني (125- 138ق.م)
اسكندر الثاني (ابن تاجر) (122- 128ق.م)	انطيوخوس السابع (ابن ديمتريوس الأول)
	(128-137ق.م)
	فرهاد الثاني (125 -138ق.م) +

سلوقس الخامس (ابن ديمتريوس الثاني) (125ق.م)	اردوان الثاني (124 - 125ق.م)
انطيوخوس الثامن (ابن ديمتريوس الثاني)(96 - 125ق.م)	مهرداد الثاني (88 - 124ق.م)

المصدر : الجدول من عمل الباحثة وقد اعتمدت في معرفة أسماء الملوك السلوقيين وسنوات حكمهم على المؤرخ (حتي ، تاريخ سوريا ، ص264، 274)أما معرفة أسماء الملوك الفرثيين وسنوات حكمهم فقد اعتمدت على المؤرخ (أبو مغلي ، إيران ، ص 122- 120).

ملحق رقم (2)

جدول تعاصري بأسماء الملوك الفرثيين من عهد الملك الفرثي مهرداد الثاني (124- 88ق.م) إلى نهاية الدولة الفرثية 226م، وما يقابلهم من الاباطرة الرومان .

الملوك الفرثيين	الاباطرة الرومان
مهرداد الثاني (88 -124ق.م)	لوسيو سولا (78 -93ق.م)
سانترويكس أو سندروك (69 - 76ق.م)	لوكولوس (70 - 74ق.م)
فرهاد الثالث (60 - 69ق.م)	
مهرداد الثالث (56 - 60ق.م)	بومبي (55 - 70ق.م)
ارد الاول (37 - 55ق.م)	كراسوس'(53 - 54ق.م) +
	يوليوس قيصر (44 - 49ق.م)
فرهاد الرابع (2 - 37ق. م)	انطونيوس (36 - 40ق.م) +
	اغسطس (27ق.م 14 -م)
فرهاد الخامس (2ق.م 1 -م)	اغسطس (27ق.م 14 -م)
أرد الثاني (1– 6م)	تيبريوس (37 - 14م)
فانون الأول (ابن رهاد الرابع)	
اردوان الثالث	كاليجولا (41-37م) +
فردان	كلوديوس الأول (54-41م)
كودرز	
فانون الثاني	
(51-7م)	
مشاكل داخلية	

بلاش الأول (77-51م)	كلوديوس الأول (54-41م)+
	نيرون (68-54م)
	جالبا (69 - 68م)
	اوثو (69م)
	فيتليوس (69م)
	فسباسيان (79-69م)
من (106- 77م) مدة مضطربة لا يعرف	فسباسيان (79-69م) +
أسماء ملوكها وسنوات حكمهم	تيتوس (81- 79م)
	دومتيان (96 -81م)
	ماركوس نرفا (98 - 96م)
خسرو (129- 106م)	تراجان (117- 98م) +
	هادريان (138- 117م)
بلاش الثاني (لا تعرف مدة حكمه على وجه	انطونيوس بيوس (161 - 138م) +
الدقة	ماركوس اوريليوس انطونينوس (180- 161م)
بلاش الثالث (191- 147م)	كومودوس (193- 180م) +
	سبتيميوس سفيروس (211- 193م)
اردوان الخامس (226 - 208م)	كركلا (+ (217 -211
	ماكرينوس (218- 217م) .

المصدر :

الجدول من عمل الباحثة وقد اعتمدت في معرفة أسماء الملوك الفرثيين وسنوات حكمهم على المؤرخ (ابو مغلي ، إيران ، ص (134-122)، اما معرفة أسماء الاباطرة الرومان وتحديد سنوات حكمهم فقد اعتمدت على المؤرخين (تشارلزورث ، الإمبراطورية الرومانية ، ص 227, Tenen, Junior Histories,p.784)

ملحق رقم (3)

جدول تعاصري بأسماء الملوك الساسانيين وما يقابلهم من الاباطرة البيزنطيين إلى حد عهد الإمبراطور هرقل (641- 610م)

الملوك السلوقيين	الاباطرة البيزنطيين
اردشـــيـــر بن بابك (- 226 241م)	سفيروس الكسندر (235-222م) مكسيمينوس (238 -235م) غورديان الأول (238م) اشـرك مـعـه ابنه (غـورديان الثـاني) في الحكم ولم يستمر حكمهما سوى شهرين كلوديوس بوبينوس + كيليوس بلبينوس امبـراطورين شـريكين بيد الأول السلطة المدنية والثاني العسكرية ولم يحكمان غير مدة قصيرة (238م).
سابور الأول (272 -241م)	غورديان الثالث (244 -238م) فيليب العربي (249 -244م) دسيوس (251-249م) تريبنيانوس جالوس (253-251م) فاليريان (260-253م) جالينوس (268- 260م) اوريليوس كلوديوس (270-268م) اورليان (275-270م)
هرمز الأول (273 -272م)	اورليان (275-270م)
بهرام الأول (276-273م)	اورليان (275-270م) تاسيتوس (276- 275م)
بهرام الثاني (293-276م)	اورليوس بروبوس (282-276م) ماكسيوس اوريليوس كاروس (283-282م)

	نوميريانوس (284 -283م)
	دقلديانوس (305-284م)
نرسي (302-293م)	دقلديانوس (305-284م)
	مكسيميان (305 - 286م)
هرمز الثاني (309 -302م)	اذر نرسي (309م)
	دقلديانوس (305-284م)
	مكسيميان (305 - 286م)
	كالريوس (311 - 305م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)
	قسطنطينوس(306 - 305م) (امبراطوراً على القسم الغربي)
	ماكسيمين دايا (312- 305م) (قيصراً للشرق)
	سفيروس (306 -305م) (قيصراً للغرب)
	قسطنطين الأول (337- 306م) (امبراطوراً على القسم الغربي)
سابور الثاني (379- 310م)	ليكينيوس (324 - 306م) (قيصراً للغرب)
	من سنة (324 -312م) أصبح كل من
	ليكينيوس () (324- 312امبراطوراً على القسم الشرقي)
	قسطنطين الأول (337- 306م) (امبراطوراً على القسم الغربي)
	من سنة (337 -324م) أصبح قسطنطين الإمبراطور الاوحد
	قسطنطين الثاني (340-337م)
	قسطانز (350 - 337م)
	قسطنطيوس (361-337م)
	جوليان (363 -361م)
	جوفيان (364 -363م)
	فالنتيان الأول (375 -364م) (امبراطوراً على القسم الغربي)
	فالنز (378 -364م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)

اردشير الثاني (383-379م)	جراتيان بن فالنتنيان (383- 375م) (امبراطوراً على القسم الغربي) ثيودوسيوس الأول (395 - 379م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)
سابور الثالث (388 -383م)	فالنتيان الثاني (392 -383م) (امبراطوراً على القسم الغربي) ثيودوسيوس الأول (395 - 379م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)
بهرام الرابع (399 - 388م)	فالنتيان الثاني (392 -383م) (امبراطوراً على القسم الغربي) ثيودوسيوس الأول (395 - 379م) (امبراطوراً على القسم الشرقي) ومنذ سنة 392م أصبح ثيودوسيوس الأول الامبراطور الأوحد
يزدجرد الأول (420- 399م)	هونوريوس (422-395م) (امبراطوراً على القسم الغربي) اركاديوس (408 -395م) (امبراطوراً على القسم الشرقي) ثيودوسيوس الثاني (450 - 408م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)
بهرام الخامس (438-420م)	هونوريوس (422-395م) (امبراطوراً على القسم الغربي) فالنتيان الثالث (455-425م) (امبراطوراً على القسم الغربي) ثيودوسيوس الثاني (450 - 408م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)
يزدجرد الثاني (457 -438م)	فالنتيان الثالث (455-425م) (امبراطوراً على القسم الغربي) بترونيوس مكسيموس (455م) (امبراطوراً على القسم الغربي) افيتوس (456 -455م) (امبراطوراً على القسم الغربي) ثيودوسيوس الثاني (450 - 408م) (امبراطوراً على القسم الشرقي) مرقيانوس (457 - 450م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)
هرمز الثالث (459- 457م)	ماجوريان (461 -457م) (امبراطوراً على القسم الغربي) ليو الأول (474 -457م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)

فيروز (484- 459م)	ماجوريان (461 -457م)
	ليبيوس سيفيروس (465 -461م)
	انتميوس (472- 467م)
	اولبريوس (472م)
	جليسريوس (474- 473م)
	يوليوس نيبوس (475 -474م)
	روميلوس اوغسطولوس (476 -475م) (نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب)
	ليو الأول (474 -457م) (امبراطوراً على القسم الشرقي)
	ليو الثاني (474م)
	زينو (491- 474م)
بلاش (488- 484م)	زينو (491- 474م)
قباذ الأول (496- 488 المرة الأولى	زينو (491- 474م) + انستاسيوس الأول (518 -491م)
جاماسب (498-496 او 499م)	انستاسيوس الأول (518 -491م)
قباذ الأول (498 او - 499 531م) المرة الثانية	انستاسيوس الأول (518 -491م)
	جستين الأول (527- 518م)
	جستنيان الأول (565 - 527م)
كسرى انوشروان (-531 579م)	جستنيان الأول (565 - 527م)
	جستين الثاني (578- 565م)
هرمزد الرابع (590-579م)	تيباريوس الثاني (582 -578م)
كسرى الثاني ابرويز (638-590م)	موريس (602-582م)
بهرام السادس 590-591م	فوكاس (610- 602م)
بسطام 595-591م	هرقل (641- 610م)

قباذ الثاني (628- 627م)،	هرقل (641- 610م)
أردشير الثالث 630-618م	قسطنطين الثالث 642-641م
بوران 631-629م	قسطانز الثاني 668-642م
هرمز الخامس 632-631م	
كسرى الثالث 633-632م	
يزدجرد الثالث 651-633م	

المصدر :

الجدول من عمل الباحثة وقد اعتمدت في معرفة أسماء الملوك الساسانيين وسنوات حكمهم على المؤرخ (نولدكه ، تاريخ إرانيان ، ص (517، اما معرفة أسماء الاباطرة البيزنطيين وتحديد سنوات حكمهم فقد اعتمدت على المؤرخين ,Tenen) Junior Histories,p. 784؛ جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ، ص 671- 667؛ رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص 370- 369.

ملحق رقم (4)

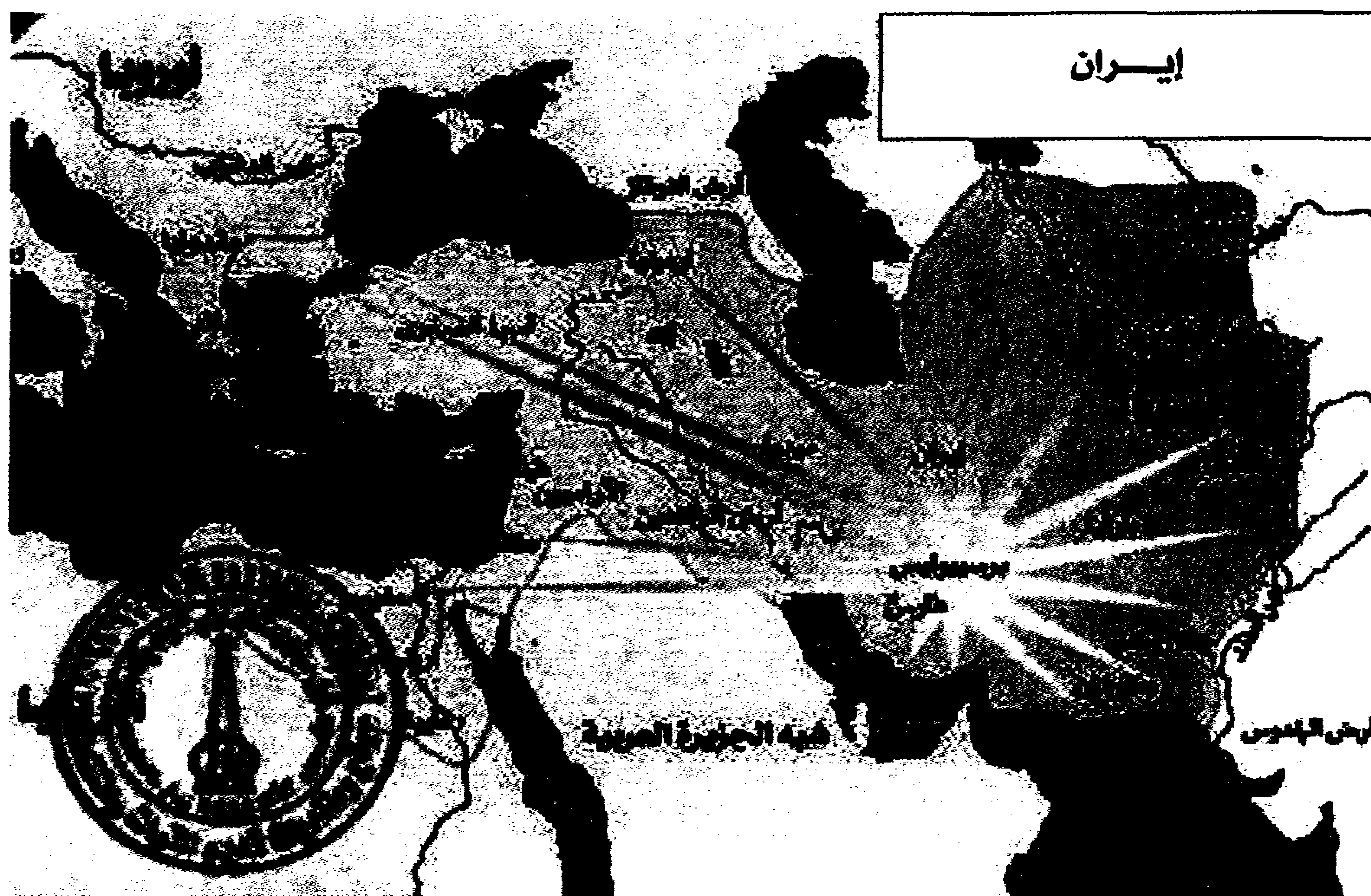
التسمية الرومانية للمدن الواردة في الاطروحة وما يقابلها من التسمية العربية

الاسم الروماني	الاسم العربي
سوسيانا	سوسة أو شوش
كيليكيا	قيليقية او ارمينيا الصغرى
اربلا	اربيل
برسيبوليس	اصطخر
انتيوخيا	انطاكيا
بارثوا	خراسان
هيركانيا	جرجان
زدراكارتا	استر آباد
هيكاتومبيلوس	قومس
ميديا	ماذي او ماد
رافيا	رفح
طيسفون	المدائن
اكبتانا	همدان
ادسا	الرها
ايميسا	حمص
خالكيس	قنسرين
سكستان او سيستان	سجستان
حدياب	إقليم الزابين ،عاصمته(اربيل)
سنكارا	سنجار
كرها	حران
نيسيبيس	نصيبين
اتروباتين	اذربيجان

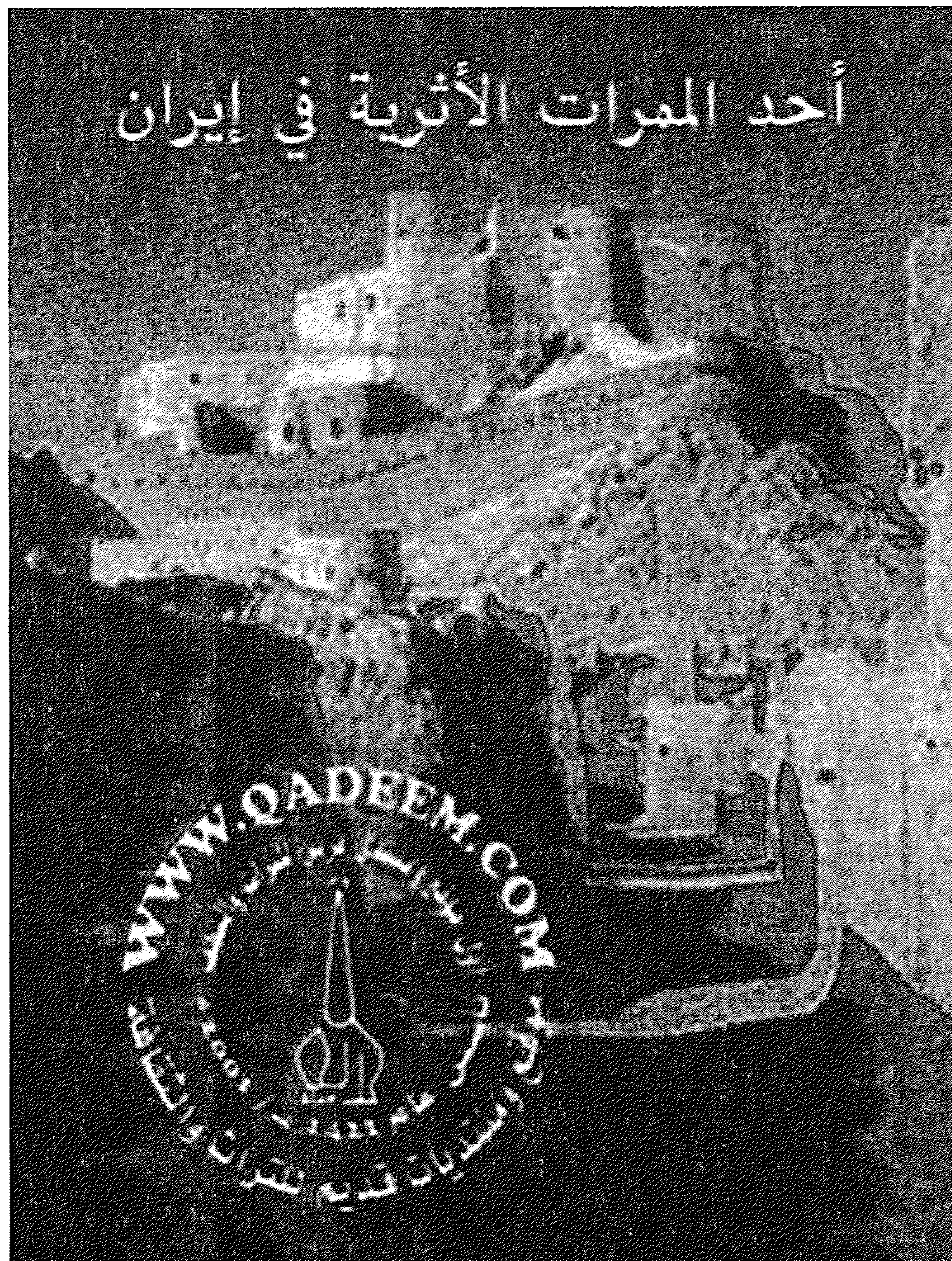
طرسوس	طرسوس
خوزستان	الاحواز
بيزانتيوم	بيزنطة او القسطنطينية
ارزون	ارزنكر
ايبريا	جستان
اميدا	امد
قرقيسيوم	قرقيسيا
دورا او دورا يوروبوس	الصالحية
حصن اناثا	مدينة عانة
حصن ثلوثا	جزيرة تلبس الواقعة على بعد 14كم حنوب شرق مدينة عانة
حصن اخياكالا	مدينة حديثة
باراكسملخا	خرائب العويرا الواقعة على بعد 10كم من مدينة هيت
دياكيرا	هيت
ماسيبراكتا	ام الروس الواقعة على بعد 12كم شمال شرق المشهد الذي بني إكراماً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في قرية صندودة الواقعة فوق مدينة لانبار
بيريسابوراس او فيروزسابور	الانبار
هوكمبرا	بعقوبة
مرنكس	يرجح أن تكون قرية مارا او ماراح الواقعة على المشارف الغربية من جبال حمرين .
سوميرا	سامراء
مرتيروبوليس	ميافارقين
ثيودوسيوبوليس	ارضروم
كالينيكوس	الرقة
ابامية	افامية
كولخيس	لازيكا

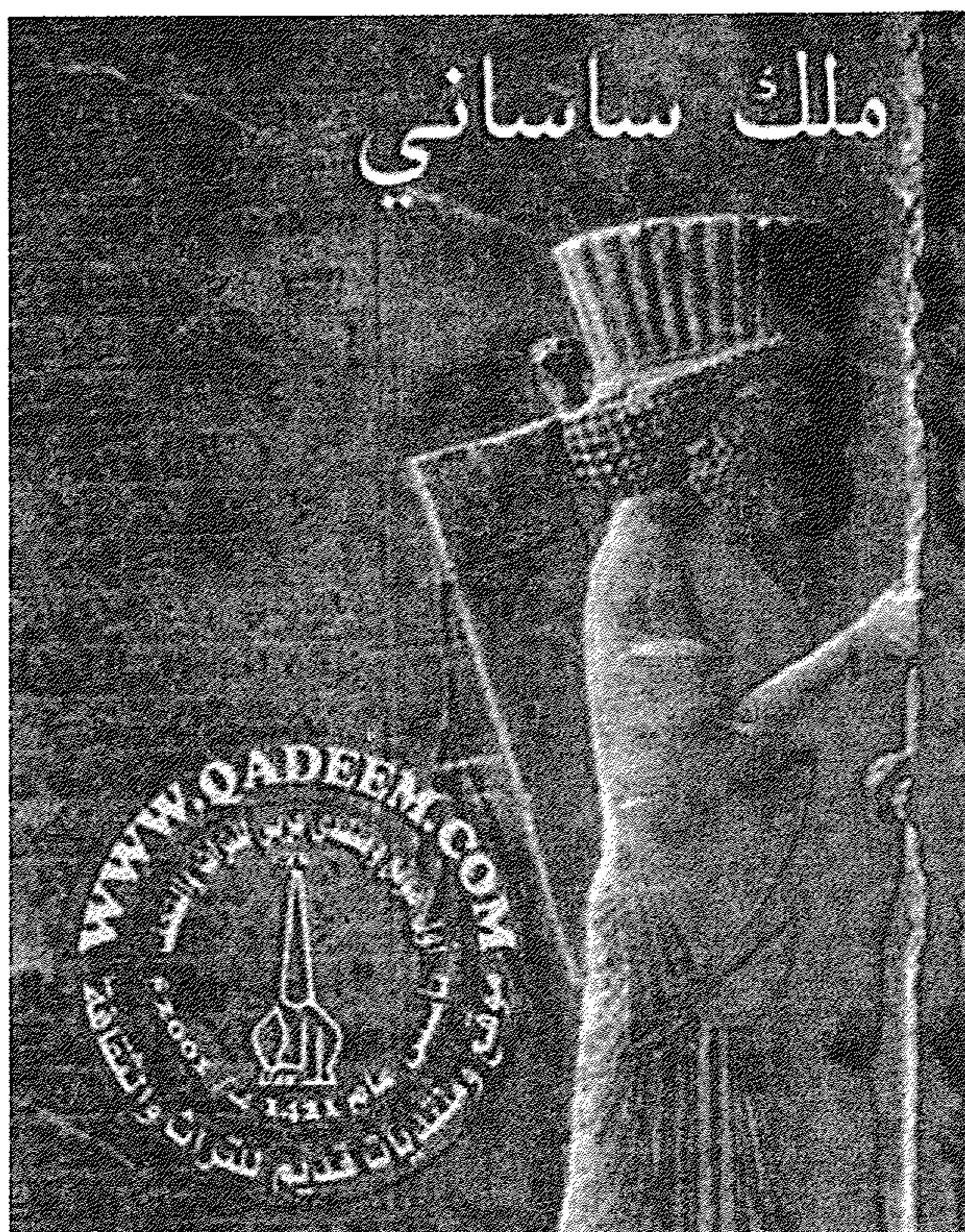
كوماجينه	سُمَيسَاط
برباليسوس	بالس
بيبلس	جبّيل
هيرابوليس	منبج
سرجيوبوليس	الرصافة
بيرويا	حلب
دافن	دفنة
سبسطية	سيواس
مليتين	ملطية
هركلية	هرقلة

خارطة الدولة الساسانية




مساكن منحوتة في جبال إيران
WWW.QADEEM.COM
موقع قديم للتراث والثقافة
1421


أحد الممرات الأثرية في إيران
WWW.QADEEM.COM
موقع قديم للتراث والثقافة
1421



عملة ساسانية
استخدمت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين
الحاكم /شابور الثاني

الوجه	الظهر

عملة ساسانية
استخدمت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين
الحاكم / شابور الثالث

الوجه	الظهر

عملة ساسانية
استخدمت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين
الحاكم /خسرو الثاني

الوجه	الظهر

درهم عربي ساساني
ضرب مدينة ارد شير خره
سنة 18هـ

الظهر	الوجه

درهم عربي ساساني
ضرب مدينة سجستان
سنة 20هـ

الظهر	الوجه


درهم عربي ساساني
ضرب مدينة البصرة
سنة 56هـ
الوجه
الظهر


درهم عربي ساساني
ضرب مدينة بيشا بور
سنة 68هـ
الوجه
الظهر

المصادر والمراجع

المصادروالمراجع

المصادر الأولية :

1- الأبشيهي: (ت850هـ/1446م)

أبو الفتح محمد بن أحمد: المستطرف من كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت 1986م.

2- ابن الأثير: (ت630هـ/1232م)

عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني: الكامل في التاريخ،

دار صادر دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1975م.: اللباب في تهذيب الأنساب، أعادت مطبعة المثنى طبعه بالأوفست، بغداد.

3- الإصطخري: (ت314هـ/927م)

أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي :مسالك الممالك، تحقيق دي خويه، بريل، لايدن ،1937م

4- الأصفهاني: (ت360هـ/970م)

حمزة بن الحسن : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، دارمكتبة الحياة، بيروت، 1961م.

5- الأصفهاني: (ت356هـ/967م)

أبو الفرج علي بن الحسن بن محمد القرشي: الأغاني تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت.

6- الأصمعي: (ت216هـ/831م)

نهاية الادب في أخبار الفرس والعرب /مخطوط، نقلاً عن د. مهدية الموسوي.

7- ابن البطريق: (ت 340هـ/951م)

سعيد أفتيشيوس: كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ،1950م.

8- البكري: (ت487هـ/1094م)

عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، 1954م.

9- البلاذري: (ت 279هـ/ 892م)

فتوح البلدان ،نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة ،1956م..

10- البيروني: (ت440هـ/1048م)

أبو الريحان محمد بن أحمد: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ليبزك ، 1923م.

11- الثعالبي: (ت 429هـ/1037م)

حسين بن محمد الميرغني: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ترجمة هـ. زوتنبرغ، المطبعة الوطنية، باريس، 1950م. وطبعة مكتبة الأسدي، طهران 1963م.

12- الجاحظ: (ت255هـ/869م)

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب: التاج في أخلاق الملوك، المطبعة التجارية، القاهرة 1941م.

13- الجهشياري: (ت331هـ/943م)

أبو عبد الله محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، و، إبراهيم الأبياري، و، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط/1،القاهرة، 1357هـ/1938م.

14- ابن حبيب: (ت 245هـ/859م)

أبو جعفر محمد البغدادي: المحبر، تصحيح ايلزة ليختن شتيتر، حيدر آباد الدكن 1942م.

15- ابن حزم: (ت 456هـ/1063م)

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم : جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/3، 2003م.

16- ابن حوقل: (ت367هـ/977م)

أبو القاسم النصيبي : صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن 1938م. دار مكتبة الحياة، بيروت 1970م.

17- ابن خرداذبة: (ت 300هـ/912م)

أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، تقديم محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

18- ابن خلدون: (ت808هـ/1405م)

عبد الرحمن بن محمد :تاريخ ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر، بيروت 1971م.

19- الخوارزمي: (ت387هـ/977م)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف: مفاتيح العلوم مطبعة الشرق، القاهرة، 1342هـ.

20- بن خياط: (ت240هـ/854م)

خليفة بن خياط العصفري: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، 1967م.

21- ابن دريد: (ت321هـ/933م)

أبو بكر محمد بن الحسن: الاشتقاق، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

22- الدينوري: (ت 282هـ/895م)

أبو حنيفة أحمد بن داؤد: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبعة عبد الحميد أحمد، القاهرة، 1960م.

23- ابن عبد ربه: (ت 328هـ/939م)

أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرون، القاهرة.

24- الشهرستاني: (ت 579هـ1183م)

أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، ليبزك ،1923م.

25- الطبري: (ت310هـ/922م)

محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دارالمعارف القاهرة، ط/1،1381هـ/1961م.وطبعة دي خوية، مطبعة بريل ،ليدن ،1964م.

26- الطوسي: (ت485هـ/1092م)

أبو الحسن علي بن الحسين نظام الملك: سياسة نامة، ترجمة يوسف حسين بكار، دار القدس، بيروت.وطبعة طهران 1334هـ.

27- ابن العبري: (ت596هـ/1126م)

غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ،1958م.

28- ابن عبد الحق: (ت739هـ/1338م)

صفي الدين عبد المؤمن : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

29- العبادي: (ت587م)

عدي بن زيد بن أيوب: الديوان، تحقيق وجمع وتعليق محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية للطباعة والنشر، بغداد، 1965م.

30- ابن عبد البر: (ت)

أبو عمر يوسف بن عبد الله: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي البجاوي، بيروت، 1412هـ.

31- أبو الفدا: (ت732هـ/1331م)

عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر : تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس ،1840م.

32- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة 1964م.

33- الفردوسي: (ت411هـ/1020م)

أبو القاسم محمد : الشاهنامة، ترجمة أبو الفتح علي البنداري، تصحيح وتعليق عبد الوهاب عزام، طهران، 1970م.

34- ابن الفقيه: (ت 365هـ/975م)

أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني: مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

35- ابن قتيبة: (ت 276هـ/889م)

أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري: عيون الأخبار،

36- ابن قيس: (ت)

ميمون: ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمد حسين ، القاهرة، 1950م.

37- ابن ماكولا: (ت 475هـ/1082م)

علي هبة الله بن جعفر: كتاب تهذيب مستمر الأوهام، بيروت ،1410م.

38- مار ميخائيل السرياني: (ت520هـ/1126م)

تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمه عن السريانية مار غريغور، لويس صليبا شمعون، دار ماردين للطباعة ،1966م.

39- المسعودي: (ت346هـ/956م)

أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: التنبيه والأشراف، تحقيق عبدالله إسماعيل الصاوي، القاهرة ،1938م.وطبعة دار الاندلس بيروت 1965م.

40- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد /ج/ 2مطبعة السعادة القاهرة، 1964م ،ج/ 1تحقيق قاسم الرفاعي، دار القلم بيروت ،1989م.

41- ابن مسكويه: (ت421هـ/1030م)

أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، دار الكتب العلمية، بيروت ،2003م.

42- المقدسي: (ت 355هـ/966م)

مطهر بن طاهر: البدء والتاريخ ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

43- المقدسي: (ت 375هـ/985م)

أبو عبد الله بن أحمد البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي خويه، مطبعة بريل ، ليدن 1906م، وطبعة مكتبة مدبولي القاهرة 1991م.

44- المهلبي: (ت 380هـ/990م)

الحسن بن أحمد: المسالك والممالك (الكتاب العزيزي) جمع وتحقيق تيسير خلف، دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2006م.

45- ابن النديم: (ت 235هـ/849م)

أبو الفرج محمد بن اسحاق، لايبزك 1871م.

46- ياقوت: (ت626هـ/1228م)

أبو عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموي : معجم البلدان

47- اليعقوبي: (ت284هـ/897م)

تاريخ اليعقوبي، نشر دي خويه، مطبعة بريل، لايدن 1891م، وطبعة الكتبة الحيدرية في النجف الأشرف. وطبعة دار الاعتصام ،تحقيق خليل منصور، بيروت 1425هـ.

المراجع العربية والمعربة :

1- الأحمد، سامي سعيد: تاريخ الرومان، مطبعة التعليم العالي، بغداد.

الأحمد، سامي سعيد و رضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم (ايران والأناضول) مطابع التعليم العالي، بغداد.

أحمد، عبد اللطيف: مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء أوراق البردية ، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965م.ظل

الأعظمي، علي ظريف: تاريخ الدول اليونانية والفارسية في العراق، تقديم عزت رفعت، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

أبونا، الأب ألبير: تاريخ الكنيسة الشرقية من انتشار المسيحية حتى مجيء الاسلام، المطبعة العصرية، الموصل ،1973م.

أدي شير: تاريخ كلدو وآشور، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1912م.

أغناطيوس، أفرام الأول: كتاب الشهداء الحميريين، مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد 23،ج/1،مطبعة الترقي، دمشق،1948م.

الآلوسي، سالم : اكتشاف مهم في تلول العبرة الصغيرة، مجلة سومر، بغداد 1954م.

أميل، بول: تاريخ أرمينيا، ترجمة شكري علاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

أمين، أحمد: فجر الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة .1955

أولندر، جونار: ملوك بني كندة من بني آكل المرار، ترجمة وتحقيق عبد الجبار المطلبي، دار الحرية للطباعة، بغداد 1973م.

الانباري ،عبد الرزاق علي: تاريخ الدولة العربية، بغداد ،1985م.

أوليري، دي لاسي: جزيرة العرب قبل البعثة، ترجمة وتعليق موسى على الغول ،عمان ،1960م.

اوليري، دي لاسي: علوم اليونان وسبل نقلها الى العرب، ترجمة وهيب كامل، مراجعة زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1962م.

اومان ،الامبراطورية البيزنطية، ترجمة طه بدر، مطبعة الفكر العربي، القاهرة، 1953م.

ايلييف،ج،هـ :فارس والعالم القديم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة ،1959م.

باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 1986م.

باقر ،طه و فؤاد سفر: المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، سلسلة الثقافة الشعبية، وزارة الاعلام ،بغداد 1962م سلسلة عدد 45.

باقر، طه و فوزي رشيد: و رضا جواد الهاشمي :تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد ،1979م.

بيغوليفسكيا، نينا فكتورفنا: العرب على حدود بيزنطة من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، 1985م.

بينز، نورمان : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

بتلر ،الفرد ج :فتح العرب مصر ،ترجمة محمد فريد مكتبة مدبولي، القاهرة، 1966م.

تشارلزوورث نم.ب:الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبدة جرجيس، مراجعة محمد صقر خفاجة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1961م.

توفيق ،عمر كمال: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعارف، القاهرة ،1967م.

التونجي، محمد: المعجم الذهبي، دار العلم للملايين، بيروت ط/2، 1980م.

جواد، ميثم عبد الكاظم: العلاقة الفرثية الرومانية 247ق.م-226م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة بغداد، 2007م.

جيبون، ادوارد: إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو درة، مراجعة أحمد نجيب هاشم، مطبعة الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1969م.

تنسر: ترجمة يحى الخشاب، القاهرة 1956م.

حافظ، فؤاد حسين حافظ : تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى اليوم، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 1986م.

حساني، خالد حمو: المقاومة العربية للنفوذ الساساني (الحيرة من 226- نهاية موقعة ذي قار) رسالة ماجستير، كلية التربية /جامعة تكريت 2003م.

حتي، فيليب وآخرون: تاريخ العرب المطول، ، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1965م

حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد المنعم رائق، مراجعة جبرائيل جبور، بيروت دار الثقافة ،1950م.

الحديثي، قحطان عبد الستار، و صلاح عبد الهادي الحيدري : دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، مطبعة جامعة البصرة، البصرة، 1986م.

حسين، طه: الشيخان، دار المعارف القاهرة، 1969م.

حلمي، أحمد كمال الدين: 300عام من عمر ايران ،ط/1، الكويت 1979م/1399هـ.

الحمد، جواد مطر: الأحوا الإجتماعية والإقتصادية في اليمن القديم خلال الالف الأول قبل الميلاد حتى عشية الغزو الحبشي 252م، دار الثقافةالعربية، الشارقة،2002م.

حمدان، عبد المجيد الحاج: الإمبراطور الروماني فيليب العربي، مجلة دراسات تاريخية، العدد 85-86، دمشق ،2004م.

حوراني ، جورج فضلوا حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهنديفي العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة وتعليق السيد يعقوب بكر، مراجعة يحى الخشاب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

خطاب، محمود شيت: قادة فتح فارس، بيروت، 1965م.

خوري، أحمد جلال وإبراهيم التدمري: سلطنة هرمز العربية، رأس الخيمة ،1999م.

الداقوقي، حسين علي الداقوقي: الممالك والشعوب في بلاد ما وراء النهر من الفتح الإسلامي، محاضرة ألقاها على طلبة كلية التربية ابن رشد 2000- 2001م.

دياكوف ،ف، و، س كوفاليف: الحضارات القديمة، ترجمة نسيم اليازجي، دار علاء الدين، دمشق، 2000.

ديسو، رينيه: العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الدار القومية للطباعة والنشر.

رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، بيروت، 1955م.

رنسيمان، ستيفن: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961م.

روتشتاين، غوستاف: تاريخ السلالة اللخمية، ترجمة منذر البكر، مجلة كلية الآداب جامعة البصرة ،1984م.

زكي، محمد أمين و محمد علي عوني: تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، مطبعة صلاح الدين، بغداد ،1961م.

زيدان، جورجي: تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الجيل، بيروت ،1972م.

زوير، علي فرحان: الهياطلة تاريخهم ودورهم في المشرق خلال العصر الأموي رسالة دكتوراه ، جامعة بغداد كلية التربية ابن رشد 2005م ،المكتبة الرقمية /جامعة الموصل.

ستارجيان ،ل،ل : تاريخ الأمة الأرمنية، مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل، 1951م.

سفر،فؤاد و محمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس، مؤسسة رمزي للطباعة، بغداد ،1974م.

سلطان، طارق فتحي و فواز حميد حمو النيش: الجسر العباسي في مدينة زاخو، دراسة تاريخية جيمورفولوجية، مقبول للنشر في مجلة التربية والعلم، كلية التربية جامعة الموصل.

سلطان، طارق فتحي: الضرائب بين ظلم الفرس وعدالة الاسلام، جريدة الحدباء ،ك/2، 1982م.

سلطان، طارق فتحي: النشاطات الاقتصادية في الدولة الغورية، مجلة أبحاث التربية الاساسية، ت/1،المجلد التاسع العدد الرابع السنة: 2010م.

سلطان، طارق فتحي و فواز حميد حمو النيش: النهر العباسي بين أدنى الزابين ،دراسة تاريخية جيمورفولوجية، مقبول للنشر في مجلة التربية والعلم.

سلطان، طارق فتحي العرب والصين في القرون الوسطى، مطبعة العلا، الموصل ،ط/1، 1426هـ/2005م.

سلطان، طارق فتحي الحركة الفكرية العربية في بخارى في القرنين الثالث والرابع للهجرة، مطبعة الرسول، الموصل 1427هـ/2006م.

سلطان، طارق فتحي: بيكند منفذ بلاد التركستان، مجلة أبحاث التربية الاساسية، ع4، السنة 2006م.

سفر نفؤاد: ثبت بسادة الحضر وملوكها، مجلة سومر ج/1و2، مجلد 28، السنة 1972م، بغداد.

سلامة، أمين: التاريخ الروماني، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة 1959م.

سليمان، عامر و أحمد مالك الفتيان: محاضرات في التاريخ القديم (القسم الأول، موجز تاريخ العراق القديم)، مطبعة جامعة الموصل، الموصل، 1978م.

السيد، أديب: أرمينيا في التاريخ العربي، المطبعة الحديثة، حلب، 1972م.

الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، دار الفكر العربي، القاهرة ،1965م.

شريف، أحمد إبراهيم: الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي، مطبعة شفيق، بغداد.

شير، أدي: تاريخ كلدو وآشور، المطبعة الكاثوليكية، بيروت .1912

ضيف، شوقي: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة ط/1977،8م.

العابد، مفيد رائف: معالم تاريخ الدولة الساسانية (عصر الاكاسرة 226- 651م)، دار الفكر ،دمشق ،1999م.

عاشور ،سعيد عبد الفتاح :اوربا في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ،1983م.

العبادي ،احمد صالح محمد: الاطماع الاجنبية في اليمن قبل الاسلام 24ق.م-628م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية /جامعة بغداد ،2001م.

عبو، عادل نجم، و عبد المنعم رشاد: اليونان والرومان، مطابع التعليم العالي ،جامعة الموصل، الموصل 1993م.

عبيد، اسحاق : الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، تقديم الأب جورج شحاته قنواتي ،دار المعارف، القاهرة ،1971م.

عبيد، طه خضر: تاريخ الدولة البيزنطية 324- 1453م، دار الفكر، عمان ،2010م.

العبيدي، محمود عبد الله إبراهيم: بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 1984م

عثمان، فتحي :الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ،1966م.

العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، 1982م.

العسلي، خالد صالح العسلي: الأعراب في النقوش العربية الجنوبية، مجلة العرب، العدد 5، كانون الثاني 1971م.

العسلي، خالد صالح: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 2002م.

العلي، صالح أحمد: محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ،مطبعة العاني، بغداد ،1960م.

العلان، ارواد :السياسة الساسانية الإيرانية تجاه بيزنطة في القرن السادس الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 2005م).

علي، ابراهيم محمد :المناذرة، دراسة سياسية حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب /جامعة الموصل 1982م.

علي ، إبراهيم محمد: طبيعة العلاقة بين مملكة كندة والدولة الساسانية خلال فترة حكم النعمان بن المنذر 585- 602، مجلة التربية والعلم المجلد 18، العدد 4، 2011م.

علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ،بيروت ،.1969

علي، عبد اللطيف أحمد: مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء أوراق البردي ، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1965م.

علي، عبد اللطيف أحمد :التاريخ الروماني (عصر الثورة) دار النهضة العربية، القاهرة، 1967م.

غربال، محمد شفيق: الموسوعة العربية الميسرة، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1987م.

غنيم، اسمت: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية 324- 1453م، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ،1978م.

غنيمة، يوسف رزق الله :الحيرة المدينة والمملكة العربية، مطبعة دنكور الحديثة، بغداد 1936م.

الفتيان، أحمد مالك: التنقيبات الآثارية في العراق في العهد الفرثي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة بغداد ،1975م.

فرعون، محمود: دور مملكة كندة السياسي في شمال شبه الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، مجلة دراسات تاريخية عدد 55- 56، السنة 17، دمشق، 1996م.

فرح، نعيم: تاريخ بيزنطة منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن للميلاد، دمشق 1978م.

كستر: الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية، ترجمة يحى الجبوري، بغداد ،1976م.س

كستر: الحيرة، ملاحظات في علاقاتها، ترجمة خالد العسلي، مجلة بين النهرين العدد 7، السنة 2 ،1974م.

كرستنسن، أرثر: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحى الخشاب و عبد الوهاب عزام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ،1998م.

الكعبي، نصير عبد الحسن صبار: التاريخ السياسي للدولة الساسانية في المصنفات العربية الإسلامية حتى نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الكوفة ،2002م.

الكلداني، بطرس نصري: ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، مطبعة الآباء الدومنيكان، الموصل ، .1905

كمال، أحمد عادل: الطريق الى المدائن، بيروت، 1977م.

كوبيشانوف، يوري ميخائيلوفتش: الشمال الشرق الإفريقي في العصور الوسيطة المبكرة وعلاقته بالجزيرة العربية من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة الجامعة الاردنية، عمان، 1988م.

لسترانج ، كي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس و كوركيس عواد، مطبعة الحكومة، بغداد ،1954م.

لوكهارت، ل: فارس في نظر الغرب (فصل ضمن كتاب تاريخ فارس) ترجمة السيد يعقوب بكر نقلت النصوص من السيدة مهدية الموسوي.

لويد، ستين : الرافدان (موجز تاريخ العراق منذ أقدم العصور حتى الآن)، ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس، القاهرة ،1948م.

ماجد، عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967م.

محل، سالم أحمد: العلاقات العربية الساسانية خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1982م.

محمد، عبد القادر محمد: إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1982م.

محمد، عبد المنعم رشاد: محاضرات في التاريخ الساساني، مطبعة جامعة الموصل، الموصل، 2002م.

المطيري، عبد الحليم عبد علي: النظم الإدارية للدولة الساسانية في العراق 224- 636م، رسالة دكتوراه /كلية الآداب جامعة بغداد، 2007م.

الملاح، هاشم يحى حسين: الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة جامعة الموصل، الموصل، 1994م.

الملاح، هاشم يحى حسين: الوسيط في السيرة والخلافة الراشدة، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر ،ط/ 2، الموصل، 2006م.

الموسوي، مهدية فيصل صالح شاطي: العلاقات السياسية الساسانية البيزنطية 226- 628م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، ابن رشد 2006م

النفراوي، محمد ثامر: فارس وبيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع الميلادي، دار الجنوب للطباعة والنشر، تونس.

هارديل، ج.م: اوربا في صدر العصور الوسطى، ترجمة حياة ناصر الحجي، الكويت، 1979م.

هويز ، يزف فيز: فارس القديمة، ترجمة محمد جديد، مراجعة زياد منى، شركة قدمس للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ،2009م.

واكيم، سليم: إيران والعرب (العلاقات العربية ـ الإيرانية عبر التاريخ) بيروت، 1967م.

ياسين، نجمان: الحضر مملكة العرب المنتصرين، مجلة آفاق عربية العدد :1- 2، السنة 24، مطابع دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2002م.

يعقوب الثالث، مار أغناطيوس، الشهداء الحميريين العرب في الوثائق السريانية، مجلة البطريركية ،ع31،السنة 4، دمشق ،1965م.

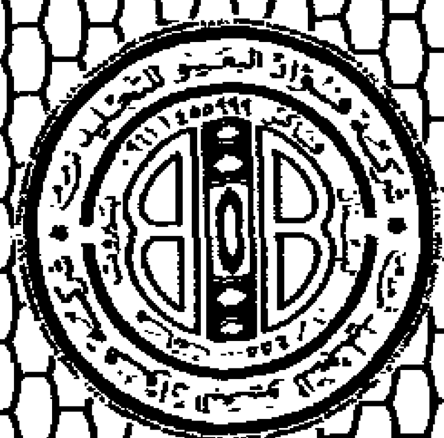
اليوسف، عبد القادر أحمد: الإمبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية، بيروت، 1966م.

مقالات من الشبكة العنكبوتية ، أشير لها في محلها. أخذت في يوم 10/6/2012م الساعة 10 صباحاً.

Bury.j:History of Later Roman Empire,London,1923.

Homo,Leon: Roman Political Instituations From city to State,London1929.

The Sasanian Dirhams,Lovely Osmile.com,Yahoo.com,11/6/2012,H/9A.M.





تاريخ
الدولة الساسانية





ISBN 9789957920142



دار الفكر
ناشرون وموزعون
www.daralfiker.com